وحدة البحث
في علوم الانسان للدراسات
الفلسفية، الاجتماعية والإنسانية

UNITÉ DE RECHERCHE SCIENCES DE
L'HOMME ÉTUDES PHILOSOPHIQUES
SOCIALES ET HUMAINES

39

جامعة وهران 2

# التفاهة والتافهون
## أسئلة وتحديات

إشراف:
أ.د مراد قواسمي  أ.د. عبد القادر بوعرفة



للطباعة والنشر والتوزيع

# التفاهة والتافهون

## أسئلة وتحديات

**كتاب جماعي**


إشراف:

**أ.د مراد قواسمي  أ.د. عبد القادر بوعرفة**



**الطبعة الأولى: 2025**

وحدة: علوم الإنسان للدراسات الفلسفية والاجتماعية والإنسانية.

بالتعاون مشروع البحث التكويني:

من أجل فينومينولوجيا أنثروبولوجية: أبحاث وتأويلات للنصوص الفلسفية و انعكاساتها في الو اقع الإنساني

عنوان البريد الإلكتروني لمدير الوحدة أد. بوعرفة عبد القادر.

bouarfah9@gmail.com

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر عن آراء الوحدة

دار كنوز للنشر والتوزيع

©المكتبة الوطنية الجزائرية 2025.

ردمك: 978 - 9969 - 031 - 05 - 8

حقوق الطبع محفوظة للوحدة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾

**سورة القصص الآية:5.**

## مقدمة السلسة

تَسْعَى الوحدة عَبْرَ التَّكْوِينِ الدِّكْتُورَالِيِّ إِلَى إِصْدارِ «سَلِسَةِ بُحُوثٍ دِكْتُورَالِيَّةٍ» تُعْنَى بِمَا يُنْتِجُهُ طَلَبَةُ الدُّكْتوراهِ. وَيَهْدِفُ إِلَى تَعْزِيزِ القُدْرَةِ عَلَى الكِتابَةِ الأَكاديميَّةِ، والْوُلوجِ إِلَى عالَمِ الكِتابَةِ. إِنَّ إِنْتاجَ نَصٍّ لَيْسَ بِالْسَهْلِ وَلَا بِالْمُمْتَنِعِ، وَلَكِنَّهُ يَسْتَدْعِي القُدْرَةَ عَلَى التَّحْليلِ والنَّقْدِ، وَمَلَكَةِ التَّرْكيبِ والتَّجاوُزِ. فَالنَّصُّ لَيْسَ مِلْكًا لِمُنْتَجِهِ بَلْ مِلْكًا لِقارِئِهِ، لِأَنَّ كُلَّ قِراءَةٍ هِيَ تَأْويلٌ لَهُ بِناءً عَلَى الفَهْمِ وامْتِلاكِ ناصيَةِ المَعْنَى، وَكُلُّ قِراءَةٍ لِلنَّصِّ هِيَ قِراءَةٌ تَسْتَدْعِي اتِّخاذَ مَوْقِفٍ، قَدْ يَتَحَوَّلُ المَوْقِفُ إِلَى إِنْتاجِ نَصٍّ مَوَازِيٍّ لِلنَّصِّ الأَصْليِّ، فَالْفَلْسَفَةُ فِي جَوْهَرِها هِيَ قوَّةُ المُتَفَلْسِفِ عَلَى مُمارَسَةِ النَّقْدِ ضِمْنَ حُدودِ المَعْرِفَةِ وَإِيثِيقَا التَّواصُلِ.

وَنَحْنُ عَبْرَ هَذِهِ السَّلِسَةِ نَهْدُفُ إِلَى مُحاوَلَةِ دَفْعِ طَلَبَةِ الدُّكْتوراهِ إِلَى المُساءَلَةِ والنَّقْدِ، وَإِلَى المُجاوَزَةِ والْإِبْداعِ، بُغْيَةَ خَلْقِ فَضاءٍ لِلْحِوَارِ المعرفي اَلَّذِي يُمْكِنُنَا مِنْ دَفْعِ الكِتابَةِ في حقول العلوم الاجتماعية بِالْجَزَائِرِ إِلَى اَلْتَمَوْضِعِ مَغارِبِيًّا وَعَالَمِيًّا، وَلَا يَتَأَتَّى ذَلِكَ إِلَّا بِدَفْعِ هَذَا الْجِيلِ إِلَى الكِتابَةِ والرَّدِّ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ. إِنَّ الكِتابَةَ لَيْسَ تَرَفًا وَلَا شَرَفًا، بَلْ هِيَ رِسالَةٌ تَنْأَى عَنْ حَمْلِها المَوْجوداتِ، تَفْرِضُ عَلَى الكاتِبِ الِالتِزامَ بِأَخْلاقيّاتِها وَمَبادِئِها، وَأَنْ يَسْلُكَ الكاتِبُ سُلوكَ الإِنْسانِ الحَكيمِ، وَأَنْ يَتَمَسَّكَ بِمَا يَفْرِضُهُ الواجِبُ والْحَقُّ، وَأَوْلَى مَراتِبُ الواجِبِ أَنْ يَكونَ أَمِينًا وَصَادِقًا، وَأَنْ لَا يَنْتَحِلَ أَفْكارَ غَيْرِهِ، وَأَنْ يُنْسَبَ لِنَفْسِهِ مَا كَانَ مِنْ نَفْسِهِ جُهْدًا وَنَظَرًا وَثَانِيهَا أَنْ يَتَدَرَّجَ فِي الكِتابَةِ فَالْوُصولُ إِلَى المُبْتَغَى يَبْدَأُ دَوْمًا بِخُطْوَةٍ.

**أد. عبد القادر بوعرفة**

# حين تصبح التفاهة سؤالا

**أ.د قواسمي مراد**
**باحث بوحدة البحث علوم الإنسان/ ج. وهران2. أستاذ بجامعة مستغانم**

لم يسبق للبشرية أن مرت بمرحلة كالتي تعيشها والتي يسيطر فيها التافهون في مختلف مجالات الحياة والمجتمعات والدول، حيث يلاحظ تصاعد معايير الرداءة والانحطاط واستبعاد أصحاب التحديات الحقيقية للرقي بالحياة في مختلف المستويات، وقتل الإبداع والتخلص من أهل المهام والرسائل النبيلة، فصار العالم مجرّد سوق للبيع والشراء الشّعبَويَّيْن باسم الحرية.

إن ما يحدث في تبجيل التافه هو الانشغال عن الجوهر بالعرض وتسهيلٌ لانتشار أسباب المرض والانفصام بها في عالم الفَرَض وعزلٌ لإعمال العقل في الواقع بتوسيع تأثير السفاهة في المواقع. التافهون لديهم القدرة على المناورة للوصول إلى مناصب مهمة: وهذا من أسباب عزوف العقلاء وذوي القدرات في تسيير دواليب السياسة مثلا، ومن منطلق أن الطبيعة لا تحتمل الفراغ فسيقوم تافه ما بِشَغْرِ أي منصب يتنازل النزهاء عنه.

من هم التافهون؟ أولئك الذين يساهمون في نشر الانحطاط المعياري وتدهور المستويات عبر مختلف مجالاتها وتهميش منظومات القيم وتغييب الأداء الرفيع... هؤلاء هم السائدون بسذاجة تفكيرهم خدمةً لأغراض السّوق الذي لا يعترف بالنوع والكيف. إنهم سِلَعٌ للاستهلاك المؤقت إذ يستحيل أن يشكّلوا رؤوس أموال رمزية وثروات خالدة، يشاركون في القضاء على الحريات الفردية والعقول الحرة، وهذا ما حذّر منه مونتيسكيو بصدد حماية الحرّيات من بلوغ مستوى «الابتذال»، وهم الذين لا يحترمون معايير الذوق والثقافة والفنون، ليتشكّل مع هذه الصيرورة ما يسمى سَوَادُ التفاهَةِ وحكمها médiocratie فتصير معها جملة الممارسات التي هي دون المستوى الجيد في التفكير والممارسة وتحكم الفترة الزمنية والناس فيها، وهو ما يتوافق مع المعنى الاشتقاقي لكلمة médiocrité. إنها سيادة مَن هم دون المستوى المطلوب في كل شيء. ومن هنا تنبثق مهمة الفلسفة في مواجهة هذا الواقع المأزوم، إذ يَسند لها جيل دولوز مهمة المواجهة والمقاومة، بحيث يرى بأن «**غياب الفلسفة يعني وجود الغباء في**

**أعلى مستوياته...إن مهمة الفلسفة هي مقاومة الغباء»**. الفلسفة بما هي نظام من القيم والمواقف، التي تعمل على نشر الذوق والتثقيف وسيادة العقل وجملة القيم التي تؤدي إلى التطعيم ضد كل ما هو منحط، هي بمثابة تسامٍ وترفّعٍ عن حالة التردّي التي صارت منتشرة أيما انتشار. وهنا يبدو جليا «**نظام الفلسفة**» باعتباره منظومة أسس الثقافة السليمة ومنهجية التفكير السديدة التي تواجه «**منظومة التفاهة**» المُودية بكل ثقافة إلى الحضيض.

يتعلّق الأمر، في هذه المنظومة، بتعطيل التفكير النقدي وتثبيط قيم الإبداع والمبادرة الحسنة، والدفع إلى الاندماج في «**القطيع**» المتمثل في سيادة «**نظام التفاهة**». فالسائد روتين يقضي على كل مساهمة ذوقية أو مبادرة عقلية أو مواجهة نقدية، إذ يُغشَّى على أعين الناس بنوع من البهجة الزائفة واللذة المؤقتة بمختلف أنواع المناظير والمشاهد التي تمارس تنويما مغناطيسيا على ملكات الفكر والذكر وتضع قيم الإبداع في علبة سوداء مظلمة في عالم منسي، يكاد يستحيل معها الخروج من العجز الفكري واتخاذ القرار بالتخلص من سلطة «**القصور الذاتي**». إن الخضوع لسلطة السائد يعدم معالم التميز وفي البحث عن التميز يحدث التيه.

هل أصبحت التفاهة معيارا للنجاح الواقعي والبراغماتي؟ ما الذي يجعل السفهاء يقودون المجتمع نحو عالم الظلمات؟ هل صارت التفاهة ضرورية إلى الحد الذي ينعدم معه كل تفكير بالتريّث والعقلنة وكبح الجماح عن إطلاق العنان لفساد الذوق؟ أم أن اللجوء إلى مظاهر التفاهة هو نوع من التعبير عن التحرر والتخلص من قيم بالية ثابتة أكل الدهر عليها وشرب، فيصير التافه موقفا إنسانيا يبتغي تحرر الفرد ويعبّر عنه ليكون نوعا من العقلانية الجديدة، فهل يمكن الحكم على التفاهة وفقا للثنائية الكلاسيكية: خير/شر، صحيح/خاطئ...أم أنها تعبّر عن جوهر هذا الزمان وهذا العصر وينبغي الثناء عليها مثلما يحدث مع «**مديح الكسل**» لبرتراند راسل، أو «**تقريظ الغباء**» لـ ماري بيرن، الذي رغم أنه منبوذ في جوهره إلا أنه ضروري في بعض الأحيان؟ وهل الولوج إلى التافه تعبير عن استراحة للعقل سرعان ما ينبغي الاستفاقة منها أم أنها نوع من خطة «الجهل الجديد» لتعميق مشكلات الثقافة المحلية والعالمية؟

# التفاهة
# المفهوم والتجليات في المجتمعات المعاصرة
# Mediocrity
# Concept and Manifestations in Contemporary Societies

**أد. بوعرفة عبد القادر**
**وحدة البحث علوم الإنسان/جامعة وهران2**

**مقدمة**

شهد العصر الحديث تحولات جذرية غير مسبوقة شملت بنيات الثقافة، وأطر المعرفة، ومنظومات القيم. حيث ساهمت العولمة بشكل رهيب، مدعومة بالتطور التكنولوجي المتسارع، في إعادة تشكيل الوعي الجمعي بصورة عكسية، وتغيير طبيعة العلاقات الاجتماعية، وأنماط التفكير، ومقاييس النجاح، وحتى معايير النجومية.

لم تعد القيم التي حكمت الفضاء الثقافي في مراحل سابقة كالأصالة، والعمق، والجدارة، والإبداع، والمسؤولية الأخلاقية هي المحك والمعيار، بل أُزيحت لصالح قيم جديدة تتسم بالسرعة، والتداول اللحظي، والانتشار الجماهيري، ولو على حساب المعنى أو الجودة. وفي خضم هذا السياق المأزوم، ظهر نمط من التفاعل الجماهيري والثقافي يتسم بالسطحية، والاختزال، والابتذال، حيث أصبح المشهد الإعلامي، مقتصرًا على القدرة على التأقلم مع منطق السوق وما يطلبه التافهون، ومعايير العرض والطلب الرمزي، أهم من أي مضمون معرفي أو رؤية نقدية، أو إبداع إنساني أصيل.

وسط هذه التحولات الكبرى، يبرز مفهوم »**التفاهة**« لا كمصطلح عابر، ولا كحكم أخلاقي، بل كمشهد يومي يكشف نمط سائد من الإنتاج الرمزي، والاجتماعي، يحوي الرداءة ويُقصي النخبوية، ويُعيد تشكيل المجال العام بما يخدم مصالح القوى المسيطرة اقتصاديًا وثقافيًا. وقد بلور الفيلسوف الكندي **آلان دونو** هذا التصور بجرأة في عمله الشهير »نظام التفاهة«، حيث رصد كيف تحوّل العالم إلى فضاء تُدار فيه الشؤون العامة من قِبل شخصيات لا تملك مشروعًا ولا رؤية، ولكنها تُمثل الطمأنينة الرمادية التي لا تُحرّك ساكنًا ولا تُقلق السائد، بمعنى التوجه نحو الإنسان الذي «لا

يزعج أحدًا»، كما يقول دونو، لأنهم ببساطة لا يطرحون أسئلة حقيقية، ولا يُمثّلون خطرًا على بنية النظام القائم. وقدّم تصويرا سوسيولوجيا لما أسماه بـ «ثورة التافهين «، مؤكداً أننا نشهد اليوم تحولاً دراماتيكيًا في موازين القوى، لم يعد فيه العالم يُدار من قبل النخب الفكرية أو السياسية الفاعلة، بل من قبل أناس تافهين ومتوسطي الذكاء. (دونو. آ، 2020، ص 69)

في ظل هذا النظام، لم تعد التفاهة مجرد انحراف في الذوق أو انخفاض في مستوى التلقي، بل تحوّلت إلى **بنية مؤسسية**، وآلية ضبط اجتماعي، وتنويم مجتمعي لكل وعي تحرري، وتحاول أن تُعيد إنتاج ذاتها في مختلف الفضاءات، الإعلامية، التربوية والجامعة، والسياسية، والفنية، والدينية وحتى ما نسميه مقدس بكل أشكاله، ومن الحياة اليومية إلى آليات التنشئة، والتسويق، والاستهلاك. إنها نظام رمزي، ومتكامل، يكرّس الرداءة بكل صورها، ويفرّغ المعنى من أصالته، ويحوّل الإنسان إلى مجرد كائن ذو بعد واحد، يستهلك الصور والرسائل، بدلًا من كونه فاعلًا منتجًا للمعرفة والمعنى. ولعل الكوجيتو الجديد الذي بدأ يغزو الأنا المعاصر: « **أنا تافه إذن أنا موجود**.» هكذا، لم تعد التفاهة مجرد سمة نفسية أو سلوكية، بل أصبحت أداة سيطرة أيديولوجية تُحافظ على استمرارية النظام، وتحافظ على عدم التغيير، وتُفْرغ الفكر من محتواه، وتُحوّل الإنسان إلى كائن مستهلك، لا مُنتجًا للمعنى.

من هنا تنبثق أسئلة مركزية، تدور حول ماهية التفاهة، وكيف تشكّل نظام التفاهة؟ وما أبرز تجلياته؟ وكيف نستطيع التحرر منها؟

قبل الولوج إلى الدراسة يجب أولا تحديد معنى التفاهة، بناءً على شمولية المصطلح، وأيضًا مرونته، وكثرة استعمالاته، مما يجعله مفهومًا مبتذلًا، وقد يؤدي إلى معاني ودلالات لا تخدم البحث العلمي، ولا النقد الاجتماعي، لذلك سنحاول أن نحدد المفهوم عبر ثلاث خطوات أساس، هي على النحو الأتي:

1. **الدلالة اللغوية**: مشتقة من جذر لغوي ت ف ه، والذي يدل في اللغة العربية على ما خُفَّ وصغُرَ شأنه، أي الذي لا يحمل وزنًا ولا أهمية. وجاء في لسان العرب: «تفه، وتافه، ورجل تافه العقل أي قليله، والتافه الحقير اليسير، وقيل الخسيس القليل.» ( ابن منظور، 2003 /2، ص: 229 ).

وفي اللغة الأجنبية يكاد المعنى يكون نفسه، فالتفاهة لها عدة مرادفات باللغة

الإنجليزية مثل: (Banality, Triteness, Commonplace, Mundanity, Mediocrity, Mediocracy, Triviality, and Platitude) بمعنى التفاهة، الابتذال، الرتابة، الرداءة، والبساطة.... وتعني أيضا القليل أو المتوسط. ومنه، فإن التافه هو ما لا قيمة له، أو ما لا يستحق الاهتمام.

2. **الدلالة الاصطلاحية**: حين ننظر إلى التفاهة من وجهة اصطلاحية فإننا نحصل على عدة مفاهيم مترابطة معا بعض البعض، وهي على النحو الآتي:

أ. **التفاهة**: حسب ألان دنو هي نوع من السطحية، والابتذال، والسخافة، ترتكز على أبعاد نفسية وفكرية واجتماعية. عدها ضمن معيار الوسط، أي تُشير إلى الأمر المعتاد، والعام، والرديء، والمستبعد، والمهمل، وهي بذلك تعني عنده نقص الأصالة والكفاءة أو القيمة، تعبر عن المتوسط في الفعل، وعن حكم المتوسطين لا سيما حين تتحول إلى نظام حكم. (دونو. آ، 2020، ص 70)

ب. **التَّافه**: هو المخلوق المنحط، ومتوسط الذكاء، وسيء القدرات، وقليل الموهبة، وضعيف المهارة، وعديم القيمة، الذي تبوأ الصدارة، وخطف الأضواء وأصبح الفاعل النشيطّ في عالم محكوم بنظام التفاهة. (دونو. آ، 2020، ص 74) ،إن التافه حسب ألان دونو ليس هو المندمج في الرتابة، أو السفالة، بل هو المندمج في نظام قائم بذاته، والخادم له، يقول: « إن الشخص التافه ليس تافهًا فحسب؛ بل هو الخادم المثالي لنظام يكافئ الاختفاء والحياد وغياب الرؤية. « (Deneault. A, 2018, p. 41)

ج. **التّفه**: هو تجلى التفاهة كفعل عبر ابتذال الأشخاص التافهين لأنفسهم ولغيرهم عبر نظام قائم بذاته، وعلامة التفه المنظم تكمن في قدرة التافه على التعرف على شخص تافه آخر. (دونو. آ، 2020، ص 70).

ويُمكن القول إن ظاهرة التفاهة تحولت إلى ظاهرة سوسيولوجية، لأنها لا تمس فقط الأفراد والأشخاص بل تحولت إلى حالة مُجتمعية، حيث انبرى المفكر الفرنسي ألان إيرينبيرج Alain Ehrenberg إلى دراسة التغيرات الاجتماعية الحديثة ونتائجها على الصعيد الاجتماعي والثقافي، والتي من بين أهم نتائجها صعود ما أسماه «فرد التفاهة « أو «الإنسان التافه». لا سيما في كتاب الشهير «التعب الشاق: الذات في العصر الديمقراطي « (La Fatigue d'être soi). ( Ehrenberg. A, 2010)

**3. الدلالة الفلسفية:**

يُشير مصطلح التفاهة إلى أمور تُعد غير مهمة، أو سطحية، أو تفتقر إلى العمق والأهمية. ما يُعد تافهًا غالبًا ما يعتمد في فهمه على السياق الذي نشأ منه. (Mason, M, 2008)

وفي السّياق ذاته، يعتقد Wittgenstein Ludwig فيتجنشتاين لودفيج أن اللاّمعنى أحد أوجه التفاهة، حيث يرى أن العلامات التي تخدم غرضًا واحدًا متكافئة منطقيًا، أما العلامات التي لا تخدم غرضًا فهي بلا معنى منطقيًا، وإذا كانت بلا معنى، فذلك لأننا لم نعطِ معنى لبعض أجزائها المكونة. (Wittgenstein, L, 1922, P. 129)

تُشير التفاهة في السياق الوجودي إلى **لحظة اغتراب الإنسان عن ذاته ومعنى وجوده**، حيث يُصبح الوجود بلا مغزى، وتفقد الحياة عمقها الوجودي. وهي ليست مجرد سلوك سطحي أو انشغال بأمور هامشية، بل تمثّل **تجليًا لانهيار المشروع الوجودي للإنسان**، حين يعجز عن مواجهة الأسئلة الجوهرية حول الحرية، الموت، المسؤولية، والعبث.

يظهر هذا المفهوم بجلاء في فكر **ألبير كامو**، لا سيما في كتابه أسطورة سيزيف، حيث يطرح العبث بوصفه النتيجة الطبيعية لاكتشاف أن العالم **لا يستجيب لتوق الإنسان للمعنى**. حيث يقول كامى: «ليس ثمة سوى مسألة فلسفية جادة واحدة، هي الانتحار؛ فالحكم بأن الحياة تستحق أن تُعاش أم لا، هو الجواب الأساس للسؤال الفلسفي.» (Camus . E, 1942, p. 11)

أما **جان بول سارتر**، فيبرز التفاهة والسفاهة عبر مفهوم اللامُجدي (L'inutile) أو العدم (Le néant)، حيث يُترك الإنسان حرًّا من غير قيد، لكنه **يتحمل عبء هذه الحرية بلا مرجعية تمنحه المعنى**. عندئذ تصبح التفاهة نابعة من رفضه لمشروع «الذات الأصيلة»، حين يختار الإنسان العيش ضمن مقام سوء النية (Mauvaise foi)، أي حين يهرب من حريته ومسؤوليته إلى أدوار اجتماعية مريحة لكنها زائفة وتافهة، فيعيش حياة خاوية من العمق، ومن المعنى. (Sartre, 1943)

**4. المعنى الإجرائي:** ومما سبق، سنطلق مصطلح «التفاهة» على كل شيءٍ عادي، يفتقر للأصالة، والعمق، وأيضا إلى الحداثة. بمعنى أنه يدل على كل الأمور المبتذلة أو المُكررة.

## 2. المنهج

اعتمدنا في هذه الدراسة على ثلاثة مناهج رئيسة:

- **منهج ضبط التصورات (التأثيل)**: لتفكيك مصطلح التفاهة دلاليًا وفلسفيًا وسوسيولوجيًا. وتبيان أهم دلالاته البعيدة والقريبة، مع الإشارة إلى المضامين الحداثية للمصطلح، ومدى انتشاره في الأوساط الجماهيرية.
- **منهج تحليل المحتوى**: منهج تحليل المضمون Content Analysis يرتكز على مجموعة من الأسس النظرية والمنهجية التي تضمن دقة النتائج وموثوقيتها. هذه الأسس تُحدد طبيعة التعامل مع النصوص عبر رصد وتحليل تمظهرات التفاهة في قطاعات الثقافة، والإعلام، والتعليم، والسياسة. ويُمكن إبراز خطواته في النقاط الآتية:

1. **تحديد إشكالية البحث**: عبر ضبط القضية التي يُراد إما تثبيتها أو تفنيدها، مم يستوجب وضع جملة من الأسئلة الدالة عليها، تعمل على وضع الباحث ضمن جو استشكالي، واستفزازي، يُثير القلق، والمعاناة، والشك، والنقد...
2. **اختيار براديغمات الموضوع**: عبر انتقاء نصوص، لا سيما نصوص لها دلالة مباشرة، مع الموضوع، وتبدو نصوص ألان دونو الأكثر تماشيًا مع طبيعة الموضوع.
3. **تحديد الوحدات التحليلية**: عبر التركيز على الكلمات، والجمل، والمواقف، ....
4. **التحليل والتفسير** :ربط النتائج بالسياق الاجتماعي أو التاريخي، مع وضعها ضمن السياق المعرفي، والسياج النقدي العام.
5. **الاستنتاجات** :الإجابة عما حملته الإشكالية من أسئلة فرعية.

- **المنهج النقدي**: يستند إلى نقد الفكر المعاصر كما تمثله أطروحات مدرسة فرانكفورت، وأعمال آلان دونو، ومفكرين معاصرين مثل غي ديبور، بيونغ تشول هان، وهربرت ماركيوز.

## 3. النتائج

أظهرت التحليلات أن التفاهة تتجلى بوضوح في فضاءات رئيسة، نذكر منها ما يأتي:

### 1.1 الإعلام والثقافة الشعبية

نلاحظ هيمنة المحتوى الترفيهي السطحي في الوسائط الإعلامية، والثقافة الشعبية، حيث يعتقد أمبيرتو إيكو أن التفاهة أعلت من شأن **الشعبوية الإعلامية**،

**وغيرت** كيفيات استخدام الإعلام لتبسيط القضايا المعقدة وتحويلها إلى صراعات تافهة: «غالبًا ما تُختزل وسائل الإعلام السياسة إلى مجرد عرضٍ للشعارات والفضائح، حيث تُعامل أبسط التصريحات على أنها كشوفات. لم يعد هذا الأمر معلومات، بل مهرجانٌ من التفاهات، مُصممٌ لتشتيت الانتباه بدلًا من التنوير. «U, Eco) 2007, p. 112)/2006

ومن جهة أخرى، تم استحداث نوع من **الحروب الساخنة** (Hot Wars) لتعزيز الخطابات السطحية عبر الإثارة الإعلامية، والثقافة التهريجية.

إن ظاهرة هيمنة الثقافة الشعبية أدت إلى تنامي ظاهرة التراجع الفكري، والعودة إلى مفاهيم القرون الوسطى كالصراع الديني، نظرية المؤامرة، والصراع الجغرافي.... وقد تشتعل الحرب بين التافهين على أطباق أكل، أو ملابس، أو رقصات، والكل يحارب بقوة لأجل إثبات أنها ملكه، ومن تراثه، أدت هذه الحروب المعاصرة إلى انتشار ظاهرة المؤثرين كمصدر للمعنى الاجتماعي، رغم غياب العمق، والقيمة، والأصالة، والثقافة.

يُمكن الرجوع إلى كتاب نيكولاس كار الأكثر مبيعًا في العالم «المياه الضحلة: ما يفعله الإنترنت بأدمغتنا»، وهو كتاب يُشخص التفاهة من حيث علاقتها بالأنترنيت، حيث يرى أن الثقافة العالمية صارت ثقافة شعبية عبر الأنترنيت، وأدخلتنا في عالم التفاهة، لذا أصبح السؤال الحاضر: هل نضحي بقدرتنا على القراءة والتفكير بعمق بينما نستمتع بمزايا الإنترنت؟

إن الكتابَ حلل الآثار المعرفية، والسلوكية للهواتف الذكية، ووسائل التواصل الاجتماعي، التي حولت حياتنا إلى مياه ضحلة، بفعل الرتابة والانغماس في التافه، والبليد. (Carr, N. 2010)

تبدو التفاهة في الثقافة المعاصرة أكثر ارتباط بالحكي، والقص، والتبسيط حتى الابتذال، واستعمال لغة الخشب، وهي لغة ضد الإبداع، وتمتاز على أنها أسلوب الخطاب الذي يركن إلى الاسهاب في الكلمات غير المجدية، وغير المفيدة. (دونو. آ، 2020، ص 331)

### 3.2. التعليم والمؤسسات الجامعية

نلاحظ أيضا عزوف النخب، واستقالة المثقف من الحياة، وانسحاب أهل الكفاءة

من مواقع صناعة القرار، وبدأ العالم يرى التافهين يسيطرون على مفاتيح السياسة، والفن، والدين، دون مشروع حضاري، ولا منظور أخلاقي، ولأول مرة في التاريخ شهدنا رؤساء مخنثين، ومتحولين جنسيًا يحكمون دولًا كانت ذات يوم من أعرق الدول. في المقابل تراجع الأكاديمي، والجامعي عن الساحة السياسية، لأنه صرامته تجعله غير قادر أن يكون مؤثرًا، بل يصبح منبوذًا في الوسائط الاجتماعية، ويُمكن الرجوع إلى بعض الترندات العالمية، حيث قفزت بعض الأسماء قفزًا جنونيًا بناءً على ضحكة، أو رقصة، أو مشهد كوميدي...

أثرت التفاهة على مكانة التفكير النقدي، ولم تعد المؤسسات التربوية تكون الإنسان الناقد، بل أصبحت المواد التعليمية تنحاز إلى منطق التفاهة، عبر اختيار عينات من المجتمع التافه، لقد ازدهرت البيروقراطية التعليمية، وتحول التلميذ والطالب إلى موضوع للتفاهة أيضًا، لقد طغت مقاييس شكلية للجودة، حيث أصبحت الكم هو لغة العصر، ويُقاس الباحث بعدد المقالات، والإحالات، والمؤشر H.

أصبحت الجامعة مؤخرًا تنتج منتوجًا ثقافيًا وعلميًا يُكرس النزعة التقنوية، ويشهر تخصصات المقاولاتية وما شابه ذلك، حيث صرح ألان دونو قائلا: "**إن الإنتاج الثقافي ينفلت من عقاله الذاتي، فيصبح خاضعًا للحتميات الألية للبحث المدار مؤسسيًا.**" (دونو، أ، 2020، ص 95)، مما أفرز تخصصات غريبة، وأخرى عجيبة، تتسم ظاهريًا باسم الابتكار، والتميز، والإنتاجية.

### 3.3. السياسة والإدارة

يربط إيكو بين **التفاهة الإعلامية وانحدار الديمقراطية**، مشيرًا إلى أن استبدال التحليل بالصوت العالي، والصور المثيرة يُفقد الجمهور القدرة على التمييز بين المهم والتافه. (Eco, U. 1995)

لا يكمن الخطر في المعلومات التافهة بحد ذاتها، بل في أنها تُطغى على المعلومات المفيدة، فالصورة تطغى على الكلمة، والضجيج يحل محل الحوار، يقول إيكو: «لقد أصبحت وسائل الإعلام بمثابة آلة تُنتج المعلومات دون تمييز، تمزج المهم بالتافه، والأساس بالهام. والنتيجة هي ارتباكٌ لم يعد الناس قادرين فيه على التمييز بين المهم وغير المهم - والأسوأ من ذلك، أنهم يتوقفون عن الاهتمام.» (Eco . U, 2OO1 , p.47)

من أهم نتائج سيطرت التفاهة على المجتمعات المعاصرة، صعود شخصيات شكلية تفتقر للرؤية، لكنها تملك «كاريزما القبول»، وأغلبها شخصيات منحرفة، ومختلة سلوكيًا، لكنها تجد قبولا في الأوساط الاجتماعية لأنه تلبي لديهم رغبة مكبوتة، وميلًا لا يُفصح عنه صاحبه إلا عبر المشاركة، والجامات، وقد وصفهم دونو: «تسليم مَلَكَة الحكم السليم إلى نماذج اعتباطية مسوق لها من قبل السلطة». (دونو، أ، 2020، ص 78)

**3.4. الحياة اليومية والعلاقات الاجتماعية**

ضمن نظام التفاهة الشامل يحاول قادته خلق طبقات ثقافية لا اجتماعية تتماشى مع أسس التفاهة، حيث أن هذه الطبقات الجديدة لا تؤثر على النظام القائم، بل تُعززه بالمحتوى الثقافي التافه، ويبدو أن كتاب «الطبقة، الذات، الثقافة» (Class, Self, Culture) لمؤلفه بيفرلي سكيجز Beverley Skeggs يُسلط الضوء على مفهوم الطبقة بطريقة مبتكرة، عبر إلقاء نظرة جديدة على كيفية تكوين الطبقة ومنحها قيمتها عبر الثقافة. ومما يُتيح توظيف الثقافة كمورد وشكل من أشكال الملكية، ذات قيمة استخدامية للفرد وقيمة تبادلية في أنظمة التبادل الرمزي والاقتصادي. (Skeggs. B, 2004)

يُشير بيفرلي سكيجز إلى ظاهرة التنويم الثقافي الجماعي، حيث تُمارس التفاهة نوعا من السيطرة الرمزية عبر وسائل الترفيه، والشاشات، وشبكات التواصل، مما يعطل الحس النقدي، ويفكك الذوق الجماعي.

ومن ناحية أخرى، نرى تمجيد الاستهلاك، والعيش اللحظي هو السمة الغالبة على المجتمعات المعاصرة، يقول هوركايمر: «إنهم يقتصرون على المجال الملفق لـ «الهواة»، الذين، على أي حال، منظمون من الأعلى. يتم توجيه أي أثر للعفوية في جمهور الإذاعة الرسمية واستيعابه في مجموعة مختارة من التخصصات من قبل كشافي المواهب ومسابقات الأداء والفعاليات التي ترعاها من كل نوع. تنتمي المواهب إلى العملية قبل وقت طويل من عرضها؛ وإلا لما كانوا يتوافقون بشغف. عقلية الجمهور، التي يُزعم أنها تفضل نظام صناعة الثقافة بالفعل، هي جزء من النظام، وليست عذرًا له.» (Adorno & Horkheimer, 2002, p. 96)

ويمكن تحديد الهبوط نحو التفاهة عبر المظاهر الاجتماعية عبر المشاهد اليومية الآتية:

1- انحدار الذَّوق العام في الكلام، والفن، واللباس، والخطاب، والمزاج العام.
2- استبدال الجوهر بالمظهر، حيث بات العرض يزدري الأصيل، ويحجب العمق، ويُعلي من شأن الغريب، والعادي، وتحول السوق إلى مشجع لما هو استهلاكي، وسهل، ومُغري، بدل ما هو نوعي، وأصيل، وعميق.
3- تفريغ القيم من محتواها حيث أصبحت القيم النبيلة كالصدق، والإبداع، والتميز تُعد عبئًا ثقيلًا، بينما أصبحت الرداءة معيارًا للواقعية، كالتحرش، والتنمر، والازدراء، والسخرية، .....

**6. مناقشة النتائج**

تشير النتائج إلى أن التفاهة ليست مجرد عرض ثقافي، بل بنية متكاملة تسندها العقلانية الأداتية النيوليبرالية، حيث يُقاس كل شيء بالفعالية والشكل لا بالمضمون أو القيمة. وهذا يخلق مجتمعًا «أحادِيّ البُعد» كما وصفه ماركيوز، حيث يغيب التوتر الخلّاق بين الذات والعالم، ويحل محله انسجام زائف قائم على الاندماج في نظام السطح، أو المياه الضحلة.

كما تساهم التفاهة في تفريغ الفضاء العمومي من المعنى، عبر تحويل السياسة إلى مشهدية، والثقافة إلى سلعة، والتعليم إلى روتين إجرائي. لكن رغم هذا، ثمة بوادر مقاومة فكرية بدأت تتشكل، عبر تجديد الخطاب النقدي، وإحياء أشكال التفكير البديل، لا سيما في صفوف الشباب والمثقفين غير المنتمين للمؤسسات الرسمية.

ما ذكرته يُعدّ تلخيصًا دقيقًا لواقع المجتمعات المعاصرة، ويُشير إلى ما يمكن عده أزمة ثقافية، وقيمية، عميقة تترافق مع صعود منطق السوق في جميع جوانب الحياة، بما فيها الثقافة، والمعرفة، والقيم الإنسانية. وعبر استحضار مفهوم «التفاهة» في هذا السياق، نكون أمام إعادة تعريف لطبيعة التفاعل الاجتماعي والرمزي، وأمام تشخيص فلسفي واجتماعي لأزمة العمق والمعنى. ويكرس فعلًا حضور الإنسان ذو البعد الواحد. ،(Marcuse, H. 1964) سنناقش النتائج السالفة من منظور فلسفي واجتماعي على النحو الآتي:

**أولاً: التفاهة كمظاهر حضارية جديدة**

يشير مفهوم «التفاهة» في هذه الحالة ليس فقط إلى الخفة أو السطحية، بل إلى نوع من الوجود الاجتماعي الذي لا يحمل وزنًا وجوديًا أو فكريًا، إنه وجود من نوع

خاص، يعتمد على:

- التكيّف مع السوق الرمزي، حيث يسعى الإنسان بقدرته على التواجد في الصورة، وليس بمحتوى رسالته.
- غياب الإبداع والصراع الفكري، لأن الشخص الناجح اليوم هو من لا يزعج أحدًا، ولا يطرح أسئلة محرجة، بل ينسجم مع الأعراف الجديدة للسوق الثقافي. أي هو المتماهي مع فلسفة التفاهة، ومنطق السفاهة.
- تسطيح المعرفة عبر رفض كونها سعياً نحو الحقيقة، بل عدها منتج قابل للاستهلاك السريع، يتم تقديمه في هيئة معلومات متقطعة ومختزلة (مقاطع الفيديو القصيرة، التغريدات، المنشورات).

**ثانيًا: الكوجيتو التافه:**

أصبحت التفاهة هوية وجودية لكثير من الناس في زمن الانحطاط الثقافي، وهي إشارة إلى مفارقة مريرة تلوح في أفق الحضارة المعاصرة، حيث حلّ كوجيتو جديد محلّ الكوجيتو الديكارتي فبدل: »أنا أفكر إذن أنا موجود.«حضر كوجيتو جديد: »أنا تافه إذن أنا موجود،.« إنها ليست مجرد عبارة ساخرة، بل تعبير دقيق عن تحوّل جذري في طبيعة الوجود الإنساني في عصر الصورة والسطحية: »**في عالم يهيمن عليه المظهر والأداء، يصبح التافه معيارًا للاعتراف. لم يعد المرء بحاجةٍ إلى التفكير ليكون موجودًا؛ يكفي أن يُرى، أن يصبح ترندًا، أن يُستفَزّ.**« (Deneault, A. 2015 , p . 1).

لقد أعادت العولمة الرقمية تشكيل الوعي الجماعي وفق منطق الترويج والتسويق لا منطق الفكر. لم يعد التفوق قائمًا على عمق وأصالة الفكرة أو نبل الهدف، بل على سرعة الانتشار، وعدد الإعجابات، وكمية الضجيج. في هذا السياق، أصبحت التفاهة عملة رائجة، وصار التافهون يحتلون الشاشات والمناصب، ويُستقبلون بصفتهم رموزًا للنجاح، وايقونات للشهرة.

حين نطرح سؤال ما التفاهة؟ فإننا نحاول قدر الإمكان اختزال المعقد، وتسطيح العميق، واستبدال القيمة بالمشهد. عندئذ التفاهة هي أن تقول كل شيء ولا تقول شيئًا، أن تكون حاضرًا باستمرار دون أن تضيف أثرًا. إنها الغلبة لما يسميه آلان دونو «اللامعنى المنظّم»، حيث لا مكان للفكر الحر أو الإبداع النقدي، بل للامتثال الناعم، والمتعة السطحية. يقول دونو: «التفاهة تشجعنا، بكل طريقة ممكنة على الإغفاء بدلًا

من التفكير.» (دونو. آ، 2020، ص 85).

أما الإنسان التافه، فهو كائن يطلب الوجود من الخارج لا من الداخل، من التفاعل لا من التأمل، من الإثارة لا من المعنى. إنه ينشئ ذاته عبر أعين الآخرين، فيقيس وجوده بمدى ظهوره، وكمية الجامات التي يحصل عليها، لا بعمق أثره أو صدق تجربته.

في هذا المناخ، يصبح الانخراط في التفاهة فعل بقاء، ورفضها ضربًا من المقاومة. والسؤال الجوهري الذي يطرحه هذا الواقع: هل يمكن أن توجد دون أن تروّج لنفسك؟ هل يمكن للمعنى أن يصمد أمام سطوة التافهين؟

**ثالثا: التفاهة كظاهرة اجتماعية مهيمنة**

يُعد المفكر الفرنسي ألان إيرينبيرغ Alain Ehrenbergمن أبرز المحللين الذين ربطوا بين التغيرات الاجتماعية الحديثة وبين صعود ما أسماه» فرد التفاهة »أو» الإنسان التافه» وفي كتابه» التعب الشاق: الذات في العصر الديمقراطي »، يشير ألان إيرينبيرغ إلى أن الفرد في المجتمع الحديث لم يعد يسعى إلى التميز أو التفوق، بل إلى التكيف والبقاء ضمن المنظومة، حتى لو كان ذلك يعني إلغاء نفسه. ( Ehrenberg. A, 1998)

وهناك ظاهرة أخرى، يجب الإشارة إليها، وأن الثراء اليوم أصبح مرتبطًا بالتفاهة ارتباطًا وثيقًا، فكثير من كُتبت لهم الشهرة بالصدفة تحولوا إلى أثرياء في زمن قصير جدا: «**فالثراء وخصائصه يمكنان المرء من أن يطلق العنان لسلوكيات دنيئة لا يشفع لها إلا وضعه كرجل ثري.**» (دونو. آ، 2020، ص 251).

**ومن خصائص التافه:**

- اللامبالاة الفكرية والسياسية: لا يسعى لفهم العالم، بل ليُظهر أنه موجود فيه على النحو الذي يراه التافهون.
- الاستقلالية الزائفة: يبدو مستقلًا، ومقتنعًا أنه ليس كمثلهم، لكنه يتبع الموضة الجماعية.
- البحث عن الموافقة الاجتماعية: يسعى إلى البحث عن القبول المجتمعي، لا إلى البحث عن الحقيقة أو المعنى.
- الخوف من المسؤولية: يفضل التهرب من المسؤولية مهما كان نوعها، ويتجه صوب السلوك الآمن والسطحي.

**ثالثًا: التفاهة في سياق السوق الرمزي**

العالم الحديث لم يعد يحكمه منطق الفلسفة أو الدين أو السياسة التقليدية، بل منطق السوق الرمزي، فالقيم أضحت مجرد سلع، لا سيما مفاهيم كالحرية، والعدالة، والمساواة، والأخوة، والإنسانية، حيث يتم تسويقها واستخدامها في الحملات الدعائية فقط، أو من باب المساحيق الجمالية التي يُراد بها تلطيف المشهد العبثي، أو التافه.

ومن جهة أخرى، تتحول الثقافة إلى مجرد مشهد ترفيهي، فالكتب تُباع حسب تصاميم الغلاف، والأفلام تُقدّر بالمشاهدات، والفلاسفة هم الذين أصبحوا مشاهيرًا على إنستغرام، أو الفيس بوك، أو أي وسيلة إعلامية جديدة.

وبناءً على ما سبق، تُصبح المعرفة مُختزلة في المعلومات السطحية، أو الغرائبية، أو المشهد الذي يُربك المتلقي دون وعي جدي، أو فهم عميق، بل مجرد لإثارة لحظية.

**رابعًا: التفاهة ونهاية التاريخ الثقافي**

يمكن قراءة ظاهرة التفاهة ضمن إطار أوسع، ففي سياق التحولات العميقة التي يشهدها العالم المعاصر، برزت عدة أطروحات نقدية تحاول توصيف مآل الإنسان في ظل أنماط السيطرة الناعمة والبُنى الرمزية الجديدة. فقد رأى **فرنسيس فوكوياما** في أطروحته عن «نهاية التاريخ» أن الليبرالية الغربية قد فرضت نفسها كنموذج نهائي لتنظيم المجتمعات، ليس فقط عبر الانتصار السياسي بعد الحرب الباردة، بل بوصفها الأفق الوحيد الممكن بعد سقوط البدائل الأيديولوجية الكبرى. غير أن هذا الانتصار لم يكن إيذانًا بتحقيق مشروع إنساني متكامل، بل على العكس، كشف عن فراغ رمزي عميق في منظومة الحداثة الغربية.(Fukuyama, 1992)

أما **جيل دولوز** فقد ذهب إلى ما هو أبعد، حين أشار إلى أن «الإنسان المعاصر» لم يعد الثائر أو الفيلسوف، بل صار «إنسان السوق»، الفرد المدجَّن والمهيكل ضمن منطق الأداء والتكيف، حيث تنقلب الحرية إلى مسؤولية خانقة، ويُستبدل التفكير بالامتثال للأنماط الجديدة للرقابة الرمزية التي تتجاوز المؤسسات العقابية إلى أنظمة لينة ومتفشية.(Deleuze, 1990)

وفي السياق ذاته، حلّل **جان بودريار** آليات مجتمع الاستهلاك، حيث لم تعد قيمة

الأشياء تُقاس بوظيفتها أو ضرورتها، بل برمزيتها وقدرتها على الإدماج داخل نظام العلامات، فالإنسان لم يعد يستهلك من أجل الإشباع، بل من أجل التماهي مع صور مصطنعة للهوية والنجاح والاعتراف.(Baudrillard, 1998) وهكذا، تتلاشى الأصالة ويُستبدل الواقع بالمحاكاة، وتُفقد التجربة الحقيقية لصالح التكرار الرمزي، مما يفتح المجال أمام هيمنة التفاهة كأفق ثقافي واجتماعي شامل.

وعليه، يُمكن القول إننا سنعلن يومًا ما نهاية الثقافة، والفكر، ونؤسس لعهد التفاهة، ويصبح الإنسان مجرد رقم في معادلة لا إنسانية.

بيد أن أكبر إيجابية للتفاهة كنظام أنها تغدو ضمن بعض السياقات كاحتجاج، ورفض، وعصيان لحياة الرتابة التي أنتجها المجتمع الصناعي، وعلى الجدية الزائفة للنظم الاجتماعية أو السياسية، حينها يمكن أن يكون التافه أشبه ما يكون بشخصية دون كيشوت ديلامنشا.

يشير جان بودريار إلى أنّ الإنسان المعاصر يُخدَع بوهم السيادة الفردية داخل اقتصاد العلامة، لكن هذا الإدراك نفسه يفتح منفذًا للسخرية واللعب بالرموز؛ إذ يستطيع الفرد أن يوظّف «الاستعمال السحري» للسلع كي يُظهر خواءَها,Baudrillard) 1970/ (1998حين يبالغ المستهلك في اتباع الموضة أو يجمع أشياء بلا نفع، فهو يُعرّي منطق السوق بمحاكاة ساخرة تكشف هشاشته، بمعنى إنّه يُطيع كي يعصي.

من زاوية أخرى، يرى ميشيل دي سارتو أنّ الممارسات المتواضعة بوصفها نوع من الحيلة، أو التلاعب، هي نوع من التكتيكات يستخدمها الضعفاء أو متوسطو الذكاء ليُربكوا استراتيجيات السلطة. وهي نوع من التفاهة المقصودة التي تدخل ضمن الأقاليم المجهرية، والتي يُستعاد فيها القرار الفردي.(Certeau, 1980)

ينظر جيمس سكوت أن التفاهة قد تكون نوعًا من التخفي بوصفه درعًا للضعفاء، حيث إنّ الأفعال الرمادية، واللامبالاة الظاهرة، والنكتة الخبيثة، والبطء كلها استراتيجيات تستنزف النظام بلا مواجهة مكشوفة. فيصبح التوسط(Mediocrity) بمثابة درع يقي الفاعل من العقاب، ويُبقي سجلَّ المقاومة خفيًا. (Scott, 1985)

توصل فينكاتش راو إلى أن التفاهة قد تحمل قيمة «فضيلة الاكتفاء المعقول»، بمعن أن الفرد يختار مستوى أداء متوسّط، عبر قصدية ذاتية مشبعة برغبة التأقلم

والتكيف، بغية الحفاظ على طاقته، وعبرها يقاوم ثقافة الإنجاز اللانهائي؛ فالمتوسط يحمي الصحة النفسية ويردع منطق الاستغلال.(Rao, 2019)

في الأخير، يُمكن القول إن التافه يُجسد صورة دون كيشوت الذي يواجه طواحين الجدية، بمبالغاته الطفولية، وحركاته الصبيانية، ويريد أن يكون أضحوكةً، لكنه يكشف عبث النظام عبر تضخيمه حتى حدود الكاريكاتير؛ فالتفاهة هنا هي مواجهة العالم، والنظام، والمجتمع عبر السخرية.

**5. خاتمة**

لقد أصبحت التفاهة، في ظل النظام العالمي الحالي، أكثر من مجرد ممارسة اجتماعية عرضية، فهي تعبير عن نظام قيمي مقلوب يهمّش العقل ويكرّس السطحية. إن استعادة العمق والمعنى تقتضي تجديد أدوات النقد، وبناء مساحات بديلة للفكر، والتربية، والإعلام، تنطلق من الإنسان لا من السوق.

ويجب أن نتجاوز عصر التفاهة عبر تجديد الخطاب الفلسفي، لا سيما الخطاب النقدي، الذي يرفض أن ينخرط الإنسان في نظام التفاهة الذي بات يؤطر الحياة اليومية، حيث اتسعت دائرة التافهين وقلت دائرة الجادين، ولا سيما مع تطور وسائل الاتصال التي جعلت من التفاهة مادتها الأولى، وجعلت التافه هو المؤثر، مما أنتج كما من الإنتاج التافه على مستوى الفن، والأدب، والفلسفة، والسياسة، والإعلام.

والأمر الثاني؛ ضرورة تجديد وتفعيل الخطاب الديني، لعله يُعيد التوازن الروحي للإنسان التائه، والتافه في الوقت نفسه، ويُعيد معنى الكرامة الإنسانية، ويُجدد رسالة الإنسان في عصر الرقم والشيفرة. ولقد جاء في القرآن الكريم بيان عن نبذ التفاهة في قوله تعالى: ﴿**أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى**﴾ [القيامة: 36]

**ومما سبق، كيف نعيد تعريف القيمة الإنسانية في عالم يختزلنا إلى أرقام وصور؟** هل يمكن مقاومة التفاهة بإبداع معنى حقيقي، أم أن هذا نفسه وهم آخر.؟

## المصادروالمراجع


1. دونو، آلان، نظام التفاهة، ترجمة مشاعر عبد العزيز الهاجري، دار سؤال للنشر، ط1، لبنان-بيروت، 2020.
2. ابن منظور، الأنصاري. (2003). لسان العرب. ج 2. بيروت: دار صادر.
3. Adorno, T. W., & Horkheimer, M. (2002). Dialectic of enlightenment (E. Jephcott, Trans.). Stanford University Press. (Original work published 1944)
4. Arendt, H. (1963). Eichmann in Jerusalem: A report on the banality of evil. Viking Press.
5. Bakhtin, M. (1984). Rabelais and his world (H. Iswolsky, Trans.). Bloomington, IN: Indiana University Press.
6. Baudrillard, J. (1998). The consumer society: Myths and structures (C. Turner, Trans.). London: Sage.
7. Camus, A. (1942). Le mythe de Sisyphe. Gallimard.
8. Carr, N. (2010). The shallows: What the Internet is doing to our brains. W. W. Norton & Company.
9. Certeau, M. de. (1980). L'invention du quotidien. Vol. 1: Arts de faire. Paris: Gallimard.
10. de Benoist, A. (2015). The regime of the trivial. Arktos Media.
11. Debord, G. (1995). The society of the spectacle (D. Nicholson-Smith, Trans.). Zone Books.
12. Deleuze, G. (1990). Post-scriptum sur les sociétés de contrôle. L'Autre journal, (1), 3–7.
13. Deneault, A. (2015). La médiocratie. Lux Éditeur.
14. Eco, U. (2002). Five moral pieces (A. E. McEwen, Trans.). Vintage Books. (Original work published 1997)
15. Eco, U. (2007). Turning back the clock: Hot wars and media populism (A. McEwen, Trans.). Harcourt.

16. Ehrenberg, A. (1998). La fatigue d'être soi : dépression et société. Paris, France : Odile Jacob.
17. Fukuyama, F. (1992). The end of history and the last man. New York: Free Press.
18. Horkheimer, M., & Adorno, T. W. (2002). The culture industry: Enlightenment as mass deception. In T. W. Adorno & M. Horkheimer (Eds.), Dialectic of enlightenment (E. Jephcott, Trans., pp. 94–136). Stanford University Press.
19. Marcuse, H. (1964). One-dimensional man. Beacon Press.
20. Mason, M. (2008). The importance of being trivial: In search of the perfectly useless. Macmillan .
21. Sartre, J.-P. (1943). L'être et le néant: Essai d'ontologie phénoménologique. Gallimard.
22. Scott, J. C. (1985). Weapons of the weak: Everyday forms of peasant resistance. New Haven, CT: Yale University Press.
23. Wittgenstein, L. (1922). Tractatus logico-philosophicus (C. K. Ogden, Trans.). Routledge & Kegan Paul.

# عصر التفاهة ونهاية الفن
# The Age of Triviality and the End of Art

**خليفة محمودي**
**أستاذ محاضر جامعة وهران 2**

**مقدمة:**

ألف الإنسان منذ القدم أن يعبر عن حياته بمجموعة متنوعة من الأنشطة الفنية سمعية أو بصرية أو حركية. للتعبير عن أفكاره الإبداعية. فغدى الفن الصوت الناطق للإنسان في الوجود. وأصبح تعبريًا إنسانيا لحياته ومشاكلة المعاشة. وأصبحت قوة الفن تقاس بقدرة مخيلة الفنان في التعبير عن الشيء الذي يريده، وقدرة الإنسان في تذوق هذا العمل الفني. وتباعد الحكم الجمالي بين مختلف الأعمال الفنية بين من يبهر الآخرين، وبين من يشد فضولهم لفهم الظاهرة الفنية لا غير. وأصبح العمل الفني يحمل الرمز أكثر من كونه يحمل الحقيقة. لأنه يعبر عن وجادن خالص للفنان. فتضمين الرمز يحمل بعدا جماليًا وفنيًا راقي.

لكن في الفترة المعاصرة لم يعد الفن تعبير وجداني خالص، وإنما اختلط الفن بالطلب وعرض السوق. وتحول العمل الفني إلى سلعة، وتحول الفنان إلى حرفي. وأهتم بالعرض على حساب الجوهر، فوقع الفن في أزمة التفاهة. وأصبح يطلق على التافهين فنانين، مما حتم علينا إعادة تعريف الفن لنفهم هل كل تفاهمة تعد عملًا فنيًا. إن الابتذال الذي أصاب الفن في الفترة المعاصرة جراء الليبرالية وتفاهة بعض البشر أطلق عنان نهاية الفن بمعنها الأصيل.

هذه النهاية المعلنة للفن لم تكن بمعزل عن مجموعة من النهايات التي بشر بها الفلاسفة، بداية من موت الإله الذي أعلن عليه نيتشه. فموت الإله تعني موت الوصاية وقوة مفارقة عن قدرة البشر. وأصبح الإنسان سيد الوجود. لكن لم ينتهى الإنسان من أن ينصب نفسيه سيدًا للكون، حتى أعلن موته هو كذلك، بموت المولف على حد تعبير رولان بارت. فموت الإنسان صانع الفن سيؤدي طبعًا إلى موت الفن. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه أن أعلن موت المعنى. فكتب فيكتور فرانكل الإنسان يحبث عن المعنى، لعله يرجع الإنسان للحياة من جديد، بوجود معنى لحياته.

وفي ظل هذه النهاية وانتشار التفاهة والتفاهين في كل مكان، حتى وأنت مستلقي على فراشك تحمل هاتفك تصلك هذه التفاهة. أعلن موت الفن، بنهاية السرديات الكبرى التي أنتجت هذا الفن. لم يعد للأخلاق والمعنى والرمز أي قيمة في ظل انتشار التفاهة والتافهين. لقد أصيب الفن بمرض عضال التفاهة.

**الإشكالية:**

ففي ظل هذا كله نتساءل على النحو التالي: هل نهاية الفن ممكنة؟.

وللإجابة عن هذه الإشكالية تناولنا محططات متعددة. أولها الفلسفة وخطاب النهايات. الذي يحتوى على ثلاث عناصر أساسية. الأولى كانت من أجل ضبط مفهوم الفن، حتي نستطيع أن نحكم على الشيء أنه فن من عدمه. وثانيها: تكلمنا عن خطاب النهايات في التاريخ الفلسفي من موت الإله إلى موت المعنى. والثالثة: تكلمنا عن المقصود بموت الفن. أما المحطة الثانية: تكلمنا عن صلب الإشكالية هل هناك فعلاً نهاية للفن. وتناولنا فيها أربع محطات رئيسية. أولها: انتقال الفن من نظرية المحاكاة إلى نظرية الفوضى(نظرية الإنمحاء). والأثر من هذا التحول. والثانية: تكلمنا عن الذكاء الاصطناعي ونهاية الفن الإنساني، أي نظرية الاستبدال. كيف تم استبدال الفنان بالذكاء الاصطناعي، ومصير الفن في ظل هذا الاستبدال. والثالثة: تناولنا هل موت الفنان يعني نهاية الفن نتيجة نظرية الاستبدال. وفي الرابعة والأخيرة: تناولنا فساد الذوق الجمالي ومستقبل الفن، والسير نحو التفاهة.

**المنهج:**

لقد اعتمدنا على المنهج التحليل النقدي، من خلال تحليل أراء الفلاسفة حول إمكانية نهاية الفن. والتطرق إلى الأعمال الإنسانية في وقتنا المعاصر للحكم هل هي ضمن نطاق الفن من عدمه. ومحالة ضبط التفاهة التي طغت على العالم اليوم. والتأكد من الزعم القائل هل نهاية الفن ممكنة.

**1/ الفلسفة وخطاب النهايات.**

**1.1/ مفهموم الفن:**

الخلط الذي يحدث اليوم حول ما هو فن من عدمه، يلزمنا العودة السريعة والراشدة، لإعادة طرح مفهوم الفن من جديد. لقد أصبحت كلمة عمل فني تطلق جزافًا، ودون أي معنى في كثير من الأحيان، على أعمال لا يمكن أن تدخل ضمن نطاق

الفن. لقد أصبح كلام الشارع وكلام المعتوهين ( الكلام النابي) في الرواية يعد عملًا فنيًا. يبدو أن هؤلاء لا يعرفون معنى الفن، لا بمعناه الخاص أو بمعناها العام. لذا وجب إعادة طرح مفهوم الفن من جديد، لأنهم أناس يستجيبون لأهوائهم وإيديولوجياتهم، ويدافعون عن أشياء لا يمكن لأي ناقد فني أو متذوق للفن، أن يدخلها ضمن العمل الفني.

يطلق الفن في العادة على كل ما أبدعه الإنسان في مختلف المجالات فيقال عمل فني. وهذا الفن يقاس من خلال الحكم الجمالي، وهذا يدخل ضمن نطاق ما يعرف بفلسفة الفن والجمال. لكن من ناحية التأصيل الفلسفي للمفهوم، يطلق الفن على معنيين. الفن بمعناه العام ويعني « جملة من القواعد المتبعة لتحصيل غاية معينة جمالًا كانت، أو خيرًا، أو منفعة. فإذا كانت هذه الغاية تحقيق الجمال سمي الفن بالفن الجميل، وإن كانت تحقيق الخير سمى الفن بفن الأخلاق، وإن كان تحقيق المنفعة سمى الفن بالصناعة» (صليبا، 1982، صفحة 165). فالفن بمعانه العام يعرف من خلال الغاية التي يؤديها، وبها يعرف ويصنف هذا الفن.

أما الفن بمعناه الخاص «فيطلق على جملة الوسائل التي يستعملها الإنسان لاثارة الشعور بالجمال، كالتصوير، والنحت، والنقش، والتزيين والعمارة والشعر والموسيقى وغيرها، وتسمى هذه الفنون بالفنون الجملية» (صليبا، 1982، صفحة 165). وفق هذا التصور الخاص للفن، يمكن أن كون على قسمين: الفنون التشكيلية كالعمارة والتصوير..إلخ، والفنون الايقاعية كالشعر والموسيقى والرقص إلخ. وبالتالي فإن الفن بمعناه الخاص يقتصر على العمل الفني في حد ذاته. وليس في غايته كالمعنى العالم، فهو مرتبط بالذوق الجمالي. فالفن هو كل ما أبدعه الإنسان في مختلف المجالات، والجمال هو نقد هذا العمل الفني والحكم عليه بالحسن أو القبح. ونتيجة لهذا نطلق كلمة فنان على الشخص الذي يبدع ويحصل ويتذوق الجمال في العمل الفني. ومنه اصطلحنا كلمة فني أي المنسوب إلى الفن.

**1.2/ النهايات الكبرى من موت الإله إلى موت الفن.**

هناك ثلاث نهايات كبرى في تاريخ الفلسفة، انجرّ عنها في النهاية إعلان موت الفن كغاية. فكانت بداية هذه النهايات عندما أعلن نيتشه موت الإله، فهذا الموت لا يعني موت الإله كذات وإنما يعني موت سيطرة قوة أخرى خارج الذات الإنسانية، ويصبح

الإنسان هو مركز الكون والفاعل الحقيقي لوجوده وذاته، فبشر نيتشه بموت الإله وميلاد الإنسان كفاعل وخالق لقدرته {السبرمان}، وأصبح الإنسان هو سيد الكون. يقول نيتشه على لسان زرادشت :<<إنه لشيء عجيب جدًا، ألم يعلم هذا الشيخ في الغابة أن الإله قد مات>> (نيتشه، 2013، صفحة 7). إن موت الإله عند نيتشه هو موت الوصاية والإذعان. فمن غير المفيد للرجل الأعلى أن يذعن لغيره أو لقوة مفارقة لذاته أو مفارقة للأرض. فالإنسان سعيش وحيدًا على هذه الأرض فمن غير المعقول أن يذعن لقوة مفارقة في السماء. بل عليه أن يصل إلى هذا العلو في السماء بنفسه. فالانكسار لقوة أخرى ما هو إلا مجرد تخويف، حتى يظل الإنسان ذليلًا في هذه الأرض، ولا يصل السماء. إن الإنسان صانع نفسه في نظر نيتشه.

إن موت الإله جعلت الإنسان وحيدًا في هذا العالم دون قوة ترعاه، لكن في المقابل جعلته يعتمد على نفسه في كل شيء فصنع حضارته، لكن من زاوية أخرى جعلت دائرة الفن تتقلص، من باب أن الإنسان لم يحاكي الطبيعة لأنها ليست من صنعه، فسعى إلى خلق فن خاص به من خياله فقط، فتقلصت دائرة الفن. فموت الإله سيف ذو حدين، من جهة جلعت الإنسان يعتمد على ذاته في صنع حضارته، ومن جهة قلصت دائرة الفن بأن جعلته يبتعد عن محاكاة الطبيعة لأنها إبداع إلهي. فهل يستطيع الفن فعلًا أن يخرج عن دائرة الطبيعة؟ يبدو أن الأمر شبه مستحيل لذا بدأ الفن في التراجع.

لكن لم يُلبَثْ أن أعلن من جديد عن نهاية أخرى، تمثلت في موت الإنسان بموت المؤلف كما أعلنه رولان بارت عندما فصل بين المؤلف والنص ورأى أن استحضار المؤلف مع النص قتل لتعدد المعنى. بل يجب إعدام المؤلف لحيا النص ويكون هناك تأويل متعدد يقول بارت في هذا الصدد <<عندما ننسب النص إلى المؤلف، فإن هذا يعني أننا نفرض عليه أن يتوقف. كما يعني أننا نفرض عليه سلطة مدلول نهائي ونغلق الكتابة>> (بارت، 1999، صفحة 81). إنه يعطي الأولوية للكتابة واللغة بعتبارها ممكانت متعددة. لكن هل يمكن للغة أن تحي بعيداً عن قائلها؟ أليس هو من يُضَمِن الظواهر بلغة دالة عليها؟ فقتل المؤلف لحيا النص هو قتل للنص واللغة معًا. كما أن بارت احتج بموت المؤلف لحيا القارئ بعيدا عن سطوة المؤلف وايديولوجيته. يقول <<إننا لم نعد الآن ننخدع بهده الأنواع من المعاني المقلوبة، فالمجتمع الراقي يعترض بها اعتراضًا رائعًا دفاعًا عما يبعده تحديدًا وما يتجاهله. ويخنقه ويدمره. ولقد نعلم أنه لكي تسترد الكتابة مستقبلها، يجب قلب الأسطورة. فموت الكاتب هو ثمن الذي

تتطلبه ولادة القارئ>> (بارت، 1999، صفحة 83) إن موت المؤلف في نظر بارت هو الشرط الأساسي ليحيا القارئ. وكأن الكاتب سطوة وإيديولجيا تمنع القارئ من إعطاء معاني متعددة للنص، قد لا يعيها الكاتب نفسه، ولذا لكي يحيا القارئ من خلال إعطاء تأويلات متعدد للنص. لا بد من موت الكاتب/ المؤلف. لكن السؤال المطروح على بارت: هل يمكن فعلا أن نقتل ذاتًا (مؤلف ) لتحيا ذاتًا أخرى(القارئ)؟. وهنا بدأت الصدمة تتوالى على الإنسانية بموت الإنسان ذاته /المؤلف. وتساءل الفلاسفة حول الغاية من الوجود بعد موت الإنسان. وهل يصبح للوجود معنى بنهاية الإنسان الفاعل الحقيقي في الوجود؟.

فبارت يقتل العمل الفني الذي يضمنه الكاتب في نصه، إذ موت المؤلف يقودنا إلى شرخ كبير يتمثل في قطع الحوار والصلة بين القارئ والمؤلف، وبهذا يعدم العمل الفني. لأن المؤلف في عمله الفني يضمن إحاءات لتجارب ومعاني محيطة بها، لذا قتلنا للمؤلف يعني قتل اللبنة الأساسية للعمل الفني وقطع الصلة مع صاحب العمل. ونجد غارودي يرى أن ما يقدمه «لنا اليوم الأدب والفنون التشكيلية مع الرواية الجديدة وجماعة Tel quel والرسم التجريدي وأفلام من أشباه الغافيل لغودار وفرنهايت لتروفو، تعبيرًا عينيًا عن غياب Sujet بكلا معنيي الكلمة، أي غياب الحكاية وغياب الراوي في آن واحد. تعبيرًا عينيًا عما يمكن أن يكونه تاريخ، الإنسان عنه غائب، والإنسان كمركز للنشاط، كمعطي للمعاني، وكمصدر مشخص لكل مبادرة تاريخية» (غارودي، 1979، صفحة 10،11) ألا يبدوا هذا نهاية وقتل للفن؟.

ناهيك على أن موت الإنسان هو موت لغاية الفن، إذ غاية الفن ذا بعد أخلاقي يتمثل في تعديل سلوك الإنسان، أو تحقيق السعادة الإنسانية، من خلال أن يعبر عن حياة أفضل للإنسان يجب أن تعاش على ذلك النحو. لكن بموت الإنسان ماذا يبقى للفن من غاية؟. إلا أن يعبر عن تراجيدا الموت بالنسبة لمآسي الإنسان، فيزيد جراحه شرخًا، ويصبح الفن جالبًا للألم بدل تحقيق السعادة.

وتنتهي في النهاية بصدمة ثالثة تمثلت في موت المعنى. ولذا كتب فيكتور فرانكل كتابه «الإنسان يبحث عن المعنى». فبموت المعنى لم يعد للوجود برمته غاية، أو معنى من وجوده، وأصبح كل شيء عبثي. حيث نجد دريدا ينبهنا في ما يسميه التفكيك في القضايا الشائكة وأولها علاقة الدال بالمدلول. حيث أن الفلسفة قد منحتنا الاهتمام

بالحضور على حساب الغياب حضور المدلول وغياب المعنى، إن دريدا ينبهنا أن هناك اعتقاد خاطئ جرى تكراره حتى ظننا أنه واقع بالفعل، وذلك ما يحدث في الكتابة، حيث أنه دائمًا نربط كلماتنا عند التحدث مباشرة بالمعنى. وهو ما يسميه دريدا بالتمركز حول اللغوس. إذ في نظر دريدا لا وجود لشيء سابق عن النص، فحتى الكلمات لا تأخذ معناها إلى من خلال ترابطها مع مفردات أخرى، فالقول بالمعنى الذي يسبق النص لا وجود له. ولا وجود لأسبقية أنطولوجية للكلام عن النص.وعليه موت المعنى.

ونتيجة هذه الصدمات الثلاث أعلن موت الفن بموت المعنى. فهل يمكن أن نحكم عن شيء أنه فن وإبداع فني في ظل زوال المعنى منه. أو موت الغاية؟ حيث نجد فرانكل يقول: <<إن سعي الإنسان إلى البحث عن معنى هو قوة أولية في حياته وليس تبريرًا ثانويًا>> (فرانكل، 1982، صفحة 131) وعليه إذا كان المعنى قوة أولية في حياة الإنسان، فما الهدف من الفن دون قصد أو معنى؟ إنه العبث الذي لا جدوى منه.

**1.3/ المقصود بنهاية الفن .**

بعد الاستطراد لمفهوم النهايات في تاريخ الفلسفة من موت الإله إلى موت المعنى، إنتهينا إلى مفهوم نهاية الفن. هذا المفهوم الذي يحتم علينا طرح السؤال ما المقصود بهذا المفهوم؟. بدى الحديث عن نهاية الفن في الثلث الأخير من القرن العشرين عندما نشر آرثر دانتو وهانز بيلتنغ مقالات حول نهاية الفن، وموت الفن. فبدأ هذا المفهوم يظهر عل سطح الفكر الفلسفي، لكن أول من أطلق مفهوم نهاية الفن هو هيجل. عندما تساءل عن مآل الفن عند ظهور الرومنسيين. إلا أن دانتو قد أشار أن ما قصده بنهاية الفن هو «أن تبدلًا تاريخيًا مهمًا حدث في الشروط الإنتاجية للفن ... وإذا كان هذا من قبيل ما يمكن التفكير فيه، فقد يكون هناك انقطاع آخر ليس أقل حدة بين الفن المنتج أثناء عصر الفن، والفن المنتج بعد انتهاء ذلك العصر... تستطيع أن تفكر بالفن بعد ناهية الفن، كما لو أننا نخرج عصر الفن إلى شيء آخر لايزال يتعين فهم شكله الدقيق وبنيته» (دانتو، 2021، صفحة 33،36). يرى دانتو أن نهاية الفن هو تبدل تاريخي في النظر إلى الفن، بمعنها الإبداعي المربوط بغاية، والذي ظهر كتأصيل فلسفي 1400م. ومع نهاية القرن العشرين أعلن دانتو نهاية الفن من خلال تغير جذري في تاريخ الفن، وهذا شيء جديد في نظره لم نستطع معرفته بالضبط، ولايزال يتعين علينا فهم شكله الدقيق وبنيته.

فنهاية الفن حسب بيلتنغ ودانتو هو ظهور علامات الاستنفاذ الداخل لإبداعه. ووضع حدود لا يمكن تخطيها، ويعطي لنا دانتو مثال عن نهاية الفن من خلال موت الرسم وذلك ما يتجسد في لوحات روبرت ريمان البيضاء بالكامل. وبالتالي أي شيء من الفن تحلمه هذه اللوحات أليس نهاية للفن. يقول: «إن الفن ينبغي أن يكون نشيطًا إلى أبعد الحدود وألا يظهر أي علامة على الاستنفاذ مهما كانت» (دانتو، 2021، صفحة 37). فنهاية الفن تكمن في استنفاذ كل الممكنات للعمل الفني.

كما أن تصور نهاية الفن عند هيجل تمثلت في الطريقة لمعالجة موضوعات اليوم. إن الفنانين ليسوا إلا مقلدين للقدامي، بنفس الطريقة. وهذا في نظر هيجل أعلن موت الفن. فليس عيبًا في نظره أن نعود إلى القدامى، لكن العيب أن نعالج الموضوعات بنفس الطريقة. يقول: «صحيح أنه في مقدور الفنان الحديث أن ينتسب إلى القدامى، بل إلى قدامى القدامى. وليس أجمل من أن يحتل الكاتب مكانة بين الهوميريين، ولو في آخر صفوفهم... لكن القيمة التي لا تفني للموضوعات وقيمتها وأصالتها شيء. وطريقة معالجتها شيء آخر. ولا يسمح عصرنا أن ينتج أي هوميروس، أي سوفوكلس، أي دانتي، أي أربوستسو، أي شكسبير. فما صدح به هؤلاء الشعراء الكبار بعظمة ما بعدها عظمة وما عبروا عنه، يمثل الحرية التي عبروا بها عنه، ما كان له أن يأخذ طريقه إلى الوجود إلا مرة واحدة. وهذه الموضوعات وطرق النظر فيها ومعالجتها قد باتت بالية» (هيجل، 1986، صفحة 460). إن التقليد الأعمى اليوم لفنانيين القدامى قد جعل الفن في نظر هيجل يموت بموت التجديد فيه. فحتى أعتى الفنانين القدامى فإن فنه اليوم، لا يستطيع أن ينجح بنفس الطريقة. لأن الطريقة التي عالج بها فنه، في ذلك الوقت، لا تصلح لعصرنا الحالي، لأن لكل عصر خاصيته. لذا على الفنانين اليوم أن يبتكروا طريقة مناسبة لمعالجة موضوعات الفن التي تخصهم وإلا مات الفن.

يرى دانتو أن نهاية الفن هي نهاية السرديات الكبرى التي قام عليها الفن. بنهاية هذه السردية نعلن موت الفن. وليس الفن معناه موت العمل الفني وإنما موت المبادئ الكبرى التي قام عليها الفن. «ولقد كانت هذه السردية كما بدا لي هي التي بلغت نهايتها. حكاية قد انتهت، ولم أكن أعتقد أنه لن يكون مزيد من الفن مثلما يوحي به لفظ موت» (دانتو، 2021، صفحة 37). وكأن دانتو يشير بنهاية الفن، لموت الروح التي أبدع فيها الفن، أو موت روح الفن كما أشار هيجل. وعليه فإن الفن المعاصر يفتقد إلى هذه الروح. لذا أعلن نهاية الفن، ذلك أن الفن هو فن الكولاج collage كما عرفه ماكس

إرنست. حيث أن الإنسان المعاصر ينظر للعمل الفني على أنها ما يوجد في المتاحف من أعمال قديمة ويتذوقها من خلال النظر اليها خارجيًا. لكن لم ينظروا إلى الروح التي تسكن هذا العمل الفني. فهم بنظرون إليه كجماد دون روح، لذا فقد الفن المعاصر فنيته. فهل نهاية الفن تعني موت الفن؟.

فنهاية الفن تعني نهاية القصد بلغة هوسرل والغاية من العمل الفني. لم يعد القصد من العمل الفني في الفترة المعاصرة خدمة الإنسانية، أو الإنسان ككل. بل أصبح الفن دون هدف (الفوضوية). ولعل لوحة السوداء Blak painting التي رسمها آدراينهارت 1962 وهي عبارة عن زيت فوق قماش، عندما تنظر إلى هذه الصورة لا تحمل شيء، بل لا معنى لها. إذ العمل الفني يجعل منك تفهم أشياء. لكن هذه الصورة السوداء لا توحي بأي شيء. وغدى الفن دون هدف، بل وضع الفن في خدمة إيديولوجيات شخصية وسياسية (رواية هوارية) لذا مات الهدف من الفن، أو القصد من الفن.

فبعد نهاية القصد من العمل الفني، لم يعد بإمكاننا فهم غاية الفن، والفلسفة تدعونا دائمًا إلى فهم الغاية. يقول هيجل في هذا الصدد: «يدعونا الفن إلى تبصر عقلي، وذلك ليس بغرس إبداع فن من جديد، بل من أجل معرفة ما هو الفن فلسفيًا» (دانتو، 2021، صفحة 56). إن الفن الذي لا يؤدي إلى غاية أخلاقية وجمالية إنسانية يشبه الهرطقة. يجب دحضه فلسفيًا. واستئصاله من دائرة الفن. فلا يحسب على الفن ما ليس فن. فهل يمكن وفق هذا التصور الفوضوي للفن فهم الفن؟.

**2/ هل هناك فعلا نهاية للفن؟.**

**2.1/ من المحاكاة إلى الفوضى (نظرية الانمحاء).**

لقد ظل تاريخ الفن إلى غاية الفن الحداثي قائم على فكر المحاكاة بتجسيد الأشياء وتشكيلها كما يراه الفنان، من خلال صنع تمثال لإنسان. أو محاكاة صورة لمنظر طبيعي وغيرها. لكن مع الفن الحداثي الذي ظهر مع تغير النمط الفلسفي للفلسفة الحديثة، تغير طابع الفن. أو لنقل منذ اللحظة الديكارتية، التي غيرت تاريخ الفكر، بأن جعله يتجه إلى الداخل. أي من التأمل في الطبيعة، إلى التأمل في الذات، انطلاقًا من الذات عينها (أنا أفكر). فتغير النظر إلى الفن من محاكاة الطبيعة إلى تصور ما يدور في الذات وما حولها. لكن التغير الحقيقي كان مع كانط عندما تساءل كيف كانت المعرفة ممكنة؟. وعليه هل يمكن تصور فن بعيدًا عن المحاكاة؟.

وهذا حسب دانتو أثر في الفن، لم يعد الفنانون يسعون إلى تمثيل مظاهر الأشياء (محاكاة) بقدر ما يسعون نحو سؤال كيف كان الرسم ممكنًا. وبالتالي الإنتقال «من المشروع التمثيلي إلى مشروع جديد أصبحت فيه وسيلة التمثيل موضوع التمثيل... إن الانتقال من الفن ما قبل الحداثي إلى الفن الحداثي. إذا اتبعنا غريتبرغ كان انتقالا من مسمات محاكية إلى سمات غير محاكية في الرسم. ويواصل عرينبرغ مكدًا ليس لأنه كان على الرسم أن يصبح بذاته موضوعيًا أو تجريبيًا. بل لأنه سمات التمثيلية كانت ثانوية في الحداثوية. في حين أنها كانت أساسية في الفن ما قبل الحداثي» (دانتو، 2021، صفحة 43،44). لقد انتقل الفن من المحاكاة إلى الفوضوية. لأن السردية الكبرى التي قام عليها الفن قد انهارت. وبدأ الفن لا يخضع للحدود المألوفة للفن، وبدأ نظرية الانمحاء للفن. وظهر فن الباروك والروكوكو وغيرها. فبدأ الفن ينهار أو يتراجع عن سيردياته الكبرى التي شيدته.

في البداية ثار الفلاسفة والفنانون ضد فكرة المحاكاة يرون أن المحاكاة تفتقر إلى الخيال والابداع. لأنها مجرد رسم لشيء في الطبيعة وتقليده. «فسخر هيجل من الأعمال الفنية التي تحاكي الطبيعة مثل زوكسيس الذي كان يرسم عنبًا، كان الحمام ينخدع به ويأتي لينقره» (العوني، 2009 2008، صفحة 37). إن هيجل يحط من قيمة المحاكاة لأنه يرى مثل هذا الرسم يخدع الحيونات (حمام) لكن لا يخدع الإنسان. لأن هذا العمل يرتكز على الذاكرة ورسم ما هو موجود أمامك فقط. في حين أن الفن الحق قائم على الخيال والابداع الفني للفنان في تصور غاية الفن المطلقة للروح.

لكن التخلص من المحاكاة نحو الابداع تجاوز الحدود فوقع الفن في فراغ أكثر غرابة من المحاكاة. وهذا ما يظهر مع الرومانسيين. ونجد هيجل نفسه الذي انتقد المحاكاة على أنها ضد الابداع الفني ينتقد الفن الرومانسي الذي تحول في نظره إلى فوضوية وهو موت القصد من العمل الفني. وبين أن موت الفن أصبح واقعًا مع الفن الرومانسي. حيث لم يعد لهذا الفن القدرة على خلق ذوق يلبي حاجات الإنسان، نحو المعرفة المطلقة لقد تحول الفن مع الرومانسيين مجرد تقليد خالي من الروح. إذ كانت مهمة الفن أولوية الإبداع الفني كعمل على الأشياء المصاحبة له. في حين مع هذه الحركة الجديدة أصبحت تراعي الذاتية والتنميق الأسلوبي على حساب الفن ذاته. أي لم يصبح لهذا الأعمال غاية مرجوة. يقول هيجل: «حيث يمكن أن يستنبط منها بمفردات قابلة للفهم إنسانيًا، مبدأ أخلاقي أو مذهب أو قاعدة سلوكية» (هيجل،

1986، صفحة 123). فمع الحركات الجديدة غاب عن الفن غايته الأصيلة لوجوده. فتحول الفن إلى فوضوية، موت القصد، وإنمحاء غاية الفن العظمى التي وجد من أجلها.

الذي جعل الفن ينتقل إلى الفوضوية، أنه لم يعد بمقدورنا تعليم معنى الفن بمثال ما. وهذا ما ظهر مع الواقعيين الجدد والبوب والخداع البصري والسينما وغيرها. لم يعد الفن قائم على المعنى السردي للفكر البشري الحداثي، بل أصبح هذا الفن المعاصر أي بعد الثمانينات من القرن الماضي، إن صح القول اللافن. إنه فن الزيف. هذا ما يمكن أن نسميه بنهاية الفن. أي نهاية النموذج المعياري للفن.

**2.2/ الذكاء الاصطناعي ونهاية الفن الإنساني (نظرية الاستبدال).**

إن التطور التكنولوجي اليوم في مختلف المجالات قد ساعد الإنسان على حياة أفضل في مختلف الميدان. في الجانب الصناعي والتكنولوجيا وغيرها. وهذا بلغ درجة أعلى، فساعد الإنسان في رسم كل شيء وتقليده. وإعطاء صور ثلاثية الأبعاد تزيد الأشياء المنحوتة والمرسومة جمالًا. لكن هذا التطور خلق في المقابل إشكالية فلسفية كبرى في مجال الفن. وهو موت الفنان في حد ذاته واستبداله بالآلة. فهل يمكن للفن أن يستمر في ظل موت الفنان؟. كما أن الذكاء الاصطناعي أعطى أبعاد وغايات جديدة للفن، لم تكن معهودة. مما جعل الفلاسفة يتساءلون عن مصير الفن في ظل هذا التطور العلمي الرهيب.

«إن الفن قد يندثر، قد يفقد أهليته في الوجود، قد يعجز عن إثبات ماهيته في المجتماعات الصناعية حيث تغلب التقنية على ما عداها من الأشياء وحيث تفقد الأبعاد الروحية أهميتها وجدواها في الحضارة الصناعية» (العوني، 2009 2008، صفحة 7). لأن الحضارة الصناعي حضارة مادية بالدرجة الأولى. وتفتقد للجانب الروحاي. وهذا أثر سلبًا على الوجود الإنساني وإبداعته الفنية. حيث نجد هيدغر مثلا يحذر من خطر التقنية ومآلا تها على البشرية. حيث أصبح وجود الإنسان في ظل التقنية وجود زائف لا أصيل. وهذا الوجود الزائف أثر على العمل الفني وجعله هو الآخر غير أصيل أو زائف.

صحيح أن الذكاء الاصطناعي هو تقدم علمي كبير ساعد الإنسان في مختلف مجالات حياته حتي في مجال الفن. حيث أعتى الروسمات التي كانت تستغرق من

شخص أسابيع ليعملها أصبح بالذكاء الاصطناعي يمكن أن نعملها في دقائق معدودة وبجودة عالية ومتنوعية. مما قلل الجهد وسرع العمل وقلل التكلفة. مما ساعد الإنسان طثير خاصة في الصور ثلاثية الأبعاد.

لكن الذكاء الاصطناعي قتل للفن بمعناه التقليدي. حيث يستطيع الذكاء الاصطناعي أن يعطي مائات الصورة الثلاثية للشيء الذي كان يأخذ وقت من فنان أن يرسمه أو يجسده. وبل يوعطي أحسن منه، لكن دون روح. وعليه قضى على الفن بمعناه القديم، بأن توجد الظاهرة على لوحة فنية مثلا (غورنيكا لبيكاسو). لم نعد مع الذكاء الاصطناعي بحاجة إلى مثل هؤلاء الرسامين. بل الدكاء وحده يعطيك آلاف التصورات وبهذا مات الفن بمعنها التقلدي، لأن الذكاء الاصطناعي يعطي صور أو لوحات دون روح. فهو قتل روح الفن.

في المقابل قضى الذكاء الاصطناعي على الفنان في حد ذاته. (وعليه موت الإنسان، من موت المؤلف إلى موت الفنان). لم نعد بحاجة إلى الفنان بل لأي شخص مع الذكاء الاصطناعي الذي يعطيك ما تشاء من الصور واللوحات وغيرها من التعبير الفني. لقد تم استبدال الفنان بالذكاء الاصطناعي. ولكن هذا الفن أصبح موجه للجمهور ورغبات الصناع، فتحول العامل على الذكاء الاصطناعي حرفي أكثر من كونه فنان.

يذهب كلايف بل إلى أن الفن في الفترة المعاصرة وخاصة مع الذكاء الاصطناعي غير نهجه، مم أعلن عن زوال الفن بمعناه الأصيل. ودلك راجع إلى ظاهرة العمل الفني في الفترة المعاصرة أصبح مرتبط بالجمهور والمادية. مما جعل الفن يفقد خاصيته الاستيطيقية الخالصة. حيث البدائيون كان الفن في نظرهم تعبيرًا منهم عن أحاسيسهم بالشكل ومحاكاة الطبيعة. مع الذكاء الاصطناعي غدى الفن دون مشاعر. فتحول الفن في الفترة المعاصرة إلى سلطة، ففقد رونقه في التعبير عن المشاعر الصادقة للفنان. وتحول الفنان إلى حرفي يقدم عمل على ذوق الحمهور لاغ ذوق المشاعر. يقول كلايف بل: «ها هو المال أمام أعيننا، إننا لنشاهد الفن في أوروبا يسوخ رويدًا رويدًا من تصميم رافينا المثير إلى فن البورتريه المضجر في هولندا. بينما الشطر الأكبر من النحت الرومانتيكي والنورماندي يتحول إلى تلاعب قوطي بالحجر والزجاج، وقيل أن تنقضي ظهيرة النهضة كان الفن قد انطفأ تقريبًا، ولم تعد الساحة تزخر إلا بكل متكلف من صانعي الإيهام وأساتذة الحرفة» (بل، 2018، صفحة 36). هذا

إعلان صارخ على نهاية الفن عندما تحول إلى سلطة للعرض والطلب. وتحول الفنانون إلى حرفيين بدل فنانين. لقد أعلن مع غالذكاء الاصطناعي موت الفن، بموت المشاعر الصادقة مقابل المادة. وتحول العمل الفني إلى مورد مادي فقط، بدل طريق للتعبير عن المشاعر. فهل يمكن أن نسمي هذا فنًا.

فالفن الأصيل هو تشارك بين الروحي والمشاعر والصور والمظهر الفني وليس الفن كما أصبح مع الذكاء الاصطناعي مجرد شيء واحد رسم الصور. «ذلك أنه لو لم تكن للأعمال الفنية صفة مشتركة تشملها جميعًا. لكان حديثنا عن الأعمال الفنية لغوًا وثرثة» (بل، 2018، صفحة 37). فمع الذكاء الاصطناعي تم استبدال كل هذا المشعر واللإنسان (الفنان) بتمثيل مادي دون روح. لذا يعتبر الذكاء الاصطناعي قضاء على روح الفنان (روح الفن بمعنها التقليدي). لكنه مساعد للفن في كثير من الأشياء.

**2.3/ هل موت الفنان يعني موت الفن.**

قد يبدو أنه «ليس هناك وسيلة إلى الخير أعظم من الفن» (بل، 2018، صفحة 91). فهو غاية تحقيق الكمال الإنساني، بإبداع تصور إنساني للوجود. لكن المشكلة تكمن في موت الفن. وكل شيء له بداية ونهاية وعلينا أن نتوقع نهاية الفن، ذلك مثله مثل الأشياء الأخرى. فهل يمكن للبشرية أن تنجو من هذه النهاية (GOURMONT، 2021، صفحة 5). من خلال موت صانع الفن. فهل موت الفنان يعني موت الفن بالضرورة؟.

لقد كان في القديم الشخص يحكي القصص الأدبية كأساطير، ويحكيها على لسان الراوي الذي يظهر أنه أتى بالقصة (لعل نيتشه ينحى هذا المنحى من خلال زراديشت). إلا أنه في الفترة الحديثة أصبح الفنان هو الذي يحكي وهو الذي يقص. وأصبح هو الراوي والكاتب في نفس الوقت، وارتبط الفن بالفنان، «ولا يزال قوام النقد في معظم الأحيان، ينصب على القول مثلًا، إن عمل بودلير يمثل إخفاق الإنسان بودلير، وإن عمل فان غوغ يمثل جنونه، وأن عمل تستايكوفسكي يمثل رذيلته. وهكذا فإن البحث عن تفسير للعمل يتجه دائمًا إلى جانب ذلك الشخص الذي أنتجه» (بارت، 1999، صفحة 76). لقد ارتبط الفن يالضرورة بالفنان بشكل مباشر. ولم يعد الفن بمعزل عن الفنان الذي ينتجه، لذا انتشر في النقد الفني معرفة حياة وشخصية الفنان لأثرها في إنشاء الفن.

ووفق هذا التصور أصبح موت الفنان يعني موت الفن بالضرورة، أن الفن مرتبط مباشرة بالذي ينتجه. فالفنان على علاقة بالعبة الفن التي أنتجها ولا يعرف قوانين هذه اللعبة أو طريقة لعبها إلى الذي أنتجها. لكن مع تطور النقد الأدبي في الفترة المعاصرة، لم تصبح هذه اللعبة مرتبطة بمخترعها فقط، بل أصبح لكل شخص القدرة على اللعب بهذه اللعبة من خلال معرفة هذه القواعد (القارئ). لذا ذهب الشاعر الفرنس فاليري إلى السخرية من المؤلف «ذلك أن الشرط الذي بدأ فيه أن أي لجوء إلى داخلية الكاتب إنما هو خرافة محضة» (بارت، 1999، صفحة 77). لذا نجد الفن قد ارتبط بالفنان يصبح أسيرا له فقط، في حين الفن مثل الطير الحر يرحل من مكان إلى مكان، ليس حر على حياة الفنان وبيئته. وإلا لا نطلق عليه فن.

فالعمل الفني ليس مرتبط بالفنان مباشرة وبيئته وإلا لم يستطع أن يتذوقه إلا فئة قليلة من تلك المجموعة والبيئة. فحين الفن عكس ذلك تمامًا. لإاي إنسان ذات مشاعر مرهفة وذوق جمالي يستطيع أن يتذوق الفن في أي عمل. لذا لا يرتبط العمل الفني بأي شخص أو ثقافة بله رحالة للبشرية أينمات كانت. فالفن يجرد من كل شخصنة، فهو حر حرية مطلقة في التذوق. لذا موت الفنان لا يعني موت الفن بالبصرورة. إلا من ناحية واحد أن لا يعود هناك فنان.

موت الفنان وعلاقته بالفن يفهم على جانبين. الجانب الأول موت الفنان يعني موت الفن من خلال نظرية الاستبدال. أي تم استبدال الفنان بالحرفي أو الذكاء الاصطناعي. ومن نطرح سؤال قصد الاستشكال لا الإجابة. يهل يمكن للفن أن ينمو بعيدًا عن الفنان الذي ينتجه؟. بالضرورة تكون اللإجابة بالنفي. هذا المسخ المعاصر للفن يؤدي إلى موت الفن. وذلك بموت القصد من العمل الفني. لقد أصبح الفن مع الذكاء الاصطناعي مجرد طبع صور فقط خالية من القصد والمعنى. فاستبدال افنان بالذكاء الاصطناعي يعني نهاية الفن بنهاية غايته العظمى.

والجانب الثاني الذي يحمل وجهة نظر بأن موت الفنان لا يعني موت الفن. وذلك أن العمل الفني لا يتأثر بموت منتجه فالقارئ يعطي تأويلات لا ومحدودة للنص / العمل الفني، ويعطي معاني جديدة قد لا يعرفها الفنان المنتج للفن. لذا ربط العمل الفني بالفنان وفق هذه الزاوية يعني موت الفن بموت تأويلاه. فيصبح بالعكس موت الفنان حياة للفن. وهذا ما قصده رولان بارت بموت المؤلف. فموت المؤلف لا ينعي نهاية الفن.

**2.4/ فاسد الذوق الجمالي ومستقبل الفن، السير نحو التفاهة.**

قد يبدو أننا نعيش مجتمع التفاهة بكل تجلياته، وفي مختلف مستوياته. حتى بلغت بالتفاهة أن تسيدت مجال الفن. وأصبح يوصف المشهد التافه بالعمل الفني. أليس هذا فساد الذوق الجمالي في أبهى صوره؟. لقد أصبح التافهون يسيطرون على كل شيء وخاصة بعد ظهور وسائل التواصل الجتماعي الحديثة، حيث أصبحت كل رداءة وتشويه يعتبر محتوى جاذب وفني. لقد أصبح الفن مع هؤلاء مجرد مسخ بلا روح. إنه وجب تسميته عفن بدل فن. لقد انشغلوا بالعرض عن الجوهر. حبتى بلغى بإدخال الكلام الفاحش في الرواية على أنه تعبير واقعي للحياة. فهل الفن يقتضى فساد الذوق الجمالي واستعمال الكلامات الفاحسة البذيئة؟. أي تذق لهذا الفن.

لعل آلان دونو على حق عندما استنكر دخول الفنان والفن المعاصر في مرحلة من تفاهة السوق والمؤسسة مما قضى على الذول الجمالي للأعمال الفنية يقول: «يستنكر عدد من الفنان، مثل درايس فيرهوفن، حقيقة أنه في الفترات الأخيرة صارت مأسسة الفن institualization of art تحبط مساعي كثير من الفنانين أن يكونوا فنانين تخريبيين. إن أعمال هؤلاء الفنانين، وفق ما تذهب إليه الرواي، صارت منمطة لإرضاء توقعات وزارة الثقافة، المتاحف، وغيرها من الأكاديميات... إنه أمر تخريبي أنتبه، هنا» (دونو، 2020، صفحة 289، 290). لجرى وفق دونو في الفترة المعاصرة تخريب معنى الفن وتتفيهه من خلال التافهين. لم يعد للذوق الجمالي معنى في ظل سلطة السوق والمؤسسة. بل يعد يعنيها الذوق الأصيل أصلاً. ذلك أن الذوق السوقي في تحقيق الربح قد عكر تذوق الجمال.. لم يعد ينظر للعمل الرفيع من غيره، ذلك أن التفاهة غزت كل شيء. وأصبح مدعي الفن/ التافهون يريدون أن يصلوا إلى الشهرة والمال دون فن راقي. بل مجرد مسخ فني، إنه نفس مارأه نيتشه عندما تكلم عن الشعراء المنحطين الذين يحركون قاع البركة من الوحل حتى يظهرو أنهم عمقين. لكن في الحقيقة هو مجرد ركاد من الطين لا غير. لقد قتل التافهون الذوق الفني الأصيل. لم يبقى إلى مجرد مسخ من الذوق.

لكن هل نستطيع أن نحكم عن نهاية الفن في المستقبل وعدم عودة الذوق الرفيع. فلا شك أن الحكم بفساد الذوق إلى الأبد، قول يجافي الصواب المنطقي والعقلي. ذلك أن انحطاط الذوق في وقتنا قد يعقوبه مرحلة عليا من الرقي والذوق الجمالي. فحركة التاريخ كما قال ولتر بنجامين هي حلقة دائرية مستمرة من الطوارئ. ففساد الذوق في

عصرنا نتيجة التفاهة، هو مجرد مرحلة قد تزول بزوال موجبها.

**الخاتمة:**

نصل في الأخير للإجابة عن الإشكال المطرح منذ البداية هل نهاية الفن ممكنة إلى مجموعة من النتائج أهمها:

- نهاية الفن كتصور فلسفي لم تأتي من فراغ، وإنما هناك مجموعة من النهايات أدت إلى تضور نهاية الفن في الآخر. بداية من موت الإله عندما أعلن نتيشه على لسان زراديشت أن الإله قد مات، ولم يعد لوجود إله يحد من قدرة الإنسان، إنها موت الوصاية. ثم بعد ذلك أعلن موتن الإنسان بموت المؤلف مع رولان بارت وأصبح من غير الضرورو حضور المؤلف مع النص، فحضور يقتل المعنى المتعدد الذي حمله النص. وهذا قريب جدا من إعلان موت الفنان. ومنه هاية الفن. واللحظة الثالثة أعلن موت المعنى. فعبذ هذه النهايت الكبرى في تاريخ الفلسفة جاء في الأفق الإعلان موت الفن باعتباره غاية عظمى واغنسانية وذاتع دلالة. هذه الصيغ كلها تم الإعلان عن موتها فمات الفن كمرحلة أخيرة.
- أن نهاية الفن مصطلح قصد به تبدل تاريخي في النظر إلى الفن، بمعنها الإبداعي المربوط بغاية. إذ نهاية الفن تعني نهاية السرديات الكبرى التي أنتجت الفن، وتوقف هذه السرديات في لحظة تاريخة معينة. حيث نجد دانتو يؤكد ذلك بقوله : «فقد عنيت حقًا الإعلان عن أن نوعًا من الانغلاق قد حدث في التطور التاريخي للفن، وأن حقبة من الإبداع المذهل استمرت ربما لستة قرون في الغر ب قد بلغت النهاية. وأن كل فن سيبدع منذ تلك الفترة فصاعدًا سيكون موسومًا بما كنت مستعدًا لتسميته سمة ما بعد تاريخية». إن نهاية الفن تعني توقف الفن عند لحظة تاريخية معينة. لم يستطع بعدها الإبداع.
- الإعلان عن موت الفن ظهر جليًا مع الذكاء الاصطناعي أو ما أطلق عليه نظرية الاستبدال. لقد استبدل الفنان بالآلة، ونعد بحاجة إلى الفنان مع الذكاء الاصطناعي. ويمكن أن يعطي لنا مائات الصور واللحوت ذات أبعاد ثلاثية في لحظات معدودة. لكن هذا الاستبدال للفنان بالآلة قضى على الفن بمعناه التقليدي وهي الغاية من الفن. فأصبح الفن مع الذكاء الاصطناعي محاكاة للفن دون روح، فأفرغ بذلك الفن من فنيته. وقتل المشاعر المصاحبة للعمل الفني. ذلك أنك الفنان كإنسان يعبر عن مشاعره الإنسانية بالفن. فالذكاء الاصطناعي قتل

أهم خاصية للفن وهي التعبير عن المشاعر والقصد. فالفن الأصيل هو تشارك بين الروحي والمشاعر والصور والمظهر الفني وليس الفن كما أصبح مع الذكاء الاصطناعي مجرد شيء واحد رسم الصور

- كما أن موت الفنان لا يعني بالضرورة نهاية الفن. قد يكون الفنان هو العنصر الأساس في العمل الفني وهو محرك الفن، لكن موته لا يعني بالضرورة موت الفن كتصور للوجود الإنساني إذ الفن قد يحيي من خلال القارئ. وكثير من الأعمال الفني ة لم تظهر للعلن إلا بعد موت أصحابها. والقارئ هو الذي أعطى لها تأويلات جعلت من هذا العمل يرتقي إلى مراتب عليا. فمثلًا العمل الذي قدمه نتيشه من خلال «هكذا تكلم زراديشت» لم يجد صداه إلا بعد موت نتيشه. وإنكباب القراء على قراءة هذا العمل وإعطاء تأويلات عديدة له فأصبح هذا العمل حي. فموت الفنان لا عني موت الفن بالضرورة رغم أن موته قد يؤثر عن رقي الفن ونتاجه.

**قائمة المصادروالمراجع:**


1. REMY DE GOURMONT .(2021) .La fin de l’art.
2. أرثر سي دانتو. (2021). بعد نهاية الفن الفن المعاصر ونهاية التاريخ.، البحرين: هيئة الثقافة والأثار.
3. آلان دونو. (2020). نظام التفاهة. لبنان: دار سؤال.
4. المنذر العوني. (2009 2008). هيجل ومسألة موت الفن. تونس: جامعة تونس.
5. جميل صليبا. (1982). المعجم الفلسفي ج2،. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
6. روجيه غارودي. (1979). البنيوية فلسفة موت الإنسان. بيروت: دار الطليعة.
7. رولان بارت. (1999). همسهسة اللغة. سوريا: مركز الإنماء الحضاري.
8. فرديريش نيتشه. (2013). هكذا تكلم زرادشت. الجزائر: دار الألمعية للنسر والتوزيع.
9. فريدريش هيجل. (1986). الفن الرمزي الكلاسيكي الرومانسي. بيروت: دار الطليعة .
10. فيكتور فرانكل. (1982). الإنسان يبحث عن المعنى. الكويت: دار القلم.
11. كلايف بل. (2018). الفن. المملكة المتحدة،: مؤسسة هنداوي سي آي سي.

# الحداثة والتفاهة: من إنسان الوسط إلى إنسان التميّز والاستحقاق

# Modernity and Mediocrity: from the intermediary to the man of excellence and merit

**د. سرير أحمد بن موسى**
**قسم العلوم الاجتماعية، جامعة عين تموشنت**

**مقدمة:**

إن الحداثة ليست مجرّد مفهوم سوسيولوجي أو سياسي، ولا حتى مفهوم تاريخي بأتمّ معنى الكلمة، بل هي نمط حضاري يتعارض مع النمط التقليدي، أي مع الثقافات السابقة عليه. إنها لحظة انتقال من مرحلة قديمة إلى مرحلة جديدة. فكلمة حديث Moderne مشتقة من اللاتينية Modernus ومعناه ما هو جديد وراهني في مقابل القديم. والحداثة من حيث هي ظاهرة حضارية تتميز بجملة خصائص، فهي تعبّر، أولا، عن حالة الاستقلال الذاتي وإرادة التحكم التقني في العالم عبر مشروع العقلنة، وتعكس ثانيا، عملية نزع النظرة السحرية عن العالم Désenchantementوإحلال سلطة العلم والمعرفة محلّ سلطة الآلهة، كما تتجه أيضا، نحو تفكيك أبعاد الوجود الفردي والجماعي، وهذا ما يعرف بالعلمنة، وأخيرا فهي تنمّي القيم الإنسانية التي طوّرها فلاسفة الأنوار. وتتضمّن كلمة حداثة Modernité لفظة موضة Mode أي ما يوافق ذوق العصر، وعادة ما ينظر إلى الموضة بوصفها ظاهرة سطحية، تتطلّب مواكبة واعتناق ما يروّج من مستجدات (التكيف مع ما هو سائد). لكن الحداثة تستدعي أيضا مفهوم الحركة، فأن يكون المرء حديثا، يعني أن يكون ديناميا، لا يفتر عن الحركة، أن يكون متفتحا وغير جامد على حال واحد، ولا حتى سكونيا، أي أن يكون مميّزا.

هذه المفارقة التي يحيل عليها مفهوم الحداثة، بين كونه يستدعي ضرورة مواكبة المستجدات والتكيف مع الوسط، وبالتالي أن يكون الإنسان في الوسط Médiocre (عاديا وتافها)، وبين أن يكون-مفهوم الحداثة-ديناميا، متصفا بالحركية قادرا على أن يضمن للإنسان التميّز اللازم لتحيين إنسانيته، هي ما يدفعنا إلى التساؤل: كيف السبيل إلى ربط الحداثة بأهلية وتميّز الإنسان في عالم يهيّئ هذا الأخير، باستمرار، للتفاهة؟

كيف يمكن تجاوز النزعة الاستهلاكية الخالصة للحداثة، المجرّدة من القيم الأخلاقية، والمعلية من شأن التفاهة والإنسان الوسط، باتجاه إرساء ثقافة وقيم التميّز والارتقاء لضمان التقدّم الحقيقي؟

لمحاولة النظر في هذه الإشكالية نقترح الخطوات المنهجية التالية:- مقدمة -في العلاقة بين الحداثة والتقدم-تناقضات الحداثة (الحداثة المنحرفة) -الحداثة والتفاهة: إنسان الوسط -التفاهة وجدلية الوسط والفرد – خاتمة.

**1-في العلاقة بين الحداثة والتقدّم:**

يحيل مفهوم التقدّم Progrès على فكرة السير إلى الأمام، أو الحركة إلى جهة معينة Progression، وهو ضدّ التراجع والتأخر. والتقدّم الحقيقي هو التقدم المتصل، وهو متناه يتجه إلى تحقيق غاية معينة في مجال محدود، وغير متناه أي الانتقال الضروري المتصل في شروط معينة من حدّ سابق إلى حدّ لاحق. والتقدّم وإن اختلفت صوره وأشكاله فهو هو في الجوهر. إنه انتقال تدريجي في نظام متّصل من الأدنى إلى الأعلى، أو من النقص إلى الكمال (صليبا، 1982). التقدم إذن هو حركة باتجاه ما هو أفضل وأحسن للمجتمع وللإنسانية، فهو بذلك مرادف للتطور منظورا إليه كتحسين كيفي وكمّي لشروط حياة الإنسان. يستفاد من هذا التعريف للتقدّم ارتباطه بالحداثة Modernité، حيث يظهر على أنه خاصية للحداثة، فهو مبدأ أساسي لها ينصّ على أن اليوم يمكن أن يكون أفضل وأحسن من الأمس، وغدا يمكن أن يكون أحسن من اليوم. حداثة التقدّم تدمج التطور. والملاحظ أن فكرة التقدّم هذه تتضمّن قطيعة مع الرؤية الثيولوجية للعالم التي سادت لفترة زمنية طويلة، وتحلّ محلّها رؤية مغايرة تقوم على العلم والتقنية. إن حداثة التقدم التي نعيشها اليوم تقع ضمن إطار أكسيولوجي، أي في إطار وعي بالقيم، فهي إذا كانت قد تعلّقت بالحاضر، فإنها تمثّل بالنسبة للماضي أو التراث تكملة، تجاوزا أو تحسينا. وهي تتجلّى أكثر وضوحا في المجال التقني، فكلّ تقنية جديدة تتجاوز تقنية سابقة لم تعد فعّالة، فالفعّالية والأداء الخاص بوسيلة ما هي المعيار والمرجع الضابط في هذا السياق. يقول الفيلسوف الكاميروني «إبنيزير نجوه موويل» Ebenezer Njoh Mouelle(1938) -» من الأرجوحة إلى السيارة مرورا بالدراجة الهوائية، الحركة هي حركة التقدّم».(Mouelle, 1998)

هكذا تتحدّد الحداثة بمجموع العمليات المشجّعة على الإبداع، والاختراع، وعلى

تحسين شروط حياة الناس، لذلك لا يمكن أن يقود التحديث إلى التطور إلاّ إذا كان قادرا على ترقية الإنسان باتجاه نمط حياة مؤنسن، بدلا من أن يكون مجرّد تعبير عن الحاضر أو عمّا هو راهني. فالدور الإيجابي للحداثة المتمثل في تحقيق التطور والتقدم، يرتبط بتحسين الأدوات والوسائل التقنية وجعلها أكثر فعالية وأداء. والهدف الأسمى المتمثل في تحقق الإنسانية يساعد على الانبثاق في بعده المزدوج: من جهة، انبثاق كائن مبدع يتحرّر باستمرار، يجد الوسائل والحلول المناسبة للصعوبات والعقبات التي تعترضه، ومن جهة ثانية، انبثاق مجتمع جديد يوفّر الرفاهية ويسهّل حياة الإنسان الحديث. ها التحوّل يدخل الحداثة تدريجيا في الوقائع والأحداث. لم تعد الحداثة في الفكر فقط، بل في الأشياء وفي الحياة اليومية أيضا، وذلك بواسطة عقلنة كلّ الأنشطة الإنسانية، وخاصة عبر الوفرة الإنتاجية. ممّا جعل الحداثة تقلب بهذا الفعل الواقع السوسيواقتصادي. لقد أصبحت عالمية في نتائجها وتأثيراتها، تمسّ الإنسان الحديث في عالمه الذهني كما في حياته المادية.

لكن مع ذلك يمكن أن يكون للحداثة طابعا سلبيا، أو ما يمكن تسميته بانحراف الحداثة. نتحدّث عن الحداثة السلبية عندما يصبح الفرد خاضعا لمنطق حداثي محدّد باعتباره « بحث لامشروط عما هو راهني أو جديد» (Mouelle، 1998). ومثل هذه النزعة الحداثية ليست في الأصل إلاّ نزعة تعاظم Snobisme الإنسان التافه، الذي يهدف إلى البحث باستمرار عن الجديد كقيمة في ذاته. وقصد التعمّق أكثر نذكّر في هذا السياق أنه في المرحلة الأولى من العصر الصناعي، الذي تشكّل كنمط أول للمجتمع الحديث، قد تمّت إضافة إلى جانب قيم الأنوار (الحرية) قيم أخرى أكثر أداتية تمكّن من بلوغ نفس الغاية المثالية التي حملها الأوائل. إن عبارة عصرالتنوير التي ظهرت خلال القرن 18م، استعملت باستمرار من طرف أدباء وفلاسفة، للتعبير عن الخروج من فترة ظلام وجهل والدخول في عصر جديد يستنير بالعقل والعلم واحترام الإنسانية.

التنوير يعلن التقدّم في مجال التشريع، وتشييد المعرفة، مجيء الحرية الإنسانية بضبط شروط التحرّر، والاستقلال من كل صور الوصاية الخارجية. يتعلّق الأمر بنمط فكري وسلوك ذهني يستدعي أن يتعلّم الإنسان استخدام عقله، وعدم الاحتكام إلى أي شيئ آخر غيره « التنوير هو خروج الإنسان من قصوره الذي اقترفه في حق نفسه. وهذا القصور هو عجزه عن استخدام عقله إلاّ بتوجيه من إنسان آخر. ويجلب الإنسان

على نفسه ذنب هذا القصور عندما لا يكون السبب فيه هو الافتقار إلى العقل، بل إلى العزم والشجاعة الذين يحفّزانه على استخدام العقل بغير توجيه من إنسان آخر. لتكن لديك الشجاعة لاستخدام عقلك، ذلك هو شعار التنوير»(Kant, 1991) . بخلاف العصر الوسيط أين كان الإنسان يخضع لسلطة التراث، لسلطة القدماء والسابقين، فإن القرن 18م قرن التنوير، يعيد للإنسان كرامته الأنثروبولوجية، باعتباره الذات المتعالية التي تحدّد مبادئ العقل النظري والعملي. هذا المسار الذهني الجديد مكّن الإنسان من إزالة النظرة السحرية للعالم désenchantement، حيث تفككت الرؤى السحرية والأسطورية، والمفاهيم الدينية والميتافيزيقية، وكلّ أشكال الحياة التقليدية، فتولّدت ثقافة دنيوية (حنيفي، 2016). لم يعد العالم بنية مقدسة بل واقع معقول، يمكن اكتشاف قوانينه بواسطة الملاحظات المنهجية. وفي هذا السياق يأتي تصريح رونيه ديكارت في «خطاب المنهج» أنه من أجل البحث عن الحقيقة في العلوم واستخدام العقل يجب: « بدل هذه الفلسفة التأملية التي ندرّسها في المدارس، يمكن إيجاد ممارسة، بواسطتها نعرف قوة وأفعال النار، الماء، الهواء، الكواكب...» (Descartes, 1953).

إن حداثة التقدّم المشار إليها سابقا تتضمّن فكرة التجاوز، التعالي، إستبعاد كلّ تقنية أو أداة لا تتوافق مع جدلية الزمن، وديناميكية المجتمع. وهنا وجوب التمييز بين ما هو متجاوز Ce qui est dépasséوما هو خارج عن الموضة ce qui est démodé. في التجاوز نسجّل التطور والتقدّم والتحسين لتقنية ما على مستوى نتائجها وفعاليتها بالنسبة لتقنية أخرى. في هذه الحالة يعني التجاوز استبدال تقنية بأخرى أكثر فعالية وأداء. أما ما هو خارج عن الموضة، أي ما لا يحترم معايير الموضة يمكن ألا يتمّ تجاوزه، كما هو الحال مثلا بالنسبة لبعض عادات اللباس، التي قد تكون مخالفة للموضة بدون أن تكون متجاوزة. وهكذا فإن الخارج عن الموضة Le démodé يتوافق مع حداثة الأمس، مع الممارسات والعادات القديمة التي لم يتم تجاوزها. من هنا إمكانية أن يعود ما ليس بموضة (قديم) إلى الموضة (حديث)، مادامت حداثته هي من نظام زماني، لفترة محدّدة ولا تترتب عنها بالتالي أية اعتبارات قيمية. ما يعتبر اليوم أنه خارج الموضة، ويقع في إطار حداثة الأمس، يمكن أن يصبح حديثا في المستقبل. فالقديم لا يستبعد التجاوز، ولا التطور والتقدّم، إذ يمكن تحيينه في المستقبل. القديم ليس سوى مسألة زمنية – مدّة محدّدة-بينما التجاوز لا يقبل المحافظة على القديم ويلغيه جذريا.

إن حداثة التقدّم تقوم على تحسين تقنيات وأنماط الحياة، ويتعلّق الأمر هنا بإبداع وابتكار أساليب تمكّن من تجاوز نمط حياة أقلّ تفتّحا باتجاه نمط أكثر تفتحا. إنه الطابع الحقيقي للحداثة الذي يجب على الإنسان أن يطلبه حتى يدخل معترك التطوّر. ما يحتاجه الإنسان ليس التعاظم وال تفاخر snobisme المتمثّل في « الخضوع اللامشروط للحاضر، المعتبر في ذاته كقيمة «(Mouelle، 1998)، ولا الارتباط الغريزي بما هو راهني أو جديد، بل حداثة ضرورية تدمج معيار التقدّم التكنولوجي الذي تسجّله كتقدّم. لهذا يجب أن تكون التقنيات المسماة حديثة في خدمة تفتّح الإنسان بدلا من أن تكون أداة استلاب، أي أن تكون أداة للتحرّر لا للاغتراب. «فالحداثة لا يجب أن تكون، مجرّد مسألة تكيّف شكلي مع الحاضر، بل هاجس لتحسين فعلي للوضع الإنساني» (Mouelle، 1998).

التقدّم وفق هذا المنظور للحداثة هو ذلك الذي يقود الإنسانية نحو مستقبل أفضل. يجب أن يكون معيار التقدّم إذن هو الإنسان كغاية لا كوسيلة. هذا التقدّم الذي طوره فلاسفة الحداثة يجب أن يهدف إلى تفتح وتحرّر الإنسان، وتوفير شروط تحقّقه. لذا لابدّ من اليقظة واعتماد مبدأ الانتقائية، ومبدأ الحذر في كلّ ديناميكية إنتاجية. ماذا ننتج؟ لمن ننتج؟ ولأية غاية؟ إذا كانت الإجابة للإنسان، فإننا نعتقد أننا أمام المعنى الصحيح الذي يجب أن يأخذه مفهوم التقدم. هناك تقدّم عندما نعطي غايات إنسانية لكلّ مؤسساتنا. إنه المبدأ الأساسي لكلّ حداثة، ولكلّ محاولة لمواجهة التحديات العالمية للقرن 21م (السلام، حلّ النزاعات والأزمات العالمية). التقدّم الأصيل هو ذلك الذي يرتكز على مسلّمة التعامل مع الإنسان كذات-قيمة، وكعنصر محوري لكلّ عملية الحداثة، وليس مجرّد موضوع-أداة. إنه التصور الإيتيقي للحداثة في مقابل التصور المادي الأداتي. فالجديد لا يكون حديثا بالفعل إلاّ إذا ساهم في تفتّح الإنسان وفي سعادته، وكلّ حداثة لا تتعاطى مع التقدّم بهذا المعنى فهي لن تكون إلاّ أداة اغتراب وتشيّؤ، وبالتالي تراجع. ولهذا أكّد «شارل تايلور» Charles Taylor على ضرورة توجيه مكتسبات الحداثة « باتجاه الهدف الأسمى، بدلا من أشكال متدهورة» (Taylor, 2002). يجب أن يكون العلم والتقنية والحضارة عموما في خدمة المجتمع والإنسانية.

**2-تناقضات الحداثة (الحداثة المنحرفة):**

ارتكزت الحداثة الفلسفية على ثلاثة أسس، أو بالأحرى على ثلاثة مفاهيم متعلّقة

بالوجود والمعرفة والقيم، وهي: الذاتية، العقلانية والعدمية.

مفهوم الذاتية Subjectivitéهو أول المفاهيم المشكلة لقاعدة الحداثة الفلسفية « الحداثة هي أولوية الذات، انتصار الذات، ورؤية ذاتية للعالم، فأصبح الإنسان الحديث يدرك نفسه كذات مستقلّة، لا تعلن تميّزها عن الطبيعة فقط بل تغزو هذا العالم لتجعله مقاسا بالمقياس الإنساني. وهذه الفكرة هي نتاج الديكارتية (الكوجيتو الديكاتي). ومن نتائج الذاتية أن أصبح العالم صورة أو تمثلا فنغزوه أو نحوله إلى موضوع عبر ضبط قوانينه حسابيا.... كما ترتب عن الذاتية انكفاء عالم الآلهة على ذاته وأفول حضورها في العالم كما بينا ذلك سابقا، فأصبح الإنسان الحارس الوحيد للعالم.

الأساس الثاني هو العقلانية Rationalité القائل إن لكل شيء سبب معقول، وهو ما تجسّد مع العلم الحديث، وتجاوز الميتافيزيقا، أي تمثّل العالم بطريق الملاحظة التجريب. أمّا الأساس الثالث فهو مفهوم العدمية Nihilisme، ومعناه أن «لا قيمة للقيم». فعصر الحداثة أفقد القيم كلّ معنى أو حقيقة، أي أن الحداثة هدمت الميتافيزيقا التي تكفلت في الماضي بضمان قيمة القيم. فالعدم افترس الأخلاق والدين (الطائي، 1996). وقد جسّد عصر التنوير (القرن 18م) هذه القيم الحداثية: العقلانية، الحرية، الوعي، التقدّم...الخ. أما على المستوى الاجتماعي، أي على مستوى تقييم النتائج الاجتماعية للحداثة، فقد أفضت الدراسات النقدية للمجتمع، خاصة مع رواد مدرسة فرانكفورت إلى إدانة جذرية لعقل التنوير، من خلال تعرية الوجه التقنوقراطي والوضعي للنظم الاجتماعية المعاصرة (صعود النازية، الحرب العالمية الثانية...)، حيث بدا التنوير وكأنّه مجرّد حلم أو كما أنّ أحلام القرن 18م انقلبت إلى كوابيس، والتقدّم انقلب إلى بربرية وهمجية. هذا ما كشفه كلّ من «هوركهايمر وأدورنو» في « جدلية التنوير»، ثم في «أفول العقل» عند هوركهايمر، حيث تمّ إبراز كيف أن العقلانية تحوّلت من أداة للتحرّر إلى أداة للهيمنة والسيطرة على الطبيعة لتمتدّ إلى السيطرة على الإنسان ذاته (تحوّل العقل إلى شكل جديد من الأسطورة، أسطورة العقل الأداتي بطابعه الوضعي المتشيئ)، أي أن عقلانية العقل تحولت إلى لاعقلانية بربرية أساسها المعرفة التقنية التي تصير عقلانية سياسية تحدّ من فردانية الفرد وتضبط سلوكه ورغباته (أفاية، 1998). وقد شكّل هذا النقد للحداثة منعرجا باتجاه الوضع ما بعد الحداثي، رغم الاعتراضات التي قدّمها رائد الجيل الثاني لهذه المدرسة «يورغن هابرماس» مدافعا عن مشروع الحداثة كمشروع لم يكتمل بعد، أي

أنها لم تنتهي رغم سلبياتها التي يجب العمل على تصحيحها.

إن الحداثة غالبا ما تدرك كعصر قطيعة مع الماضي، متميّزة بإيمان راسخ بالتقدّم، بالعقل وبالعلم. وعصرنا هذا تميّز أكثر بالتطور التكنولوجي وثورة في مجال الإعلام والاتصال والصناعة، وحتى في تصوراتنا للإنسانية. فقد مكنت التطورات الحديثة من تحسين شروط الحياة. لكن مع ذلك نجد أن السعي المتواصل للتقدم كانت له أيضا انعكاسات سلبية، كتوحيد Uniformisationالأذواق والأفكار والسلوكات في نموذج واحد. مع العولمة والانتشار الواسع لوسائل الإعلام، فرضت ثقافة جماهيرية موحّدة نفسها، مهدّدة التنوع الثقافي والبينثقافي باسم شبه كونية متحرّرة من كلّ قيمة إنسانية لفائدة الاستهلاك كما يقول عالم الاجتماع الفرنسي «جان بودريار»، فالكوني يهلك في العولمة. لقد أصبح الإنتاج الثقافي (فن، موسيقى، أدب....) يميل نحو الوحدة حتى ينال إعجاب أكبر عدد ممكن، وذلك على حساب عمقه وأصالته.

**3-الحداثة والتفاهة: إنسان الوسط:**

لاشكّ أن من أبرز سمات انحرافات الحداثة، تعلّق الإنسان بالحاضر باسم الراهن أو باسم مواكبة الموضة، وهو انحراف يكشف عن تفاهة إنسان الحداثة المنحرفة. فمن هو الإنسان التافه؟

ايتيمولوجيا الإنسان التافه L'homme médiocre هو إنسان الوسط (Médiocre من اللاتينية Mediocris ومعناه الوسط Moyen)، أي إنسان المركز Centre دون أن نعني بالمركز النواة، القلب في نظام التميّز، إنّه من المركز دون أن يكون مركزيا Central «(Mouelle، 1998). إنه في وسط الإنسان بالمعنى الذي يجعله في منتصف الطريق بين الإنسانية الأصيلة واللاإنسانية الكاملة. معنى ذلك أن هناك عالم للتفاهة، عالم اجتماعي، ذهني، وروحي. هذا العالم هو العالم الخاص بأكبر عدد، بالأغلبية، الجماهير، القطيع. التافه يميل إلى الجمهور العام، إلى روح القطيع، فهو يفضّل راحة التخفّي. وبابتعاده عن كلّ ما يتطلّب جهدا، يقع أسير السهولة والرتابة والروتين، سلوكه المفضّل في جميع الحالات هو الإمتثالية conformisme حيث يتبع طريق الأغلبية. إنه إنسان «المحاكاة» والتقليد في اللباس وفي مختلف الأشكال التعبيرية، الأذواق والهوايات، فهو يفتقر للأصالة والتفرّد، عاجز عن الانفصال وعلى أخذ مسافة نقدية، غير قادر على الابتعاد عن الوسط. التافه يميل نحو التطابق مع

المعتقد المشترك والعادي.

إن عالم اليوم والنظم التي تسيّره والمعايير التي يتحاكم إليها الناس فيه، كلّ هذا مصمّم بطريقة لا تسمح إلاّ لذوي الكفاءة المتوسطة، والذكاء المحدود، والمستوى المتواضع، بالتفوّق والترقي في سلّم السلطة والتحكّم في زمام الأمور، وهؤلاء هم المقصودون بكلمة « التفاهة» في كتاب «نظام التفاهة»، حيث يقول صاحبه «ألان دونو»: « إن التفاهة (بالفرنسية Médiocrité) هو الاسم الذي يشير إلى ما هو متوسط، تماما مثلما تشير كلمات supériorité وinfériorité إلى ما هو أعلى وما هو أدنى» (ألان، 2020 ص 70). وذلك ببساطة لأن هذا النوع هو الذي يستطيع اتّباع القواعد والالتزام الحرفي بالتعليمات دون سؤال، مادام سيكافؤ ماديا. الإنسان التافه إذن خاضع وممتثل، غير قادر على التفكير بنفسه، فهو يترك نفسه عرضة للانفعال والتأثر بالوقائع والأحداث وبالوسط والآخرين، فاقد لروح المبادرة والإبداعية وتجاوز ذاته. باختصار الإنسان التافه هو إنسان وسط عاجز عن تخطّي طغيان هذا الوسط. وهذا يعني بكلّ بساطة، أنه يمكننا أن نكون من وسط دون أن نكون بالضرورة من الوسط، فالانتماء إلى الوسط لا يقود بالضرورة إلى التفاهة. ولتحقيق ذلك علينا أن نكون قادرين على أخذ مسافة نقدية من العادات العامة، من روح القطيع ومن الامتثالية العمياء.

يبدو إذن أن ربط الحداثة بما هو جديد أو راهني، أي بما هو موضة (المعنى المنحرف للحداثة)، جعل من إنسان الحداثة إنسانا تافها، يعيش حالة من الاغتراب تضعه في وضع لا إنساني يعيق تطوره وتحرّره. والحداثة الحقيقية ليست غاية في ذاتها، أي مجرّد مواكبة للحاضر، بل هي أداة للتحسين الكيفي والكمي لشروط الحياة الإنسانية، تضمن للإنسان التميّز اللازم لتحيين إنسانيته.

**4-التفاهة وجدلية الوسط والفرد:**

تبيّن ممّا سبق أن المرض الذي يعاني منه الإنسان التافه هو الامتثالية العمياء. وبالعودة إلى الأسباب البعيدة للتفاهة، يمكننا القول مع «نجوه مويل» « أن ما يجعل المرء تافها، أو يدفع إلى التفاهة، هو غريزة المحافظة على الذات أو الحاجة إلى الأمن» (Mouelle، 1998). وهو يميّز هنا بين المعيار الأول، معيار المحافظة على البقاء، والمعيار الثاني المتمثّل في الحاجة إلى الأمن. غريزة المحافظة على البقاء ترتبط بالرغبة

في الحفاظ على الوسط واستدامته. لكن ما الذي يمكن أن يتسبّب في زوال الوسط؟ باختصار هو غياب الشخص الذي يمتثل. فاختفاء موضة ما قد يكون نتيجة عدم اتباعها، تماما مثلما تختفي اللغة عندما لا أحد يتكلّمها.

يتفرّد ويتميّز الوسط أو المجتمع عن غيره، بسلوكات وأنماط حياة أفراده. ومن مصلحة الوسط أن يرى جميع أعضائه يمتثلون إلى نمطه، ومعتقداته، أي إلى الثقافة والإيديولوجيا التي تحدّده. فبدافع غريزة الحفاظ على البقاء يذكّر الوسط أعضاءه الذين يميلون إلى الابتعاد عن الخط العام المشترك بضرورة الالتزام بالنظام. فهو ينتظر من الفرد الخضوع والامتثال للنظام المرسّخ في الوسط. فغريزة الحفاظ على بقاء الوسط ليست إلاّ غريزة موت، حيث الثبات والجمود والتعطّل. تفاهة الوسط إذن تتفرّع إلى تفاهة مكوّناته، فعندما يكون الوسط تافها، يسعى للحفاظ على نفسه بأي ثمن، بأن يمنع ويقاوم التوترات الداخلية. وإنسان الوسط يصبح تافها بمجرّد أن يبحث عن أمنه، وذلك من خلال تجنّب النقد والتساؤل أو التقييم، أو محاولة التمرّد والخروج على الوسط. فمن أجل سلامته وأمنه يتجنّب التافه توظيف ملكاته وقدراته العقلية، وحسّه النقدي مكتفيا بالامتثال والتقليد. وهو بذلك يدير ظهره للمستقبل وللإبداع والتجديد، وبالتالي للتطور والتقدّم. وإذا كان الوسط يفرض على الإنسان نوعا من الامتثالية بواسطة غريزة البقاء، فإنه بواسطة نفس غريزة البقاء والأمن هذه يخضع الإنسان لقوانين الوسط. فلكي يحافظ الإنسان على بقائه عليه أن يتخلّى عن أصالته وحرّيته، ليصبح عبدا للحياة وللوسط معا. لكن غريزة الحفاظ على بقاء الإنسان هي أيضا غريزة موت. فالإنسان ينقذ حياته بأن يصبح إنسان الوسط، بدلا من معارضة الوسط واحتمال خطر التدمير بسبب التمرّد على هذا الوسط، لكن من جهة أخرى يقع الإنسان في نسيان ذاته واغترابها أمام إرادة الجماهير. وهنا يفقد الإنسان أصالته وروحه الإبداعية، ويختزل إلى وجود روتيني قائم على الآلية والتكرار، وهو ما يمثّل موت الإنسان. إنه التراجع الناتج عن النمطية وغياب التجديد بفعل الوقوع في رتابة الحياة اليومية، والخضوع لسلطة القطيع.

التافه يعيش الاغتراب في أشكاله المختلفة: غياب الحكم الشخصي، التبعية لأحكام ومعتقدات الأغلبية، السلوك المنمّط، البحث عن السهولة والأمن. الإنسان التافه إنسان عادي (Normal) سلوكه مطابق للمعيار (Norme)، أي لتصرفات الأغلبية. ولذلك نجد الغالبية اليوم، بيداغوجيا، تفضّل أسلوب القصّ والسرد (Mythos) على

أسلوب الاستدلال والبرهان (Logos) كما وضّح ذلك «ألان دونو». فقانون الأغلبية ليس بالضرورة قانونا يمليه العقل، لذلك فالتوافق الحقيقي هو الذي يحتكم إلى العقل العالمي. يمكن القول إذن أنه إذا كان الإنسان التافه يوجد في المركز، فإنه مركز الاختلافات الملغاة، مركز أولائك الذين ليست لهم القدرة على التحرّر من التبعية المطلقة للمحيط أو الوسط، وعلى بناء ذواتهم.

لكن مع ذلك لا يمكن تخطّي مفارقة أو بالأحرى أزمة التفاهة، بالتركيز على الفردية أو الفردانية، لأن الإنسان التافه ليس تافها بنفسه، بل بوسطه، وتحرير الوسط يعني تحرير الفرد. هناك إذن تراتبية أنطولوجية في التعاطي مع التفاهة، موجودة بين الوسط والفرد، فالفرد ليس تافها إلاّ بدرجة ثانية، أي بفعل تفاهة الوسط، وبفعل التفوق الأنطولوجي للوسط على أجزائه، لا يمكن للتميّز الفردي أن يؤدي إلى تميّز الوسط. لذا لا ينبغي البحث عن تحرير الإنسان إلاّ بتحرير الوسط، فالتميّز الفردي مشروط بترقية الوسط لهذا التميّز.

**خاتمة:**

يمكن القول في ختام هذه الورقة أن الحداثة سلاح ذو حدّين، فإذا كانت قد مكّنت من تحقيق تقدّم كبير خاصة في المجال العلمي والتكنولوجي والاقتصادي، فإنها أنتجت في الوقت نفسه نوع من التفاهة الثقافية والفكرية، تجلّت في تدهور متطلّبات الجودة العالية، وتغييب الأداء الرفيع، وتهميش منظومة القيم، وانحطاط الأذواق واستبعاد الكفاءة والتميّز، فسيطرت بذلك فئة التافهين على جميع مفاصل المؤسسات الحديثة، وذلك على حساب القيم الأصيلة للحداثة، القيم التي دعا إليها فلاسفة التنوير( قيم الحرية والتقدم، والديمقراطية وحقوق الإنسان). ولا شكّ أن مواجهة هذا التحدّي يتطلّب وعيا جماعيا وجهدا لإعادة تأهيل التميّز والأصالة في كافة مجالات الحياة الاجتماعية. ومثل هذا النهج وحده هو الذي سيمكّن من الاستفادة الكاملة من وعود الحداثة دون الذوبان في التفاهة والتنميط والابتذال.

**قائمة المراجع:**

1. Charles Taylor .(2002) .Malaise de la modernite . Paris: Cerf.

- Ebenezer Njoh- Mouelle .(1998) .De la Modernite a l'excellence, Essai sur la signification humaine du developpement .Yaounde ،Cameroun: edition Cle.

2. Emmanuel Kant .(1991) .Reponse a la question: qu'est ce que les lumieres ?1er edition traduction , JeanFrancois Poirier et Francoise proust ،Paris، France: Flammarion . coll.Gf.

3. Rene Descartes .(1953) .Discours de la methode .Paris: Gallimard.

4. أفاية نور الدين. (1998). الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، نموذج هابرماس (الإصدار الطبعة الثانية). الدار البيضاء، المغرب، المغرب: افريقيا الشرق.

5. جميل صليبا. (1982). المعجم الفلسفي، الجزء الأول. بيروت، لبنان، لبنان: دار الكتاب اللبناني.

6. جميلة حنيفي. (2016). يورغن هابرماس، من الحداثة إلى المعقولية التواصلية. الجزائر: الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية.

7. دنو ألان. (2020). نظام التفاهة. (مشاعل عبد العزيز الهاجري، المترجمون) بيروت، لبنان، لبنان: دار سؤال للنشر.

8. محمد الشيخ، ياسر الطائي. (1996). مقاربات في الحداثة وما بعد الحداثة، حوارات منتقاة من الفكر الألماني المعاصر. بيروت، لبنان: دار الطليعة.

# كيف تواجه التفاهة التميز والإبداع العلمي قراءة في كتاب نظام التفاهة لألان دونو

# How Mediocrity Undermines Scientific Excellence and Creativity: A Critical Reading of Alain Deneault's 'Mediocracy

**أ.د راشدي خضرة**
**وحدة البحث علوم الإنسان للدراسات الفلسفة، الاجتماعية والإنسانية**
**جامعة وهران 2 محمد بن احمد**

**مقدمة:**

أصبح انتشار التفاهة وتغلغلها في كل المجتمعات وكل الطبقات أمرا مثارا للاهتمام حتى أصبح الناس يكتبون عنها من وجهات نظر توجهاتهم واهتماماتهم، ومن أهمها كتاب ألان دنو(2002) ممن انتقد بشدة الوضع الذي آلت إليه. ولكن قبلهما، كان لورنس ج. بيتر Laurence J. Peter وريموند هال Raymond Hull من أوائل الذين لاحظوا التطوّر التدريجيّ للتفاهة، إلى أن أصبحت نظاماً متكاملا. كان جوهر أطروحتهما يتمثل في "مبدأ بيتر" the Peter Principle(الهاجري،2020) الذي أوضح كيف يقصى غير التافهين. «فالتفاهة تخلخل وتخرب بعمق كل صيغ التفاهم؛ لكونها تفتقر إلى الوضعيّة النقديّة، وتحارب من يرفض الانخراط في لعبتها؛ وهي لا تكتفي بتعليق الحكم، بل تريد تشويه ما تطاوله»(العبود،2024).

والحديث عن التفاهة وازدراؤها لا يعني عدم جدوى وجودها، لأننا لا يمكن أن نعيش وضعا علميا مثاليا، أو نقدر مجهوداتنا وأهميتها ما لم نقسها بالنقيض أو ما لا نريده. ولأننا لا نريد التفاهة خاصة في إحدى ركائز تطور ورقي الأمم وهو العلم والجامعة، فإنه أصبح من الضروري الالتفاف حول أولئك الذين تنبهوا لاستشراء هذه الآفة وسيطرتها. فمن البديهي وبالنظر إلى تاريخها، تعد الجامعات منارا للعلم والمعرفة وتستقطب خيرة المفكرين والمبدعين، لكن التفاهة قد طالت المؤسسات التعليمية خاصة الجامعات ونراها اليوم تسير بخطى ثابتة وواثقة بشكل ممنهج لتكرس لفكر التسطيح والتمييع.

**مشكلة البحث**: يعتبر كتاب عصر التفاهة لألان دونو من وجهة نظر علمية، من الكتب النادرة والجادة التي تتحدث عن الظواهر التي تستشري في المجتمعات والنظم والمؤسسات والتي تصب كلها فيما يسمى بالتفاهة والتي تظهر في معناها اللغوي السخافة والانحطاط. إلا أن الكاتب يبرزها كنظام له أسسه وأساليبه ورواده وأهدافه. فالكاتب يتناول جوانب من الحياة موجودة لا يمكن رؤيتها أو الاعتراف بوجودها أو بأهميتها إلا إذا كان المتبصر بأحوال هذه الجوانب قادر على تشريحها وتحليلها وإثبات هذه الأهمية. فالكاتب أشار إلى الكثير من هذه الجوانب معطيا من الأمثلة ما يجعل ذهن القارئ يتفتح وليدركها ثم يؤمن، كنتيجة لهذا الإدراك، أن هذا العصر هو فعلا عصر التفاهة. وقد» صنف هذا الكتاب بحسب بعض النقاد في خانة أدبيات ما بعد الحداثة كاتجاه فكري يعنى بنقد مآلات وصيرورة الحداثة الغربية التي استحالت إلى تضخم النزعة المادية والاستهلاكية، بدلا من تحرير الإنسان وصون كرامته»(ياسين، 2022).

ولأن الكاتب تناول عدة مواضيع بكثير من التشتت كما يظهر في طي صفحاته مع كثير من الدقة في الواقع، فإننا سنتفرد بموضوع واحد من هذه المواضيع المهمة وهو التعليم وما لحقه من هذه التفاهة، وهذا الاختيار نابع من دافعين، أولهما أننا نعمل ونبحث ونتفاعل مع غيرنا في صميم مؤسساته ونسعى لتحقيق أهدافه، وثانيا بحكم التجربة المهنية وبنظرة الكاتب، نجد أن هذه المؤسسات تشهد فعلا نوعا من التفاهة في مفهومها الذي اعتمده الكاتب. ثم إن هناك حقيقة لا بد منها، وهي أن الفهم العميق للكتاب لم يتأتى إلا بالمجهود الذي أبدته المترجمة كتوطئة للكتاب، ورغم قراءتنا للكتاب بلغته الأصلية(الفرنسية) ثم المترجمة (باللغة العربية)، إلا أن المترجمة أضافت أهمية أخرى للكتاب عندما أبرزت جوانب كثيرة من أطروحة هذا الكتاب بكثير من الشرح والتنبيه وكان لها الفضل الكبير، في تقديمه، في وضع إطار مفاهيمي هيئ عقولنا لفهم وإدراك ما يريده الكاتب.

واختيارنا للجامعة والتعليم العالي دون غيرها من اهتمامات الكاتب في كتابه، إنما راجع لما نشعر به وما نراه ونلمسه من حقيقة ما تعانيه هذه المؤسسة التي من المفروض أنها تحمل مشعل العلم والريادة للنهوض بالأمة والدولة، أصبح أكثر همها مسايرة التطورات التي تحدث في باقي دول العالم خاصة المتقدم بأي ثمن وبطرق وسياسات أكثرها ظرفية، فلا الجامعات حققت الريادة في العلوم، ولا مرتاديها من الطلبة يريدون التعلم من أجل العلم.

وفي هذا سنقدم قراءة لبعض ما كتبه دونو عن التفاهة في الجامعة مع عدم الاكتفاء بالعناصر التي تناولها بإضافة عناصر نراها لا تقل أهمية عن تأثرها بالتفاهة كما سنعود لكتابات من أهتموا بهذه التفاهة كنظام فرض نفسه في المجتمع وبالأخص في قطاع التعليم والبحث.

**1- مفهوم التفاهة:**

لغة: تَفِهَ الشيءُ يَتْفَهُ تَفَهاً وتُفوهاً وتَفاهةً: قَلَّ وخَسَّ فهو تَفِهٌ وتافِهٌ، ورجل تافِهُ العقْل أَي قليلُه. والتافِهُ: الحقي اليسير، وقيل: الخسيس القليلُ، في الحديث: قيل يا رسول الله وما الرُّوَيْبِضة؟ فقال: الرجل التافهُ يَنْطِق في أَمر العامة؛ قال: التافه الحقي الخسيس (ابن منظور).

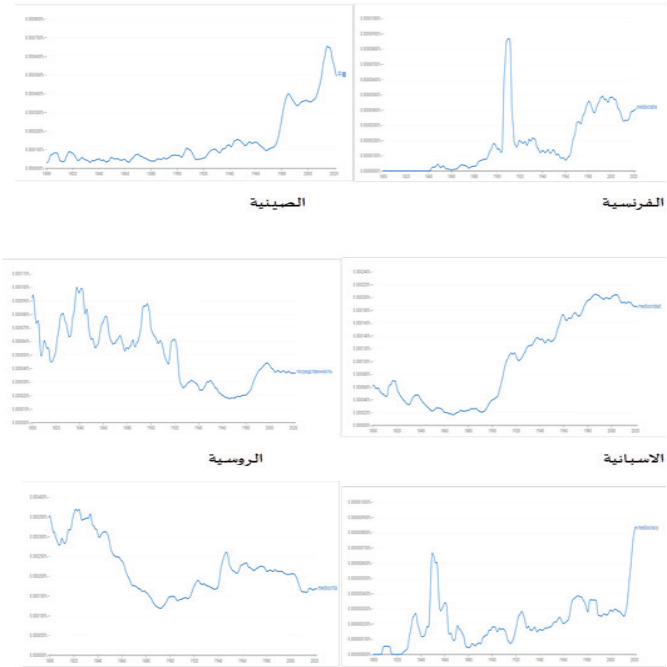
**اصطلاحا**: في العشرينيات والثلاثينيات وحتى بداية الستينيات من القرن الماضي كان مفهوم التفاهة أو تعريفها هو «فشل في تأويل (تفسير) ما هو (رصين) إما لضعف عند التافه في قدرته على فهم ما هو رصين أو علمي أو لعدم رغبته العودة للجذور (بطريقة أكاديمية وعلمية)، أما التفاهة المعاصرة فالقصد منها تحويل الأمور الجادة إلى حالة من التفاهة والسطحية ليس إلا (لمعي، 2019). ومن منظور دونو فإن التافه هو مخلوق منحط (ص74)، وله القدرة على التعرف على شخص تافه آخر(ص70)، ويستعملها للدلالة على النظام الاجتماعي أو السياسي الذي يتحكم فيه التافهون ويمكنهم من اعتلاء السلطة وفرض السيطرة وإعطائهم مزيدا من المكانة والرفعة حتى «لدرجة تصبح التفاهة مطلوبة بالفعل»(ص77).

صحيح أن تعريف التفاهة لا يظهر بشكل مباشر في كتب دونو ولكنه من خلال العنوان «La médiocratie» والذي تعني ترجمته من الفرنسية إلى العربية: دون المتوسط، حقارة (BER.2004،p528 ) وهو ما يعني الأقل في كل شيء، الرديء والضعيف من حيث الذكاء، الوعي، الكفاءة، التصرف والقدرة وغيرها من الأفعال والسلوك ورغم هذا وصلت إلى درجة تأسيس لنظام في كل مجالات حياتنا، يفرض سلطته وهيمنته ومستمر في ذلك مع اتساع دائرة مواليه من التافهين والساكتين عنه. وعليه ما تعنيه التفاهة إجرائيا في مقالتنا هذه هو عكس الجدية والخيال والنشاط والتفكر والتأمل وغير ذلك من العبارات التي تعبر عن عكس الوعي والتفكير والإبداع خاصة في مجال التعليم والبحث.

**2- التفاهة في التعليم وأشكالها:**

قبل التطرق للتفاهة في التعليم وبسبب ارتباطه بالبحث والنشر العلميين، ولمعرفة أهمية معالجة موضوع التفاهة في هذا الاطار، قمنا ببحث عن أهمية تداول هذا المصطلح بالاعتماد على تطبيق Google Ngram Viewer المتصل بـ Google Books والذي بحث في آلاف الكتب والمؤلفات عن ظهور كلمة التفاهة فيها في الفترة الممتدة بين 1800 و2022 بست لغات ( للأسف لا يظهر البحث باللغة العربية) ولاحظنا أنه باستثناء المنشورات باللغتين الروسية والإيطالية اللتين تظهر أن تداولا لهذه الكلمة منذ سنوات بعيدة، فإنه بالنسبة لباقي اللغات خاصة الإنجليزية ورغم وجود تداول لهذه الكلمة إلا أن هذا التداول كان كبيرا وملحوظا في السنوات الأخيرة خاصة الإنجليزية على اعتبارها لغة التواصل والنشر العلمي مع أن الجوهري يشير إلى أنه بدأ تداول كلمة التفاهة منذ 1825 بدون أن يكون لها معنى واضح ودقيق خاصة في القواميس العربية.

الشكل 1: تداول كلمة التفاهة في المنشورات بست لغات بين 1800 و2022.




**المصدر: نتائج البحث باستخدام تطبيق Google Ngram Viewer**

ويمكن إيعاز انتشار تداول هذا المصطلح في السنوات الأخيرة إلى ما نراه من انتشار واسع للتفاهة والتافهين خاصة مع انتشار تكنولوجيات المعلومات والاتصال التي استقطبت هذه الفئة وروجت لنشاطاتها السخيفة حتى أصبح لها متابعين ومدافعين أشغلت الكثير عن أساسيات الحياة التي ينتفع بها. وامتدادها لقطاعات حيوية، جعلها محل اهتمام ممن شعروا بفداحة استفحال التفاهة وأهمية التحسيس بمخاطرها خاصة على المستوى الفكري الذي وصل إلى حالة يتعود الذهن فيها على نمط معين من المعلومات المعلبة السريعة والجاذبة، حتى يصبح هذا النمط معيارا لا يقبل صاحبه بمعرفة لا تتوفر فيها السرعة والجاذبية (السيد، 2023، ص49).

يقول دونو (ص 95-96) لقد ابتعدنا عن عملية المعرفة أي العملية التي نكتشف بمقتضاها وعينا وما هو قادر عليه... ما عادت عملية الوحي الهيغلي ممكنة... صار الطريق نحو تحقيق الفكر مسدودا». ويتحدث دونو عن النزعة الإنتاجية التي أنتجت كما هائلا من المراجع التي أثقلت عقول الباحثين التي تتطلب بطئا في الفهم والاستيعاب وعرقلتها مما يشتت ذهنهم بسبب هذه المعرفة غير اللازمة والمتراكمة على حد قول Simmel.

فعلى مستوى الطلبة، أصبح جل اهتمام طلبتنا في كثير من التخصصات هو الحصول على الشهادة ولا يهمه حجم وأهمية المعارف والمكتسبات التي تحصل عليها طيلة مشواره الجامعي. فكيف ترجو من طالب كثير الغيابات وحتى إن حضر غاب عقله وحضر جسده مشغولا بالتفاهات والبحث عن تحقيق ذاته بدون جهد، بأن يهتم بمحتوى ما يتعلمه. لقد أصبح جل اهتمامهم وتنافسهم على الحصول على هذه الشهادات والدرجات لتحقيق ذواتهم وتصوير أنهم ناجحون بذلك، أصبحوا غير طموحين وغير نشيطين يركنون إلى الراحة ويرفضون الاجتهاد والسعي والإبداع والابتكار وأصبحت عقولهم تحمل أفكارا سطحية وتافهة لا ترقى إلى مكانتهم الحقيقية. وبالنسبة لدونو، فإن الحصول على الشهادة والسعي لها، ليس من اجل العلم والحكمة ولكن من أجل الحصول على المكانة الاجتماعية والبهرجة. وغالبا ما تكون هذه الشهادات لا ترقى إلى مستوى عال تناسبها بسبب عدم خضوعها للصرامة في التدقيق ونحن نرى في جامعاتنا مثلا رسائل ومذكرات رديئة المحتوى أو اجترار لأفكار سابقة أو مليئة بالأخطاء أو حتى مواضيع تافهة لا ترقى إلى مناقشة مشكلات المجتمع.

بالمقابل، تسعى هيئة التدريس وتركز جل اهتماماتها على الترقيات والبروز في المحافل العلمية مع توسع سلطة أولئك الذين يروجون للرداءة من باب تيسير الأمور والحفاظ على الاستمرارية بدون مشاكل ولا عراقيل حتى وإن كان ذلك على حساب جودة التعليم والمتخرجين، مع زيادة فئة الصامتين عن الوضع أو عزل المعترضين ويكون الأمر أكثر إيلاما عندما يكونون من أولئك الذين يتمتعون بالقدرة على الابتكار والإبداع والتجديد لينحسروا وتبقى محاولاتهم وإنتاجهم رهين التجاهل والأرشفة. وفي هذا يشير دونو (ص88) إلى ما كتبه هيدجيز من أن « جامعات النخب قد قامت بنبذ كل نقد ذاتي... فبداخل هذه المؤسسات ليس هناك ما يهم إلا المنظمة، التكنولوجيا، الترقيات الشخصية، ونظم المعلومات» مذكرا(ص89) برفض فيبر Weber للتفاهة التي كانت تغرق فيها الجامعة منذ مائة عام بسبب «تسليم نفسها لإغراء العلاقات التجارية ذات الطبيعة الاختراقية» وأصبح ينادى بأن « العقول ينبغي أن تفصل وفق احتياجات سوق العمل» وهكذا تحول الأستاذ والباحث الجامعي من منتج للمعرفة إلى تاجر.

وفي هذا أيضا، نجد أن Noccio Ordine(2019) قد ساند فكرة دونو في تناوله لظاهرة جعل التعليم سلعة والجامعات ومراكز البحث مؤسسات للربح والمنافسة فمن العقم أن ننظر إلى العلم بعين الاستثمار والمنفعة ونختزل قيمة الأشياء بمردودها المادي. وكما انحرف الفن عن إمتاع الناس وتنبيههم لأمورهم الحياتية المهمة ونشر الثقافة والقيم متجها نحو العري والانحلال لمزيد من الكسب والربح، كذلك أصبح العلم وطلبه إنما للمال والظهور وإن كان يظهر ذلك بشكل شائع في عصرنا، فقد وصف حاله منكرا عندما كتب جلبي في القرن السابع عشر أن من «يقصد بالعلم غير غايته كمن يتعلم علما للمال أو الجاه فالعلوم ليس الغرض منها الاكتساب بل الاطلاع على الحقائق وتهذيب الأخلاق على أنه من تعلم علما للاحتراف لم يأت عالما إنما جاء شبيها بالعلماء (جلبي، 1941.ص45).

وعلى خطى دونو، الذي تحدث عن تسليع المعرفة التي عدها لعبة، تحدث عطية عن تسليع التعليم إذ يقول أننا لا نخاف من تسليع المعرفة لأننا لا نملكها ولا ننتجها كما في الغرب والتي نستوردها منه، ولكننا « تفوقنا على الغرب بتفاهة فوق هذه التفاهة هو أننا سلعنا التعليم نفسه «(عطية، 2023. ص88). وساق أمثلة عن الدورات التدريبية المدفوعة التي تقيمها كليته منها دورات قام بها أساتذة ا لتقوية المدرسين في الثانويات أي على حد تعبيره عملية بيع التعليم دون تقديم معرفة جديدة. وعلى رأي

Weber فإنه « ليس من العدالة أن نسائل القصور الشخصي لأعضاء هيئة التدريس أو لوزارات التربية فنجعلهم مسؤولين عن حقيقة أن هناك تفاهات عديدة تلعب دورا مؤثرا في الجامعات. إن شيوع التفاهة إنما يعزى إلى قوانين التعامل البشري، لا سيما تعامل عدة أطراف معا»(دونو، 2020، ص91-92). وموجهة ذلك ليس بالأمر الهين.

### 1.2. التخصصات والتخصصات الدقيقة:

بالنظر إلى تعريف التخصص لغة كما جاء في لسان العرب أنه «من اختص فلان بالأمر وتخصص له: إذا انفرد به» (ابن منظور،24/7) وتعريفه اصطلاحا على أن التخصص هو، أن يتخصص عالم، أو باحث، أو دارس، بعلم واحد يتوفر على دراسته دراسة متعمقة، ويلم بمعارفه، ويخبر فنونه ومدارسه، وقد يحصل فيه على الدرجات الجامعية والعلمية العالية(الخمساوي،1992،ص237)، فقد ظهر التخصص بصفة عامة من مبدأ أن العالم لا يمكن أن يحوز كل العلوم والمعارف ويكون انشغاله واسعا ومتشتتا بينها، فظهرت حينها التخصصات ونظرا لتراكم المعارف والمعلومات، تفرعت هذه التخصصات بدورها إلى تخصصات دقيقة حيث يتمكن فيها العالم من حصر اختصاصه بكثير من الدقة. وهو ما أشار إليه ادم سميث عندما تكلم عن التخصص وتقسيم العمل وربط نجاح أي عمل باستناد من يمتلكون المهارات لقيامه دون غيرهم. وكانت العلوم التجريبية السباقة إلى ذلك، ثم تأثرت بها العلوم الإنسانية، فأصبحنا نرى عشرات التخصصات الدقيقة التي تتفرع عن علم الاجتماع أو علم النفس مثلا، ولكن افتقارها وعجزها في الحصول على حلول في مناهج تناولها للظواهر الاجتماعية أو الإنسانية جعلها أكثر احتياجا إلى تخصصات أخرى لحل إشكالياتها والبحث عن التقنيات والتفسيرات لها حتى يتم الإلمام بكل جوانبها والوصول إلى الهدف المرجو منها. وانظر كيف أن الدراسات البينية أخذت منحى نحو التصاعد في السنوات الأخيرة وأصبحت تتجمع مختلف التخصصات لتتكامل معارفها في تفسير الظواهر الاجتماعية من جوانب عدة.

ولإن كان انتشار مبدأ احترام التخصصات وتعميمه في الكثير من العلوم نابع بخصوصية كل علم ومعارفه ومناهجه وتميز أهله فيه، وأنه لا يمكن لأي كان أن يخوض فيما لا يعلم إلا بالرجوع إلى الاختصاصي بل نبذ من يتكلم في غير اختصاصه، فإن المقصود بالتفاهة في هذا هو ظهور تلك التخصصات الدقيقة التي حصرت معارف الاختصاصي في مجال ضيق جعله مجبرا أن يبقى دائما في حاجة إلى

تخصصات أخرى .فإذا كنَّا نحترم متخصصاً ملك الحدَّ الأدنى في تخصصه، فإنّنا في كثير من المواقف نحتاج إلى من هو أكثر علماً وخبرة في ذلك التخصص، ويصدق ذلك في كلِّ التخصصات بما في ذلك العلوم الإنسانية والاجتماعية والتطبيقية والنظرية وعلوم الشريعة( الملكاوي،2024). ولو بقينا في ميدان العمل والإنتاج، لنرى كيف أن الشركات الكبرى ميالة إلى توظيف من تتعدد مهاراتهم في مجالات مختلفة لاعتبارات مهنية ومادية وهو ما جعل الجامعات تتجه أكثر إلى النظر في سد احتياجات السوق

. ولكن مع التحديات والتعقيدات التي تميز هذا العصر وبالضبط في مجال تراكم المعلومات وسرعة تداولها وضخامتها، جعل الكثير يميل إلى التخصص والذي بدوره أصبح يواجه ضغوطا في اكتساب واستيعاب هذه المعلومات في مجال تخصصه فما بالك بتخصصات أخرى. وهنا نعيد طرح فكرة هذه المواجهة بين احترام التخصصات أو تعددها. وبالعودة إلى ما كتبه دونو في هذا، فقد أشار إلى وجود» فيض من التخصصات الغريبة التي ظهرت فجأة باسم الابتكار، والتميز، والإنتاجية»(ص93) مهددة بذلك التفكير الإبداعي والنقدي، و»يصبح التفكير تافها حين لا يهتم الباحثون بالملاءمة الروحية لمقترحاتهم البحثية» على حد قول دونو(ص94). في إشارة إلى سيطرة عقلية السوق التجاري على التعليم. وقد نسوق أمثلة من جامعاتنا عندما أصبحت المؤسسات الناشئة الشغل الشاغل لكل التخصصات بدون استثناء حتى تلك التي من المفروض أنها لا تتناسب مع طبيعة هذه المؤسسات وأهدافها.

وعلى هذا، يؤكد دونو على تغلغل التفاهة في عالم المعرفة والخبرة عن طريق سيادة الفكر الأكاديمي التافه وخطورة ذلك مستدلا بتراجع دور العلماء والحكماء والمثقفين لصالح من سماهم بالاختصاصيين والخبراء، حيث انقادت الجامعات وراء التفاهة مسايرة لأفكار القطيع، فلا هي نجحت في الإبداع ولا مسايرة هذه الأفكار.

### 1.3. إثارة الصراع بين العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية:

رغم أن دونو لم يشر إليها، فإنه قد لوحظ في الآونة الأخيرة إثارة مشكلة المفاضلة بين العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية، واصبح ينظر إلى العلوم الاجتماعية أنها علوم مستهلكة غير نفعية وغير ربحية، وبالتالي لا فائدة منها ولا لزوم لها مادام أنها ليست ذات نفع مادي، وفي هذا كتب Noccio Ordine(2019) متفقا مع دونو عن تحكم سيادة المال في التعليم والبحث العلمي ومحذرا من مغبة الازدراء والانتقاص بهذه العلوم،

أن هذه المَعارِف من شأنها وحدها أن تُسهِم في تطوير الفكر وفي الارتقاء بالسلوك البشري والحضارة الإنسانيّة . ويقول «إذا ألقينا السمع إلى نداء الربح والكسب دون أي نداء آخر، فذلك يعني الحكم على الأجيال الطالعة أن تكون أجيالاً من دون ذاكرة، لا تفقه للحياة ولوجودها في هذا العالم من معنى. عندئذ لا دهش أن يجد الإنسان نفسه مستقيلاً من المسؤولية التي وجد لكي يحملها: وهي مسؤولية أن يسير بإنسانيته إلى مزيد من الإنسانية» (صيداوي، 2019). فمن التفاهة إذن بمفهوم دونو أن نقيم تلك المفاضلة بين العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية استجابة فقط للربح والمنفعة المادية على حساب المنفعة الإنسانية. إن العلوم الإنسانية على اختلافها إنما تهدف إلى الحفاظ على بشرية البشر وتبحث في اهتماماتهم وأحوالهم النفسية والاجتماعية وكل ما تعلق بجوانب حياتهم وعلاقاتهم وتفاعلاتهم مع بعضهم البعض ومع بيئاتهم مهما تغيرت، وهي التي تحافظ على ديمومة النشاط الفكري ووهي القادرة على مواجهة مسعى التافهين الذين يسعون إلى تكريس النظرة الآلية والمادية والاستهلاكية للإنسان. إن العلوم الإنسانية هي القادرة على محاربة السطحية في التفكير واستغلال مشاعر الإنسان وغرائزه، والاهتمام بجوهر القضايا وعمقها تحليلا وفهما رغم المجهود والإرهاق الفكري الذي يسبب ذلك في زمن « أصبح من الصعب مخاطبة العقول مقابل سهولة كبيرة ومتاحة جدا لمخاطبة البطون والغرائز» كما يقال خاصة مع اتساع هيمنة الإعلام وتكنولوجياته الحديثة.

ومن هاهنا هجرت علوم الحكمة على حد قول جلبي (1941، ص46). وبذلك تكون روح الإنسان قد قتلت مقابل تقديس الجسد وحاجاته إذا ما جعلنا المفاضلة بين العلوم وبالأخص ازدراء العلوم الإنسانية التي أفقدها العالم المادي جوهرها وعزلها عن القيام بدروها الذي كانت عليه منذ نشأتها وهو الحفاظ على الإنسان وإنسانيته وقيمه وحيث للحكيم والفيلسوف والعالم الإنساني والاجتماعي مكانة خاصة. وانظر كيف يقدر العارف خبايا وأهمية ذلك حيث «إذا كانت هناك نهضة قادمة فيجب أن تكون من خلال تعليم معاد تشكيله في العلوم الإنسانية (دينيين، 2020. ص 125).

### 1.2. تصنيف الجامعات:

انتشرت في السنوات الأخيرة تصنيفات مختلفة للجامعات في كل العالم تعتمد على معايير متباينة، ,إذ أنه من المفروض أن يكون الهدف منها هو خلق روح التنافس العلمي، ويشير دونو( ص93) على معايير التقييم وبالتالي التصنيف والتي غالبا ما

تكون كمية وأهمها المنشورات العلمية أو الفيتيشية كتصنيف الدوريات والنشر باللغة الإنجليزية( والذي تسعى إليه الجامعات الجزائرية مؤخرا وبشكل حثيث)، والعوامل المرتبطة بالدعاية ويعتقد(ص93) أن «هذا الضرب من الحوكمة [له] اثر مفسد بشكل عميق» على التعليم الجامعي. يقول دونو( ص 95-96 ) لقد ابتعدنا عن عملية المعرفة أي العملية التي نكتشف بمقتضاها وعينا وما هو قادر عليه... ما عادت عملية الوحي الهيغيلي ممكنة... صار الطريق نحو تحقيق الفكر مسدودا». ويتحدث دونو عن النزعة الإنتاجية التي أنتجت كما هائلا من المراجع التي أثقلت عقول الباحثين التي تتطلب بطئا في الفهم والاستيعاب وعرقلتها مما يشتت ذهنهم بسبب هذه المعرفة غير اللازمة والمتراكمة على حد قول .Simmel

### 1.3. المفاهيم والمصطلحات الحديثة:

استحدث في السنوات الأخيرة الكثير من المفاهيم والمصطلحات التي سايرت التطورات الفكرية في مجالات مختلفة، لازالت محور جدل من حيث مضامينها فيتم تأويلها بفهم سيئ قد ينعكس على جدوى البحوث وأهدافها ويسوء الأمر كثيرا عندما يتعلق الأمر بالمفاهيم والمصطلحات الوافدة. والمصطلح وعاء يوضع فيه مضمون، ويتحول إلى أداة، تؤدي وتحمل معنى ورسالة (بن لحسن،2023) وإن أي خلل في هذا المضمون يخل بالرسالة التي يحملها هذا المصطلح. وتعمل المفاهيم والمصطلحات غير الواضحة والتي يشوبها التدليس على شل العقل عن التفكير السليم الهادف. فأغلب حواراتنا هي ضحايا بائسة للفوضى الشائعة في مضامين المصطلحات. وعلينا - كي يفهم كل منا الآخر، ولتحديد مناطق الاتفاق ومناطق الاختلاف، ولتنظيم حوار موضوعي وجاد وبناء - أن نبدأ بتحرير وتحديد مضامين ومفاهيم المصطلحات» (عمارة، 2004، ص 22) ولإن التفاهة كما يوق دونو تشجعنا بكل طريقة على الإغفاء بدلا عن التفكير (ص85) فإنه من الضروري مراقبة تلك المفاهيم والمصطلحات والتي ما إن تظهر ويبدأ تداولها حتى نراها محور اهتمام الباحثين والدارسين ونرى التسابق على عقد ندوات ومؤتمرات وكتابة مقالات عنها لإثبات انهم يسايرون الجديد في العلوم والأفكار حيث لا يمر يوم إلا ويظهر مصطلح جديد يروج له ليصبح الشغل الشاغل في المجتمع العلمي وتعرج عليه كل التخصصات بدون استثناء. وقد تكون المفاهيم جديدة أو تستبدل أخرى كما أعطى دونو أمثلة عنها فيقول استبدلوا السياسة بمفهوم «الحوكمة»، واستبدلوا الإرادة الشعبية بمفهوم «المقبولية المجتمعية»، والمواطن بمقولة

«الشريك». في النهاية صار الشأن العام تقنية «إدارة»، لا منظومة قيم ومثل ومبادئ ومفاهيم عليا. وقد ينطبق ذلك أيضا على التعليم. فهناك من المفاهيم الرنانة التي تثير جدلا واسعا في الأوساط العلمية من حيث دلالاتها وتوظيفها بسبب كونها تظهر في سياقات ثقافية واجتماعية مختلفة قد لا تنطبق على هذه السياقات في مجتمعات أخرى. وقد ساق عمارة(2004) عددا كبيرا من المصطلحات منها التأويل، حقوق الإنسان، العلمانية، الهوية، الوطنية، وغيرها.

**المؤتمرات والمجلات الوهمية:** كان للمؤتمرات، باعتبارها تجمعات ولقاءات علمية، غايات علمية نبيلة تجمع العلماء والباحثين والمتعطشين للعلم والمعرفة والإبداع حيث الغاية منها عرض الأفكار الجديدة والخبرات وتبادلها وتعزيز التعاون العلمي عن طريق النقاشات والحوار والاحتكاك بباحثين من جميع الاختصاصات والأماكن، حتى أصبحنا نرى مراكز وهيئات وحتى شركات ذات أهداف ربحية بعيدة عن الأهداف العلمية والتعليمية، وتستغل حاجات الباحثين من اجل مسارهم التعليمي والمهني لجمع المال والدعاية لها. ويظهر ذلك جليا من خلال الفواصل الزمنية التي تجرى فيها هذه التجمعات، وضخامة مبالغ الاشتراكات، والعناوين المفتوحة غير المحددة، والأساليب التسويقية الجذابة مثل المواقع الإلكترونية ذات التصميم العالي والدعوات المتكررة والمليئة بوعود النشر والتي تستقطب الكثير من المداخلات لا يراعى فيها النظرة العلمية والفكرية الجادة والمبدعة وغالبا ما يتم عرض مختصرات لهذه المداخلات الكثيرة مقابل غياب وقت للمناقشات والتي تهدف إليها أساسا هذه التجمعات مما يفقدها قيمتها العلمية. كما أصبحت مرئية المؤسسات الجامعية بحجم هذه الملتقيات التي تتوقف عند انتهاء أيامها حيث لا اهتمام بمحتوياتها وتوصياتها إلا ما ندر (أنظر مثلا، رو.2024،).

وفي جانب آخر، تعمل المجلات العلمية على نشر الأبحاث الرصينة وجعل نتائجها في متناول الباحثين والمهتمين للاستفادة منها لتكون مرجعا علميا يعتد به أيضا في بحوث أخرى. فرغبة الناشرين التجاريين في زيادة أرباحهم، ورغبة الجامعات في الارتقاء في التصنيف العالمي، ورغبة الباحثين في تحسين حياتهم المهنية، كلها عوامل أدت إلى زيادة الهوس بنشر الأوراق البحثية، وقد أدى ذلك إلى نمو بنسبة 47% بين عامي 2016 و2022 في العدد العالمي للأبحاث المنشورة (بولتون وكولي،2024). لكن للأسف وصلت التفاهة إلى هذا الصرح العلمي بظهور المجلات الوهمية أو المفترسة أو المختطفة التي

أضرت بالبحث العلمي ومصداقيته ونزاهته بسبب غياب التحكيم ومراجعة الأقران وأو وجود تحكيم شكلي لا يرقى إلى المستوى العلمي. وطالت هذه التفاهة التصنيف والنشر لناشرين كانوا يعدون محل ثقة علمية. إذ ظهر سحب لعديد المجلات والمقالات العلمية المنشورة في مقالات علمية بسبب الغش والتزييف والاحتيال خاصة في الخمس سنوات الماضية حيث أصبح النشر يعج بكذا سلوك والذي طال ناشرين ومجلات مرموقة علمية أحدث ذلك صدعا كبيرا في جدار الثقة العلمية لأبحاث أخرى منشورة سابقا. ويمكن ملاحظة التعديلات الدورية التي تقوم بها دور النشر وخاصة مختلف الجامعات العالمية في إعادة تصنيف المجلات والناشرين ودحرجة الكثير منها كمفترسة أو مختطفة حتى يتم قبول أبحاث منتسبيها.

إن هذه المؤتمرات والمجلات تستنزف الطاقات الفكرية للباحثين وأموالهم وجهدهم ووقتهم كما تعمل على انتشار البحوث الرديئة والتضليل وتقويض البحوث الجادة. وهنا تظهر التفاهة التي تنتقص من قيمة البحث والباحثين.

**1.2. الحصول على المعلومة والمعرفة:** حتى وقت قريب كان الباحث يستغرق وقتا طويلا بين الكتب والبحث عن المراجع والمصادر وهو من يجدها ويوظفها ويتأكد من مصدرها، وفي ظل انتشار وسائل التكنولوجيا الحديثة والتي أصبحت منبر من لا منبر له من أشباه المثقفين والباحثين والعلماء والذين أغرقوا صفحاتها ومواقعها بحديثهم وكتاباتهم المليئة بالمغالطات والسطحيات، ولإن كانت من بينها ما تتمتع بالثقة والمنفعة والدقة، فإن الكثير منها أغنت متصفحيها عن المصادر الأصلية من أمهات الكتب والمراجع وغيرها من منابع العلم والمعرفة التي كانت اصل البحث وجذوره.

وصرنا نرى باحثين لا يكلفون عناء جهد في الحصول على معلومات جاهزة، ويجترون ما اجتهد غيرهم في البحث عنه ولا يتحرون الصدق والمصداقية في هذه المعرفة والدليل ما نراه من سحب لكثير من البحوث العلمية التي تبين أن نتائجها غير صحيحة ولم يقم بها أصحابها وفق ما تفتضيه المنهجية العلمية لأن هدفهم كان النشر من أجل النشر والحصول على المكانة والاسم ضمن قائمة المشهورين من العلماء والباحثين.

**2. مقاومة التفاهة:**

وبعد هذا، كيف سنواجه أو نقاوم هذه التفاهة؟ لا يمكن التغاضي عن التفاهة التي استشرت في التعليم واكتساب المعرفة والخبرة أيضا، ومن التفاهة إن صح التعبير

ألا نلتفت لذلك ونترك الأمور تسير وفق تلك التفاهة ونترك التافهين يعيثون في أهم الجوانب الحيوية التي تضمن تفوق الإنسان حسب ما تقتضيه الحياة الإنسانية وهو العلم. إن غياب التأصيل والتفكير النقدي والتمحيصي والاجتهاد، يدعو إلى مقاومة هذه التفاهة التي لها آلياتها واستراتيجياتها التي أجبرت المجتمع العلمي من الانسياق لها والسكوت عنها باليات مضادة لا تقتصر على الكتابة والتوعية والإشارة إليها ولكن يجب أن ينظر إليها بعين الفيلسوف(ليس بالضرورة من يشتغل بالفلسفة) لأنه أقدر على التفكير في هذا الهجين من الأفكار والسلوكيات التي تحيط بنا ولأنه اقدر على توجيهنا لما يجب أن يكون عليه الحال ( طبعا في حالة حديثنا هنا عن التفاهة) لما يحمله من قوة التبصر بالبرهان والحجج في إثبات هذه السخافة وهذا الابتذال والتمييع في العلم وقضاياه خاصة أن التفاهة أصبحت لعبة على حد قول دونو يعرفها الجميع.

ولو انطلقنا من فكرة دونو التي انطلق منها لتبرير التفاهة كنظام وهو التي ترتكز على أساس أن المال الذي كان وسيلة للعيش وتوفير الاحتياجات، أصبحت صناعته المتحكمة في التعليم وأهدافه بل استعبدت نخبته لتحقيق ذلك حتى أصبح الأمر بديهيا وصارت مواكبتنا لكل جديد في الجامعات الأخرى هو ديدن جامعاتنا. إن دخولنا في معركة مواجهة التفاهة في التعليم هو مواجهة بين أهدافهما، بين المادية التي تسعى للثراء والوجاهة والمكانة الاجتماعية التي تسعى إليها التفاهة في التعليم، والقيم الإنسانية والرقي الحضاري والاجتماعي والفكري والتأمل والتفكر الذي يسعى إليه التعليم فعلا. لذا، فإن نجاح هذه المواجهة لا يتم إلا بالعودة إلى الأهداف السامية للتعليم كما أشرنا إليها بكل الوسائل من قبيل عودة تشجيع الطلاب والمتعلمين، والمعلمين والباحثين مهما كانت تخصصاتهم إلى تنمية قدراتهم في الإبداع والتفكير العميق في بيئة تعليمية تتسم بالأخلاق الإنسانية والذكاء الاجتماعي والتواصل المعرفي المتبادل والتنافس الشريف وتقدير التميز والابتكار. وبهذا تتحقق الجودة والحكمة والمعرفة والعلم.

إن مواجهة التفاهة تقتضي اعتبار المرحلة التي نعيشها أنها ظرفية تخضع للتاريخية حيث يمر المجتمع بمرحلة انحطاط وضمور في القيم والأخلاق في تداخل بين مختلف المجالات كما صورها دونو في المجتمعات الغربية عند حديثه عن التفاهة مستدلا بأمثلة من هذه المجتمعات في السياسة والاقتصاد والتجارة وغيرها، وغالبا ما تخطو مجتمعاتنا نحو ما عليه المجتمعات الغربية حاليا. وعليه يجب مراقبة مكامن

القوة التي تستمد منها التفاهة قوتها وأهمها تكنولوجيات المعلومات والاتصال حيث لا يخفى على أحد الأرباح القياسية التي يحققها السخفاء والتافهون في برامجهم مقابل تراجع رهيب للبرامج الفكرية والهادفة. كما أنه لا يمكن الاكتفاء بالتفرج وانتظار الحل بل يجب الثبات على القيم وتفييه هذه التفاهة ورفضها وحمل راية المواجهة. والتفاهة لها ظروف اجتماعية. وإذا كان من الضروري التمرد، فليكن ضد «التفاهة البنيوية» للمؤسسات (البكر، 2023). والحياة التي لا تخضع للتأمل ليست جديرة بأن تعاش كما قال سقراط.

**الخاتمة**

لا ندري إذا ما أصبحنا مجبرين على التعايش مع التفاهة ونحن أحد الفاعلين في تكريسها ولا ندري لماذا نعدم الوسيلة لمواجهتها على الأقل في ميادين معينة كالتعليم بحكم وضعنا كنخبة لنا من المعارف والمكتسبات والطرق والإمكانات العلمية ما يؤهلنا لذلك. وإن استمرار السكوت عن ذلك يجعلنا تافهين من الطراز الرفيع لمكانتنا في مجتمعاتنا. فلا تجد التفاهة طريقا واستمرارا لها إلا إذا كانت هناك هشاشة فكرية عاجزة عن مواجهتها، جاهلة بخباياها ونظامها ما دام أن لها نظاما على حد قول دونو. ومن الضروري معرفة التفاهة في حد ذاتها لا متابعة التافهين الذين يتكررون دائما والذين» لا يمكننا دائمًا تخليص أنفسنا منهم» كما قال مكسيم روفير. لقد كانت التفاهة تعني دونية الأفكار والسلوك، أصبحت اليوم نظاما له سلطته ورجالاته التافهين الذين لهم سيطرتهم فأن تكون تافها يعني أن لك الفرص وكثير الخيارات لتنجح وتحقق ما تريده.

إن التفاهة اليوم، تحشد كل إمكاناتها المادية والتقنية خاصة مع اتساع استخدام وسائل وتكنولوجيات المعلومات والاتصال الحديثة والمتنوعة لتكريس نظامها وهيمنتها عن طريق تغلغلها في لاوعينا حتى أصبحت جزء منا أو أصبحنا جزء منها. والاهتمام المتزايد هذه الظاهرة من خلال ما كتب عنها يعني أن هناك وعي موجود كفيل بكشف هذا النظام ومواجهته. فالمشكلة الأساسية هي النظرة لهذه التفاهة على أنها أمر حتمي، نجتهد للتعايش معها عوض مواجهتها والاعتراف بكفاءتها وقدرتها على التحكم في تفكيرنا واتجاهاتنا. إن انتشار التفاهة جعل منا أشخاص لا يفكرون، ونتقبل كل ما كان غير مقبول من قبل، وصرنا أكثر ميل لعدم الاكتراث بالسقطات التي تحدث في مجال التعليم والبحث، كما صرنا أكثر اعتيادا وتبريرا لكل ما يحدث من أمور وللأسف

أصبح كل ما هو جديد للنهوض بالتعليم إنما هو التوندوس على حد قول متراق(2020) في روايته التافهون.

إننا اليوم محاصرون بالتفاهة أكثر من أي وقت، وإنكار سيطرتها أو محاولة التخلص منها هو التفاهة بعينها. لقد كثر التافهون وأصبح عددهم يتراكم ويتدعم مشكلين قوة لها سلطتها وأهدافها ولكن ما لا نتقبله هو تغلغلها في معاقل الفكر والإبداع وهي الجامعات وهيمنتها على سلطة القرارات فيها لتتحول إلى شريك في استفحال التفاهة ما لم تستعيد أهدافها في الحفاظ على القيم والأخلاق العلمية. ولا ضير في الاطلاع على ما يريده هؤلاء التافهون فعلى راي العقاد ليس هناك كتاب أقرؤه ولا استفيد منه شيئا جديدا، فحتى الكتاب التاقه استفيد من قراءته أني تعلمت شيئا جديدا هو ما هي التفاهة وكيف يكتب التافهون وفيما يفكرون، وهو ما يسمح بمعرفة الوسائل والآليات التي نواجه بها هذه التفاهة، فحقيقة هذا النظام الوسطي المتطرف قاسية ومميتة معا(ص84).

**المراجع:**


1. ابن منظور. لسان العرب.
2. البكر، بشير. (2023/06/02) .درس فلسفي في التعاطي مع التفاهة والتافهين. درس فلسفي في التعاطي مع التفاهة والتافهين .
3. بن لحسن، بدران. (2023/03/17). عوائق النهضة: فوضى المصطلحات وارتباك المفاهيم. عوائق النهضة: فوضى المصطلحات وارتباك المفاهيم
4. بولتون جيفري، ماميتو كولي. ( 2024/07/02). المزيد ليس أفضل: أزمة النشر العلمي المتطورة. https://ar.council.science/blog/more-is-not-better-the-developing-crisis-of-scientific-publishing/
5. جلبي، مصطفى بن عبد الله كاتب. ( 1941 ). كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. ج1. دار إحياء التراث العربي. لبنان.
6. الخمساوي، أحمد. (1992). الفكر الموسوعي والتوجيه الإسلامي للعلوم والحضارة الحديثة. مؤتمر التوجيه الإسلامي للعلوم، المحور الأول.
7. دونو، آلان. (2020). نظام التفاهة، ترجمة مشاعر عبد العزيز الهاجري، دار سؤال للنشر، ط1، لبنان-بيروت. لبنان.
8. دينين، باتريك. ( 2020). لماذا فشلت الليبرالية، ترجمة يعقوب عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب. الكويت.
9. رو، كريستين. (2024/08/13). فوضى المؤتمرات الوهمية. فوضى المؤتمرات العلمية الوهمية -أخبار -Nature Middle East
10. السيد، أحمد بن يوسف. (2023). مقاومة التفاهة. مشكلة التفاهة-أسبابها-مآلاتها-كيفية معالجتها. ط1. منار الفكر. إسطنبول. تركيا.
11. صيداوي، رفيف رضا. (2019/04/04). نحو أنسنة العالم. نحو أنسنة العالم -الموقع الرسمي لجريدة عمان.
12. العبود، فدوى. (2024/01/20). في جرثومة التفاهة.
13. عطية، حجاج محمد. (2023). زحف التفاهة. قراءة في عبثية الواقع المعاصر وسبل الخروج منها. دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع. المنصورة. مصر.
14. عمارة، محمد. (2004). معركة المصطلحات. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. مصر.

15. لمعي، إكرام. (2019/12/13). زمن التفاهة. زمن التفاهة - إكرام لمعي - بوابة الشروق
16. الملكاوي، فتحي حسن. (2024/01/14). احترام التخصص! - الموقع الرسمي لمجلة الرشاد.
17. متراق، أحمد. ( 2020 ). التافهون. دار القرويين للنشر والتوزيع. المغرب.
18. ياسين، صلاح الدين. (2022). قراءة في كتاب -نظام التفاهة-للفيلسوف الكندي آلان دونو. الحوار المتمدن. العدد.7452.
19. BER (Bureau des études et recherches. (2004). Le dictionnaire Français-Arabe. Dictionnaire général, linguistique, technique et scientifique. Dar-kotob Al-ilmmiyah. Beyrouth .Liban. 2e éd.

# الحداثة: من الإنسان الكامل إلى إنسانية الانحطاط والتفاهة

# Modernity: From the Perfect Man to the Humanity of Decadence and Triviality

**بن هبري حليم**
**جامعة مولود معمري تيزي وزو**

إن انطلاقة الحداثة الغربية في بداية العصر الحديث الأوروبي، قد نادت بالتحرر من كل قديم وكسر كل ما يدعوا الجمود والتخلف، فقد كانت انطلاقتها أن جعلت الإنسان في أعلى هرم الحياة، فحققت بذلك تطورا تقنيا كبيرا، وحياة تشملها الرفاهية والابداع والاختراع، أي البحث الدائم عن الكمال وتحقيق الأفضل دوما للإنسان، وما يلاحظ في نهاية القرن العشرين ظهور العولمة التي تعمل على جعل العالم قرية صغيرة بفعل الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي وتطبيقاته المختلفة، ولكن ما يعاب على هذه المواقع أنها حولت الإيجابيات إلى عيوب كثيرة، فأحطت من قيمة الانسان وجعبته منحطا، وصاحب قيمة دنيئة، أين أصبح كل ما هو فاضح وغير أخلاقي تكون له الشهرة في الأوساط الاجتماعية سواء كان ذلك في المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية، خاصة أن الهاتف النقال الذكي، أصبح متاح للجميع في مختلف الفئات العمرية، مما ساهم في انتشار الجهل وغياب الوعي، وسيطرة الجهَال والزعَار والشواذ على الفضاء الاجتماعي مما أدى إلى الانحلال الأخلاقي، ومن هذا المنطلق نتساءل:

- **ما علاقة الحداثة بالتفاهة؟ *كيف تشكلت التفاهة في ظل غياب الوعي الاجتماعي؟**
- **كيف ساهمت الوسائل التقنية في انتشار التفاهة؟ ماهي الحلول الممكنة للتخلص من التفاهة والتافهين الذين أصبحوا يسطرون على واقع الثقافة؟**

**1-مفهوم الحداثة:**

إن ما تسعى إليه كل الشعوب والأمم لهو تحقيق الحداثة واللحاق بالتقدم والازدهار، وإن كانت الشعوب الغربية والأوروبية منها كانت لها السبق الحضاري في تحقيقها، فعندما نتأمل في المشاريع الفكرية العربية الإسلامية، وخاصة المعاصرة

منها، فإننا نجدها تعمل جاهدة إلى تحقيق هذا التقدم الحضاري، إلا أن للحداثة تعريفات عديدة فكل مفكر او فيلسوف يعرف الحداثة حسب مجال اشتغاله، او التيار الفكري الذي ينتمي إليه فنجد مثلا:

**التعريف الأول:** استخدمت لفظة term في الحداثة بالإنجليزية وتعني شريطة عدم التواصل، أو الانقطاع عن الماضي تاريخيا وجماليا، أو رفض القيَم بالماضي حسب تعبير ««أدونيس»، وتعرف في العبير الإنجليزي: modernistliteratureis a literature» of disiontinnity»

**التعريف الثاني:** حسب h.read يقول: «» **الحداثة تعني الانفصال عن كل التقاليد tradition ««ويقول كذلك:»» إن الهدف الذي سعت إليه أوربا في خمسة قرون قد تم التخلي عنه الآن»»** (محمد، 1998، ص 9)

**التعرف الثالث:** يقول إلياس خوري عن الحداثة: إنها إطار التكسر الثقافي الاجتماعي السياسي، ومحاولة تجاوز هذا التكسر بالذهاب إلى الأمام...وهي محاولة بحث عن شرعية المستقبل، بعد أن فقد الماضي شرعيته التاريخية»

ويقول عنها «**جوزيف صايع**»» إنها استعداد تابع من ممارسة حضارية تاريخية، الحداثة في التحوَل بالذات، هي الاستحداث المتواصل الحي للذات للحضارة وللمستقبل وهو استحداث لا يحصل دون تمزق لأنه إعادة نظر مستمرة ومتبصرة ولا دون ألم لأنه ابتكار «».

ويقول عنها « **عبد الكريم الناعم**»: أنها وعي للعصر ولإشكالاته، وللأمة وعلاقاتها الداخلية والخارجية، ووعي الفرد لذاته كحركة فاعلة في العالم، بقدر هي اتجاه للمستقبل الإنساني»»

فمن خلال عرضنا لمختلف التعريفات للحداثة قد تمركزت على أنها:

- مشروع تجاوز لتكسير الواقع، وبحث عن المستقبل
- استعداد للتجديد، وتحول الذات
- وهي إعادة نظر للعصر ومشكلاته
- عقلية الحداثة هي عقلية التحرر، وإعادة نظر في حياة الإنسان. (سقال، 1991،ص 7)

ويصف **ماكس فيبر** الحداثة بأنها تفكك التصورات الدينية للعالم تفككا أوجد في أوربا ثقافة لا دينية، أي عملية عقلانية من خلال هذا الوصف يمكن إطلاق تصور حول الحداثة وهي الثورة على الماضي الأوروبي الديني الذي كان فيه الانغلاق عن العقلانية، وعدم السماح للفكر والعقل من التحرر فيصف ذلك **فيبر قائلا:»» إن العلوم التجريبية الحديثة، والفنون وقد عدت مستقلة، والنظريات الأخلاقية والتشريعية القائمة على مبادئ شكلت على هذا النحو، دوائر قيم ثقافية مهدت السبيل لتحريك عملية التعلم التي تخضع وفقا للحالة للشرعيات الداخلية للإشكالات النظرية والجمالة، او العملية الأخلاقية»'** وحسب تعليق **«هابرماس»** على ماكس فيبر من خلال ما ذكره سابقا، أنه ركز على زاوية من التعقيل الخاصة بعلمنة الثقافة الغربية بل يتناول قبل كل شيء نمو الجماعات الحديثة، وتتصف هذه البنى الاجتماعية الجديدة بالتمايز بين نظامين تبلورا حول مركزين منظمين متداخلين وظيفيا هما: المشروع الرأسمالي والجهاز البيروقراطي للدولة، وهذه الصفة حسب «فيبر»، أما حسب «دوركايم» و»ميد» فإن العالم المعيشي المعقلن يتصف بنمط من التفكير والتقليد، فقدت عفويتها الطبيعية من جراء تعميم معايير العمل ونشر القيم المحررة من جهة، والفاعلية الاتصالية مع الآخر، وهذا يدفع إلى تشكل خيرات مختلفة ما يؤدي إلى وجود نمط من العوالم المعاشة بنماذج الدمج الاجتماعي التي ترمي إلى تشكيل هويات شخصية مجردة وتدفع بالمراهقين نحو التفرد تلك هي صورة الحداثة كما يرسمها في خطوطها العريضة أصحاب النظرية الكلاسيكية الاجتماعية. (هابرماس، 2002، صفحة 8).

واختلف الرواد في تحديد الانطلاقة الأولى للحداثة وذلك لاختلاف في مفهومها، فمنهم من يعتبرها بأنها بدأت في باريس عام 1830م، والبعض الآخر يرى بأنها بدأت في 1870م، وآخرون يرون بأنها بدأت في 1880م، وحسب «كيرموند»، بأنها انطلقت في السنوات الأولى للقرن العشرين 1990م، وتعود ظروف نشأة الحداثة في أوروبا إلى عوامل عديدة نذكر منها:

- سعي الأوربيين إلى احياء تراثهم الأدبي، والفلسفي الإغريقي.
- تعرف الأوربيين على علوم المسلمين وثقافتهم، مم أدى إلى التحرر من الإغلاق الفكري الذي سببته الكنيسة.
- فصل الدين عن العمل العلمي والسياسي وفتح المجال للعقلانية.

- تطور العلوم وظهور نهضة حديثة بفعل الثورة الصناعية.
- تطور العلوم الإنسانية منها، وانفصالها عن المعتقد الديني. (النحوي، 1992، ص 88)

**2/ العرب والحداثة:**

سعت المجتمعات العربية الإسلامية خصوصا في عصر النهضة العربي، بعد الحملة الفرنسية على مصر 1801/1798م، وكانت أولى محاولاتهم الاتصال بالغرب من خلال الانطلاقة الأولى التي قام بها «محمد علي باشا»، منها البعثات العلمية إلى أوربا ابتداء من 1820م، إضافة إلى عوامل أخرى قد ساهمت في محاولة النهوض بالعرب المسلمين منها:

- التغيرات العلمية والحركات التبشيرية مثل مدرسة غيطورة في 1884م، والجمعية السورية في بيروت 1874م، وكان مجال نشاط هذه المؤسسات في مجال الترجمة، والعمل على تحديث اللغة العربية وتجديديها من أجل ملائمة التغيرات العلمية الأوروبية.
- ظهور الطباعة الذي كان له الدور الكبير في ترجمة التراث الأوروبي، والروايات الأدبية منها.
- ظهور الجمعيات.
- الدور المسيحي الذي شجع على ظهور التيار القومي.

إذن هذه بعض العوامل والمؤثرات الخارجية والداخلية التي ساهمت في تبلور، وتشكل عصر النهضة العربي والعمل على بلوغ الحداثة. (اليعقوبي، 2014، صفحة 15)

وقد وصف عصر النهضة بأنه أثار قضايا عديدة كان لها امتداد فكري، وفلسفي للمشاريع الفكرية المعاصرة، منها قضية الاشتغال بالتراث والحداثة والمعاصرة وغيرها «» **وقد اشتغل المثقفون العرب منذ بداية النهضة بهذه الإشكاليات( إشكالية الحداثة والمعاصرة والهوية والتراث) لدرجة يمكن القول معها إنه حصل تراكم بل تضخم نظري في مسألة الحداثة والتراث وقضية النهضة والعلاقة مع الغرب حيث إنتاج الفكر العربي الحديث والمعاصرة عدة خطابات، ومشاريع تروم مقارنة هذه الإشكالية بمختلف تشعباتها وقدمت في هذا السياق»»** (ابراهيم، 2007،ص 224)

**3/ مفهوم التفاهة:**

يمكن الحديث عن مفهوم التفاهة من نواحي عديدة سواء كان ذلك في المعنى

اللغوي أو الاصطلاحي أو الديني أو الاجتماعين فيقصد بالتفاهة في المعاجم العربية هي القلة والخسة والأمر الحقير اليسير الذي لا قيمة له، وهي كذلك في استعمال الفقهاء والمحدثين حيث يذكرون في باب الحدود، أن اليد لا تقطع في سرقة الشيء التافه.

ونجد كذلك في الخطاب الديني أن التفاهة قد وردت كلفظ صريح في الحديث النبوي، أخبر فيه النبي صلى الله عليه وسلم عن تسلم التافهين لزمام الأمور والسيطرة على وعي الناس وثقافتهم، ويمكن ان نقول أنها تشبه التنبؤ بمستقبل الأمة، فعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، «» إن بين يدي الساعة سنين خداعة: يصدَق فيها الكاذب، ويكذَب فيها الصادق، ويؤتمن الخائن، ويخوَن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة»» قيل يا رسول الله: ومالرويبضة؟ قال : المرء التافه يتكلم في أمر العامة»»» ( الحديث أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه والبزار .....)

وإذا تأملنا واقعنا المعيش نجد فعلا سيطرة التافهين ويتصدرون زمام الأمور وأصحاب الفكر والنظر ليس لهم شأن ولا اعتبار في زمن أمة سيطر عليها التافهين وأصحاب الرداءة (يوسف، 2023، 17)

**4/ أسباب ظهور التفاهة:**

هناك أسباب عديدة وكثيرة أدت إلى ظهور التفاهة وسيطرتها على واقع المجتمعات سواء كانت إسلامية أو غربية، ولكن يمكن لنا أن نسلط الضوء على أحد الأسباب الرئيسية وهي:

**الفراغ، وفراغ العقول:**

يقصد بالفراغ، أن الإنسان في غالبية وقته عاطل عن شغل وقته، فيعيش الملل الكثير ما يدفعه إلى

الاهتمام بالتفاهة، فلو كان عقل الفرد منشغلا بشؤونه الخاصة وفي أداء أعماله، فتجده يقوم بأعمال نافعة تخرجه من ذلك الروتين التافه، وبالتالي يمكن القول بأن الفراغ يصنع التافه، وهو يصنع الفكرة التافهة التي تجعله مشهورا لدى التافهين وفراغ العقول، أي الأشخاص السطحيين في التفكير والثقافة وحتى أصبحت المعلومة بلا معنى، وبدون تحليل أو تفكير، فالمشهور اليوم ليس المفكر أو الكاتب أو المثقف، بل هو التافه، وكلما زادت تفاهة هذا المشهور كلما ارتفعت نسبة مشاهدته، وكثرة

المتابعين كلما ارتفعت تفاهته في السوق الرأسمالية، ولهذا أصبحت حتى العلامات التجارية المشهورة تستقطب هؤلاء التافهين من أجل الإعلان والترويج لبضاعتها، وكذلك إذا اتجهت الغالبية العظمى من فئات المجتمع إلى الاهتمام بهؤلاء الأشخاص، هذا دليل على أن المجتمع له تفكير سطحي وتافه كذلك، ولأن نسبة الوعي منعدمة ونسبة الجهل مرتفعة، فكان لابد من زيادة عدد التافهين هؤلاء، ولهذا فإن منصات التواصل الاجتماعي أصبحت بابا للجميع بعد أن صارت طريقا للمغرمين بالتفاهة.

**5/ الحداثة من الإنسان الكامل إلى الإنسان المنحط:**

إن كل الجهود التي بذلتها الحداثة في العصر الحديث قد خلقت الإنسان المتكامل في مجال المعرفة والعلم والحريات وغيرها، ولكن الحداثة في تطوراتها خاصة في القرن العشرين، قد حطت من قيمة الإنسان وجعلته في الحضيض، وهذا ما يلاحظ في مواقع التواصل الاجتماعي، والوسائل والتطبيقات المستخدمة، وهي عديدة وكثيرة، فيكفي أن يكون للشخص حسابا في برامج التواصل، فيعمل على إنشاء، ما يسمى بصانع محتوى، أي أن يكون له متابعين م خلاله ترتفع نسبة المتابعة له ويظهر على شكل فيديوهات أو صور، لأداء نشاط معين، أو الحديث عن روتينه اليومي، أو حتى أنهى يتقاضى أموالا طائلة لما يقدمه في اعتقاده محتوى وهو مجرد تفاهة.

ليست المشكلة في الذي ينشأ ذلك المحتوى من أجل أن يتقاضى أموالا أي أصبح ما يقدمه للمشاهد عبارة عن سلعة يأخذ من خلالها المال، ونسمى مثل هذا العمل الاستخفاف بالعقول، أي هذا الشخص الذي لا يبذل أدنى جهد فكري أو عضلي، فيكون له متابعين، وأدى ذلك إلى أن أصبحت مواقع التواصل الاجتماعي سوقا للنخاسة، وبيع للتفاهة مقابل المال، فيقول الكاتب النمساوي المعروف»» كارل كرواس»»:»» سقطت شمس التفاهة أرضا حتى أصبح الأقزام أنفسهم يظهرون بمظهر العمالقة»»

واستحضر هنا مثالا عن أحد التافهين الذي أصبح له الشهرة الواسعة، فيتحدث عن نفسه فقال: كنت في أحد الأمسيات أرعى الغنم فوضعت فيديو أتحدث فيه عن الخراف الرومانية وجمال نساء روما، فحصد ذلك الفيديو آلاف المشاهدات، وهذا كان سببا في الدخول إلى عالم السوشل ميديا فأصبحت مشهورا، وأحصد من خلال المتابعين آلاف الدولارات.

**6/ التفاهة طريق إلى الخلاعة:**

إن التافهين الذين سيطروا على مواقع التواصل الاجتماعي ومختلف المناصب الخاصة بالنت أصبحت مقصدا للخلاعة والباحثين عنها سواء كانوا ممارسين أو متابعين، فأصبح الفرد المسلم اليوم بعيدا عن دينه وعقيدته، فالملاحظ أن البرامج الدينية التي تبث في هذه المواقع لا يكون لها الأهمية الكبيرة، ولكن هناك مظاهر تدل على أن المجتمع أصبح يحب الخلاعة ويتلذذ بها، وبل أصبحت المجاهرة بالمعصية، واظهار العورة، والرقص وغيرها من أساليب الخلاعة طريق إلى الشهرة وكسب المال.

إن وسائل التواصل الاجتماعي قد انحرفت عن وظيفتها الأساسية، وهي تقريب البعيد والتواصل في مجال العلوم والمعارف المختلفة، فأصبحت معكوسة أي أن التواصل الاجتماعي أصبح منصة للمعصية والبحث عن المنكرات.

**7/ التفاهة والغرض التجاري:**

إن منصات التواصل الاجتماعي أصبحت كالمرآة الكاشفة لحقائق المجتمع ولا شيء بات خافيا أو مستورا في ظل انتشار التفكير السطحي لدى أفراد المجتمع، حتى أصبحت التفاهة بدون رادع ذاتي أو ثقافي أو أخلاقي أو فكري، وبمعنى آخر يمكن أن نقول أن التفاهة في عصر الانحطاط الأخلاقي أصبحت يضرب بها المثل بأصحابها لما يمتلكون من أموال كانوا قد حصَلوها من خلال التجارة بالأخلاق والأعراض.

**8/ الحلول الممكنة لمواجهة التفاهة:**

من بين الحلول الممكنة لمواجهة التفاهة أقدم فكرة العودة إلى نظام التربية الذي أسسه مالك ابن نبي من خلال مشروعه في مشكلات الحضارة فقيوم مشروع ابن نبي في التربية على ما يلي:

**مفهوم التربية عند مالك ابن نبي:**

إذا ما بحثنا في الإرهاصات الأولى لمفهوم التربية، فإننا نجده من بين اهتمامات علماء الاجتماع والفلاسفة منذ القديم، باعتبارها وليدة ارتباط اجتماعي، على أساس أن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه حسب ««ابن خلدون»»، وإن هذه العلاقات بين الناس التي تأخذ طابع التواصل والتنافر، فلا بد من وجود نظلم تربوي يضبطها، فيري مالك ابن نبي أن «» عجلة المجتمع تدور بفضل شبكة علاقاته، وأن هذا النشاط هو الذي تنشأ عنه تغيير صورته «» (نبي، 1986، ص 75)، وأورد ابن نبي في مجمل مؤلفاته

أن هناك مفهومين للتربية:

**أ/ المفهوم الأول: ««التربية هي المنهج الذي يهدي سيَر مجتمع ما، تأخذ قواعدها العامة من علم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس »»** (نبي، 1986، ص 75)

إن النظام التربوي لأي مجتمع يجب أن يراعي في قيامه الجانب التاريخي : أي دراسة تاريخ ذلك المجتمع وامتداد فكره وثقافته عبر الزمن، لأن الثقافة التاريخية لها حضورها الفكري في البرنامج التربوي، ولهذا سيكون هناك اختلاف بين برنامج دولة على برنامج لدولة أخرى حسب حوادثها الماضية، وكذلك ربط ابن نبي النظام التربوي بعلم الاجتماع، لأن علماء الاجتماع المختصين في دراسة المجتمع بنية المجتمع مراعين في ذلك حتى الأبعاد الأنثروبولوجية، لذلك المجتمع، إعادة إلى إعداد منظومة تربوية مقرونة بما هو كائن وما سيكون مستقبلا، لأن التربية هي إعداد جيل يقود الأمة في المستقبل، إضافة إلى مراعاة الشروط النفسية والظروف الوجدانية والعاطفية للنشء، بمعنى إنشاء نظام يتلاءم مع الميول النفسي .

**ب/ المفهوم الثاني: ««التربية وسيلة فعالة لتغيير الإنسان وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغيَر شرائط الوجود نحو الأحسن وكيف يكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك»»** (نبي، 1986،ص 77)

وهذا التعريف يعد من أهم منطلقات فكر ابن نبي وهو التغيير لأن المجتمعات المتخلفة التي يغلب عليها طابع التبعية للآخر، فإن عليها أن تغير من كل شيء ومن كل مجالاتها، وهذا التغيير ينطلق من الإنسان، إذن الأزمة هي أزمة إنسان، كيف يمكن إعداده وتكوينه من أجل مواجهة الحياة وبناء ما هو صالح لذاته ولغيره، ويكون كل هذا بالتعليم وفي الغالب فإن التعليم مرهون بالتربية وهي مقترنة بالعلاقات الاجتماعية التي توَجه سلوك الفرد.

**إذن: التربية منهج يسيَر المجتمع منطلقه التاريخ والمجتمع، التربية وسيلة لتغيير الإنسان.**

**5/ التربية الاجتماعية:**

يتساءل هنا ابن نبي حول التربية الاجتماعية فيقول: «**هل يمكن أن نستخرج فكرة**

**تربية اجتماعية أعني: منهجا يهدي سيَر مجتمع ما»«.** وإن فكرة الإصلاح التربوي لمجتمع ينطلق من التنشئة الإسلامية الأولى، فيري ابن نبي أن ضرورة الإصلاح التربوي تقوم على مبادئ الإسلام التي أنزلت على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، في بداية الوحي حين قال صلى الله عليه وسلم ««**لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما يصلح به أولها**»»، **فحسب ابن نبي أن مراحل التربية الاجتماعية القائمة على مبادئ الإسلام على ثلاث مراحل:**

**أ/ المرحلة الروحية:**

وهي العلاقات والروابط التي يتماسك بها أفراد المجتمع الواحد وهي عبارة عن بنيان مترابط أو نسيج متماسك ببعضه أي أن يصبح الكل في واحد، والواحد في الكل، إضافة إلى تلائم الظروف النفسية وأفعال الفرد منعكسة بفعالية على المجتمع ويستخدم الفرد كل طاقته الحيوية في خدمته، وهذه هي المرحلة الذهبية التي يصل إليها المجتمع ثم إن هذه العلاقة الحيوية تتميز بالحركة ،وهذه الحركة دائمة الصعود ليس مثلما هو حادث مع العالم الإسلامي الذي توقفت حركته الحيوية وأصبح العمل الروحي الجماعي غائب تماما على روح الأفراد ما يؤدي إلى زوال القيم الروحية فيما بينهم .

**ب/ مرحلة التشتت:**

ثم إن المجتمع الإسلامي قد تعرض إلى صدمات ومشكلات سياسية قد عرقلت للفرد المسلم صيرورة حركته الحيوية، ودخلها الخمول، والتشتت مثل: صدمة الصفين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بثلاث وثلاثين سنة، إضافة إلى بعض الحركات مثل تلك التي قامت بها المرجئة والقرامطة «»...**فمجموع من الطاقات لم يعد يعمل، ومجموع آخر يعمل في اتجاه مضاد وبعبارة أخرى أصبح: ضد المثل الأعلى للمجتمع**«» (نبي، 1986، ص 76)

**ج/ مرحلة تفكك الغرائز:**

في هذه المرحلة تكون الغرائز تعمل بشكل فردي وليس جماعي، فيغلب طابع المصلحة الخاصة على المصلحة العامة، فيقول ابن نبي: «**في هذه المرحلة تسود الفردية تبعا لتحرر الغرائز، وتتفسخ شبكة العلاقات الاجتماعية نهائيا، وهو ما يطلق عليه في التاريخ عصر الانحطاط، وكذلك العصر الذي هيأ في المجتمع الإسلامي ظروف القابلية للاستعماروالاستعمار، فكل فكرة عن التربية الاجتماعية**

**يجب أن تصدر من هنا:**

**«إنه لكي يمكن التأثير في أسلوب الحياة في مجتمع ما، وفي سلوك نموذجية الذي يتكون منه، وبعبارة أخرى لكي يمكن بناء نظام تربوي اجتماعي ينبغي أن تكون لدينا أفكار جد واضحة، عن العلاقات والانعكاسات التي تنظم استخدام الطاقة الحيوية في مستوى الفرد، وفي مستوى المجتمع»»** (نبي، ،1986، ص 78)

**6/ الطفل والأفكار:**

تبنى المناهج التربوية والتعليمية في الغالب على مستوى ثقافة الأطفال وشخصيتهم طبقا التي تكونت في ظروف نفسية واجتماعية ودينية وعقائد موروثة عبر الأجيال والتاريخ، فيرى ابن نبي أن الطفل يتدرج في عوالم ثلاثة وهي : **الأشياء والأشخاص والأفكار**،ويمكن معرفة شخصية الطفل من خلال جانبين الأشياء والأفكار، إضافة إلى شروط أخلاقية وتقنيَة، فتظهر على الطفل في سياقات نفسية وجسدية، ويكون الطفل في بداية نشأته الأولى منعزلا عن عالم الأشياء فلا بد للعائلة والمدرسة والمجتمع أن يساعدوا في اندماج الطفل دون أن تلغيه .

ويتم الاندماج بين الطفل والعوالم الثلاثة عن طريق:

**أ/ المرحلة الأولى: أي** الاتصال الأولي بالعالم الخارجي لا تتكون له الصوَر واضحة عما حوله بالنسبة له يده والمصباح الذي فوقه نفس الشيء وبالتالي: ليس له صورة عن عالم الأشياء.

**ب/ المرحلة الثانية :** ثم تأتي الاندماج الاجتماعي، إلى المدرسة فيكون اندماجه تدريجيا وليس بصورة واحدة، ولكن كذلك التدرج في الاندماج يكون مختلفا من طفل إلى آخر فحسب نظرية ««يونغ»» في علم النفس : إن الطفل المنفتح لديه السرعة في الاكتشاف وانتقاله من عالم الأشخاص إلى عالم الأفكار، عكس الطفل المنغلق الذي تكون المدة طويلة بين المرحلتين، وإذن المرحلة المهمة في نمو الطفل بين العوالم الثلاثة هي عالم الأفكار، تكون بداية دخول الطفل إلى عالم الأفكار عندما يتمكن فيها من تكوين روابط شخصية مع مفاهيم تجريدية، فحسب ابن نبي يحدث هذا ما بين السابعة والثامنة من العمر، والمراحل العمرية السابقة تقتصر على عالم الأشياء وعالم الأشخاص (نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 1989،ص 31).

(وعليه فلا بد من إعادة النظر في البرامج التعليمية المَوجهة للأطفال في المدارس التحضيرية والابتدائية، فكيف لطفل لا يزال في مرحلة محاولة إدراكه وفهمه لعالمه الخارجي، ولا يكون له القدرة على التجريد والصورنة، وبالتالي لا يستوعب مسائل رياضية من المستوى الثالث، وقوانين السلطة ومجالسها، والتاريخ القديم وغيره، وإذن سيكون مصير المنظومة التربوية هو الفشل لا محالة).

وعندما يستطيع الطفل أن يتجاوز عالم الأفكار، وتكون له القدرة على صناعة الأفكار المجردة ويربط أحداثا ذهنية من صناعة عقله، هنا يدخل الطفل في محيط ثقافي وأحيانا في أنظمة ايديولوجية، لها من خصائصها ما يفصل بينها وبين المجتمعات المحايدة أو الخامدة.

إن تقدم الطفل في عالم الأفكار شيئا فشيئا، فإنه ستكون له تغيرات جسدية، ونفسية في الوقت ذاته، وكذا إن سمة التغيير تظهر على ملامح الطفل ففي سنواته الأولى يكون فمه مفتوحا لتلقف أي شيء طعام أو أشياء ثم يبدأ يغلق فمه بدوافع داخلية وتلك هي لحظة اندماجه الاجتماعي وتطوره النفسي.

إذن مسألة ملامح الوجه وإغلاق الفم مقرونة بمدى تعلم الطفل واندماجه، فمن خلال التجربة التي قام بها ابن نبي عللا فريق من عمال جزائريين أميين :""**حين اضطلعت بمهمة تعليمهم القراءة والكتابة في فرنسا عام 1938م ،فكلما تقدمت التجربة شيئا فشيئا ،والتي تابعتها تسعة أشهر كنت أرى وجوه تلاميذي تتغير، كانت الوجوه ذات وميض وحشيَ، وقد تأنست تدريجيا ،لقد اختفى بريقها الحيو اني ليحل محلها شيء ما، ينم عن فكرة داخلية، عن حضورفكرة، من ناحية أخرى فالشفاه أطبقت أو ازداد تقاربها، الرأس الذى تلقى، فكرة قد شغل عضلات الصدغ، التي تعمل كنابض يشد نحو الأعلى الفك الأسفل الذى يغلق الفم ""** (نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، 1989، ص 33)

إن التجربة الميدانية الممارسة على فئة أميين قد تدل على أن التعليم يجعل من الجسد يتحكم في بعض أعضائه، وبالتالي يكون العلم غذاء للعقل وهو القوة أو الفطرة التي تحرك الجسد، فكلما زاد الإنسان في العلم كلما ضبط جسده وكذا اكتسبت روحه الحكمة وفي قوله تعالى ""**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**"".

**معنى الثقافة في التربية:**

أي اجتماع إنساني بالضرورة يكون لديه مستوى ثقافي يحدد تقدم وتخلف هذا الاجتماع، وإن الثقافة لها ارتباط وثيق بالتربية، ويمكن أن نسميها بالثقافة التربوية:

يرى ابن نبي أن الثقافة ليست محددة بشعب دون سواه من الشعوب الأخرى، بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة، بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوَع الاجتماعي، يعبر عن ذلك قائلا»»**.... وعلى الأخص، إذا كانت الثقافة هي الجسر الذي يعبره المجتمع إلى الرقيَ والتمدن، فإنها أيضا ذلك الحاجز الذي يحفظ بعض أفراده من السقوط من الجسر إلى الهاوية**«« (نبي، شروط النهضة، ،1989، ص 86)

ويشبه مالك ابن نبي الثقافة في المجتمع، فهي شبيهة بالدم الذي يحتوي على كريات حمراء وأخرى بيضاء في سائل سيتوبلازم، فهي أفكار النخبة وأفكار العامة في نمط ثقافي اجتماعي موحد، وهذه الأفكار هي التي تغذي حضارة هذا المجتمع، إما بالتقدم نحو الأمام أو التردي والتخلف، والثقافة التربوية تتألف من عناصر أربعة، يتخذ منها الشعب دستورا لحياته المثقفة:

1. عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية
2. عنصر الجمال لتكوين الذوق العام
3. منطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام
4. الفن التطبيقي الموائم لكل نوع من أنواع المجتمع، أو الصناعة حسب تعبير ابن خلدون (نبي، شروط النهضة، 1989، ص 86)

**التربية من أجل الأخلاق السليمة:**

وجد الاجتماع الإنساني من أجل تكوين حضارة مستخدما في ذلك غريزة ولكن تخضع للتهذيب والتوظيف بروح خلقية سامية، ثم إن النظرة المتداولة عند مفكرينا أن التاريخ ثابت ولا يتغير فهو خطأ حسب ابن نبي، إن الحوادث التاريخية تتأتى وتعود من جديد في ثوب بآخر، ومثال ذلك روضة الأطفال كمركز مختص بالعناية الطفولية، ولكن في أمرها الأول تعود هذه الفكرة إلى القديس (فالإنسان دي بول) الذي أنشأ مشروع الأطفال المشردين خلال النصف الأول من القرن السابع عشر (نبي، شروط النهضة، 1989، ص 89)

يربط كذلك ابن نبي النظرة الخاطئة عن المدنيَة الغربية بأنها ذات إنتاج علمي وفني وصناعي ولكن أغفلنا أن هذه المنتجات لها علاقة وطيدة بالصلات الاجتماعية فيقول :«»...**ونسى أن هذه العلوم والفنون والصناعات ما كان لها أن توجد، لولا صلات اجتماعية خاصة، لا تتصور هذه الصناعات والفنون بدونها، فهي الأساس الخلقي، الذي قام عليه صرح المدنيَة الغربية، في علومه وفنونه، بحيث لو ألغينا ذلك الأساس لسرى الإلغاء على الجميع ما نشاهده اليوم من علوم وفنون، فلو أخذنا جهاز الراديو مثلا، لرأينا فيه مجهودات علمية وفنية مختلفة، دون ان يحظر ببالنا أثر القيم المسيحية في بناء هذا الجهاز ،على حين أنه في الو اقع أثر من آثار العلاقات الاجتماعية الخاصة....)**

إذن الدافع إلى الاختراع والإبداع هو ذلك الارتباط الاجتماعي والأخلاقي والوجداني بالقيم التي ينشأ عليها الفرد، وبالتالي البعد التربوي للفرد يجب أن يكون نابع من الوسط الديني والأخلاقي، وبالتالي يعد الدين الأساس الأول الذي تبنى عليه الأخلاق والقيم.

وإن الدين الإسلامي هو الذي يدعوا إلى الأخلاق قبل ممارسة أي سلوك إبداعي، ويضرب ابن نبي مثالا على التربية الأخلاقية التي يتوَلد عنها التماسك الاجتماعي الذي يقود إلى الإبداع، في عصر الإسلام الأول كالأنصار والمهاجرين، كان الرجل في المجتمع الجديد يعرض على أخيه أن ينكحه من أزواجه، بعد أن يطلقها له، لكي يبني بذلك أسرة، وبذلك تولدت وتكونت لنا حضارة على ارض قاحلة وسط البدو، رجال الفطرة والصحراء. (نبي، شروط النهضة، 1989، ص 90).

ثم إن العلاقة الاجتماعية التربوية الأخلاقية هي التي تصنع الفرد المبدع ن وإن كان الإسلام الأول قد دعي إلى بناء حضارة قوامها الأخلاق، فالتنشئة الأخلاقية السليمة يجب أن تتجسد في منظومتنا التربية، فيجب استحداث مثلا أحد المواد في التعليم التحضيري أو الابتدائي، مادة : تعليم القيم الأخلاقية والتي يكون مصدرها الدين في الأساس الأول ثم تلي بعد ذلك المعايير الأخرى، وإن كان للفرد نشأة أخلاقية سليمة، تتغذى من روح العلاقات الاجتماعية ،فإنه بالضرورة سيتوَلد عنه الابتكار والإبداع، أما إذا كانت تربية الطفل الأخلاقية تكون فارغة أو جوفاء، من أي مبدأ أخلاقي ديني، فإنه يكون مصير العلاقات الاجتماعية المتماسكة مصيرها الزوال والاندثار، وهذا ما

يترتب عنه مجتمع مادي يعمل لصالح نفسه على حساب غيره، وبالتالي تسيطر الغريزة على الأخلاق .

**الخاتمة:**

وكخلاصة لما أوردناه من الحديث عن موضوع الحداثة وعلاقتها التفاهة، فإننا نستنتج أن الحداثة الغربية في انطلاقتها كانت تمجد الإنسان وجعلته في أعلى الهرم، وبعد تطور الوسائل التقنية وظهور الانترنت أدى جعل الإنسان كائنا رأسماليا باحث عن المال بأي وسيلة كانت ولو كان ذلك على حساب الأخلاق والعرف والدين، وإن كان هناك استفحال لظاهرة التفاهة والتافهين لمواقع التواصل الاجتماعي ليس بمجهودهم الفردي فحسب بل هنالك دعم للمجتمع لهؤلاء، والسبب أن نظام التربية للفرد فيه خلل وضعف، حين اصبح التافه يسير وعي الفرد وثقافتهن وتراجع دور المثقفين والمفكرين في توجيه فكر الأمة حينما قال مالك ابن نبي الأمة التي تقرأ أمة لا تجوع ونحن نقول الأمة التي تقرأ هي أمة متحضرة ليست تافهة، وبالتالي فإن للجهل أشكال عديدة تحضر في المجتمع بوسائل عديدة، ونظام التربية لذلك المجتمع هو الذي يحدد مصيره.

**قائمة المراجع:**


1. هابرماس يورغن،1995، القول الفلسفي للحداثة، سوريا دمشق، منشورات وزارة الثقافة.
2. عدنان علي رضا النحوي، 1992، تقويم نظرية الحداثة، المملكة العربية السعودية، دار النحوي للنشر والتوزيع.
3. ديزيره سقال، 1991، حركة الحداثة طروحها وانجازاتها، لبنان، منشورات ميريم.
4. القاعود حلمي محمد، 1998، الحداثة العربية، القاهرة، دار الاعتصام.
5. اليعقوبي عبد الرحمان،2014، الحداثة الفكرية في التأليف الفلسفي العربي المعاصر، بيروت-لبنان، مطابع الشابانات الدولية.
6. أعراب إبراهيم، 2007، سؤال الإصلاح والهوية، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق.
7. السيد أحمد بن يوسف،2023، مقاومة التفاهة، اسطبمبول، تركيا، منار الفكر.
8. مالك ابن نبي، 1986، ميلاد مجتمع، دمشق سوريا، دار الفكر.
9. مالك ابن نبي، 1989، مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي، دمشق سوريا، دار الفكر.
10. مالك ابن نبي، 1986، شروط النهضة، دمشق سوريا، دار الفكر.

# التفاهة من ثقافة الاستهلاك إلى ثقافة الثورة: قراءة تحليلية في علاقة التفاهة بالثورة

# Triviality from a Culture of Consumption to a Culture of Revolution: An Analytical Reading of the Relationship between Triviality and Revolution

**أد. رزاق كريمة**
**وحدة البحث: علوم الإنسان. جامعة وهران2**

**مقدمة:**

يشير سينكا في خلاصة حكمته أنك إن شئت أن يذعن العالم كله لمشيئتك فاذعن لمشيئة العقل، غير أن العقل وإن كان معيارا صائبا في تحديد ماهية الجيد والرديء إلا أنه يشذ عن هذه القاعدة في بعض الشؤون الإنسانية والبشرية التي نجدها تخضع لمنطق الحظ والنصيب والخطأ أيضا مما يعني أن العقل البشري ليس ضمانة مطلقة لتجنب الخطأ والفشل وهذا جزء من الطبيعة البشرية، لكن عندما يتحول الفشل إلى إرادة متعمدة نكون قد حققنا تجاوزا من مستوى الفشل إلى مستوى التفاهة لطالما شكلت العلاقة بين التفاهة والثورة موضع جدل فلسفي واجتماعي إذ من الصعب مثلا ربط التفاهة بحدث تاريخي جاد كالثورة إلا أن هناك تقاطعات مثيرة للاهتمام بينهما تكشف عن تلازم غريب بين تصاعد النزعات التافهة في المجتمع وبين لحظات الانفجار الثوري، فالثورة تعبير عن أرقى أشكال الوعي السياسي والاجتماعي بينما التفاهة هي انعكاس لثقافة سطحية واستهلاكية تتسرب إلى المجال العام مهددة بنية الفكر النقدي الذي يغذي الثورات وهذا ما يجعلنا نتساءل هل يمكن أن تكون التفاهة سببا في اندلاع الثورة وأرضية خصبة لها ؟ وإن كانت التفاهة هي الوجه الآخر للثورة كيف تتحول الثورات إلى مسرح للتفاهة؟ والأهم أي ميكانيزمات يمكن اعتمادها لمحاربة نظام التفاهة وبناء مجتمع أكثر وعيا؟

**1-ثقافة السطح والتفكير اليومي:**

ليست التفاهة مجرّد ظاهرة طارئة على بنية الحياة الاجتماعية يمكن اختزالها في ضعف الذوق العام أو تدهور الخطاب الثقافي أو الإعلامي بل هي في كثير من السياقات

نتاج سيرورات أعمق ترتبط بإعادة تشكيل الوعي والذوق والإدراك ضمن شروط معينة من الإنتاج الرمزي والمادي.

لقيت هذه الظاهرة اهتمامًا متزايدًا في العقود الأخيرة خاصة في ظل صعود ما يُعرف بالسطحية المنظمة أو المقصودة أين يتم إعادة إنتاج التفاهة بوصفها أداة للضبط الاجتماعي وآلية لإفراغ المجال العمومي من المعنى والنقد. فتنتج لنا التفاهة حياة فائضة بالأشياء السطحية تعمل على تفريغ الذات من عمقها وحسها النقدي وتحويلها إلى حالة من التكرار والسيولة والسهولة المفرطة لإشباع رغبات سريعة ومتعددة وهي في الأصل تعبير عن «الحالة الطبيعية» التي يشهدها الفرد المعاصر في احتكاكه وتفاعله مع المحيط والمجتمع حيث يندمج في سلوكيات سطحية تعتبر ضرورية للبقاء في إطار الحياة الاجتماعية السريعة والمتجددة. لقد أصبحت التفاهة منظومة متكاملة تعزز الرداءة وتعكس هيمنة لما هو مزيف وهش على حساب ما هو حقيقي وجوهري ولأنها ليست مجرد حالة عابرة أو مجرد سلوك فردي كان لزاما البحث في الأسباب التي جعلت من التفاهة شكلا من أشكال التفكير اليومي؟ من المهم وضع التفاهة في سياقها الفلسفي باعتبارها أكثر من مجرد سمة ثقافية أو سلوك اجتماعي فهي حالة وجودية ومؤشر على انحراف عن الوجود الأصلي يظهر يتجلى اغتراب عقلي ضمن وجود زائف أو موازي غير قادر على التكيف مع نمط حياة سائلة في عالم أقل صفاته القلق والميوعة وعدم الاستقرار. وحتى لا نقف عند حدود الوصف أو التشخيص الأخلاقي تبرز ضرورة استحضار أدوات تحليل أكثر جذرية تقطع مع ظاهر الخطاب لتصل إلى شروطه التحتية وهنا تبرز الماركسية لا كمنظور بديل فحسب بل كمفتاح لفهم التفاهة من حيث هي نتاج بنيوي لنمط إنتاج لا يكتفي بإعادة تشكيل السوق بل يعيد إنتاج الإنسان نفسه وفق مقاييس النفع والاستهلاك والتشييء.

إنّ قراءة ماركسية للتفاهة - حتى وإن لم يستخدم ماركس هذا الاصطلاح حرفيًا- تتيح لنا الإمساك بالخيوط التي تربط بين الرداءة بوصفها ذوقًا والهيمنة بوصفها بنية فالإنسان في المجتمع الرأسمالي حسب كارل ماركس يفقد الاتصال بالمنتج النهائي لعمله ويُختزل إلى مجرد أداة في عملية الإنتاج، وبناءا على ذلك يعتبر الفرد مغتربًا عن ذاته وعمله ومجتمعه أيضا إذا طبقنا هذا المفهوم على التفاهة نجد أن التفاهة لا تأتي في هذه الحالة كظاهرة ثقافية أو اجتماعية فحسب بل كنوع من الاغتراب الاجتماعي فالإنسان لا يكون إنسانًا كاملًا إلا عندما يعيش حياة ذات معنى ويشعر

بارتباطه المباشر بثمرة عمله وبمجتمعه وبما أن التفاهة تفصل الإنسان عن ذاته وعن المعنى الحقيقي لوجوده فهي تنتج اغترابا اجتماعيا وعقليا حيث يكون الفرد معزولًا عن التفكير العميق والوعي النقدي وبناءا على ما تقدم تغدو التفاهة مظهرا ثقافيا وسيكولوجيا لوجود مزيف إن صحا لنا استخدام مصطلح مارتن هيدغر في هذا المقام حيث يميز هذا الأخير بين نوعين من الوجود وهما الوجود الأصيل والوجود اللا-أصيل الذي ينشأ جراء انغماس في اليومي والتماهي مع « الهم «وفي هذا السياق يقول هيدغر» إن وجود الدازاين في صورته اليومية غالبا ما يتخذ طابعا زائفا إذ ينزلق إلى مستوى الناس حيث تدار حياته بحسب ما يُقال ويُفعل لا بحسب ما يختار هو وجوده الأصيل ( هيدغر ،2013،ص 168 ) وبدلا من التفكير العميق في كينونته والتفاعل مع ما هو أصيل ينغمس الإنسان في الأعمال اليومية السطحية التي تبتعد عن أي نوع من التأمل الوجودي فالناس لا يعيشون حياتهم بشكل أصيل أو حقيقي بل يندمجون في أنماط تافهة من الوجود تقودهم في النهاية إلى التفاهة الفكرية والوجودية.

ومع ذلك فإن تصور هيدغر للوجود الزائف ليس إدانة أخلاقية أو اجتماعية فالزيف حسبه ليس خطأ بل هو نمط طبيعي من الوجود ولكنه يتحول لمأزق عندما يصبح الشكل الوجودي الوحيد أو النمط الوحيد الممكن « فهيدغر لا يدين الزيف بل يكشف أن الإنسان مدعو لأن يختار نفسه ويعيد امتلاك إمكاناته الخاصة لا باعتباره قيّما بل بوصفه مصيرا وجوديا» ( المسكيني، 2007، ص ص 113-114) ..وهكذا تحول الإنسان إلى كائن غير حاسم ،يساير ،يصمت ،يؤجل ،يسكت ضميره فيصبح غير قادر على تحمل مسؤولية وجوده وهذا التصور أقرب لما طرحه دونو حول تصوره للتفاهة حين قال «في نظام التفاهة لا يطلب منك أن تفكر بل أن تكرر،أن تكون قابلا للتعويم،لا للغرق ولا للطفو فقط أن تبقى في المنتصف «( دونو، 2015،ص 34).. فمنظومة التفاهة تفضل الأشخاص الذين لا يثيرون الأسئلة العميقة بل يكتفون بإعادة إنتاج الوضع القائم دون مساءلته هذا يعني أن الثقافة التي تسود المجتمعات الحديثة تكرّس أنماطًا فكرية وسلوكية تعيق أي مشروع ثوري حقيقي لكن كيف أصبحت التفاهة نظاما صلبا ؟

إنّ انتشار «التفاهة» في المجتمعات الحديثة لا يمكن اعتباره مجرد نتاج عرضي لتحولات ثقافية أو اقتصادية بل هو تعبير عن منظومة قيميّة ومُمنهجة يُعاد إنتاجها يوميًا عبر أنماط التفكير السائد. فالتفاهة هنا ليست فقط غيابًا للمعنى

أو تسطيحًا للخطاب بل هي نظام ذو منطق خاص يعمل على إقصاء المعنى العميق وتحويل القيم إلى شعارات قابلة للاستهلاك يذكر ماركيوز أن «التفاهة التي تصيب المجتمعات الصناعية لا تكمن فقط في تقليص الفكر النقدي بل في تحفيز أنواع من التفكير تتوافق مع احتياجات النظام وتحد من إمكانيات الخروج عن المألوف «(ماركيوز،1964، ص141).

ومن هذا المنطلق يعتبر التفكير اليومي عاكس حقيقي لهذه المنظومة ولأن الخروج عن الفكر لا يكون بالتوقف عن التفكير وإنما يتم من خلال التفكير بصورة سيئة فهو يستند في كثير من الأحيان على مغالطات منطقية مقنّعة تُظهر الخطأ في صورة استدلال صحيح، فالمغالطة في الغالب هي تفكير سهل وكل تفكير سهل لديه فرصة أكبر لكي يجد من يتبناه داخل الأوساط العامة ولأن التفكير اليومي يملك عُدّة كاملة من الأدوات لكي يحقق مراده فهو يملك أنماطا سهلة في الاستدلال قائمة على المغالطات كاستخدام مغالطة المصادرة على المطلوب أو الاحتكام إلى رأي الأغلبية أو شخصنة الحجة أو مغالطة تسميم البئر أو مغالطة اعتماد سلطة القائل ...وغير ذلك من المغالطات التي تقوم على أشكال استدلالية هي أقرب ما تكون للاحتيالات ولا تعكس أنماط تفكير حقيقية. إن هذا النوع من التفكير هو من يحقق الاستدامة لنظام التفاهة لأنه يشوش التفكير النقدي ويقصيه محاولا تعويضه بتصورات سهلة وجاهزة وهذا ما ينتج لنا في النهاية صنفا من المواطنين ينتمون لوجود زائف ويخضعون لمنطق مؤدلج ويتم إقناعهم بأنّ ما يعيشونه طبيعي وحقيقي فأخطر ما في الهيمنة هو أنها لا تمارس بالقمع المباشر بل بتفاهة الحياة اليومية التي تجعل من النظام شيئا بديهيا»(غرامشي، دفاتر السجن، الدفتر 4، ص223).

**2-التفاهة كسياق للثورة ومحفز لها:**

تشير حنة أرندت في كتابها السياسة والتاريخ والمواطنة إلى أن الناس يغدون ثوريون لأنهم ينتفضون ضد الإهانات التي تتعرض لها البشرية ويمكن لنا أن نضيف تحت بند الإهانات مصطلح التفاهة. أي أن الثورة في جوهرها فعل مقاوم للتفاهة فهي تمثل وعيًا جذريًا يسعى لتجاوز البنى السائدة وتقديم رؤية بديلة للعالم فهي تعمل تقويض أركان التفاهة بوصفها أداة من أدوات الهيمنة الأيديولوجية تعمل على إلهاء الجماهير وصرفهم عن التفكير في التغيير مما يطيل عمر النظام الفاسد، إذ تسعى الثورات إلى تفكيك الهياكل الظالمة وإعادة تشكيل الواقع وفق رؤى أكثر عدالة وفي هذا السياق

يشير ألبير كامو في «الإنسان المتمرد»إلى أن الشعور بالعبثية يدفع الإنسان إلى التمرد فإدراكه لزيف الواقع يدفعه إلى البحث عن معنى بديل من خلال الثورة، ورغم اختلاف التفاهة عن العبث من حيث المنطلقات إلا أنها يشتركان في دفع الإنسان أو المجتمع إلى الثورة فالتفاهة قد تولد انفجارا يستحيل بعده العيش تحت وطأة السطحية والرداءة والعبث يولد وعيا قلقا يفضي إلى الثورة .

كذلك يمكن للإحباط الشعبي أن يكون أحد المحركات الأساسية للثورة إلا أنه في عصر التفاهة يتخذ طابعًا خاصًا أين تصبح السخرية والتهكم أسلحة في مواجهة السلطة حيث يشير سلافوي جيجك في هذا السياق إلى أن السخرية ليست مجرد وسيلة للتعبير عن الغضب وليست دائما موقفا سلبيا بل يمكن أن تصبح نواة ثورية باعتبارها لحظة وعي تُفكك الخطاب الرسمي وتكشف زيفه، مما قد يؤدي إلى انتفاضات شعبية ويستدل جيجك بأحداث مصر وتونس عام 2011 أين لعبت السخرية من الزعماء السياسيين عبر وسائل التواصل الاجتماعي دورًا كبيرًا في تعبئة الجماهير إذ أظهر الشباب قدرة على كشف تفاهة الخطاب السياسي الرسمي مما ساعد في انهيار هيبة الأنظمة الحاكمة. غير أن المفارقة تكمن في أن التفاهة كما كانت سببًا في تفجير الثورات يمكن أن تكون سببا في إفراغ الثورات من محتواها وإجهاضها.

**3-التفاهة كأداة لقمع الثورة: كيف تفرغ التفاهة الثورة من محتواها؟**

على الرغم من أن التفاهة قد تكون أحد العوامل المحفزة للثورة إلا أنها أيضًا من الأسباب الرئيسية التي تؤدي إلى تأخيرها أو تشويهها وفقًا لأنطونيو غرامشي فإن السيطرة على الثقافة والإعلام هي أحد الأدوات التي تستخدمها الأنظمة الحاكمة لإعادة إنتاج سلطتها حيث يتم إعادة توجيه طاقة الجماهير بعيدًا عن الفعل السياسي الجاد عبر التركيز على قضايا تافهة أو خلق صراعات وهمية. يشير هربرت ماركيوز أن « الإنسان ذي البعد الواحد هو إنسان يتم تشجيعه على الانصياع لأوامر النظام الاجتماعي من خلال وسائل الإعلام والتكنولوجيا التي تحجم تفكيره النقدي وتجعله يستسلم لتصورات محدود عن حياته « (ماركيوز ،1964،ص107) وهذا لا يتحقق إلا بتحالف وثيق بين الإعلام والسلطة ،فالسلطة لا تحتاج إلى قمع مباشر إذا كانت قادرة على صناعة وعي زائف قائم على التسلية والمحتوى السطحي فالفكر « الذي يفترض أن يكون أداة للتحرر قد غدا محصورا في منطق النظام القائم لا يتجاوزه بل يبرره وهكذا يغدو العقل نفسه عقلا تافها يدور في حلقة مفرغة من التكرار «

(ماركيوز،1964،ص113 ) وعليه تستخدم التفاهة كسياسية لقمع الوعي الثوري عبر خلق حاجات مصطنعة وتحويل المواطنين إلى مستهلكين سلبيين مادامت « الحاجات الزائفة تنتج وتروج من قبل قوى تسيطر على الوعي حاجات لا تعبر عن رغبات حقيقية بل تفرض على الأفراد باسم الرفاهية لتجعلهم عبيدا لأشياء لا يختارونها « (ماركيوز،1964،ص113 ) .

ونفس المعنى يؤكده جان بودريار حينما صرح أن المجتمعات الحديثة تدفع الأفراد إلى العيش في عالم من الصور الزائفة حيث تتحول السياسة إلى استعراض فارغ مما يؤدي إلى إجهاض أي إمكانية لثورة حقيقية. فالوجود الزائف يخلق نوعا من الرضا الزائف أيضا ومتى «شعر الإنسان بالرضا داخل مجتمع مريض فإن الثورة تصبح مستحيلة هذه هي وظيفة التفاهة أن تسكن الألم بالابتذال «(ماركيوز،1964، ص88).

تسهم التفاهة إذن في تفريغ الثورة من محتواها من خلال مجموعة من الأدوات:

ا- تحويل الثورة إلى ظاهرة إعلامية سطحية أو حدث إعلامي قد يجذب الانتباه لفترة مؤقتة دون أن يحدث أي تغيير حقيقي وفي هذا الصدد يرى جان بودريار أن الإعلام لم يعد مجرد وسيط ينقل الأحداث بل أصبح يخلق الواقع نفسه وفق منطقه الخاص (جان بوديارن1995،ص) وهذا ما يحدث في كثير من الثورات المعاصرة أين يتم تصوير المظاهرات والاحتجاجات بطرق تجذب المشاهدين لكنها تظل محصورة في قالب استهلاكي سريع الزوال وبدلًا من أن تكون الثورة مشروعًا طويل الأمد يتطلب إعادة بناء المجتمع من الداخل تتحول إلى حدث تلفزيوني يتم التفاعل معه ثم نسيانه بمجرد أن تنتهي التغطية الإعلامية.وهذا يشير إلى النسيان السريع والتفاعل المؤقت الذي لا يترك صدى ويلغي رمزية وقيمة الحدث الثوري.

ب- خلق رموز ثورية تافهة من خلال إنتاج رموز سطحية تدّعي تمثيل التغيير لكنها في الحقيقة لا تقدم أي مشروع سياسي جاد حيث يتم إنتاج «مثقفين عضويين يخدمون مصالح النخبة الحاكمة بدلا من أن يكونوا قادة حقيقيين للتغيير وهذا ما يحدث عندما يتم الترويج لشخصيات ثورية في وسائل الإعلام لكنها في الواقع مجرد امتداد للنظام القائم.

ج- تحويل الثورة إلى سلعة أو موضة حيث يشير غي ديبور في كتابه «مجتمع الاستعراض أن «ما كان حقيقة قد أصبح الآن تمثيلا»(غي ديبور، 2000 ، ص 12) في إشارة

منه إلى أن الاستعراض أصبح يهيمن على الحياة الاجتماعية بشكل كامل حيث تصبح السلعة هي العنصر المركزي في الإدراك الاجتماعي مما يؤدي إلى تحويل الأفكار الثورية إلى سلع استهلاكية» فما كان في السابق ثورة حقيقية أصبح الآن جزءا من الاستعراض حيث يتم عرضه كمنتج استهلاكي معاد إنتاجه باستمرار « (غي ديبور،2000 ،ص 99) فعلى سبيل المثال نرى كيف يتم تحويل رموز الثورات مثل الكوفية الفلسطينية أو خريطة فلسطين إلى مجرد شعار على قميص يُباع في الأسواق وهكذا يتم تدجين الثورة عبر إدخالها في منطق السوق مما يفقدها معناها الأصلي فتصبح مجرد ماركة تجارية يتم تسويقها بحثا عن الإثارة والربح .
د- خلق بدائل وهمية للثورة وهذه أحد أكثر الأساليب دهاء لتفريغ الثورة إذ يعتمد على تقديم بدائل وهمية تعطي الناس شعورًا زائفًا بالتغيير دون أن تزعزع أركان النظام القائم. يشير سلافوي جيجك في كتابه «العنف: تأملات في الجانب المظلم من القرن العشرين» إلى أن كثيرًا من الثورات الحديثة لا تفعل أكثر من إعادة إنتاج النظام نفسه ولكن بوجوه جديدة فعلى سبيل المثال قد يتم استبدال زعيم مستبد بآخر من دون أن يكون هناك تغيير حقيقي في البنية العميقة للسلطة أو قد يتم تقديم بعض الإصلاحات الشكلية لكنها لا تعالج الأسباب الحقيقية للثورة وهكذا يتحول الفعل الثوري إلى مجرد متنفس مؤقت للنظام بدلًا من أن يكون قوة حقيقية تهدم أسس الفساد والاستبداد وكنتيجة يعاد إنتاج التفاهة عبر الثورة ذاتها .

**4-هل يمكن للثورة أن تنجح في عصر التفاهة؟**

ليست الثورة تغيير عنيفا في النظام السياسي فقط بل هي أيضًا ثورة على أشكال التفكير الرتيبة وعلى الثقافة المعلبة والجاهزة وإرادة حقيقية للبدء من جديد « فالثورات الناجحة لا تنبع من مجرد القوة الجماهيرية العمياء بل من القدرة على تشكيل قناعات جمعية جديدة تعيد بناء المعنى السياسي والاجتماعي (Zizek.2008.104).

-إن الثورات الحديثة حسب سلافوي جيجك تواجه تحديًا غير مسبوق يتمثل في القدرة على تجاوز الأنظمة الرمزية التي تشكل وعي الجماهير فالثورات لم تعد تواجه فقط قمع الدولة بل أيضًا مقاومة الأفراد أنفسهم الذين تم تكييفهم على قبول النظام القائم كواقع لا يمكن تغييره ،ومع ذلك فإن هذا لا يعني استحالة الثورة بل يشير فقط إلى أن نجاحها يتطلب استراتيجيات جديدة تتجاوز الوسائل التقليدية يمكن للثورات أن تنجح إذا استطاعت خلق خطاب جديد يقاوم التفاهة ويعيد للناس حسهم

النقدي وهذا يتطلب دورًا أساسيًا للمثقفين العضويين على حد تعبير غرامشي، الذين يستطيعون مواجهة الهيمنة الثقافية وكشف زيف الخطابات السائدة. فالحل يكمن في الوعي النقدي حيث يجب على الأفراد إدراك كيف يتم التلاعب بهم ثقافيًا وإعلاميًا كما يشير أنطونيو نغري إلى أهمية الذات الثورية القادرة على تجاوز الإطار الذي يفرضه النظام عبر خلق فضاءات سياسية جديدة لا يمكن احتواؤها بسهولة وهذا يعني أن الثورة الحقيقية يجب أن تتجاوز وسائل الإعلام التقليدية وأن تبني شبكات مستقلة للوعي والتعبئة لا تخضع لمنطق السوق والاستهلاك. فالثورة تظل ممكنة حين يتمكن الأفراد من تجاوز الخوف واستعادة حسّهم الأخلاقي تجاه الظلم. ولأن الشر كما قالت حنة أرندت « لا يكمن في النية بل في غياب التفكير»فإن مقاومة التفاهة تبدأ من القدرة على التوقف والتأمل والرفض.

**خاتمة:**

يمكن القول إن العلاقة بين التفاهة والثورة معقدة ومتعددة الأوجه فمن ناحية تعمل التفاهة كأداة للقمع الأيديولوجي ومن ناحية أخرى قد تؤدي هذه التفاهة ذاتها إلى اندلاع الثورات حقيقية خاصة عندما يصل الشعور بالعبثية والفراغ القيمي إلى مستوى لا يُحتمل. لكن نجاح الثورة في مواجهة التفاهة ليس مضمونًا بل يتطلب وعيًا سياسيًا وفلسفيًا عميقًا قادرًا على تفكيك أنظمة السيطرة الثقافية وإعادة بناء خطاب مقاوم. فالتفاهة هي إستراتيجية لإفراغ أي ثورة من محتواها وتحويلها إلى مجرد استعراض رمزي. في النهاية لكي تكون الثورة حقيقية عليها أن تعيد بناء الفرد الحر القادر على التفكير والمساءلة لأنه بين التفاهة والثورة تقف الثقافة-الإعلام-والسياسة وكلها ساحات للصراع الرمزي الذي يحدد مصير المجتمعات.

**قائمة المراجع:**


1. دونو ألان – نظام التفاهة – ترجمة مشاعل الهاجري – دار سؤال بيروت – 2018.
2. جان بودريار – المجتمع الاستهلاكي – دراسة أساطير النظام الاستهلاكي وتراكيبه -دار الفكر اللبناني بيروت 1995.
3. هيدغر مارتن – الوجود والزمان – ترجمة وتقديم -فتوح أحمد عبد الله – منشورات جداول – بيروت 2013.
4. حنا أرندت -السياسة والتاريخ والمواطنة. فيليب هانسن. ترجمة خالد عايد أبو هديب-المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.ط2018/1.
5. المسكيني فتحي – الهوية والزمان – دراسات في الفكر الوجودي – دار الطليعة بيروت 2007.
6. غي ديبور – مجتمع الاستعراض – ترجمة أحمد حسان – دار شرقيات للنشر والتوزيع – القاهرة – 2000.
7. غرامشي أنطونيو – دفاتر السجن – ترجمة فواز طرابلسي – دار الفارابي بيروت – 1991.


.

# تفاهة مهيمنة وعقل مستنكف

# Dominant Triviality and a Recoiling Mind

**محمد العيد القلي**

**جامعة محمد بن احمد، وهران 2**

**1/ مقدمة:**

**ثقافة الذوق** ليست مجرد مسألة تقديرية أو تفضيلات شخصية، بل هي جوهر الفعل الإنساني الواعي الذي يعكس أعمق القيم والمعايير الأخلاقية والجمالية في المجتمع. إنها الإطار الذي يوجه الأفراد نحو التميز والارتقاء، ويمنحهم القدرة على التمييز بين ما هو راق ومفيد، وبين ما هو سطحي وعابر. فأسس ثقافة الذوق تتجذر في القيم العليا التي تجمع بين العقل، الأخلاق، والجمال، لتشكل ركيزة أساسية للحضارة والإنسانية. **فالفلسفة وعلوم الإنسان** لطالما كانتا في مواجهة مستمرة مع تحديات الوجود الإنساني، لا سيما تلك المرتبطة بتراجع القيم الكبرى وصعود الرداءة والسطحية. ففي جوهرها تسعى الفلسفة إلى إعلاء شأن العقل والتفكير النقدي، بينما تهدف علوم الإنسان إلى فهم الظواهر المجتمعية وتفكيكها، من أجل بناء وعي يعزز القيم الإنسانية. فقد شهدت المجتمعات الإنسانية على مر التاريخ صراعا مستمرا بين قيم التفوق والتميز من جهة وقوى السطحية والرداءة من جهة أخرى. وفي عصرنا الحديث يبدو أن الكفة تميل بشكل متزايد لصالح التفاهة، حيث باتت ملامحها المهيمنة تؤثر بشكل عميق على مختلف جوانب الحياة، بدءا من السياسة والإدارة، وصولا إلى الفضاء الأكاديمي والثقافي. فقد جاء في ديباجة الملتقى أن **التافهون لديهم القدرة على المناورة للوصول إلى مناصب مهمة: وهذا من أسباب عزوف العقلاء وذوي القدرات في تسيير دواليب السياسة مثلا، ومن منطلق أن الطبيعة لا تحتمل الفراغ فسيقوم تافه ما بِشَغْرِ أي منصب يتنازل النزهاء عنه. يشاركون في القضاء على الحريات الفردية والعقول الحرة، بتعطيل التفكير النقدي. فالتفاهة** إجرائيا في هذا المقال تعني اختزال القيم الإنسانية الكبرى في مقاييس سطحية وآنية وتتمثل **التفاهة المهيمنة** في انتشار أشخاص يفتقرون إلى الكفاءة والعمق في القيادة والتوجيه، ما يؤدي إلى انحدار الذوق والمعايير إلى مستويات متدنية، كما بين **افلاطون** في تقسيمه

للحكام المتعلقون بالحقيقة والأبدي في مقابل الذي يهومون في المتغير، **وميشيل فوكو** الذي وضح كيف تقمع السلطة الأصوات الحرة، **وبيير بورديو** الذي فضح هشاشة المعايير المعتمدة في التقسيمات الاجتماعية المعاصرة، **وسلافوي جيجك** الذي أظهر كيفية الاستعباد عن طريق الحرية. وفي هذا السياق، «**الاستنكاف**» يعني الامتناع أو الترفع عن المشاركة في مواجهة التفاهة، إما بسبب الاعتقاد بأن هذا الانخراط أقل من شأن العقلاء كما وضح **فريدريك نيتشه**، أو بسبب الإحساس بعدم الجدوى كما جاء به **ألبيركامو**، أو لتجنب الخطر كما رأى **إريك فروم**. إلا أن هناك مجموعة نماذج من فلاسفة خرجوا عن صمتهم وتصدوا لتفاهة عصرهم رغم الظروف الصعبة التي كانوا يعيشونها ويتمثل هؤلاء في كل من **إراسموس** الذي أقر بأن التفاهة هي عنف ضد الحكمة، **وديكارت وسبينوزا** اللذان عملا على توعية الناس بأن العقل ملك الجميع وليس حكرا على الرهبان، **وفولتير وديدرو** اللذان دعوا إلى التسامح وتقبل الآخر.

**فما هو مصدر قوة التافه؟ لماذا لديه كل هذه القدرة؟ وهل العزوف والتنازل من صفة العقلاء؟ خاصة لما نعلم أن هذا سيفضي إلى القضاء على الحريات والعقول وتعطيل التفكير النقدي؟ فهل الصمت هنا خيانة للفكر؟**

**2/ مصدر قوة التافه وعوامل السيادة**

**أ/ الاهتمام بالمظهر بدلا من الجوهر:**

في كتاب **الجمهورية** انتقد **أفلاطون (Platon 427 -347)** هيمنة غير المؤهلين على القيادة السياسية، واعتبر أن الدولة المثلى يجب أن تحكم من قبل الفلاسفة لأنهم الأقدر على استخدام العقل والعدالة، ورأى أن الديموقراطية يمكن أن تؤدي إلى صعود الدهماء الذين يفتقرون إلى الفضيلة والحكمة، ففي الجزء السادس يذكر على لسان **سقراط: بالقدر الذي يكون الفلاسفة قادرون فيه أن يكتنهوا الأزلي والثابت فقط. أما أولئك الذين يتوهون في منطقة المتعدد والمتغير فليسوا فلاسفة. يجب أن أسألك أي من الطبقتين سيكون الحكام في دولتنا؟ (أفلاطون، 1994، 270)** والسؤال موجه إلى **كلوكون** ففي تعبيره **الأزلي والثابت** إشارة إلى العدل والحقيقة. وفي المقابل يصف التافهين المسيطرين باهتمامهم **بالمتعدد والمتغير** ويمكننا تفسير هذا في سياقنا بالذين يهتمون بالرغبات والأهواء والمكاسب الشخصية على حساب الذوق المعياري، فهذه الأوصاف تجعلهم غير مؤهلين للحكم، ومع ذلك يتطفلون بطرق غير شرعية ولا قانونية كالشعبوية والتلاعب بالرأي العام، وقد انتقد **أفلاطون**

الديموقراطية لأنها تتيح للجميع الحق في الحكم دون النظر إلى الكفاءة، بل تبنى على أهواء الجماهير بدلا من العقل، وعلى خلاف هذا فإن أغلب الدول اليوم تتمتع باستشارة الفلاسفة في كل المجالات، وقد أدرك العالم اليوم قيمة الفلسفة في إدارة الشؤون وحل الأزمات، كونها تتميز بالرؤية الشمولية للمسائل، ولا تقتصر على القراءة السطحية للوقائع، بل وتتيح حرية التعبير على الآراء وتؤمن بالاختلاف.

**ب/ استغلال السلطة:**

في أعمال **ميشيل فوكو (1926 Michel Foucault-1984)** حول السلطة والمعرفة بين كيف تمارس السلطة لقمع الأصوات الحرة وتعزيز أولئك الذين يخدمون النظام القائم. ففي كتابه **المراقبة والعقاب** يوضح فوكو كيف تتحكم السلطة في الأفراد ليس فقط من خلال العنف أو الإكراه المباشر، بل من خلال انتاج أنظمة معرفية تجعل بعض الأفكار «طبيعية» أو مقبولة، ففي الفصل المعنون بجسد طيع يقدم فوكو صورة عن التافهين في مشهد الجنود الذين **يدربون على عدم تثبيت نظراتهم بالأرض، بل التطلع بشجاعة إلى من يمرون أمامهم، وعلى البقاء جامدين بانتظاردون تحريك الرأس ولا اليدين ولا الرجلين (ميشيل فوكو، 1990، 258)** إن هذا المشهد يعبر على شكلية التافهين ويوضح قوتهم على الصمود ضد الحكماء والسر في هذا مجرد مظاهر توهم بالجودة لكنها مجرد أوهام خادعة للحقيقة تظهر ما لا تخفيه من محتوى فارغ ومن هشاشة الأساس فسلاحها الوحيد مجرد حركات تمثيلية، والتشبيه هنا بالجنود كان لسبب الكثرة كذلك التي يعزز بها هؤلاء التافهون مواقفهم فالمعيار لديهم دائما الأغلبية أو الكمية وليست الكيفية، لكن الدلالة في كلمة المرور في عبارة ميشيل فوكو توحي إلى استنكاف الفلاسفة فلماذا المرور؟ وليس الوقوف والصمود؟ فهذا دليل على أن الفلاسفة اليوم مستنكفون ومنعزلون على المشهد بذريعة النزاهة تنازلوا لهؤلاء عن قيادة الواقع. ثم يعود ويصف التافهين بالجمود والانتظار والامتناع عن الحركة ويشير هذا إلى تخوفهم من الفضيحة هذا ما يصب في المثل الفكري القائل **تكلم لأراك** تكلم لأكتشف خباياك.

**ج/ التقسيمات الاجتماعية الساذجة:**

حلل **بيير بورديو (1930 Pierre Bourdieu-2002)** في كتابه **الهيمنة الذكورية** كيف أن الأشخاص التافهين غالبا ما يتمكنون من الاستحواذ على السلطة من خلال شبكة العلاقات والنفوذ بدلا من الكفاءة **فإن التقسيمات المكونة للنظام**

**الاجتماعي، وبأكثر دقة العلاقات الاجتماعية للهيمنة والاستغلال التي أقيمت بين الأنواع، إنما تندرج شيئا فشيئا في طبقتين مختلفتين ... تؤدي إلى تصنيف كل أشياء العالم وكل الممارسات بحسب تمييزات تختزل في التعارض بين المذكر والمؤنث (بيير بورديو، 2009، 58)** في لفظ التقسيمات دلالة على أن هناك عمل طويل سبق الوضع الراهن فليس التقسيم الاجتماعي وليد فترة قصيرة وانما هو متأصل بأصالة العامل الانثروبولوجي للواقع البشري خاصة لما نفهم المقصود بالتقسيمات على أنها ذكر وأنثى فهو ينتقد الإعلاء بالذكور ومنحهم المناصب على حساب الإناث الذين لا يصح لهم منها إلا المناصب المحتقرة مثل عاملات النظافة ....إلخ. وما يمكن أن نستفيده من قوله هو أن التفاهة بلغت درجة المعايير الجنسية: فهذا ذكر نحتاج إليه هناك لأنه يتميز بكذا وكذا، وهذه أنثى تصلح أن تكون هنا لأنها تتميز بكذا وكذا، وهذه التمييزات كما ذكر **بيير بورديو** متعلقة بالجسد وليس بما ينبغي أن يكون عليه الذوق المعياري وهذا من عوامل سيادة التافه.

**د/ الحرية ضد التحرر:**

**سلافوي جيجك (Slavoj Zizek 1949)** في تحليلاته الثقافية والفلسفية في كتابه **سنة الأحلام الخطيرة** ناقش كيف أن الأنظمة المعاصرة تسمح بصعود شخصيات تافهة تعمل على تطبيع التفاهة وإقصاء التفكير النقدي، اذ ينقل في مقدمته كلاما خطيرا عن **تشيسترتون (ناقد أدبي وفيلسوف بريطاني 1874. 1936 من أشهر أعماله رو اية «الأب براون»)** مفاده أن **الحرية المجردة للتفكير تمنع بإيجابية الحرية الحقيقية** والكلام على النحو التالي **يمكننا القول بثقة إن حرية الفكر هي أفضل دروع الحماية ضد الحرية وعلى الطريقة الحديثة فإن تحرر عقل العبد هو أفضل طريقة لمنع تحرر العبد، علمه أن يهتم بأن كان عليه أن يكون حرا ولن يستطيع تحرير نفسه (سلافوي جيجك، 2013، 3)** يمكننا اسقاط هذا الكلام على واقعنا المعاصر المليء بالتفاهة فالحركة النسوية مثلا نابعة من هذه الفكرة التي تدعوا الى تحرير العبد من اجل استعباده حيث دعوا النساء إلى المطالبة بحقوقهم وفرض وجودهم بدعوى التحرر لكنهم وقعوا في أسر عبودية جديدة وهي الحركة النسوية والتي هي في حقيقتها تيار فكري يكرس اتجاه معاصر جديد مليء بالرعب إذ أشاد لنفسه في نفس الوقت رقابة حكومية وانتقادات فكرية ونبذ اجتماعي، وفي نفس الوقت دفعوا فئة أخرى تسمى بالمثلية بدعوى الحرية في تحديد المصير واختيار الماهية ونمط الحياة

المراد وأوقعوهم في أسر جديد وهي التيار المثلي والابتعاد عن الفطرة وطبيعة الانسان هذه هي التفاهة المهيمنة الآن، كذلك نلاحظ من جهة أخرى وما يسمى بحركة ضد عنف التمييز العنصري والتي تظهر اليوم في الملاعب الأوربية والمتمثلة في حركات الجلوس على الركبتين قبل بدئ المباريات وهم في نفس الوقت يكرسون عبودية الرجل الأسود والتمييز العنصري فهل يحتاج هذا الرجل إلى هذه الحركات لكي لا يكون عبدا؟ إنهم فقط يحافظون على هذه الظاهرة بدعوى المساعدة. كل هذا من أجل توضيح أن الدعوة إلى حرية التفكير اليوم في حد ذاتها صارت استراتيجية لهيمنة التفاهة في ثوب جديد ومن أجل سيطرة التافه على الذوق المعياري ولكن العقل مستنكف والخيانة اليوم هي صمت الفيلسوف.

**3/ «الاستنكاف»، أو عزوف العقلاء**

**أ/ التنزه عن التفاهة:**

في كتابه **هكذا تكلم زرادشت** يحاول **فريدريك نيتشه (1844 Nietzsche-1900)** تبرير الاستنكاف من خلال شذراته الآتية: **أيها الرجال الر اقون، خذوا عني هذه الحقيقة: في ساحة السوق ليس هناك من أحد يؤمن بالإنسان الأعلى (فريدريك نيتشه، 2007، 529)** يحرض نيتشه من خلال هذا الخطاب النخبة على الانسحاب عن الساحة العمومية واصفا إياها بالسوق وفي هذه اللفظة دلالة على العوام أو الطبقة البيولوجية من الناس، مؤكدا وجازما على أن هؤلاء لا يفهمون معنى الإنسان الأعلى لأنهم لم يرتقوا إلى هذه الدرجة وبالتالي سيأخذون كل شيء بتطفل وسيرون المناصب على أنها لباس جميل وتسريحة عصرية، وسيارات فخمة. وليس غريب لما نستمع إلى **نيتشه** يقول: **وكل ما هو منحدر من نوع العبيد المسخرين ومن خليط الرعاع خاصة يريد الآن أن يتولى مصير الإنسانية بكليتها – يا للقرف! القرف! القرف!(فريدريك نيتشه، 2007، 531)** ليس بوسعنا في هذه العبارة إلا أن نتكلم عن التفاهة العظمى والمتمثلة في التنظيمات العالمية الكبرى المتطفلة والتي تريد أن تقود العالم، إنهم صراحة عبيد مسخرون كما وصفهم نيتشه، يملكون القوة المادية للضغط عن الرأي العالم وفي نفس الوقت وجدوا من تبعية القطيع منصة لتحقيق غاياتهم، حيث يستخدم هذا القطيع كأدوات طيّعة تُنفذ السياسات التافهة التي تهدف إلى إحكام السيطرة على الحريات المضطهدة، تحت غطاء من الشرعية الزائفة والذرائع الإنسانية المُلفقة. يقول **نيتشه** مخاطبا العقول: **لتتكتموا على براهينكم! فالزمن**

**اليوم للرعاع! والذي تعلمته الرعاع فيما مضى دون برهان، كيف يمكن دحضه ببرهان؟ (فريدريك نيتشه، 2007، 536)** يصر نيتشه على الاستنكاف والانسحاب لأن الجاهل دائما إذا جادلك غلبك، فهؤلاء المسيطرون غالبا ما يأخذون المعارف دون نقد ولا تمحيص يذوب وعيهم فيما يقوله من يجدون فيه النجاة والخلاص لقضاء حاجاتهم المتعلقة بالمنفعة، يمجدون الانتصار للنفس لا للحقيقة ويجدون حرجا كبيرا في الاعتراف بأخطائهم، ولقد وجدنا الكثير من الأمثلة في تاريخ الفكر البشري عن هؤلاء ولا بأس لو ابتدأنا برهبان الكنيسة في العصور الوسطى، الذين نصبوا أنفسهم أوصياء على العقول والضمائر، فحاصروا كل تفكير حر وفرضوا سلطتهم باسم الدين. هؤلاء الرهبان لم يكونوا سوى أدوات لقمع الإبداع والعلم، إذ اعتبروا أي فكرة جديدة تهديدًا لمصالحهم ومكانتهم. كانوا يمجدون الطاعة العمياء ويقمعون النقد والتساؤل، حتى أصبح الاعتراف بالحقيقة أشبه بالجريمة. وقد رأينا كيف تصدوا لكبار المفكرين والعلماء، مثل **غاليليو وكوبرنيكوس**، لا لشيء إلا لأنهم سعوا لتحرير الإنسان من قيود الجهل والتقليد.

**ب/ العزوف من أجل الأمان:**

**إريك فروم (1900-1980 Erich Fromm)** في مؤلفه **الخوف من الحرية** أفصح عن نزوع العقلاء نحو الهامش لنزاهتهم باعتبار تفوق التافهون كونهم أكثر استعداد لقيادة الجماهير. ففي الفصل المعنون بأسباب الهروب يشترط **إذا حدث وتقطعت الروابط الأولية التي تعطي للإنسان الأمان، وإذا حدث أن واجه الفرد العالم الذي خارجه كذاتية منفصلة تماما ... إنه يسكن من القلق الذي لا يطاق ويجعل الحياة ممكنة بتجنب الخطر، ومع هذا لا يحل المشكلة الواردة (إريك فروم، 1972، 116)** يمكننا فهم الروابط اليوم في تلك المفارقات التي تحدث ضد الإنسجام الذي كان يربط بين مجموعة أجزاء متآلفة، فالفيلسوف يملك القدرة على إدراك هذه العلاقات بفضل رؤيته الشاملة واسعة الأفق وتمزق هذه العلاقات التي تجعل الأمور غير واضحة ولا مفهومة تشعر الفيلسوف بنوع من الخطر لأنه تمزق يمس التفكير في حد ذاته ويؤدي به إلى الشعور بالإغتراب فإذا كان الاغتراب بالنسبة الى **كارل ماركس** هو فشل العامل في اقتناء ما ينتجه فإن اغتراب الفيلسوف يكون في عدم انسجام تفكيره النسقي والمتماسك مع تفاهة الواقع المبعثر والقائم على التعسف ضد الذوق المعياري، ولكي يحافظ على حياته الفكرية وجودة تحليلاته الفلسفية ينعزل ويتحسر

من بعيد ويعيش ذلك الألم التراجيدي لينعكس على قريحته التي تحول كل ما سبق إلى ورقات.

**ج/ اللاجدوى:**

في كتاب **الإنسان المتمرد** ركز **ألبير كامو (1913 1960-Albert Camus)** على كيفية تهميش المفكرين لصالح الأنظمة السلطوية التي يديرها التافهون ويضيقون على أصحاب العقول **أولئك الذين يجدون أنفسهم منبوذين من العالم المنسجم الذي يتوازن فيه الهوى والعدالة أخيرا، يفضلون أيضا العزلة عن العوالم المرة، حيث لا يعود للكلمات معنى، وحيث تسود القوة وغريزة كائنات تخبط خبط عشواء (ألبير كامو، 1983، 111)** فإن النبذ هنا يعود على أصحاب العقول وهذا طبيعي جدا منذ ظهور الانسان الأول والحقيقة توصف بالمرارة وهذا شائع إلى يومنا. وهذا النبذ يكون من طرف ما وصفه **كامو** بالعالم المنسجم بين **الهوى والعدالة** وهي عبارة تهكمية مشهورة لدى الفلاسفة العبثيون الذين غالبا ما يعبرون عكس المعنى فالهوى لا ينسجم أبدا مع العدالة وكان عبر تاريخ الفلسفة لمثل هذه العبارات أثر قوي للوقوف ضد الواقع المرير حينما يتردد الفيلسوف عن التكلم بشكل مباشر فالعوام لا يفهمون كلام الفلاسفة لأن تفكيرهم كما وصف **هيجل** تفكير من الدرجة الأولى وتفكير الفلاسفة منصب على التفكير في حد ذاته، إذن يبدا من الدرجة الثانية صاعدا إلى التعالي، ويمكننا اعتبار هذا بدايات استنكاف الفلاسفة أي اعتزالهم الفضاء العمومي واستسلامهم لتطفلات التافهين.

**4/ الخروج عن الصمت والصمود ضد التفاهة**

**أ/ تعنيف الحكمة:**

تمكن فلاسفة النهضة وعصر التنوير من كسر قيود الصمت ومحاربة التفاهة من خلال الفكر النقدي والعقلانية عن طريق إعادة احياء التراث الإنساني: فقد أحيا **إيراسموس (1469 1536-Erasme)** النصوص الكلاسيكية اليونانية والرومانية وقام بالدعوة إلى تقدير الإنسان ككائن عاقل ومبدع قادر على تشكيل مستقبله **فإنه لا يوجد ما هو أكثر روعة من أن نمثل الحماقة برجل يتعمد الأفعال التافهة (إيراسموس، 2011، 6)** يصف إراسموس في هذه العبارة آثار التفاهة بالروع وهي صيغة مبالغة من الخوف والرعب وتأصيلها الفلسفي هو أن هيمنة التفاهة نوع من العنف بل النوع الأخطر لأنه عنف صامت يؤدي إلى موت الحياة الفكرية فالعنف هو

الضغط على إرادة الآخر، والآخر في هذه النقطة ليس شخص أو شخصان، إنه عنف ضد الحكمة لأن الحكمة بطبعها أمانة للحكماء وإن أسنادها لغير أهلها الأحرار جريمة وعنف.

**ب/ العقل ملك الجميع:**

دافع **ديكارت (1596 Descartes-1650)** و**سبينوزا (1632 Spinoza-1677)** على تعزيز حرية التفكير: ففي **مقال عن المنهج** صرح ديكارت بأن **العقل هو أحسن الأشياء توزعا بين الناس (ديكارت، 1968، 109)** فماذا يقصد من هذه العبارة من غير هجومه الغير المباشر على القساوسة الذين يمكننا اعتبارهم تافهو تلك الفترة؟ إنهم كانوا يحتكرون المعرفة ويجمدون العقول من أجل مصالحهم بدعوى الدين، والذين استعملوه كعامل قوي للحفاظ عن تسلطهم على الناس باعتباره أمر مقدس، وأراد أن ينبههم بأن العقل هو من نصيب الكل، والكل يملكه بالتساوي.

ولقد اشترط **سبينوزا** أن **لو استطاع الناس تنظيم شؤون حياتهم وفقا لخطة مرسومة ... لما وقعوا فريسة للخر افة (سبينوزا، 2005، 109)** ففي هذا الشرط تصريح ضمني بالاستطاعة وتوعية للناس بأن يسيروا حياتهم بإراداتهم وأن يخرجوا عن المألوف الذي أدى بهم إلى الجهل والخصوع الأعمى، وفي ذلك دعوة إلى الذوق المعياري في عبارة «**خطة مرسومة**» بعد أن وقعوا في سيادة التافه الذي لا يملك سلاحا آنذاك إلا الخرافة والمقصود منها التفسير اللاعقلاني للظواهر ولهذا كان يدعوا الناس وينبئهم بأن الإله الذين يبحثون عنه في السماء بواسطة القديس موجود في الطبيعة في حد ذاتها والناس يعيشون فيه دون وعي ومفاد هذا هو الدعوة الى اكتشاف اسرار الطبيعة وجمالها وانسجامها وبالتالي سيكون هذا بحث عن الإله في نفس الوقت لأن الله وضع لنا في الكون أدلة على وجوده وهي متاحة للجميع.

**ج/ المقدس والتسامح:**

وهاجم **فولتير (1694 Voltaire-1778)** و**ديدرو (1713 Diderot-1784)** السلطات الكنسية التي فرضت الطاعة العمياء مشددان على ضرورة التسامح الديني واحترام الفكر الحر:

إذ يعبر **فولتير** قائلا **أنا لا أدعي أن الذين لا يشاركون العاهل دينه يفترض بهم جميعا أن يتقاسموا المناصب والامتيازات مع أتباع الدين السائد. ففي إنكلترا**

**تحرم الوظائف الحكومية على الكثالكة الذين يعتبرون منضوين تحت راية مطالب العرش. بل إنهم يدفعون الضريبة مضاعفة. ولكن فيما عدا ذلك فإنهم يتمتعون بحقوق المواطنة كافة (فولتير، 2009، 34)** بغض النظر عن حيثيات المثال المقدم من طرف فولتير، وإذا أردنا تجريد هذا المثال من سياقه الزماني والمكاني يمكننا اكتشاف عامل آخر من عوامل سيادة التافه على حساب الذوق المعياري ألا وهي إشكالية الانتماء فكلمة **أتباع** كافية للدلالة على هذا، وفي هذه الحالة يصير المعيار العنصرية بدل أن يكون الكفاءة وبالتالي ستسيطر التفاهة وتهيمن على الوضع، ومن أهم الحلول التي يمكن استنتاجها من باقي كتابات فولتير هي التسامح فالتعريف الفلسفي لهذه الكلمة هو تقبل الآخر وعدم الضغط على ارادته، ففولتير لم يستنكف في هذا الوضع ولم ينعزل عن الظروف فقد كان من الفلاسفة الذين جاهدوا بفكرهم من أجل إخراج المجتمع من هذا المأزق.

وفي رواية **جاك المؤمن بالقدر** يمثل **ديدرو** التفاهة القائمة في عصره بقول من شخصية **جاك** قائلا: **وكان رئيسي يضيف قائلا إن كل رصاصة تنطلق من بندقية إنما تحمل العنوان المرسل إليه (ديدرو، 2000، 10)** فلم يستنكف ديدرو للتفاهة المهيمنة، وقد استعمل لفظ **رئيسي** للتعبير عن الهيمنة السلطوية التي كان يعانيها المواطن الأوربي آنذاك، وقد وصف الأفعال التي كانت تصدر قمعا ضد المواطنين **بالرصاصة** عن طريق وسائط وصفهم **بالبندقية** كونها وسيلة مادية طائعة لقائدها وتحمل هذه المادة دلالات الآلية والانقياد الأعمى على حساب التفكير النقدي والذوق المعياري. ولكن بأي ذريعة؟ بذريعة القدر والذي أتى في قول **ديدرو** ضمن تعبير **العنوان المرسل**، والذي يمكننا تحديده كعامل من عوامل سيادة التافه آنذاك، فالقدر آنذاك كان يشكل مصدر قوة للتافهين من أجل قمع الحريات وتهميش العقول، وتجهيل الشعب، فكما كانت السلطات في عصر ديدرو تستغل ذريعة القدر يمكن ملاحظة اليوم استخدام مفاهيم موازية مثل التقاليد، الشرعية التاريخية، الاستقرار ... لتبرير بقاء التفاهة في مواقع السلطة، والوسائل الموازية التي تستخدم اليوم هي وسائل الإعلام والأجهزة الإدارية، والمناهج التعليمية التي تتضمن توجيه مستتر، فاليوم نجد سرديات شائعة مثل «هذه هي طبيعة الأمور» تستعمل لثني الأفراد عن التفكير النقدي أو المطالبة بالتغيير.

**5/ خاتمة:**

إن الكلام عن ثقافة الذوق هو كلام عن جماليات الحياة والكلام عن المعيار هو كلام عن أخلاقياتها، والبحث عن أسس لهذا هو بحث فلسفي وعلمي إنساني قيمي بامتياز منذ الأزل البشري وإلى الأبد. فبالرغم من انتشار التفاهة التي تسعى إلى القضاء عن هذه القيم سواء بالاهتمام بالرغبات والاهواء والاختفاء وراء الشعبوية وما تتيح الديموقراطية من تلاعب بالرأي العام كما أشار **أفلاطون**، أو باستغلال السلطة لقمع الأصوات الحرة، والتخطيط لإنتاج أنظمة معرفية تؤدي إلى تطبيع التفاهة كما بين **ميشيل فوكو**، أو من خلال شبكة العلاقات والنفوذ والتقسيمات الاجتماعية الساذجة كما وضح **بيير بورديو**، أو بتحريض الجماهير وإيهامهم بالحرية كما حلل **سلافوي جيجك**، فكل هذا يعتبر من عوامل سيادة ومن مصادر قوة التافه الذي لا يؤمن بالتفوق ولا يتيح الفرص للمتفوقين كما ذكر **فريدريك نيتشه**، وكل هذه العوامل أدت إلى عزوف العقول واعتزالها ساحة الصراع الفكري بدعوى الترفع والتنزه عن هذه الرداءة التي أصابت الثقافة البشرية كما أعرب **نيتشه**. وبدعوى العبث واللاجدوى من التغيير كما ذهب إليه **ألبير كامو**، أو لسبب الخوف من جحود التافه ولتجنب الخطر والبحث عن الأمان كما رأى **إريك فروم**، لكن وبالرغم من صعوبة الظروف فالصمت عن هذه التفاهة خيانة للفكر والخروج عن هذا الصمت واجب المفكر والمثقف وفي هذا يمكننا الاستفادة من نماذج فلاسفة الأنوار الذين نجحوا في محاربة التفاهة التي كانت سائدة في عصرهم، فلا يخلوا زمن من التفاهة فقد ساهم **إراسموس** في تشويه صورة التفاهة واصفا إياها بالروع وهذا من أجل التأثير في التصورات التي يكونها الرأي العام، وقد أعاد كل من **ديكارت وسبينوزا** الثقة للناس في استخدام عقولهم من أجل فك عقدة التفكير آنذاك، بعدما تسبب الرهبان في فوبيا التحرر لشعوبهم، ولم يصمت **فولتير** لتطفل الرهبان وللامتيازات التي كنات تمنح لمن يتبع نهجهم قمعا ولا **ديدرو** رضخ للذين يستولون بذريعة المقدس والقدر، فالخروج عن الصمت واجب المفكر والفيلسوف والمثقف لأن التفاهة تعتبر خطرا كبيرا على الفكر والذوق المعياري، لكن على هذا الخروج أن يكون معياريا كذلك ولا يؤدي إلى تفاهة أكبر، أما الاستنكاف فإن كان مؤقتا من أجل تدارك الوضع فلا بأس، لكن العزوف النهائي والاستسلام للتفاهة يعتبر من التفاهة أيضا.

**6/ قائمة المراجع:**


1. أفلاطون، المحاورات الكاملة، المجلد الأول، الجمهورية، ترجمة شوقي داوود تمراز، دار الأهلية، بيروت، ط غ م، 1994.
2. ديسيدريوس إراسموس، في مديح الحماقة، ترجمة أماني سعيد، وكالة سفنكس، القاهرة، الطبعة الأولى، 2011.
3. رينيه ديكارت، مقال عن المنهج، ترجمة محمد محمود الخضيري، دار الكاتب العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1968.
4. اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة وتقديم حسن حنفي، دار التنوير، بيروت، الطبعة الأولى 2005.
5. فولتير، رسالة في التسامح، ترجمة هنرييت عبودي، دار بترا، دمشق، الطبعة الأولى 2009.
6. ديدرو، جاك المؤمن بالقدر، ترجمة عبود كاسوحة، دار الحوار، اللاذقية، الطبعة الأولى، 2000.
7. فريدريك نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، بغداد، الطبعة الأولى 2007.
8. إريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 1972.
9. ألبير كامو، الإنسان المتمرد، ترجمة نهادر رضا، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الثالثة، 1983.
01. ميشيل فوكو، المراقبة والعقاب «ولادة السجن»، ترجمة علي مولا، مراجعة وتقديم مطاع صفدي، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت، ط غ م، 1990.
11. بيير بورديو، الهيمنة الذكورية، ترجمة سلمان قعفراني، مراجعة ماهر تريمش، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2009.
21. سلافوي جيجك، سنوات الأحلام الخطيرة، ترجمة أمير زكي، دار التنوير، بيروت، الطبعة الأولى، 2013.

# مجتمع التفاهة في العصر الرقمي: مقاربة فلسفية للنقد والمواجهة

# The Society of Triviality in the Digital Age: A Philosophical Approach to Critique and Confrontation

**د. بوستة كريمة**
**وحدة البحث: علوم الإنسان. جامعة وهران2**
**أستاذة محاضرة بجامعة تيارت.**

**مقدمة:**

لم يعد تأثير التفاهة يقتصر على الجوانب الهامشية للحياة، بل أصبح ظاهرة مركزية تشكل الوعي الجمعي وتعيد صياغة المعايير الثقافية والاجتماعية. في العصر الرقمي، حيث تنتشر المعلومات بسرعة فائقة ويتحول كل شخص إلى صانع محتوى محتمل، برزت التفاهة كمكون أساسي للمجال العام، حيث يتم تكريس الشهرة والنجاح بناءً على الاستهلاك السريع والتفاعل اللحظي، بدلًا من القيمة الفكرية والمعرفية. لقد أضحت الجودة مسألة ثانوية أمام قابلية الانتشار، مما أدى إلى انحسار الفكر النقدي لصالح الترفيه السطحي. يرى الفيلسوف الكندي **ألان دونو (Alain Deneault)** في كتابه «نظام التفاهة» **(La Médiocratie)** أن «التافهون قد احتلوا المشهد العام، ولم يعد هناك مكان للعباقرة وأصحاب الفكر العميق»، حيث صعدت إلى الواجهة شخصيات لا تقدم سوى محتوى خفيف يخدم منظومة السوق والاستهلاك الجماهيري، بينما همّش الإنتاج الفكري الجاد. هذه الظاهرة ليست وليدة اليوم، فقد حذر الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر من «التسطيح المعرفي» الذي يخلقه التقدم التقني، معتبرًا أن العالم الحديث قد دفع الإنسان نحو الانشغال بالمظاهر بدلًا من الجوهر. إن العصر الرقمي لم يخلق التفاهة، لكنه وفر بيئة خصبة لازدهارها. فالخوارزميات المصممة لجذب الانتباه باتت تكافئ المحتوى الأسرع استهلاكًا والأكثر إثارة، دون اعتبار للقيمة المعرفية أو الأخلاقية. وكما يقول عالم الاجتماع **بيير بورديو:** «الإعلام لا يمنح الفكر مساحة حقيقية، بل يعمل على إنتاج الرأي العام وفقًا لمتطلبات السوق»، وهذا يفسر لماذا تحظى المواد السطحية بشعبية أكبر من المحتويات العميقة التي تتطلب جهدًا فكريًا لفهمها.

لكن هل التفاهة قدر محتوم أم يمكن مواجهتها؟ هنا يأتي دور الفلسفة، التي لطالما كانت أداة الإنسان في مقاومة الابتذال وإعادة التفكير في القيم والمعايير. يرى **سقراط** أن «الحياة غير المفحوصة لا تستحق العيش»، وهذا يعكس أهمية النقد الذاتي والتساؤل المستمر كممارسة ضرورية لمقاومة الرداءة الثقافية. كذلك، يذكرنا **نيتشه** بأن «العقلية القطيعية» تقود البشر إلى الاستسلام لما هو سائد، بدلًا من البحث عن الحقيقة والتفكير المستقل. ثم إذا كان الهدف الأسمى للإنسان أن يبني حضارة فما أسهل أن يهدمها بتوفير بيئة خصبة لانتشار هذه الأفكار السطحية والعقيمة حيث يُستبدل العمق الفكري بالانشغال بالمظاهر والاستهلاك الثقافي غير المنتج لقول مالك بن النبي وهذا الوضع يُبعد المجتمعات عن مسار النهضة الحقيقية، حيث يؤكد أن النهضة تتطلب إعادة بناء الفكر وتبني أفكار حية وفعالة تُسهم في تطوير **المجتمع**. بالإضافة إلى ذلك، يشير **بن نبي** إلى أن الاستعمار يسعى إلى نشر التفاهة بين الشعوب المستعمَرة، بهدف إشغالها بقضايا سطحية تافهة تصرفها عن التفكير في واقعها ومستقبلها. يهدف ذلك إلى إبقاء هذه الشعوب في حالة من الركود والتبعية، مما يسهل السيطرة عليها وإدامة تخلفها.

انطلاقًا من هذه الرؤى، يسعى هذا المقال إلى **تحليل ظاهرة التفاهة في العصر الرقمي من منظورفلسفي، عبرتفكيك أسباب انتشارها، وتأثيرها على بنية المجتمع، وأهم السبل النقدية لمواجهتها، في محاولة لاستعادة الفكر العميق في زمن الهيمنة السطحية.**

**التفاهة في الفلسفة اليونانية: أفلاطون أنموذجا**

في الفلسفة القديمة، لم يكن هناك مفهوم محدد **«للتفاهة»** كما نعرفه اليوم، ولكن يمكن فهمه ضمن إطار القيم الفلسفية التي تناولت السطحية والابتذال مقابل البحث عن الحقيقة والفضيلة. لم يستخدم **أفلاطون** مصطلح «التفاهة» بشكل مباشر، لكنه ناقش مظاهرها من خلال نقده للسطحية والابتذال، خصوصًا في مجالات السياسة، الفنون، والمعرفة. كان يعتقد أن المجتمع يجب أن يُدار من قبل الفلاسفة، لأنهم وحدهم القادرون على التمييز بين الحقيقة والوهم، وبين العمق والسطحية. في كتابه **«الجمهورية»**، ناقش أفلاطون كيف يمكن أن يؤدي تركيز المجتمع على الرغبات والملذات إلى تدهور النظام السياسي. يرى أن الديمقراطية غير المنضبطة تُنتج قادة تافهين يستجيبون لرغبات العامة بدلاً من السعي وراء الحقيقة

والعدالة. هذه الفكرة تتجلى في نقده لـ «السفسطائيين» الذين اعتبرهم رموزًا للتفاهة الفكرية، حيث يركزون على الإقناع الخطابي بدلًا من البحث عن الحقيقة.

في كتاب «الجمهورية» هاجم أفلاطون الفنون الشعبية والموسيقى التي تُخاطب العواطف بدلاً من العقل، معتبراً أنها تعزز السطحية وتُبعد الإنسان عن التفكير الفلسفي العميق. كان يرى أن الفن يجب أن يخدم غرضًا تعليميًا وأخلاقيًا، لا أن يكون مجرد وسيلة للترفيه الخالي من القيمة الفكرية. انتقد أفلاطون الفنون الشعبية والموسيقى التي تخاطب المشاعر بدلاً من العقل، معتبرًا أنها تخلق سطحية في التفكير وتقود إلى الابتذال. كان يرى أن المجتمع العادل يجب أن يستند إلى الحكمة والفكر العميق، محذرًا من تأثير الترفيه المفرط على عقول العامة. يوضح أفلاطون تأثير الفنون على النفس البشرية وأخلاق المجتمع. يقول أفلاطون في كتاب الجمهورية: «ولا يجوز تشجيع مخاوف الموت في قلوبهم بإخبارهم أن الحياة في العالم الآتي مظلمة، ولا تمثيل صفات أكابر الرجال لبصرهم وسمعهم بصورة محقرة أو مضحكة أو دنية» (أفلاطون، 1994، صفحة 83). عندما يكون الفن أو الأدب مجرد إثارة للضحك، أو تحقير للعظماء، أو تعزيز لمخاوف غير عقلانية، فإنه يصبح تافها لأنه يفقد هنا يتحدث عن الشعر التمثيلي حيث يقوم الشاعر أو الممثل بتشخيص شخصيات متعددة، أي أنه يتقمص أدوارا مختلفة، كما يحدث في المسرح، هنا يرفض أفلاطون فكرة أن الفرد يمكنه أن يؤدي شخصيات متعددة بشكل جيد، وهو نقد مباشر لفكرة التمثيل المسرحي، حيث يقوم الممثلون بلعب أدوار مختلفة، ما قد يؤدي حسب رأيه إلى تشتت الهوية الأخلاقية للفرد. فغير أن تأثير «الصورة التي بها تؤثر القصص في عقولهم يؤثر في طبيعة نفوسهم أعظم تأثير، فإننا نجد الشعر إما تشخيصا صرفا كما في الرواية، أو قصصا كما في خيرية بعض القصص، أو مركبا من النوعين كما في الشعر القصصي، ولا يجد الشخص الواحد أن يجيد تمثيل أدوار كثيرة متباينة» (أفلاطون، 1994، صفحة 83).

أفلاطون ينتقد الشعر التمثيلي والمسرح لأنه يعتمد على المحاكاة، وهي في نظره مجرد صورة مزيفة للواقع وليست معرفة حقيقية. التفاهة هنا تتمثل في تقديم صور سطحية أو مضللة عن الواقع، تجعل الناس منشغلين بالعواطف والانفعالات بدلا من البحث عن الحقيقة والفضيلة. يقول أفلاطون: «ويجب أن يسن لهم نظام شديد التدقيق في الأغاني والألحان والآلات الموسيقية، فلا يسلم لهم آلة موسيقية تنشئ

فيهم الرخاوة وضبط العزائم، فيحظر عليهم كل الآلات الموسيقية إلا العود والقيثارة والزمر، ويحظر عليهم أيضا كل الألحان الركيكة» (أفلاطون، 1994، صفحة 83). يرى أفلاطون أن الموسيقى تؤثر على الأخلاق، لذلك يجب أن تكون خاضعة لنظام صارم لضمان أن تكون مفيدة للمجتمع. يرفض الموسيقى التي تؤدي إلى الرخاوة وتضعف الإرادة، يحذر من الألحان والآلات التي تشجع على الترف والانحلال، لأنها تجعل المواطنين أكثر ضعفا وأقل انضباطا. ويضيف قوله: «والطامة الكبرى أن الشعر يصغر النفس، لأنه يجذبنا إلى الشعور العميق بالآلام واللذات، فتصبح عزائمنا ونقدس من حمل آلامنا» (أفلاطون، 1994، صفحة 324) الشعر يجعل النفس ضعيفة لأنه يغمرها في المشاعر والانفعالات، مما يضعف الإرادة والعقل. «ولهذا كنا ملزمين رغم إرادتنا أن نضع القانون القائل: يباح من الشعر تسابيح الآلهة، وتقاليد كبراء الرجال، والأعمال الشريفة، لأن الصلاح ليس أمرا سهلا، بل هو الفضيلة» (أفلاطون، 1994، صفحة 324)

يقول أفلاطون: «فواضح أن الشاعر المقلد بطبيعة الحال لا دخل له في خلق النفس الهادئ ولا ترمي حكمته إلى إرضائه إذا رام إحراز الشهرة العالمية، إنما ينحصر عمله بالخلق الحزون المتقلب، لأنه يسهل عليه تقليده» (أفلاطون، 1994، صفحة 337) في هذه الفقرة يتحدث أفلاطون عن الشاعر باعتباره مجرد مقلد للواقع، وليس مبدعا للحقيقة أو الحكمة. يرى أفلاطون أن الشعراء لا يخلقون «النفس الهائجة» ولا يهدفون إلى تحقيق الحكمة، بل يعملون فقط على تقليد الانفعالات والعواطف، مما يسهل عليهم التأثير على الناس دون تقديم معرفة حقيقية. في هذا الجزء يحدد أفلاطون ما يجب أن يكون عليه الشعر: أي يجب أن يكون موجها نحو تمجيد الآلهة وتعظيم الشخصيات الفاضلة، بينما يرفض أنواع الشعر التي يراها مضرة للأخلاق. أفلاطون انتقد بشدة الاعتماد على الحواس فقط في اكتساب المعرفة، معتبرًا أن الحقيقة لا يمكن بلوغها عبر الإدراك الحسي وحده. في «أسطورة الكهف»، وصف كيف أن الناس العاديين يعيشون في «كهف» من الأوهام، حيث يكتفون بظلال الحقيقة (المعلومات السطحية) دون البحث عن جوهرها العميق. يمكن اعتبار هذا نقدًا مبكرًا للتفاهة المعرفية، حيث يكون الناس راضين بالمعلومات الجزئية والمضللة بدلاً من البحث عن المعرفة الحقيقية عبر الفلسفة.

يمكن تلخيص موقف أفلاطون بأن التفاهة تنتج عن تركيز المجتمع على الملذات السطحية، والفنون التي تُشجع المشاعر بدلاً من العقل، والسياسات التي تعتمد على الشعبية بدلاً من الحكمة. لهذا، شدد أفلاطون على الحاجة إلى «**المدينة الفاضلة**»، التي يحكمها الفلاسفة القادرون على توجيه المجتمع نحو التفكير العميق والمعرفة الحقيقية. طرح أفلاطون مفهوم «**الملك الفيلسوف**»، مشيرا إلى أن المجتمع لن يصل إلى العدالة الحقيقية إلا إذا حكمه الفلاسفة. يقول هنا أفلاطون: «قد تبينا الفرق بين الفلاسفة الحقيقيين وبين الدجالين، وواضح أن الأولين هم الذين يعينون حكاما في الدولة» (أفلاطون، 1994، صفحة 197). في هذا المقطع من الجمهورية يناقش أفلاطون الفارق بين الفلاسفة الحقيقيين والمدعين، ويعدد الصفات الضرورية للحكام الفلاسفة، مثل حب الحقيقة، والاستقلال عن الشهوات، والعدالة، والذاكرة القوية. يرى أفلاطون أن الفلاسفة الحقيقيين هم وحدهم المؤهلون للحكم، لكن سمعة الفلسفة تضررت بسبب المتطفلين والانتهازيين. لذا يشدد على ضرورة إخضاع الحكام لاختبارات صارمة لضمان صفات الحكمة والعدالة. يقول أفلاطون: «...الذين أفسدوا سمعة الفلسفة بسفسطتهم وترهاتهم، فعرج من ثم القلائل المخلصون الولاء للفلسفة عن منصات السياسة، وآثروا العزلة على الفساد لدى احتكاكهم بالناس» (أفلاطون، 1994، صفحة 198) يقول أفلاطون: «فالنتيجة واضحة: وهي أن هؤلاء الفلاسفة الحقيقيين هم حكام الدولة المثلى. وهكذا تطرق سقراط إلى استئناف البحث في تهذيب الحكام، وكان قد ذكر قبلا عدة امتحانات يجوزونها قبلما يتمتعون بحقوق الحكم. والآن نقول إنه علاوة على تلك الامتحانات يلزم امتحانهم في دروس جمة، فيرقون تدريجيا من الأدنى إلى الأعلى لاستكشاف صفاتهم العقلية والأدبية» (أفلاطون، 1994، صفحة 198)، يتحدث أفلاطون هنا عن ضرورة تأهيل الفلاسفة الحقيقيين ليصبحوا حكاما، مشددا على أهمية إخضاعهم لاختبارات فكرية وعقلية صارمة.

**التفاهة في الفلسفة الغربية المعاصرة: (نيتشه، هيدغر، آلان دونو، بيونغ تشول هان)**

في العصر الحديث، اكتسب مفهوم التفاهة بعدا فلسفيا واجتماعيا متزايد الأهمية، خاصة مع التحولات العميقة التي أحدثتها وسائل الإعلام والتكنولوجيا الرقمية. لم تعد التفاهة مجرد سلوك فردي عابر، بل غدت ظاهرة بنيوية تسيطر على الفضاء العمومي حيث تختزل القيم والمعاني في أنماط سطحية. لذلك التفت عدد من الفلاسفة والمفكرين إلى خطورة هذه الظاهرة (أزمة الحداثة، التفاهة) محاولين

تقويض وتفكيك بنيتها وتحليل أسبابها وآثارها على الوجود الإنساني والمجتمعات المعاصرة.

**- فريدريك نيتشه (1844-1900):**

في كتابه «**هكذا تكلم زرادشت**»، وصف نيتشه الإنسان الحديث بأنه «**الإنسان الأخير**» وهو كائن تافه يبحث فقط عن الراحة والملذات السطحية، ويفتقد للشجاعة الفكرية والإبداع. هذا المفهوم يعبر عن نقد نيتشه للحداثة، إذ يرى أن القيم السائدة تخلق إنسانا ضعيفا لا يسعى للتفوق أو تجاوز ذاته. يعرض مفهوم **"الإنسان الأخير"** كرمزية للانحطاط الثقافي والفكري الذي يراه سمة مميزة للحداثة. يُصوّر نيتشه هذا الكائن على أنه شخص مادي للغاية، يركز فقط على الراحة والملذات الجسدية، ويتجنب أي نوع من التحدي أو المعاناة. هذه النظرة تمثل انتقادًا حادًا للقيم التي تسود في المجتمع الصناعي والتكنولوجي الحديث. نيتشه واجه ما يمكن تسميته بالعصر المأزوم أو نقول «عصر التفاهة" من خلال تطوير فلسفة نقدية تسعى إلى تحطيم ثقافة القطيع، وهدم القيم السائدة وإعادة بناء قيم جديدة. يمكن تعريف التفاهة بأنها فقدان المعنى أو القيمة سواء في الأفكار، أو السلوكيات، وهي كل ما يتعلق بتلك التجارب التفاهة حسب السياق النيتشوي هي حالة وجودية وثقافية نابعة عن انحطاط القيم وسيادة "القطيع" الذي يخضع الإنسان لإرادة الجماعة وتقتل إبداعه واستقلاله الفكري. حسب نيتشه التفاهة هي النقيض للإبداع والتفوق، هكذا يتم صناعة عصر التفاهة، أي عندما يتخلى الفرد عن تميزه وينساق وراء القطيع. والمواضيع التي تشجع الرداءة والانحطاط وتخلق مجتمعات تافهة، كان نيتشه قد عنون الفقرة (9) من الكتاب الأول من الفجر مفهوم أخلاق العادات والتقاليد، إذ يقول: «لو قارنا طريقة عيشنا مع الطريقة التي عاشت بها الإنسانية طيلة آلاف السنين للاحظنا بأننا نعيش عصرا يتميز باللاأخلاقية: لقد ضعفت سلطة العادات بشكل كبير وأصبح المعنى الأخلاقي دقيقا وضئيلا إلى درجة أنه يمكننا اعتباره قد تبخر. لذلك يصعب علينا، نحن المتأخرين، أن ندرك الأفكار الموجهة التي كانت وراء نشوء الأخلاق، وحتى إن تمكنا من اكتشافها فإننا ننفر من الإعلان عنها بسبب فظاظتها! ما أشد افتراءها على الأخلاقية!» (نيتشه، 1881، صفحة 17). قال نيتشه ذات مرة ساخرا: «حيث لا يوجد عرف، ليس ثمة أخلاق، لأن الشعور الخلقي لا معنى له سوى طاعة العادات والتقاليد. لكن قصد نيتشه ليس الدفاع عن أخلاق العادات والتقاليد ضد

أخلاق الخير والشر، بل يتناول الموضوع بتصور نقدي أعمق يهدف إلى تفكيك وفهم جذور كلا النظامين الأخلاقيين، كان يريد التنبيه إلى النسبية والهشاشة والتاريخية العميقة للقيم الأخلاقية التي نعرفها. وأن ما نسميها اليوم «غير أخلاقي» في واقع الأمر لم يكن يعني سوى «خارج عن العادات والتقاليد» وذلك طيلة فترة سحيقة القدم من تاريخ الإنسانية» (نيتشه، في جينيالوجيا الأخلاق، 1887، صفحة 19). المسألة ليست اختيار أحدهما أو الدفاع عنه، بل فهم كيف نشأ كل نظام أخلاقي وماهي آثاره على الإنسان والحياة. **يعتبر الإنسان المبدع، أو الإنسان الحر في نظر التقاليد والكنيسة والعادات هو إنسان فاسد أخلاقيا «الرجل الحر لاأخلاقي** بما أنه يريد أن يكون هو المتحكم-في كل أموره وليس العادة المتبعة، أو التقليد: في كل الدول البدائية التي عرفتها الإنسانية كان «**الشر**» مرادفا ل «**فردي**»، «**حر**»، «**اعتباطي**»، «**غير مألوف**»، «**غير متوقع**»، «**غير منتظر**». في تلك الدول البدائية ووفقا لنفس التقييم: إذا قام شخص بعمل ما، ليس استجابة للتقاليد، وإنما لدوافع أخرى (بسبب النفع الذي تعود به على الفرد مثلا)، أو حتى وفق الأسباب التي كانت وراء نشوء العادة، فإنه توصف بكونه **لا أخلاقيا** ويعتبر كذلك، حتى من طرف الشخص الذي قام به: لأنه لم يفعل ذلك في إطار الخضوع للتقاليد» (نيتشه، الفجر، 1881، صفحة 17) بالنسبة لتصور نيتشه أن الرجل الحر لا يخضع لمعايير التبعية والقطيع، لا يخضع لمعايير أخلاقية مفروضة عليه من الخارج، بل يخلق قيمه الخاصة بناء على تجربته ورؤيته للعالم. لا يمكن إنكار ذلك الإقصاء والتهميش الذي يتعرض إليه الإنسان المتفوق، بل لا يمكن تصور حتى حجم المعاناة التي يعيشها الإنسان المبدع، فالمعاناة التي يشعر بها أصحاب العقول المتميزة والمبدعة عبر التاريخ في ظل سلطة الأخلاق التقليدية والعادات التي تفرض كأساس وحيد للصواب والخطأ، وينتقد نيتشه كيف أن هذه السلطة تخضع الأفراد الأصليين والمبدعين على الإحساس بالذنب وتأنيب الضمير، مما يعيق إمكانياتهم وقدراتهم ويمنع من حريتهم في التفكير والتفوق، نعرف قدر المعاناة الذي تحملته العقول النادرة، المختارة، المندفعة، عبر العصور بسبب اعتبارها خبيثة وخطيرة، بل باعتبارها هي لنفسها كذلك. لقد كانت كل أشكال الأصالة، في ظل هيمنة أخلاقية العادات، تشعر بتأنيب الضمير، وهو ما جعل أفق أفضلها يصبح معتما أكثر مما ينبغي» (نيتشه، الفجر، 1881، صفحة 19) يطرح نيتشه مفهوم الإرادة إلى القوة **كبديل** لقيم التفاهة. بالنسبة له، الحياة الحقيقية يجب أن تكون تعبيرا عن

القوة والإبداع، لا مجرد قبول للواقع كما هو. الإرادة إلى القوة تعني السعي إلى تحقيق الذات وتجاوز الحدود. من الأقوال الهامة في فكر نيتشه مقولة: ما لا يقتلني يقويني... تعلمته في مدرسة الحياة الحربية» (نيتشه، أفول الأصنام، 1889، صفحة 09) يرتبط مفهوم إرادة القوة بمفهوم الإنسان الأعلى، الذي يمثل الفرد الذي يجسد إرادة القوة بأعلى مستوياتها. الإنسان الأعلى يتجاوز القيود التي تفرضها الأخلاق التقليدية والقيم الاجتماعية، ويخلق عالما جديدا من القيم والمعاني. قال نيتشه إن «التاريخ كله يسير مدفوعا بإرادة الظفر خلال **قوة لا تعرف الرحمة**. فالإرادة تقول: **(هكذا أردت، وهكذا أريد... لاتكن لينا مع جارك)** إن القسوة هي مبدأ الحياة الأول. فالحيوان يقاتل ليتطور إلى إنسان، والإنسان يجاهد ليتطور إلى إنسان أعلى.

ولا يهدف كل مخلوق إلا إلى الارتفاع والصعود فوق أجساد إخوانه في البشرية. فإن عذاب الكثرة ضروري لانتصار القلة. ولا يمكن الحصول على هذا لنصر إلا عن طريق أعمال حربية عدوانية-هي القتال الذي يشنه الحيوان الأكبر على **القطيع العادي**، أو قل **القتال بين الإنسان الأعلى(السوبرمان)، وبين السواد (المهلهل المتهافت) من عامة الناس**، إذ أن أنبل عمل في العالم هو شن الحروب» (هنري، أعلام الفلاسفة:كيف نفهمهم، 1964، صفحة 322). «...في العالم من الأصنام أكثر مما فيه من الحقائق...إن هذا الكتيب اعلان كبير للحرب. أما الأصنام التي يتعين الاصغاء إليها فهي ليست هذه المرة أصنام العصر، إنها أصنام خالدة نضربها بالمطرقة» (هنري، أعلام الفلاسفة:كيف نفهمهم، 1964، صفحة 323) الأصنام في هذا السياق ليست بالضرورة أصناما دينية مادية، بل تمثل الأفكار والمعتقدات التي ينظر إليها كحقائق لا تمس، مثل الأخلاق التقليدية، التقاليد والعادات، الدين وحتى بعض المفاهيم الفلسفية والسياسية التي تقدس العقل والمنطق. يوجه نيتشه نقدا لاذعا للأصنام كونها تخفي الحقائق القاسية والمربكة عن الحياة، مثل الصراع، الألم، والتغير المستمر. تعيش المجتمعات اليوم على عبادة أصنام: «أصنام في الأخلاق، وأصنام في السياسة، وأصنام في الفلسفة...فإذا كنا نريد أن نخلص الإنسانية من هذه الحال، وأن نفتح لها طريقا فسيحا معبدا أمام مستقبل زاهر، وإذا كنا حريصين حقا على أن نجعل لوجودنا معنى ساميا، وأن نرتفع بالحياة في سلم التصاعد نحو القداسة ونحو العلاء، فلنصطنع الشجاعة في أروع مظاهرها، والصراحة في أفضح صورها، كي نواجه حقائق نفوسنا وأحوالنا في صبر وثبات، غير خجلين، فليس في الخجل أو

الاستحياء شفاء من أي داء» (بدوي، 1975، الصفحات 163-164) في كتابه «هكذا تكلم زرادشت» يقول: «ليست إرادة الحق في عرفكم، أيها الحكماء، إلا تلك القوة التي تحفزكم وتضطرم فيكم، تلك هي إفادتكم التي أسميها أنا «إرادة تصور الوجود» فإنكم تطمحون إلى جعل كل موجود خاضعا لتصوركم.....فتريدون أن تخضعوا لإرادتكم كل كائن لتتحكموا فيه بالعقل ليصبح مرأة تنعكس عليها صورة العقل» (نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، 1883، صفحة 143) انتقد نيتشه كل الفلاسفة التقليديين الذين يخضعون الواقع لإرادتهم وتصوراتهم العقلية، مدعيا أنهم يبحثون عن الحقيقة بينما هم في الواقع يرغبون في السلطة والهيمنة، يرى أن إرادة القوة هي الدافع الحقيقي وراء هذه المحاولات، ويبين قصور وعجز العقل ومحدوديته وهكذا البحث عن طرق أعمق لفهم الحياة. إن الحياة الحقيقية حسب نيتشه ليست امتثالا للقيم السائدة، بل هي نضال مستمر ضد تلك الأكاذيب والزيف (الأخلاق التقليدية، القيم المطلقة، والتصورات الثابتة للخير والشر)، التي رسختها المؤسسات الدينية والاجتماعية عبر التاريخ، حيث تم تبسيط الأفكار الأخلاقية لتناسب الأغلبية، لكنها في الحقيقة تخفي ضعفا ورداءة، على الرجل الممتاز أن ينظر إلى الحياة على أنها كفاح هائل ضد الأكاذيب وألوان الخداع التي انساقت الانسانية في تيارها، وأن يعلم أن رسالته هي اهدار كل القيم الباطلة التي اتخذها الناس في قياسهم للخير والشر، والباطل والحق، والقبيح والجميل، واعلان الحرب الشعواء، التي لا رحمة فيها ولا لين، على كل ما في الحضارة الحالية من ضعف وانحلال وجبن: (إنني أحلم بقيام جماعة من الرجال تامين، مطلقين، أشداء لا يتهاونون ولا يتساهلون، يطلقون على أنفسهم اسم (الهدامين، فيخضعون كل شيء لنقدهم، ويضحون بأنفسهم من أجل الحقيقة. يجب أن يظهر كل ما هو شر وباطل علنا في وضح النهار! إنا لا نريد أن نبني قبل الأوان، بل لسنا نعرف ان كان قدر لنا أن نبني يوما ما، وأن ليس الأحسن ألا نبني مطلقا، وهناك متشائمون كسالى ومستسلمون، ولكنا نحن لن نكون أبدا من بين هؤلاء) (بدوي، 1975، صفحة 165)

**مارتن هايدغر (1889-1976):**

لم يستخدم هيدغر مصطلح «التفاهة» بشكل مباشر، لكنه ناقش إشكاليات مثل الوجود غير الأصيل، والسطحية، والاغتراب، مما يتقاطع مع بعض أفكار النقد الثقافي الحديث لعصر التفاهة، ناقش هايدغر في «الكينونة والزمان» مفهوم «السقوط في الحياة اليومية»، حيث ينغمس الإنسان في توافه الأمور بدلاً من البحث

عن المعنى الأصيل للوجود، مما يؤدي إلى الضياع في حياة غير أصيلة. يقدم هيدغر تحليلا فلسفيا لطبيعة التفاهة في ضوء العصور الحديثة وما آلت إليه من اخفاقات وأزمات على جميع المستويات الحياتية، الاجتماعية، «إن فترة الغياب التام للمعنى هي الفترة التي يتم فيها التحقق الكامل لماهية العصور الحديثة» (سبيلا، الحداثة، 2008، صفحة 56). لقد أدت التطورات التقنية والتكنولوجيا الحديثة إلى تعزيز التفاهة من خلال تحويل الاهتمام من العمق إلى السطحية، ومن التفكير النقدي إلى الاستهلاك السريع للمعلومات والمحتوى الترفيهي. فقد أصبح الإنسان الحديث مشغولا بالمظاهر، محاصرا بتدفق مستمر من البيانات التي تشتت وعيه وتمنعه من التأمل في الأسئلة الجوهرية للوجود، في ظل هذه الظروف يتراجع المعنى لصالح الفورية والسطحية، مما يجعل التفاهة هي القاعدة السائدة في الحياة اليومية. «بيد أن إنسان العصر الحديث-فيما يقول هيدغر- قد أصبح يعيش في حالة جماعية زائفة، لأنه قد اتخذ من(الوجود مع الآخرين) ذريعة للتنازل عن وجوده الخاص، فلم يعد وجوده سوى مجرد انغماس في عالم (الجمهور).وهكذا فقد إنسان العصر الحديث إنسانيته وحريته، وصار مجرد موضوع ينطق بلسان الآخرين، ويتحرك في مجال ذلك الوسط الاجتماعي الغفل» (ابراهيم، د.س، صفحة 406) يرى هيدغر أن الإنسان الحديث لم يعد يعيش وفق ذاته الحقيقية، بل أصبح يذوب في (الهمس العام) أو المجتمع، حيث يتخلى عن التفكير العميق لصالح الامتثال والتكيف مع الجماعة.

في نصوصه المتأخرة، ينتقد هيدغر المجتمع الحديث بوصفه خاضعا للتقنية والإعلام واللامبالاة، حيث يفقد الإنسان أصالته ويذوب في اللامتميز، ومن بين هذه النصوص نجد نص (السؤال عن التقنية) أهم الكتابات الفلسفية التي تطرف فيها إلى أن الحداثة التقنية تخضع العالم والإنسان لمنطق الإنتاج والسيطرة، يتحدث فيه عن ما يسميه (الإطار) (Ge-stell)، أي الطريقة التي تجبرنا بها التقنية الحديثة على رؤية الكائنات كموارد. يقول هيدغر: «سنسأل عن التقنية، وفي هذا الفعل، ينبغي لنا أن نعد أنفسنا لعلاقة حرة معها، ستكون العلاقة حرة فقط إذا فتحت وجودنا الإنساني على جوهر التقنية» (Heidegger, 1977, p. 03)يشير هيدغر هنا إلى أن علاقتنا بالتقنية يجب ألا تكون علاقة استعمال أو تحكم فقط، بل علاقة تفكير وتأمل في جوهرها. العلاقة الحرة بالتقنية لا تعني التحرر منها، بل تعني فهمها على نحو أعمق يكشف عن حقيقتها. هذه الحرية تتحقق فقط عندما نسمح للتقنية بأن تضيء

لنا شيئا عن وجودنا الإنساني نفسه، أي عندما ننفتح على الطريقة التي تكشف بها التقنية عن العالم وتضعنا فيه. فبدل أن نخضع التقنية لإرادتنا، ينبغي أن نصغي إلى ما تكشفه هي عن الوجود.

يقول هيدغر: "قد وصلت الإنسانية اليوم إلى شفير حدوث شيء لكم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية. إن الإنسانية تدخل عصرا أطلقت عليه اسم (العصر النووي)"...ماذا يختفي وراء هذه التسمية التي تبدو مبتذلة (عصر نووي) ...ماذا يعني أن يتسم عصر من العصور بالطاقة النووية وباستخراجها؟ " (سبيلا، الحداثة: سل، الصفحات 242-243) يرى هيدغر أن تسمية العصر بالنووي تخفي طبيعته الحقيقية، فهي لا تعبر عن مجرد تطور تقني، بل تشير إلى خضوع الوجود الإنساني لمنطق السيطرة والحساب الأداتي، حيث تختزل الكينونة إلى موارد تستخرج وتوظف وفق مبدأ العلة الكافية، مما يفضي إلى فقدان المعنى والتحكم الكلي بالإنسان. يقول هيدغر إن نسيان الوجود الذي يظهر بوصفه عدم التفكير في حقيقة الوجود يمكن أن يفسر وبسوء فهم على أنه تقصير التفكير المعاصر وعلى كل حال يفسر بوصفه شيئا محددا بواسطة السؤال المطروح عن معنى الوجود، أعني عن حقيقة الوجود. إن فكر هيدغر يمكن أن يفهم بوصفه إعدادا وتدشينا للأساس الذي تقوم عليه كل الميتافيزيقا بوصفها أساسا غير متاح. أعني بطريقة كما لو أن النسيان الراهن قد ألغي وتمت إزالته. بيد أن الأمر مرتبط بالنسبة للفهم الحقيقي بإدراك أن عدم التفكير المعاصر المشار إليه ليس هو تقصير، بل يمكن أن يفكر فيه بوصفه نتيجة» (هيدغر، 2018، صفحة 45)

يشير إلى أن هذا النسيان لا ينبغي فهمه على أنه مجرد (تقصير) من فكر الحداثة، بل إنه نتيجة لتحجب الوجود نفسه. وهنا تكمن خطورة الحداثة: إنها تؤسس لعلاقة مع العالم تنكر ما هو أعمق من الكائنات، أي تنكر الوجود نفسه. وبهذا المعنى فإن أزمة الحداثة ليست فقط أخلاقية أو سياسية، بل أنطولوجية في الجذر.مشروع هيدغر، إذن، يسعى إلى تشخيص هذا التصدع الأنطولوجي في الحداثة، ليس عبر نقدها من خارجها، بل عبر الحفر في أساسها، ليبين أن الحداثة نفسها قامت على نسيان الأصل، أي نسيان سؤال الوجود يسأل هيدغر في كتابه في الشيء الذي يخص التفكير سؤالين: «في أي حيثية تكون الفلسفة قد أدركت في عصرنا الحالي نهايتها؟ أية مهمة يبقى التفكير محتفظا بها عند نهاية الفلسفة؟ « (هيدغر، 2018، صفحة 79).

يرى هيدغر أن الفلسفة الغربية وصلت إلى نهايتها عندما اكتمل مشروعها الميتافيزيقي، أي حين انشغل الفكر بالكائنات وتفسيرها وأهمل سؤال الوجود نفسه. لم تعد الفلسفة، في نظره، قادرة على تجديد علاقتها بالوجود، خاصة بعد أن أصبح التفكير محصورًا في الأبعاد التقنية والحسابية التي تطبع عصرنا. ورغم هذه النهاية، لا يرى هايدغر أن مهمة التفكير قد انتهت، بل على العكس، يدعو إلى نوع جديد من التفكير لا يسعى إلى تقديم مفاهيم أو أنساق نظرية، بل يهدف إلى الإنصات للوجود وفتح المجال لظهوره. بهذا المعنى، تصبح مهمة التفكير اليوم هي استقبال الوجود والتأمل فيه، بدلًا من التحكم فيه أو تفسيره بأساليب تقليدية. يقول هيدغر «أن إنسان العصر الحديث قد أصبح يعيش في حالة جماعية زائفة، لأنه اتخذ من (الوجود مع الآخرين) ذريعة للتنازل عن وجوده الخاص، فلم يعد وجوده سوى مجرد انغماس في عالم (الجمهور). وهكذا فقد إنسان العصر الحديث إنسانيته وحريته، وصار مجرد موضوع ينطق بلسان الآخرين، ويتحرك في مجال ذلك الوسط الاجتماعي الغفل. وهنا يتحدث هيدغر عن ضربين من الوجود البشري: فيفرق بين وجود حقيقي أصيل ووجود زائف غير مشروع، على أساس التمييز بين ذات حرة تأخذ على عاتقها مسؤولية وجودها، وذات غريبة على ذاتها قد فقدت حريتها فأصبحت تحيا على حساب الآخرين و(الوجود الأصيل) في نظر هيدغر إنما هو ذلك الوجود الحقيقي الذي تشعر معه الذات بأنها قائمة بنفسها، مسؤولة عن ذاتها، وأنه قد خلى بينها وبين حريتها، وأنه لابد لها من أن تأخذ على عاتقها تبعة وجودها. وأما (الوجود الزائف) فهو ذلك الوجود العيني الذي تهبط فيه الذات بنفسها إلى مستوى الموضوع، فتميل إلى الانغماس في المجموع، آملة من وراء ذلك التهرب من حريتها، والتنصل من مسئوليتها، والتخلص من شعورها بالقلق» (ابراهيم، د.س، صفحة 405) هذه الرؤية الهيدغرية لعصر الحداثة تشبه سياق مفهوم التفاهة عند آلان دونو، حيث يصبح الإنسان جزءا من نظام يفرض عليه السطحية بدلا من التميز والإبداع، في عصر التفاهة يتم استبدال الجهد الفكري والتميز الشخصي بقبول الوضع القائم والانغماس فيما هو سائد وسهل.

**تحليل كتابات الفيلسوف الكوري الألماني «بيونغ شول هان (Byung-Chul Han) « حول عصر الحداثة. قراءة في كتاباته التالية (مجتمع الاحتراق النفسي، مجتمع الشفافية، من داخل السرب: آفاق رقمية)**

يناقش بيونغ -تشول هان في معظم أعماله تحليلا عميقا للمجتمع المعاصر، وقد وصفه بأسماء متعددة مثل: مجتمع التعب، مجتمع المنهك، مجتمع السخط، مجتمع الشفافية، مجتمع العرض.... إلخ، لذلك يعتبر هان واحد من أبرز الأصوات النقدية التي تناولت تحولات التي شهدها العالم المعاصر من رؤية فلسفية واجتماعية، من خلال مفاهيم جديدة ودراسة المجتمعات المعاصرة بعين ثاقبة، حيث يسعى هان إلى الكشف عن أنماط السلطة الجديدة وآليات الاستغلال الخفي التي تتخفى وراء شعارات الحرية والشفافية. هكذا يبين هان من خلال نصوصه كيف فقد المجتمع الحديث القدرة على التأني والتفكير العميق، بسبب الايقاع السريع للحياة والعمل، مما أدى إلى غياب المعنى. يقول بيونغ –تشول هان: «إن مرض العصر الحديث ليس العدوى، بل الارهاق النفسي والعقلي. إن الأمراض العصبية مثل الاكتئاب، واضطراب نقص الانتباه وفرط النشاط (ADHD)، واضطراب الشخصية الحدية (BPD)، ومتلازمة الارهاق، تحدد ملامح علم الأمراض منذ مطلع القرن الحادي والعشرين» (هان، 2021، صفحة 09). لقد كان القرن الماضي (مناعيا)، كان الإنسان يستطيع التمييز بين الداخل والخارج، بين الصديق والعدو، ويواجه كل ما هو غريب، أما الآن، بات عاجزا عن التمييز، فالعدو صار من الداخل، يتسلل بملامح واضحة، وينهك الذات من الداخل، مثل فيروس لا يرى، لكنه يفقد الجهاز المناعي قدرته على المواجهة، وفعلا هذا هو العصر الذي نعيشه اليوم.

يكشف هان أزمة المجتمع الحديث كيف أصبح يمجد الحياة النشطة وثقافة الانجاز، حيث ينظر إلى النشاط والعمل المستمر على أنهما معيار أساسي للحياة الجيدة، بينما يتم تهميش الراحة والتأمل، يقول هان: «فالبشر، داخل مجتمع العمل والمعلومات، في عصر الحداثة المتأخر، لا يمتلكون القدرة الذاتية النابعة من داخلهم على القيام بمهام متعددة» (هان، 2021، صفحة 25). أصبح الناس يعرفون أنفسهم من خلال انتاجيتهم مما جعلهم عالقين في دوامة الأداء الدائم دون فرصة للتوقف والتفكير. يقول هان موضحا **أهمية الفلسفة** في مواجه عصر الحداثة ومشكلاته قائلا: «نحن مدينون للإنجازات الإنسانية الثقافية-بما في ذلك الفلسفة-بالانتباه التأملي العميق حيث تفترض الثقافة وجود بيئة تتوافر فيها إمكانية القيام بعمليات قائمة على التأمل العميق» (هان، 2021، صفحة 26). يرى هان أن تأثير الوسائل الرقمية قد حجب القدرة على الرؤية، حيث تمطرنا الشاشات الحديثة بالصور والمحتوى البصري

بشكل مستمر، مما يمنعنا من التوقف والتأمل فيما نراه، لأن الانتباه المفرط يفقد القدرة على التعمق، لأن تعدد المصادر والنشاطات يشتت الذهن، ويجعل الإنسان أقرب إلى الاستهلاك منه إلى الإنتاج الابداعي أو التأمل العميق الهادئ وحقيقة هذا ما نعيشه اليوم ولا يمكن انكاره.

يتأثر **بيونغ(1959)** بفكرة النقد الذي وجهه هيدغر للحداثة، حيث يرى أن مجتمع التسارع الحديث يسير في «**اتجاه نسيان الوجود**» أي فقدان العمق لصالح السطحية والتفاهة والحرية المستمرة، أي لا يصبح هناك وقت للتأمل أو التفكير (الزمنية والانتظار هما أساسيان لفهم الكينونة بعمق) عندما يصبح كل شيء متاحا يفقد الارتباط بالماضي والمستقبل، مما يجعل التجربة سطحية بلا أصالة، لأن المعنى يتشكل فقط عبر الامتداد الزمني والتأمل. «تقضي الشفافية القهرية على رائحة الأشياء، رائحة الوقت. الشفافية ليس لها رائحة، التواصل الشفاف، الذي لا يعترف بشيء إلا بعد موضعته، فاحش» (هان ب.، 2019، صفحة 68) يتناول بيونغ تشول هان موضوع التفاهة في مقاربة فلسفية، ودراسة الإنسان في ضوء المجتمعات المعاصرة حيث ينتقد الثقافة الرقمية التي تسعى إلى الوضوح الفائق، مما يقتل العمق والتأمل. يرى هان أن شبكات التواصل تجعل من الصعب على الإنسان أن يكون له حيز خاص أو رأي مختلف، وكيف أصبحت العلاقات الاجتماعية أكثر استهلاكية وأقل إنسانية، «تجعل الشفافية الإنسان مثل الزجاج، وهنا تحديدا يكمن عنفها، حيث يفضي كل من الحرية غير المقيدة والانفتاح التواصلي إلى السيطرة الكاملة» (هان ب.، 2019، صفحة 08). يؤدي مجتمع الشفافية إلى إلغاء السلبية والتناقضات التي كانت موجودة في المجتمعات التقليدية يرى هان: «أن الشفافية لم تعد مجرد وسيلة لتحسين تبادل المعلومات، لقد تحولت إلى مطلب كلي الوجود. ووصل الأمر إلى حد الافتتان بها، والنظر إليها على أنها قيمة مطلقة» (هان ب.، 2019، صفحة 13). وحتى الزمن أصبح شفافا داخل مجتمع الشفافية، ففي المجتمعات التقليدية، كان للزمن طابع متقطع، لكن اليوم في المجتمعات المعاصرة يصبح الزمن متدفقا ومسطحا، حيث لا توجد قطيعة بين الماضي والحاضر والمستقبل، بل يتداخل كل شيء في الآن. «يغدو الوقت شفافا عندما ينسل بسهولة إلى سلسلة من اللحظات الراهنة المعاشة. ووفقا لتلك الكيفية أيضا يخضع المستقبل لهذا التصور الايجابي، مما يفضي إلى حضوره على نحو نموذجي. الوقت الشفاف لا يعرف أي مصير أو حدث...إن مجتمع الشفاف هو الجحيم نفسه»

(هان ب.، 2019، صفحة 15) وأيضا داخل المجتمعات الحديثة حصل غياب الجدل والتأويل داخل مجتمع الإيجابية (فكرة السلبية) «لا يوجد في المجتمع الإيجابي مكان لكل من الجدل والتأويل، يستند الجدل على السلب، هكذا وفقا لهيغل يغدو السلب جزءا من الروح ويعمل على الحفاظ عليها. (الجدل والتأويل ضروريان للفكر النقدي لحياة العقل» (هان ب.، 2019، صفحة 21). وكذلك تم رفض المشاعر السلبية داخل مجتمع الإيجابية، «المجتمع الايجابي لا يتسامح مع المشاعر السلبية، ومن ثم يفقد الشخص القدرة على التعامل مع الألم والمعاناة...وفقا لنيتشه أن الروح البشرية مدانة في عمقها، أما العظمة والقوة فهما مرهونتان بالوقت الذي يقضيه المرء رفقة السلب، فروح الإنسان تولد من الألم أيضا» (هان ب.، 2019، صفحة 21) داخل مجتمع الإيجابية السلبية تجعل التواصل في مأزق «يمكن تلخيص التوافق لمجتمع الايجابية في الضغط على أعجبني (**Like**) ومن المعلوم أن الفيسبوك قد رفض باستمرار اتاحة إمكانية التعبير عن لم يعجبني (**Dislike**) (هان ب.، 2019، صفحة 26) لو توضع هذا الزر **(لم يعجبني)** ينقص التفاعل وبالتالي لا يمكن استغلالها اقتصاديا، فالتواصل في هذا المجتمع يتحول إلى عملية استهلاكية. الشفافية لا تعني الحقيقة، لأن الحقيقة تتطلب وجود السلب، أي القدرة على نفي الخطأ وتمييز الصواب. في مجتمع الايجابية يتم التركيز على تراكم المعلومات والتواصل المستمر. الاتصال المفرط المخدر يقول هان: «يتم الاتصال المرئي، اليوم، من خلال العدوى، أو بطريقة لا إرادية، وهو يفتقر إلى أي تأمل جمالي. تغدو جماليته، في نهاية المطاف، أشبه بالمخدر. على سبيل المثال، لا تتطلب عملية التقييم، التي يعبر عنها بالضغط على زر الاعجاب **(Like)** أي عناء تأملي» (هان ب.، 2019، صفحة 36) التواصل المرئي هو أسرع من التواصل الحسي، فالحواس بطيئة، إنها تعوق التداول المتزايد للمعلومات والاتصالات. وهكذا تأتي الشفافية مع غياب المعنى. إن تأثير الشفافية المفرطة على العلاقات الإنسانية، كيف تقتل الإغواء، حيث أن هذا الأخير يتطلب الغموض واللعب والتناقض، وتظهر متعة الحياة عندما تكون ممزوجة من الخطأ والغموض وليس إلى وضوح مفرط يؤدي إلى تدمير التفكير والجدل الفلسفي، وليس هذا فقط، وإنما أصبح اليوم كل شيء متاحا وفاقدا لقيمته « اللعب عن طريق المراوغة والتناقض، عن طريق الغموض والألغاز، يزيد من التوتر الجنسي. الشفافية أو الصراحة الكاملة هما نهاية الإيروس، أي البورنوغرافيا. ومن ثم، ليس من قبيل المصادفة أن يغدو مجتمعنا الراهن للشفافية،

في الوقت ذاته، مجتمعا بورنوغرافيا» (هان ب.، 2019، صفحة 40) الوضوح والشفافية يدمران البعد الاستراتيجي في العلاقات والتفاعلات الاجتماعية (المراوغة والتكتيكات الذكية) التي تعطي للعلاقات ثراءها وتنوعها، **أفكار**هان **تتلاقى مع نيتشه** الذي يرى في الغموض الأقنعة واللعب جزءا أصيلا من الحياة الحقيقية، لا مجرد زيف يجب التخلص منه. وجود القناع والتمثيل يسمح بوجود مساحة للحرية، كلما كان الإنسان أكثر تعلقا بالأقنعة والخداع، كلما كانت الحياة أكثر تعقيدا وإثارة يقول نيتشه كل روح عميقة تحتاج إلى قناع، وأن المكر أفضل من القوة، المكر ليس خداع بل استراتيجية ضرورية للحياة والحرية في مجتمع يطالب فيه الجميع بالكشف عن كل شيء «تظهر الروح العميقة في كنف القناع الذي ينمو حولها مثل الجلد الواقي...إن المكر لا يساوي الحقد، إنه أكثر فطنة وأقل عنفا من القوة» (هان ب.، 2019، صفحة 46).

تصبح الحياة العامة مسرحا للأداء الشخصي، حيث يتنافس الأفراد على عرض صورهم وحياتهم الخاصة أمام الآخرين مما يؤدي إلى تفريغ العمل الجماعي والسياسي من مضمونه الحقيقي. «تعمل وسائل الاعلام الاجتماعية، ومحركات البحث المخصصة داخل شبكة الأنترنت، على إنشاء مساحات من القرب المطلق حيث يتم القضاء على المجال الخارجي. يلتقي المرء نفسه وحياته فحسب...هذا المحيط الرقمي يوجه المستخدمين فقط لقطاعات العالم التي ترضيهم. في هذا الإطار، يتفكك المجال العام- في الواقع، إنه يفكك الوعي النقدي العام-والمجال الخاص للعالم» (هان ب.، 2019، الصفحات 72-73) و**يتحدث أيضا** هان **عن كهف** أفلاطون في وضع مقاربة فلسفية حديثة لمفهوم كهف أفلاطون بدراسة تحليل المجتمع المعلوماتي المعاصر ويفسر بيونغ تشول هان الكهف الأفلاطوني تفسيرا جديدا حيث يمكن النظر إلى الأنترنت ووسائل الإعلام الحديثة باعتبارها تجسيدا جديدا لجدران الكهف التي تعرض ظلالا ومعلومات قد تكون مشوهة أو غير مكتملة. «عندما نمعن النظر، سنجد أن كهف أفلاطون قد تم بناؤه بشكل واضح على شكل مسرح. السجناء يجلسون مثل رواد المسرح في مواجهة منصته، ثمة ممر موجود بين السجناء والحراس، على طول الطريق يمتد جدار منخفض يشبه الجدار الذي يعرض فنانو فن السلوى ظلال دماهم عليه» (هان ب.، 2019، صفحة 77).

ويتابع **هان** نقده للحداثة الرقمية والثقافة المعاصرة حيث يطرح فكرة يستهل بها نقده وهي كيف للعالم الرقمي فقد القدرة على **التوقير والاحترام** العميق للأشياء

والرموز والقيم وهنا يستمد فكرة والتر بنيامين في الأشياء التي كانت تتمتع بقدر كبير من الجلال والاحترام والهيبة (الطقوس، الرموز، الشخصيات الكبيرة) أصبحت في العصر الحديث مبتذلة بسبب الافراط في العرض والتداول السريع. يقول بيونغ تشول هان متحدثا عن فقدان التوقير يفضي الى تآكل المجال العام وتفكك الحياة المدنية: «يشكل التوقير أساسا لكل ما هو جماهيري أو مدني أو مرتبط بالمجال العام وحالما يضعف الأول يضمحل الأخير إن تدهور المجتمع المدني وغياب التوقير حالتان متلازمتان على نحو متبادل، يتطلب المجتمع المدني من بين أمور أخرى النظر بنوع من التوقير لكل ما هو خاص اتخاذ قدر من المسافة هو ما يشكل المجال العام لكن اليوم يسود الافتقار التام للمسافة الفاصلة، ومن ثم التوقير حيث أصبحت الأمور الحميمية على المشاع ويتم الكشف عن المجال الخاص في كافة السياقات» (هان ب.، داخل السرب: آفاق رقمية، 2021، صفحة 19) التوقير هنا يعني الاحترام، التقدير، والابقاء على مسافة رمزية تحفظ للأشياء قسمتها، فالمجتمع المدني والمجال العام لا يمكن أن يزدهرا الا اذا كان هناك احترام للمشترك، للرمزي، للمؤسسات، للقيم، اذا غاب هذا التوقير تلاشى الشعور بأن هناك ما يستحق الحماية أو المشاركة فيه، فإذا اختفى التوقير اختفى المجال العام

يعرف **غوستاف لوبون الحداثة بأنها عصر الحشود**، رأى **لوبون** ان بنى السلطة آخذة في التداعي واحدة تلو الاخرى وفي مقابل ذلك يسود صوت الجماهير وقد لاحظ أن الجماهير قد قاموا بتأسيس نقابات تقف كحائط صد أمام السلطة القائمة. تعتبر ظاهرة الحشود عن توازن جديد في آليات السلطة» (هان ب.، داخل السرب: آفاق رقمية، 2021، صفحة 29). يمكن فهم ما أشار إليه لوبون على أن صعود الحشود لم ينتج بالضرورة وعيا نقديا، بل أتاح المجال لهيمنة ذوق جماهيري سطحي يسهم في إفراغ الفضاء العام من المعنى. فبدل أن تحدث الجماهير توازنا حقيقيا مع السلطة، أصبحت أداة لإعادة إنتاج التفاهة. ويوضح هان كل مرة كيف تختلف المجتمعات التقليدية عن المجتمعات الحديثة، حيث أن الفضاء الرقمي يختلف جذريا عن الفضاءات التقليدية التي كانت تجمع الجماهير، مثل الملاعب والمدرجات، لأنه داخل العالم الرقمي لا يحدث تجمع فعلي ينتج شعورا جماعيا، بل نجد أفرادا متصلين ظاهريا لكنهم في الحقيقة منعزلون ومتفرقون. «هذا فالسكان الرقميون للشبكة لا يتجمعون انهم يفتقرون الى الرابط الداخلي للتجمع الذي من شأنه أن يفضي الى

تشكيل (النحن) انهم يشكلون حشدا بلا تجمع زحاما بلا رابط داخلي بلا روح او ضمير يجمع بينهم انهم قبل كل شيء معزولون مشتتون منكفئون على ذواتهم» (هان ب.، داخل السرب: آفاق رقمية، 2021، الصفحات 31-32).

ويضيف حديثه عن إشكالية الهوية في ظل العصر الرقمي، حيث لم نعد نعيش كذوات مستقرة في عالم مشترك، بل نجري خلف صور مثالية ونعيش في أوهام ذاتية، نحن نفتقد في عالم اليوم أصالة وجودنا الإنساني الذات «كمشروع يعني أن الهوية لم تعد شيئا يعاش ببطء بل شيئا يصنع ويستعرض، التنافس اللامتناهي: الجميع يتنافسون على جذب الانتباه « (هان ب.، داخل السرب: آفاق رقمية، 2021، صفحة 67) كما يتحدث بيونغ تشول هان عن الانسان المعاصر كيف فقد علاقته بالأرض والطبيعة في العصر الرقمي ويناقش كيف ان التحول نحو العوالم الافتراضية والشبكية قد جعل الانسان يغترب عن القوانين الاساسية للطبيعة والحياة الحقيقية، «الانسان الجديد لم يعد يعيش وفق ايقاعات الأرض (مثل الليل والنهار، الفصول، الموت، الحياة الطبيعية) بل اصبح يعيش وفق ايقاع شبكي اصطناعي لا يحترم جدود الجسد او الزمن او المكان». هذا الانفصال عن الطبيعة والزمن الحقيقي يمهد لسيطرة التفاهة، إذ يفرغ الوجود من عمقه الايقاعي والروحي، ويستبدله بزمن شبكي سطحي ينتج وجودا سريعا، استعراضيا، خاضعا لمنطق الأداء والظهور، هكذا تصبح التفاهة هي الأرضية، حيث يستبعد كل ما هو أصيل لصالح ما هو لحظي» (هان ب.، داخل السرب: آفاق رقمية، 2021، صفحة 78).

أيضا يناقش بيونغ تشول هان فكرتي التجربة المعاشة والتوثيق، أي كيف أن الحياة المعاصرة أصبحت تعاش من أجل التوثيق لا من اجل التجربة نفسها، لم يعد الانسان يعيش فقط بل يسجل حياته باستمرار عبر الصور، المنشورات الفيديوهات السلفي القصص... صار الوجود ذاته خاضعا للكاميرا والمنصة، فالحياة التي تعاش فقط لتسجل ليست حياة بل أداء « (هان ب.، داخل السرب: آفاق رقمية، 2021، صفحة 95) حقيقة إنه عندما تختزل الحياة إلى توثيق واستعراض مستمر، تصبح التجربة سطحية وتفقد معناها العميق، وهنا تتولد التفاهة كحالة وجودية، إذ يستبدل العيش الحقيقي بالأداء المصطنع، ويقاس الذوق بكمية الإعجابات والمشاهدات لا بجودة التجربة.

**تحليل كتابات الفيلسوف الكندي «آلان دونو (Alain Deneault)» حول التفاهة. آلان دونو (1970) تفاهة السلطة: نحو أنثروبولوجيا الرداءة في زمن الحداثة المتأخرة:**

مفهوم التفاهة كما يطرحه **آلان دونو** في كتابه **نظام التفاهة** لا يتطابق تمامًا مع المعنى التقليدي للكلمة في اللغة العربية، حيث تُستخدم «التفاهة» عادةً لوصف الأمور السطحية أو عديمة القيمة التي لا تستحق الاهتمام. غير أن دونو يعتمد على المصطلح الفرنسي **la médiocrité**، الذي يشير إلى حالة وسطى بين ما هو سامٍ وما هو دوني، أي أنه لا يدل على الانحطاط التام بقدر ما يعبر عن مستوى من الأداء أو الإنتاج الذي، رغم الجهد المبذول فيه، يظل دون المستوى المطلوب من حيث القيمة الفكرية أو الأثر المجتمعي. فالتفاهة، وفق هذا الطرح، ليست مجرد نقص في الجودة أو المحتوى، بل حالة تُمكّن الأعمال متوسطة الجودة أو فاقدة العمق من أن تصبح هي القاعدة السائدة، مما يؤدي إلى إضعاف المعايير الفكرية والجمالية في المجتمع. وهذا ما يجعل التفاهة، كما يقصدها دونو، أخطر من مجرد الأمور السطحية، لأنها قد تكون نتاج عمل مكثف ومكلف، ولكنه يبقى خاليًا من القيمة الحقيقية، أو حتى يحمل أثرًا سلبيًا على المدى البعيد . واعتبر آلان دونو أن المجتمع المعاصر مكّن الأشخاص السطحيين من السيطرة على الاقتصاد والسياسة والثقافة، مما أدى إلى هيمنة الرداءة على الفكر العميق.

النص التالي يعبر فيه آلان دونو عن معنى التفاهة: «إنني إن اخترعت طريقة لصنع طماطم مربعة، ورأت شركة ما أنها عظيمة فاشترتها مني لأنها ملائمة لشطيرة مربعة، فهل أكون قد ساهمت في التعليم بذلك؟ لا. إنني بذلك أكون قد ساهمت فقط في تعليم الشخص الذي سيعمل في صناعة الشطائر المربعة للشركة التي مولت البحث الذي تم على هذه الطماطم» (دونو، 2020، صفحة 94). هذا النص يعكس جوهر مفهوم التفاهة عند آلان دونو، حيث يشير إلى أن المعرفة والبحث لم يعدا يهدفان إلى تحقيق تقدم فكري أو إبداعي، بل يتم توظيفهما في سياق نفعية اقتصادية ضيقة، تخدم مصالح المؤسسات والشركات الكبرى دون إضافة حقيقية إلى الفكر أو الإبداع البشري. التفاهة عند دونو تعني أن الأنظمة الحديثة باتت تكافئ الامتثال للمنظومة الاقتصادية والاجتماعية القائمة، حتى لو كان ذلك على حساب الإبداع والقيمة الحقيقية للمعرفة. يقول آلان دونو في كتابه: «تنتج الآلة القيمة فقط حتى ترضي

القدرة الإنتاجية للنظام، الذي لم تعد له أية علاقة بفعل التفكير الفردي. والسبب الأول لذلك هو الوفرة المتعاظمة للعناصر الموضوعية التي تعمل كوسيط ناقل للفكر...حتى أن العقل يجد نفسه مثقلا وهو يمضي في الطريق الذي يقوده إلى إنتاج أي شيء» (دونو، 2020، الصفحات 94-95). يشير آلان دونو إلى أن النظام الحالي يعزز القدرة الإنتاجية، لكنه يفصلها عن التفكير الفردي، ما يجعل المعرفة تتحول إلى مجرد تراكم للبيانات والمعلومات السطحية بدلا من التأمل العميق. هذه الإشارة تدل على تفاهة المعرفة عندما تصبح كمية بدلا من أن تكون نوعية. لقد تم فقدان البعد الإبداعي والروحي في المعرفة، ويتأثر هنا آلان دونو **بفكرة الجدل عند هيجل**، حيث يرى أن الإلهام الهيجلي لم يعد موجودا تعني أن المعرفة لم تعد تنبني على جدلية توليد الأفكار العميقة، بل أصبحت مجرد عملية ميكانيكية خالية من البعد الفلسفي العميق. يقول آلان دونو: «ما عادت عملية الوحي الهيجلي **(Hegelian inspiration)** التي يصفها **سيميل (Simmel)** هذه ممكنة. لقد وصلنا إلى درجة الحمولة القصوى: صار الطريق نحو تحقيق الفكر مسدودا... صارت التفاهة غالبة» (دونو، 2020، الصفحات 94-95). إن التأمل الفلسفي العميق الذي تحدث عنه هيغل وسيميل لم يعد ممكنا في زمننا، لأن الفضاء الفكري بلغ حدا من التشبع والسطحية جعل الإبداع مستحيلا، وحلت التفاهة محل التأني العميق والمعنى.

**في ختام** هذه المداخلة، يتضح أن التفاهة في العصر الرقمي لم تعد هامشا ثقافيا، بل تحولت إلى منظومة تعيد تشكيل الوعي وفق منطق الاستهلاك والسطحية. وأمام هذا الانحدار، تبرز الحاجة الملحة إلى استعادة الدور الحيوي للفلسفة وعلوم الإنسان، ليس فقط في التشخيص، بل في بناء أفق بديل يعيد الاعتبار للعقل، ويواجه الرداءة بمعايير فكرية ومعنوية. قادرة على انقاذ الإنسان من الزيف الوجودي، وإعادة الاعتبار لقيمة العقل، ولمعنى الحياة في زمن تراجعت فيه الأسئلة الكبرى وانكمشت فيه الروح، فهل يمكن للفلسفة اليوم أن تعيد فتح أفق الأمل في مواجهة التفاهة؟

**Bibliographie**


1. Heidegger, M. (1977). The Question Concerning Technology and OtherEssays. (W. Lovit, Trad.) New York: London: Garland publishing.
2. أفلاطون. (1994). الجمهورية. (شوقي داود تمراز، المترجمون) بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع.
3. ألان دونو. (2020). نظام التفاهة (La mediocratie) (الإصدار ط1). (مشاعل عبد العزيز الهاجري، المترجمون) بيروت: دار سؤال للنشر.
4. بيونغ تشول هان. (2019). مجتمع الشفافية (الإصدار ط1). (بدر الدين مصطفى، المترجمون) لبنان: مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع.
5. بيونغ شول هان. (2021). داخل السرب: آفاق رقمية (الإصدار ط1). (بدر الدين مصطفى، المترجمون) القاهرة: دار معنى للنشر والتوزيع.
6. بيونغ شول هان. (2021). مجتمع الاحتراق النفسي (الإصدار ط1). (بدر الدين مصطفى، المترجمون) القاهرة: دار معنى للنشر والتوزيع.
7. توماس هنري. (1996). أعلام الفلاسفة. (تدمتري أمين، المترجمون) القاهرة: دار النهضة العربية.
8. زكريا إبراهيم. (د.س). دراسات في الفلسفة المعاصرة. القاهرة: مكتبة مصر.
9. سبيلا، محمد .(s.d.) .الحداثة :سل.
10. عبد الرحمن بدوي. (1975). خلاصة الفكر الأوروبي: نيتشه. الكويت: وكالة المطبوعات.
11. مارتن هيدغر. (2018). في الشيء الذي يخص التفكير (الإصدار ط1). (وعد الرحية، المترجمون) دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر.
12. محمد سبيلا. (2008). الحداثة (الإصدار ط3). المغرب: دار توبقال للنشر.
13. نيتشه. (1881). الفجر. (محمد الناجي، المترجمون) الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.
14. نيتشه .(1883) .هكذا تكلم زرادشت) .ف .فارس (.Trad ,المملكة المتحدة :مؤسسة الهنداوي.
15. نيتشه. (1887). في جينيالوجيا الأخلاق (الإصدار ط1). (فتحي المسكيني، المترجمون) تونس: منشورات دار سيناترا.
16. نيتشه. (1889). أفول الأصنام. (محمد الناجي، المترجمون) الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.
17. هنري، ت .(1964) .أعلام الفلاسفة:كيف نفهمهم) .ت .د .أمين (.Trad ,القاهرة :دار النهضة العربية.

# بأي معنى تكون الفلسفة مقاومة للحمق والتفاهة عند جيل دولوز؟

# In what sense is philosophy a resistance to stupidity and triviality according to Gilles Deleuze?

**د. بوعلي مبارك**
**جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي -تبسة**

**مقدمة:**

من الأمراض التي تعاني منها أوساطنا الثقافية والفكرية، شيوع لامبالاة مفرطة تجاه ما يكتب ويعرض، وانتشار سلوكيات ملؤها الازدراء والتحقير لكل ما هو فكري وفلسفي، بل يقف المرء مذهولا أمام تنامي عداوات بين ممتهني الكتابة، قد تصل إلى تحاشي اللقاء والحوار، وسوء التقدير ولاعتراف، ومقاطعة مشاريع فكرية وثقافية وفنية، ينتج عن هذا التقوقع على الذات، ارتباط الشأن الثقافي بانتماءات وأخويات ومصالح، لكن هناك خطوط انفلات تخترق الساحة الثقافية، تنشأ فوقها حركات إبداعية وابتكارات، وكذلك مشاكل وأخطار، ذلك ما يفرض مساءلة دور الفلسفة ومهمتها في عالم محكوم بمنطق الصورة وسطوة الإعلام، وانتشار طرق سافلة للتفكير، من أهم مظاهر هذه السفالة، تزايد ما يسمى بالكتابة الصحفية التي تريد أن تسود، بحكم احتكارها لقنوات النشر والبث والتوزيع، لكن ما يعاب على هذا النوع من الكتابة هو خضوعها لأشكال مدروسة من المراقبة والتوجيه، وضعف مساهمتها في تغيير صورة الفكر، لهذا لابد من اقحام الفلسفة في مواجهة معضلات العصر الفكرية والثقافية، فعمل الفكر ليس هو إدانة الشر الذي قد يسكن، كل ما يوجد، بل أن يستشعر الخطر الذي يكمن في كل ما هو مألوف، وأن يجعل كل ما هو راسخ موضع إشكال.

ومن ثمة حاولنا أن نبرز دور الفلسفة في مقاومة كل أشكال التفاهة، من خلال نظرة الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز من خلال الاشكال الآتي:

بأي معنى تكون الفلسفة مقاومة للحمق والتفاهة عند جيل دولوز؟

**1 -مفهوم المقاومة وفلسفة المقاومة:**

لقد بات جليا أكثر من أي وقت مضى هشاشة الخطاب الغربي المتبني لكل مفاهيم القيم الإنسانية العليا، وأنه لا معنى للديمقراطية وحقوق الإنسان والقانون الدولي

والعدالة وغيرها من قيم الحداثة، التي ناضل من أجلها رواد التنوير في كل بقاع الأرض، وعاشوا يحلمون بها في مشروعهم الانساني الحضاري، الذي يطمح إلى بناء عالم متآخ تذوب فيه الصراعات والأحقاد، وتزول الحروب وتتراجع فيه كافة صور الكراهية بين الشعوب. غير أن الذي يحدث ولا يزال يقع في الراهن هو في أغلبه على خلاف تلك المبادئ والقيم، وأن اللغة الوحيدة التي يسير بها النظام الدولي هي لغة القوة والدم والعنف والحرب، فبأي منظومة قيمية وأخلاقية يتم تسويغ حشر ما يزيد عن مليونين من البشر في رقعة جغرافية ضيقة، ومنع كل متطلبات الحياة الضرورية عنهم، ثم قصفهم بحمم النار من الجو في المستشفيات والمدارس والمساجد والكنائس...؟ وكأن العالم كف لأول مرة عن أن يكون موطن الانسانية الروحي والأخلاقي.

وفي ظل هذه الحالة التي تنصهر فيها كل مظاهر البؤس، وغرائز السيطرة والاستهلاك، الداعية إلى ترسيخ سياسة الكيل بمكيالين، أو الازدواجية في النظرة إلى الإنسان، قبل حقوقه، بل تتجه إلى ترسيخ مبدأ إمكانية أن يذهب الأمر إلى حد تسويغ مختلف جرائم الحرب من قبيل التطهير العرقي، وإبادة الشعب، والتهجير القسري وغيرها، في سبيل الدفاع عن مصالح استراتيجية تخص طرفا مهيمنا على العالم، أو أن يضمن ويؤمن ديمومة هذه الهيمنة بأساليب همجية عطلت حياة الانسانية، وحفرت فيها بسواد عميق تلك العدمية في الضمير والسلوك الانسانيين حتى أصبحت فكرة الإحساس بعار الانتماء إلى البشرية -عند ذوي الضمائر الحية- حاضرة بقوة، ورغم معاني الاستلاب والتصدع المعاش، لم تتوقف الانسانية عن طلب الخلاص، لأن الانسان كائن مفكر متفلسف مقاوم، قبل أن يكون كائن مأزوم ومستكين لأزماته، ويعرف كيف يواجه ويقاوم أزماته ومحنه تلك..

من هنا تبدو الحاجة ملحة إلى ثقافة المقاومة واستعادة الوعي بها ونشر قيمها، مقاومة الإمبريالية، وحضارة الاستهلاك، الحروب الدائمة، مقاومة حالة اليأس والبؤس والحمق المعمم التي تصيب الإنسان المعاصر، باعتبارها فعل إنساني نبيل، يدل باستمرار على مدى قدرة الإنسان ورغبته الدائمة في التطور وتحقيق إنسانيته، راهنة وعاجلة، وقد ظل مصطلح المقاومة يلوح في أفق المظاهرات المناشدة للحرية والاستقلال والسيادة وضد الغزو والاحتلال والظلم بكل أشكاله، ونبذ العنف وكل مظاهر الغطرسة.

يستعيد مصطلح المقاومة هذه الأيّام بريقه ونشاطه الدلالي والرمزي على إيقاع وأنين ما يعيشه الشعب الفلسطيني من نضالات منذ مدة ضد الكيان المحتل، الذي يمارس إبادة وهمجية لم يعرف التاريخ المعاصر لها مثيلا، وهو مفهوم تتعدد دلالاته ومجالاته وتتمايز أشكاله، إذ يتداول هذا المفهوم في مجالات متعددة سياسية، ثقافية، نفسية، اجتماعية ونسوية... تسعى إلى الدفاع عن الأفراد التابعة والشعوب المرتهنة بقرارات يصنعها الأقوى الظالم، والمحتلة بشكل مباشر أو غير مباشر، وبالتالي المراهنة أيضا على استعادة كرامة الإنسان الذي يتمّ سحقه بآلة إمبريالية السوق وتحويله إلى كائن هشّ وغير قادر على تغيير العالم نحو أفق أفضل.

إن الفيلسوف بوصفه صديق للحكمة مناشدا للحقيقة، تمثل الكتابة بالنسبة له صورة من صور المقاومة، وبذلك فهو يعد لسانا ناطقا باسم تلك الأطياف التي يعوزها عن الكتابة العجز عنها

فالسجناء لا صوت لهم إلا صرخاتهم في ظلام المعتقلات، والأطفال الذين يعيشون الحرب ويشعرون بها ويدفعون ثمنها في عالم هم لا يفهمون منه شيئا لا حيلة لهم، وصرخات ودموع آباء وأمهات فقدوا فلذات أكبادهم لا مواس لهم، وملايين المشردين والمضطهدين ومن في حكمهم بحاجة إلى منتصر لهم.

وإيمانا منا بأن الفلسفة فعل مقاومة، والمقاومة فعل فلسفي بامتياز، والحقيقة أنه يمكننا أن نعتبر تاريخ الفلسفة تاريخا للمقاومة، والثورة على الأوضاع القائمة، وسلوكا نضاليا من خلال الانخراط في قضايانا المحلية والعالمية المصيرية والبحث فيها، وكذلك علاقة الفلسفة بالمقاومة بوصفها شكلا من أشكال مقاومة الجهل والتعصّب والغطرسة الدينية والإيديولوجية من جهة، ومن جهة أخرى يعتبر حق المقاومة مفهوما عمقت حضوره الفلسفة السياسية الحديثة تحديدا مع جون لوك، وغيره من فلاسفة العقد الاجتماعي وغيرهم.

جاءت فكرة هذه الورقة البحثية حول موضوع الفلسفة والمقاومة، بهدف البحث والتحاور والتفكير في دلالات المقاومة ومضامينها، أشكالها، عواملها، صيغها وآلياتها، وعلاقتها بالفلسفة كفعل مقاوم.

**2 -الفلسفة مقاومة للبلاهة من منظور الفلاسفة:**

يلاحظ العديد من المهتمين انتشار أشكالا من البلاهة في حياتنا اليومية، خاصة مع الثورة الجديدة في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصال، التي أشاعت ثقافة منمطة وموحدة واستهلاكية، انعكست على سلوكيات وتصرفات الأفراد وعلاقاتهم، هكذا تحولت هذه الآلة الإعلامية إلى منتج خطير للمفاهيم والأفكار، وانتصبت بالتالي كمنافسة حقيقية للفلسفة، لقد انتشرت حقائق الخساسة والسفالة والبلاهة نتيجة تحالف القوى الإرتكاسية القديمة والحديثة، بل وانتصارها، وتحويل الرأي العام للانشغال بقيمها وأوهامها التقليدية والعصرية؛ قيم العبودية والخضوع لأخلاق الماضي وأوهامه، ولتفاهات الحاضر وبداهاته.

**فماذا تبقى للفكر في عصر تسوده البلاهة؟**

يكفي أن نصرخ، وننادي بدور جديد للفلسفة، يتوجه دون موارية أو مخاتلة إلى الروح السافلة للعصر: البلاهة.

تشير العديد من المقاربات إلى المفارقة العجيبة التي تقوم عليها البلاهة، فهي تفكير ضعيف ودنئ وبسيط، لكنها تشكل في الوقت ذاته، بنية صلبة متحجرة ومتماسكة، لهذا وجب فهم البلاهة كبنية فكرية، تعود إلى "فاعلية" القوى السائدة والإرتكاسية، تتمثل نتائج تلك الفاعلية في انحطاط الثقافة وانتصار قيم المنفعة والربح، أي أخلاق العبيد بتعبير نيتشه، أخلاق العدوانية والانتقام والضغينة، ومع تطور تقنيات التواصل وتأثيرها الفعال على أنماط التفكير وأساليب الحياة، أصبحت البلاهة شاملة لأنشطة الإنسان، حيث سيادة أنماط من الحياة ومن المعرفة والفهم والتفكير- من أجل- السوق، تترجم في سلوكيات ارتكاسية، كالاهتمام المرضي بالسلع والبضائع، واللامبالاة تجاه الذات والآخرين وضعف الانشغال بشؤون المجتمع والحياة.

يعتبر فريديريك نيتشه، نموذج الفيلسوف الذي قاوم البلاهة دون خوف ولا تردد، وألحق بها الهزيمة النكراء، حين وضع الفكر في عنصري المعنى والقيمة، وجعل من الفكر نقدا للحماقة والسفالة، وبذلك اقترح صورة جديدة للفكر (نتشة،2011، ص62).

فقد اضطلعت فلسفته بدور النقد والإبداع، أي التساؤل عن قيمة القيم، وعن إمكانية خلق أخرى جديدة، ففي مجال النقد كشف نيتشه عن بنية البلاهة التي تميز

الظاهرة الإنسانية المتمثلة في الأخطاء والحقائق السافلة التي تعبر عن انتصار العبيد، لهذا دعا نيتشه إلى الإضرار بالبلاهة وفضح السفالة، عن طريق توضيح للناس ما كان يخفيه إحساسهم بالخطأ وأضغانهم، أي أوهامهم وسفالة أرواحهم، أما في مجال الإبداع، فيبدو أننا لازلنا نعاني من ثقل آراء وأحكام ألفيات خلت، تجعلنا ننتمي، رغما عن أنفسنا، إلى جمهور المقلدين والشارحين، بل المحافظين، إن الإضرار بالبلاهة ومقاومتها وإنزال الهزيمة بها، يتطلب بروز قوى جديدة تستولي على الفكر وتوجهه ضد "روح العصر"، أعني البلاهة، لكن يبدو أن عزم القوى الإرتكاسية القديمة والحديثة قوي جدا، إذ أن التغيرات التي لحقت بالحياة المعاصرة شكلت وسطا ملائما لنمو نماذج بشرية مهمومة بالتعالي ومهتمة بالتسويق والاستهلاك، وأضحت شخصيات نموذجية، تلقى كثيرا من الإعجاب والحب ...، بل صار أسلوبها في الحياة متطلبا ومدعاة للإتباع.

فالبلاهة ميزة عصرنا، وماركة مسجلة باسم الحداثة وما بعدها. فهل بإمكاننا الإفلات من شباكها؟ أم نقر على أن لها نصيب من العظمة والتميز في مجلات الحياة اليومية والعادية، وفي ميادين إبداعية كالأدب والفلسفة والفن والجماليات؟

**3 -الفلسفة مقاومة للفظاعة عند جيل دولوز:**

أكد جيل دولوز على وجود ما سماه ب"فظاعة ثالثة"(دولوز،1993،ص55) عند ميشيل فوكو؛ فظاعة نذره، فظاعة أناس تافهين، حقيرين وبسطاء، لا يفرضون وجودهم لحظة ما ولا تسلط عليهم الأضواء إلا من خلال الشكاوي التي تقدم فيهم محاضر الشرطة التي تتهمهم(دولوز، 1993،ص73)، تميز نظرة دولوز هذه، بين وضع اجتماعي وممارسات سياسية، تصنف الأفراد في فئات وتسميهم بشخصيتهم الخاصة، وتعلقهم بهويتهم، وتفرض عليهم قانون حقيقة يجب عليهم أن يعترفوا به وعلى الآخرين أن يقروه فيهم(دولوز، 1993،ص87)، يعكس هذا التصنيف حقيقة السلطة، وطرق استخدامها لإجراءات تفريد متميزة لوسم إقصاءات معينة وتعزيز عملها ونفوذها في الزمان والمكان، يؤكد دولوز، على أن الفرد، مثلا، غير مهم إلا بمقدار ما يسهم في زيادة قوة الدولة، وليست لحياة الأفراد ومماتهم ومهنهم وبؤسهم وفرحهم أية أهمية إلا بمقدار ما يمكن أن تكون لهذه الاهتمامات اليومية فائدة سياسية، أحيانا، يكون واجب الفرد، من وجهة نظر الدولة، هو العيش والعمل والإنتاج حسب أنماط معينة؛ وأحيانا، يجب أن يموت كي يزيد قوة الدولة(أوبير،ص190). لكن خصوصية هذه السلطة الحديثة تظهر في حرصها على ألا يكون الأفراد متساوين ولا متكافئين من

حيث الاقتدار (أبير، ص124)، وبالتالي نمو فوارق في كيفية تقرير الوجود الشخصي للأفراد، ونشوء تفاوتات اجتماعية واقتصادية وثقافية، وأشكال من الإقصاء والتهميش لفئات اجتماعية واسعة. في حالة السلم، تبدو الأمور عادية، بحكم انشغال هؤلاء المقصين والمهمشين بتحصيل قوتهم، وتدبير رويتهم اليومي، مع ما يتخلله من مشاكل وظواهر اجتماعية تجعل منهم أناسا تافهين وبسطاء، يتعرضون للإذلال أو للإهمال أو للمعاملة القاسية من قبل أولئك الذين يملكون الأدوات المادية والرمزية للاضطهاد-كما تؤكد إيزايا برلين-ولا تسلط عليهم الأضواء إلا في محاضر الشرطة. أما في حالة اندلاع اضطرابات وهبات اجتماعية، فقد يتحول هؤلاء البسطاء إلى قوى مرعبة، فمن يستطيع هنا والآن، أن يوقف هذا التحويل الخطير الذي يجتاح قيم ومثل وآراء هذه الفئات، مع أشكال الدعاية التي يمارسها الإعلام والقوى السائدة والإرتكاسية؟

إن التهميش والإقصاء الذي مارسته السلطة وأجهزتها، على أناس تافهين يبقى موشوما على أجسادهم؛ على أجسامهم وأفكارهم، ويؤدي بالفعل إلى إنتاج أناس بسطاء. لكن وجب التحذير: يكفي أن تضاف جرعة واحدة من الاضطهاد أو الحط من الكرامة، حتى يتحول هؤلاء البسطاء إلى كائنات مخيفة ورهيبة، مزودة هذه المرة، بإيديولوجية مدمرة.

كيف يمكن للفلسفة أن تقاوم البلاهة، وتنهض ضد الفظاعة؟ هل تستطيع عملية تعقب البلاهة، إزعاجها على الأقل، ما دمنا نعرف مسبقا صعوبة القضاء النهائي عليها، أم علينا أن نتركها للتعبير عن نفسها، لأن ممثليها مندمجين في المحيط الاجتماعي، بل لهم الحق في البلاهة؟ هل بإمكان الفلسفة مقاومة الفظاعة بوسائلها الخاصة، أم هناك ضرورة لبناء تنسيق ما، يسمح بإبداع اقتصاد جديد للعلاقات السلطوية، ولنمط جديد من الحكم؟

تفرض علينا هذه الأسئلة مواجهة الحاضر، عبر توجيه فكرنا إلى وجود الإنسان في العالم، وإلى احتياجاته الضرورية، لكن هذا لا يعني الدفاع عن حقوقه ومصالحه، بل تفعيل تلك العلاقة التي تربط الفلسفة بشعب ممكن، واستشعار مجيئه، عن طريق مقاومة الموت والعبودية، مقاومة ما هو مرفوض كليا، مقاومة العار والحاضر، بتعبير دولوز (دولوز، 1997، ص121).

**4 -المقاومة والإبداع عند جيل دولوز:**

إنَّ الفلسفة ليست مهمتها التأمل، ولا ينبغي أن يكون التأمل أو التفكير تعريفًا للفلسفة. فالرياضيّون مثلاً لا يحتاجون الفلسفة للتفكير في الحساب. والسينمائيّون كذلك لا يحتاجون الفلسفة للتفكير وتأمل السينما. فالفلسفة بذلك تكون وسيلة وليست علمًا يمتلك محتواه الخاص. إنَّ مهمة الفلسفة حقًا هي الربط بين المحدود المتناهي والما بَعدي اللامتناهي. وهي إذا تربُط بين الأحداث تُبدع المفاهيم التي يقف عليها العلم ليرسم مجموعة من الإحداثيّات ويجعلها مراجع وفق إطار من الظروف والشروط التي تُصاحب الحدث/التجربة (دولوز،125،1997)

أمَّا الفن فهو يحاول أن يجعل المتناهي واللامتناهي/الدنيوي والما ورائي مرئيًّا في هيئة فنون تشكيليّة تتبنى مؤثرات جماليّة هدفها التأثير في الرائي لإدراك أبعاد كانت غائبة عنه. بالتالي، الفن هنا ليس مستقلاً بدوره، بل يكمل الإطارات، العلم والفلسفة؛ حيث ينصهر الثلاثة في بوتقة واحدة للإجابة عن سؤال واحد: "ما الحقيقة؟" السؤال الذي سعت كل نشاطات الإنسان مِن فجر التاريخ للإجابة عليه (دولوز،1997، ص177).

فالفن، على عكس العلم، هو انطلاق وتحرير للمعاني عبر تشكيل انفعالات وأحاسيس تُقاتل لتكشف حقيقة الأشياء. في سبيل ذلك، يجعل الفنان من اللامرئي والما ورائي فنًّاً تشكيلياً مرئياً؛ ما وصفه "دولوز" في كتابه "ما الفلسفة؟" بأنّه: "المرور عبر اللامتناهي لاستعادته."

إنَّ العمل الإبداعي في الواقع ليس مقترنًا بالجنون في حد ذاته؛ بل بما الغرض من وراء هذا الجنون. بمعنى -وهذا المثال أتى "دولوز" على ذكره في المحاضرة-أن اليهود الفارّين من ألمانيا في زمن هتلر كانوا أول من فضح ما يحدث في معسكرات الاعتقال والإبادة الجماعيّة. كانوا يقدمون معلومات يُمكن وصفها بأنّها مُضادة لما تروّج له النازيّة.

هنا، يلفت "دولوز" النظر لنقطة دقيقة جدًا، أن المعلومات المُضادة، في حد ذاتها، لم تكن أبدًا كافية لفعل أي شيء. لم تكن عملا إبداعيًّا. لم تزعج المعلومات المضادة هتلر أبدًا، إلا وهذا هو المهم، عندما أصبحت فعلا من أفعال المقاومة. وفعل المقاومة هذا ليس معلومات أو معلومات مضادة؛ بل استخدام معلومات ما كأداة مقاومة لكشف جرائم التصفية العرقيّة تحت حكم هتلر.

يستطرد "دولوز" في شرح رؤيته للعمل الإبداعي موضحًا أن هناك تقاربا جوهريا بين العمل الفني الإبداعي وفعل المقاومة. وأن العمل الفني ليس منوطًا به مدّ جسور المعرفة؛ لأن هذه مسئولية العلم (Science). فالعلم هو المرتبط بالمعلومات والتواصل. أمّا الفن هو فعل مقاومة؛ لكن ما هي تلك العلاقة الغامضة بين العمل الفني وفعل المقاومة (ادريس،2011، موقع إلكتروني).

**5 -الفلسفة والتواصل عند جيل دولوز:**

يذهب جيل دولوز إلى أن الفلسفة اليوم تواجه خصوما أكثر شراسة من السفسطائيين على عهد سقراط وأفلاطون وهم "الاتصال، والإعلاميات وعلم التسويق"، فالفلسفة حسب جيل دولوز إبداع للمفاهيم وهو ما يعبر عنه قائلا "إن للفلسفة وظيفة تضل راهنيه كليا ألا وهي إبداع المفاهيم"، وهذه المهمة تحاول أن تستولي عليها هذه المجالات، وهي لا تعمل من خلالها في الحقيقة سوى على ترويج السلعة وتأكيد المصلحة، فالفلسفة " تتموضع على الطرف النقيض من الاتصال لأن هذا الأخير لا ينتج مفاهيم Concepts، بل عموميات .Universaux أو كليات يراد منها إرساء قواعد للسيطرة"

إن دولوز يقر بشكل صريح أن الفلسفة ليست "اتصالا ولا تواصلا لأنها فكر لا وجهة نظر أو محادثة أو لغو... إن غاية الاتصال Media التسويق والبيع، ومرمى التواصل Communication التوافق المؤدي إلى التنازل"، وبذلك فالفلسفة مقاومة لكوجيطو السلعة ومقاومة للتفاهم والتوافق والتواصل، فحسبه "يراد تأسيس التفاهم والتوافق ولكن التوافق قاعدة مثالية للرأي لا علاقة لها بالفلسفة"، فليس الرأي من الفلسفة في شيء، بل هو عدة أشباه الفلاسفة والمثقفين، فللمثقف رأي في كل شيء، والحال أن الفلسفة منذ لحظة انبثاقها في بلاد الإغريق موقعت نفسها كنقيض للرأي والدوكسا(محمد، محاضرة).

إن الفلسفة حسب دولوز لا يمكن أن تكون تواصلا ولا اتصالا، فإما الفلسفة وإما التواصل، ولا وجود لفلسفة التواصل، وهذا طرح يدافع عنه إلى أخر رمق، بحيث نجده يرد على الادعاء القائل بحاجة الفلسفة إلى الجمهور لكي تثبت وجودها، حيث لا يتأتى لها هذا الإثبات إلا باستجابتها للاتصال والتواصل، قائلا أن الفلسفة عبر تاريخها لم تكن بحاجة إلى جمهور فهي فكر يحيا كتنظيم سري، وهي أشبه بقارورة

رُميت في البحر فلا يُدرى إلى أين مستقرها.

فالمفاهيم التي هي خلاصة إنتاج الفلسفة، لا تنتج بالتواصل والحوار بل بقوة الإرادة والفكر، فالمفهوم لا يعثر عليه جاهزا، كما أنه مركب ومتعدد، وينتج في بساط المحاثة بما هو مجال لتبلور المشكلات، إن المفهوم تعدد وحركة، والحقيقة لا يمكن أن تكون حوارية أو تواصلية، فهي "غير برهانية ولا إحالية ولا تطابقية في ذاتها بل هي إنتاجية وإبداعية، أي أن الحقيقة ليست معطى سابقا أو قاعدة عامة نسعى للتماهي معها... بل هي مفعول الفكرة والمفهوم... باعتبارهما اصطناعا لإمكان مستقبلي في الحياة (دولوز، 1997، ص124).

إن دولوز يرفض الاتصال والتواصل، ويجنح إلى الفلسفة والاختلاف، مما يجسد وعيه بخطورة التواصل والحوار عندما يستثمر ميتافيزيقيا لأنه يسعى لنفي كل اختلاف... وفي حالة ما إذا أبقى على وضعية الاختلاف... يعتبر حوار فاشلا... إنه فرصة لاستعادة المطلق في النسبي واللامتناهي في المتناهي والوحدة في التعدد.

**خاتمة:**

حاولنا من خلال هذه الورقة البحثية التطرق للأفكار الفلسفية التي نادى بها الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز من خلال اشتغاله على مفهوم المقاومة كشكل من أشكال الفلسفة حيث أن هذا المفهوم لديه يحيل إلى المجابهة وكذلك المعارضة والرفض، أي مجابهة نظام الحماقات وإلحاق الضرر به، ونقد الأنظمة السياسية الشمولية المستبدة والمحقرة للأقليات المبدعة، ومن ثمة وجود علاقة بين الابداع كمقاومة والفلسفة، فالفلسفة عنده هي ابداع للمفاهيم المقاومة للحمق والتفاهة السائدة.

**قائمة المراجع:**


1. جيل دولوز، المعرفة والسلطة، ترجمة سالم يافوت، ط1، المركز الثقافي العربي، لبنان، الدار البيضاء، المغرب.
2. أوبيردريفوس وبول رابينوف، مشيل فوكو: مسيرة فلسفية، ترجمة جورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، لبنان.
3. جيل دولوز، فليكس غتاري، (1997)، ما هي الفلسفة؟ ترجمة مركز الإنماء القومي، بيروت ط1.
4. https://anfasse.org/2010-12-05-17-29-12-2010/13-04-16-30-12-%D9%6663-%D9%85%D8%A9%87%D9%85-%D8%A9 (مهمة الفلسفة: مقاومة البلاهة والفظاعة. إدريس شرود).
5. نتشة فريدريك، (2011)، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل.
6. جيل دولوز، (1993)، نتشة والفلسفة، ترجمة أسامة الحاج، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
7. محمد بن العربي الفلسفة والتواصل محاضرة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان.

# الفلسفة بين الثرثرة وإبداع المفاهيم: جيل دولوز أنموذجًا

# Philosophy between chatter and the creativity of concepts, Gilles de Luz as a model

**د. عمارة غنية**

**جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم.**

**مقدمة:**

الفلسفة هي الرؤية العقلانية للكون والوجود، والتفكير الراشد للأشياء. وما سجله التاريخ عبر العصور أنه منذ أن ظهرت الفلسفة، وهي في صراع فكري مع حقول المعرفة الأخرى: الأسطورة، الدين، العلم؛ مما أدى إلى اختلاف وجهات النظر إلى الفلسفة على مر العصور، على حسب البيئة الفكرية الجغرافية.

فشهدت الفلسفة تطورًا وازدهارًا ملحوظًا في العصر اليوناني، العصر الذي أحدث فيه اليونان انعطافًا فكريًا بتحويل الخطاب الأسطوري إلى خطاب عقلاني. إلا أن أوروبا قد عرفت انحطاطًا في العصور الوسطى، بتراجع العقل في مقابل تقديس الدين. ومن هنا، اعتُبرت الفلسفة إلحادًا وكفرًا.

وبعد ظهور العصر الحديث، استطاعت أوروبا النهوض من جديد بظهور العلم؛ مما أدى بالعلم إلى الانفصال عن الفلسفة، باعتبارها ثرثرة ومضيعة للوقت. ولا يزال هذا الصراع قائمًا إلى وقتنا الحالي.

وكما اختلفت الآراء حول الفلسفة بين الرفض والتأييد، تعددت الرؤى أيضًا حول مفهوم الفلسفة في حد ذاته؛ فانحسرت مهمة الفلسفة الغربية في الطرح الميتافيزيقي الماورائي، فارتبطت بالفكر والتأمل، إلى أن أحدث القرن التاسع عشر تغييرًا جذريًا في معنى الفلسفة ومهمتها، تحت شعار نقد الميتافيزيقا الغربية.

ويُعد مشروع جيل دولوز أحد تلك المشاريع، حيث حاول من خلال مشروعه التجديدي ربط الفلسفة بالراهن.

في هذه الورقة البحثية، أُسلِّط الضوء على موقف جيل دولوز من الفلسفة، من خلال الإجابة عن التساؤلين التاليين:

**كيف نظر جيل دولوز إلى الفلسفة؟**

**ما هي الاستراتيجية التي وظَّفها لتجاوز الخطاب الميتافيزيقي والتفكير في «اللامفكر فيه»؟**

**صراع الفلسفة، الدين، والعلم:**

من بين أهم الأحداث التي سجلها تاريخ الإنسانية، الصراع بين الفلسفة والدين والعلم .فقد اعتبر الفكر الديني الفلسفة مجرد إلحاد وكفر وخروج عن الملة: «التفلسف يقتضي الإلحاد ولا يستقيم مع الإيمان» (توفيق الطويل، د.س، صفحة 3) .كما اعتبر العلماء الفلسفة ثرثرة وآراء متناثرة هنا وهناك؛ إنها مجرد آراء لا تنتهي إلى قانون معين، ولا يمكن أن ترتقي إلى مستوى العلم .فنتج عن ذلك بداية التخلي عن الفلسفة، بداية مع انتشار المذاهب الوضعية: «فلقد نشأ في القرن التاسع عشر حاجز بين العلماء والفلاسفة، باعتبار أن الفلسفة علم لم يحدد هدفه بعد؛ فإن لكل علم ميدانه، ولكل فن ساحته، والفلسفة بعد انسلاخ العلوم الطبيعية والاجتماعية عنها، وهيمنة كليهما على مشكلات الفلسفة، لم يبقَ لها شيء البتة» (عزت السيد أحمد، 1999، صفحة 65) .يُعد هذا الحكم باطلاً ليس له دليل من الصحة، يهدف إلى التضييق من دائرة العقل، وغياب العقل يعني الحكم على أمة من الأمم بالانهيار والزوال لا محالة.

عاشت الأمة العربية الإسلامية والحضارة الغربية واقعًا أليمًا أطره طغيان الطابع الديني على الطابع العقلاني، حيث اعتُبرت هذه التجربة القاسم المشترك بين الواقعين العربي والغربي .فحال هذا الحاجز بين الواقعين دون تحقيق التطور والازدهار الحضاري المنشود، خصوصًا الواقع العربي الإسلامي، نتيجة الصراع بين الديني والعقلي .وإذا أردنا التحدث عن الصدام الحضاري بين العرب والغرب، أي اللحظة التي شعرت فيها الذات العربية بالركود الحضاري على جميع الأصعدة: الثقافية، والفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، فهذا لا يعني أن الواقع الغربي لم يمر على هذه التجربة القاسية .فلقد عاشت أوروبا نفس التجربة، حيث أحدث الغرب انعطافًا فكريًا بتجاوزه للخطاب الأسطوري الخيالي، الذي اعتبر العقل عاجزًا عن بلوغ الحقائق: «فكانت الفلسفة في صراع محتدم مع الأسطورة، والتي طهرت نفسها منها بمجهود عسير؛ فمع هذه الأخيرة انحصر الفكر والتفكير والحكمة العقلية بغايات نفعية وعملية ساذجة» (مرحبا عبد الرحمن، 1988، صفحة 59).

فأُعيد للعقل مكانته، وكان الفلاسفة اليونان أول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، فبدأ الاشتغال بالعقل، وشاع الاعتقاد أن فعل التفلسف والفلسفة بدأ مع اليونان .إلا أن أوروبا عرفت انحطاطًا فكريًا في العصور الوسطى نتيجة سيطرة واحتكار رجال الدين على المعرفة على حساب العقل: «فجُمد التفكير الفلسفي بعد اليونان أجيالًا طوالًا، فخضع فيها سلطان الدين، فتيسي قد استبد هواه بقلوب الناس واستأثر بعقولهم» (توفيق الطويل، د.س، صفحة 3).

"إن العالم الأوروبي قد أخفق في إبداع فلسفة جديدة حتى تيسر له التحرر من سلطة الدين .تاريخ الفلسفة مع الدين يقول إن التفكير الفلسفي قد نضج أيام اليونان، لقد شيد فلسفة ضخمة في وقت كانت فيه النظرة مكفولة لكل مفكر، ثم ركضت ريح الفلسفة وجمدت تياراتها في العصور الوسطى، حينما اجتاح فيها نفوذ السلطات الدينية حرية التفكير» (توفيق الطويل، د.س، صفحة 3).

فوجد العقل نفسه في هذه اللحظة مقيدًا: «لم يحظَ له بممارسة حريته المشروعة له كما ينبغي، حتى يجد نفسه خادمًا للدين وتعاليم اللاهوت، لتصبح مهمة الفلسفة الحقيقية هي التي تعتقد لتتعقل» (عبد الرحمن بدوي، 1979، صفحة 3) .وهذا ما شاع الاعتقاد به في الثقافة العربية الإسلامية عند الحنابلة والفقهاء، فشاعت العبارة القائلة: «من تمنطق تزندق» (أميرة حلمي مطر، 1996، صفحة 79).

اعتبارًا من الفقهاء أن الفلسفة تبعد الإنسان عن عقيدته وتخرجه عن ملته، وبما أن الخلفاء الراشدين عملوا على نقل التراث العقلاني اليوناني إلى الثقافة العربية الإسلامية، فلقد اعتبر هذا النقل إجرامًا يعاقب عليه صاحبه .يقول ابن تيمية الحنبلي: «ما أظن الله تعالى يغفل عن المأمون العباسي، ولابد أن يعاقبه عما أدخل على هذه الأمة» (أميرة حلمي مطر، 1996، صفحة 79).

إن الرؤية العدائية للفلسفة ومهاجمتها لها مبرراتها، من ضمنها أن الفلسفة تتميز بالنقد، والظاهرة الدينية لا يمكن أن يُطبق عليها هذا النوع من المناهج؛ فإن القاعدة التي يُبنى عليها المنهج الديني هي قاعدة التسليم المطلق، هذا من جهة .من جهة أخرى، يرى البعض أن الفلسفة من بين العلوم الجريئة في تعاطيها مع المقدس الديني، في حالة خروج منطق العقل على منطق المقدس الديني .إن التضييق من دائرة العقل، وعدم إطلاق العنان له للخوض في مجال المعرفة الدينية والدنيوية، أعاق مسار

التطور الحضاري في الواقعين العربي والغربي معًا .والصراع الذي أعلنه الفكر الديني على الفكر الفلسفي أطرته أيديولوجية سياسية استخدمت الدين لقضاء مصالحها الخاصة، مما أثر سلبًا في مسار النهوض .وعليه، فإن الدين لم يعارض العقل، وإنما الخطابات الدينية التي اعتبرت نفسها مسؤولة عن الدين وحمايته.

إلا أن أوروبا عرفت فيما بعد تطورًا على جميع الأصعدة في العصر الحديث، ويعود ذلك إلى تطور العلم .وهذا التطور خلق بدوره هوة بينه وبين الفلسفة، فأصبح السؤال المطروح حول أيهما الأفضل والأوثق في تفسير الظواهر الطبيعية منها والإنسانية. فأثبت العلم فشل الفلسفة وقصورها أمام قوته وقوانينه الصارمة المطلقة، فنتج عن ذلك بداية انفصال العلم عن الفلسفة .فتطور العلم على يد كبار العلماء، وعلى رأسهم إسحاق نيوتن، فنتج عن ذلك تراجع الفلسفة .فكما أعلن الخطاب الديني عن موت الفلسفة، أيضًا أعلن العلم عن موت الفلسفة مرة أخرى من خلال تضييقه لدائرة العقل، والرفع من قيمة الجانب المحسوس.

**جيل دولوزوالفلسفة:**

إذا كانت الأسطورة، والفكر الديني، والعلم قد أعلنوا عن موت الفلسفة، وعدم قدرتها على حل مشكلات الإنسان، باعتبارها ثرثرة وكلامًا فارغًا بلا جدوى، مما أدى إلى ظهور أزمة الفلسفة بعد تهديدها بالموت، إلا أنه سرعان ما أُعيد لها الاعتبار مرة أخرى، ويعود الفضل في ذلك إلى دولوز، الذي أثبت دور الفلسفة وقيمتها، وضرورة الاشتغال بها ضمن العلوم الأخرى، لأنها استجابة لحيثيات الراهن. هذه الخاصية التي تحملها الفلسفة تبعث فيها الروح كل مرة في ثوب جديد. دولوز لم «يفقد يومًا ثقته بها، ولا بدورها في تحرير الإنسان من ذلك. رفض بشدة بعض المقولات السابقة الموروثة من هيجل وهيدجر، مثل نهاية الفلسفة أو تجاوز الميتافيزيقا، ورفض الدخول في أي جدل بشأنها، واعتبرها تخريفًا مثيرًا للضجر» (عطية عبد الحليم، 2011، صفحة 28). الفلسفة عند دولوز إبداع للمفاهيم، ويعود هذا إلى نقده للفلسفات السالفة التي حصرت مهمة الفلسفة في التفكير والتأمل. في هذا الصدد، يقول جيل دولوز: «الفلسفة ليست تأملًا، ولا تفكيرًا، ولا تواصلًا. ليست تأملًا لأن التأملات هي الأشياء ذاتها من حيث إنها يُنظر إليها في إطار إبداعات مفاهيمها الخاصة. ليست تفكيرًا لأن لا أحد في حاجة إلى الفلسفة للتفكير» (جيل دولوز، فيليكس غتاري، 1979، صفحة 31).

كما انتقد دولوز معاصريه، وعلى رأسهم هابرماس، الذي اقتصر دور الفلسفة على التواصل، مما يعني أن دولوز قد أعاد دراسة تاريخ الفلسفة ليس بغرض القراءة، وإنما بهدف شق طريق مغاير مختلف عما سلكه غيره. «إن كتابات دولوز الفلسفية قد صارت في أعمال تاريخ الفلسفة أعمالًا بالتوالي عن هيوم، نيتشه، كانط، برغسون» (جيل دولوز، فيليكس غتاري، 1979، صفحة 31). حاول جيل دولوز إعادة الاعتبار للفلسفة من منطلق شرعنة عمل الفلسفة في كل علم من العلوم.

وذلك «بإقحام الفلسفة في مجالاتها، مهما تشبثت بأسوار الاختصاص، وخاصة منه العلمي والرياضي، فلا يكف عن مضاهات المفهوم كالمفردة الأساس للفلسفة. الفلسفة ساهمت في اكتشاف المفاهيم التي قد تحاذي أو تناظر الدلالات الرياضية، لكنها تفتح لها آفاقًا أخرى لا يمكنها ترميزها بلغتها الرياضية وحدها، وهو أمر أثبته العلم المعاصر في خطواته نحو إعادة التوحيد بين المفاهيم الفلسفية الكونية والترميزات الرياضية» (جيل دولوز، فيليكس غتاري، 1979، صفحة 31). «دولوز في هذه المجالات غير الفلسفية لا يحدد صفة الموسوعية للفيلسوف القديم فحسب، بقدر ما يرى المبدأ القائل إن للفلسفة حصتها من كل معرفة لا تعرفها إلا الفلسفة. لا يكفي في هذا العصر أن تعلن مختلف العلوم والفنون توبتها عن إنكار بنوتها للفلسفة، فتتدافع نحو أحضانها من جديد» (جيل دولوز، فيليكس غتاري، 1979، صفحة 12).

حاول دولوز بناء الفلسفة على الاختلاف والتعدد، فبحكم أن المفكر والفيلسوف ابن بيئته، انعكس عصره وبيئته على أفكاره .ويرى أن هذه الميزة التي تميزت بها الفلسفة عن باقي العلوم الأخرى، أي إبداعها للمفاهيم، هي مهمتها ومن اختصاصها لوحدها، لا تختص بها العلوم الأخرى .وقوله هذا لا يعني أن العلوم الأخرى ليست لها القدرة على ذلك، وإنما التداخل بين الفلسفي والعلوم الأخرى هو الذي يعطيها هذه الميزة.

إن القراءة التي يحاول دولوز أن يؤسس لها هي قراءة جديدة للمفاهيم، وهنا تكمن مهمة الفيلسوف؛ أي أن مهمة الفيلسوف ليست إعادة قراءة المفاهيم، وإنما إنتاج المفاهيم وإبداعها، لأن المفهوم وليد اللحظة التي يعيشها الفيلسوف انطلاقًا من البيئة الاجتماعية والثقافية .وهذا ما أطلق عليه بالقراءة المنتجة، أي ليس إعادة ما يقوله الفيلسوف، بل قول ما يضمره بالضرورة، أي ما لم يقله وهو ماثل مع ذلك فيما يقوله .لذلك «يرفض دولوز التشبث بالمفهوم باعتباره كلية شاملة خارج الإشكاليات

التي يتعرض لها، لكن بالمقابل، إذا كان البعض لا يزال أفلاطونيًا أو ديكارتيًا أو كانطيًا اليوم، فذلك لأنه يحق لنا أن نتصور أن مفاهيم أولئك الفلاسفة يمكنها أن تعود إلى فعلياتها داخل مشكلاتنا، كما يمكن أن نستوحي منها المفاهيم التي ينبغي إبداعها، على أن ذلك لا يعني عدم طرح تلك المفاهيم نفسها على النقد، ونقد النقد. بذلك ينمو الجسم الفلسفي محافظًا على وحدته من خلال تنوعه، باعثًا منه الخاص في أزمان الأغيار، مكتسبًا منها ما لم تستطع أن تقدمه بدون تدخل أسئلته عينها». (جيل دولوز، فليكس غتاري، 1979، صفحة 12).

مما يعني أن المفهوم ناتج عن حاجة يؤطره هدف معين، وإبداع المفاهيم لا يأتي عن طريق التسليم والانصياع، وإنما عن طريق النقد، لأن النقد يدفع إلى الاجتهاد، وبالتالي تجديد المفاهيم المطروحة من قبل، أي التي وظفها فيلسوف معين في عصر معين، وخلق مفاهيم جديدة حسب مقتضيات الواقع الذي يعيش فيه الفيلسوف .الفلسفة في نظر دولوز هي الحقل المعرفي القادر على خلق وإبداع المفاهيم: «حتى وإن كان إبداع المفاهيم بالمعنى الدقيق يعود إلى الفلسفة وحدها، لا تكون المفاهيم في انتظارنا وهي جاهزة، كما وإن كانت أجسامًا سماوية، ليست هناك سماء للمفاهيم، بل ينبغي ابتكارها وصنعها». (جيل دولوز، فليكس غتاري، 1979، صفحة 30).

هنا تكمن نقطة الالتقاء بين نيتشه ودولوز. يقول نيتشه: «لا ينبغي أن يكتفي الفلاسفة بقبول المفاهيم التي تمنح لهم، مقتصرين على صقلها وإعادة بريقها، وإنما عليهم الشروع بصنعها وإبداعها وطرحها وإقناع الناس باللجوء إليها».

من هنا نستنتج أن مهمة الفيلسوف صناعة المفاهيم، وإعادة ضبط علاقة المفهوم الفلسفي بالواقع، وتجاوز المفهوم لحظة تشكله، وإعادة التأسيس لمفاهيم معاصرة. أي: الهدف من القراءة ليس إعادة القراءة وإسقاط المفاهيم على واقع الفيلسوف، فالمفهوم لابد له من قراءة سياقية، أي قراءة المفهوم في سياقه، وإخراج المفهوم من عصره الذي تشكل فيه في زمن معين إلى عصر القارئ .هذا ما أطلق عليه بـ«أفق القارئ»، الذي يعد هو محور صياغة المفاهيم وإنتاجها، أي خلق ما يُسمى بالتعدد المفهومي.

فعملية توليد المفهوم تعد تجديدًا للمفاهيم. وعليه، فإن مهمة الفيلسوف هي إعادة صنع المفهوم المحكوم بثقافة العصر .فالمفهوم يستجيب لواقع الفيلسوف والمشكلات الراهنة .فمن واجب الفيلسوف أن يكون مؤلفًا جديدًا؛ فلا وجود لمطابقة

بين المفهوم في الماضي والحاضر، لأن المفهوم عندما يتجاوز مرحلة معينة، يستقبله فيلسوف آخر في عصر آخر بمفاهيم جديدة .بمعنى وجود مسافة زمنية بين المفاهيم، والنقد كما أشرت سابقًا هو الذي يزحزح دائرة المفاهيم الثابتة.

**استنتاج:**

نستنتج من خلال ما سبق ذكره أن التفاهة تكمن في رفض الفلسفة والتضييق من دائرة العقل، لأن رفض العقل في حد ذاته تأسيس للتفاهة ورفع من سلطتها .هذا ما سجله تاريخ تطور الفكر الفلسفي، بالخصوص في العصور الوسطى لحظة سيطرة الدين على العقل، وفي العصر الحديث عند انفصال العلم عن الفلسفة .إلا أن ما يثبته الواقع أن هذه العلوم تشتغل بالفلسفة وملازمة لها دون اعتراف رجال الدين والعلماء بذلك، مما أدى إلى الحديث عن أزمة الفلسفة انطلاقًا من الإعلان عن موتها.

لذلك، أعاد دولوز قراءة تاريخ الفلسفة لإعادة الاعتبار لها من جهة، ومحاولة دمجها ضمن العلوم الأخرى التي انفصلت عنها من جهة أخرى، أي إخراج الفلسفة من الاشتغال الضيق لها ليؤكد أن مهمتها هي إبداع المفاهيم، أي معالجة الإشكاليات الراهنة لإخراج الفلسفة من جانبها الميتافيزيقي المتعالي لتندمج في المجتمع وقضاياه الراهنة.

**قائمة المراجع:**


1. أميرة حلمي مطر. (1996). الفكر الإسلامي وتراث اليونان.
2. توفيق طويل. (د.س). قصة النزاع بين الفلسفة والدين. مصر: مكتبة الآداب بالجماميزت.
3. جيل دولوز، فيليكس غتاري. (1979). ماهية الفلسفة (الطبعة الأولى). بيروت: الدار البيضاء.
4. عبد الرحمن بدوي. (1979). فلسفة العصور الوسطى. بيروت: دار العلم.
5. عزت السيد أحمد. (1999). نهاية الفلسفة. دمشق: دار الفكر المعاصر.
6. عطية عبد الحليم. (2011). دولوز وسياسات الرغبة. بيروت: دار الفارابي.
7. مرحبا عبد الرحمن. (1988). مع الفلسفة اليونانية. دمشق: منشورات عويدات.

# التقاء نظام التفاهة مع عفوية الانسان

# The Convergence of the System of Mediocrity with Human Spontaneity

**ط. د. بورحلة نعيمة**
**مخبر الدراسات الفلسفية وقضايا الإنسان والمجتمع في الجزائر:**
**جامعة ابن خلدون-تيارت**

**مقدمة:**

لكل مجتمع من المجتمعات خصائصه وثقافته السائدة. وإذا تأملنا في الواقع الذي نعيشه اليوم، نجد أن الناس أصبحوا براغماتيين، فكل فرد يسعى جاهدا لتحقيق رغباته ومصالحه حتى وإن كان ذلك على حساب الآخرين. فالناس يندفعون وراء الممارسات الروتينية السهلة والبسيطة التي لا تحتاج إلى تفكير، والتي تحقق لهم غاياتهم وأهدافهم، وتمنحهم شعور بالراحة حتى وإن كانت هذه الممارسات والأفعال لا تخلو من التفاهة والسذاجة. وهذا هو بالفعل واقع الإنسان الذي أصبح يعيشه في ظل عصر التطور التكنولوجي أو عصر ما بعد الثورة الصناعية. حيث سهل هذا التطور سرعة انتشار التفاهة حتى أصبحت بمثابة نظام قائم بذاته. هذا النظام الذي قد طال مختلف المجالات والميادين: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والتربوية والثقافية، والإعلامية، والفنية...الخ. ولا تقتصر التفاهة على هذه الاصعدة فقط وإنما قد تمتد حتى إلى علاقة الفرد بذاته، أي أن التفاهة قد تسيطر حتى على الجانب النفسي. وبالإضافة إلى ذلك، الواقع يثبت أن مختلف ممارسات الانسان البراغماتية قد خلقت صراعات هامشية على جميع الأصعدة؛ فقد هيْمن الجانب المادي وأصبح هناك إقصاء للقيم والمعايير الأخلاقية الثابتة، وأُهمل الجانب الروحي في مقابل طغيان التفاهة.

وسواء كانت التفاهة كنظام مفروضًا من الخارج، رُوّج له وقَبِل الفرد استهلاكه، أو كانت نتاجًا من صنعنا نحن، -أي التفاهة كنظام يؤسس نفسه من الداخل والخارج-. فإن خطورة هذه الظاهرة تفرض دراستها من هنا جاءت ورقتنا البحثية تحت عنوان: «**التقاء نظام التفاهة مع عفوية الانسان**»، حيث سنعالج هذه الفكرة من خلال

الحديث عن التفاهة التي أصبحت بمثابة منظومة ثقافية سائدة في المجتمعات الغربية وحتى في المجمعات الشرقية.

فالتفاهة تتسرب إلى سلوكيات الناس، وتتشكل من خلالها عدة أنماط من شخصيات التافهة كما أشار ألان دونو في كتابه نظام التفاهة، مثل الشخصية التافهة بطبيعتها، والشخصية التافهة المتعصبة، والشخصية التافهة رغما عنها، والشخصية المتمردة والشخصية الرافضة للنظام الراسخ.

وسنحاول من خلال هذه الدراسة استقراء واقع المجتمعات العربية في ظل هذا النظام؛ النظام الذي بدأ من الفرد، ثم أصبح بمثابة نظام عام روج له من طرف جهات خاصة لها منافع من هذا النظام، وهذا يدفعنا لطرح التساؤلات التالية: كيف يساهم الفرد في صناعة التفاهة؟ وما تأثير نظام التفاهة على المنظومة الثقافية وعلى القيم الأخلاقية؟

**التفاهة في الجانب السياسي:**

في العصر الحالي، قد طغت فيه التفاهة وانتشرت انتشارا واسعًا، حتى أصبحت التفاهة كنظام يبرز بشكل خاص على مستوى الأسلوب والطريقة التي تنتهجها أي دولة من الدول في إدارة شؤونها الداخلية والخارجية لأن «... الدولة صورة مكبرة عن الفرد ويسهل متابعة التفاصيل الدقيقة التي لا يمكن رؤيتها بدقة في الانسان.» (نورالدين، 2011)

ويثبت الواقع أن الذين يصلون إلى السلطة والمناصب العليا ويتولون القيادة وزمام الأمور هم -في كثير من الأحيان-أشخاص تافهون. وهؤلاء التافهون لا يصلون إلى السلطة عن جدارة واستحقاق، فهم ليسوا الأحق بتلك المناصب لأنهم يتسللون اليها عبر طرق ملتوية وغير نزيهة، مثل التواطؤ أو التآمر والصفقات المشبوهة.

فاللذين يعتلون هذه المناصب هم عادة من أصحاب النفوذ، أومن له واسطة أو دعم من جهات ذات سلطة. وهنا يشير ألان دونو إلى أن جوهر الشخصية التافهة قد يكمن في «القدرة على التعرف على شخصٍ تافه آخر. معاً يدعم التافهون بعضهم بعضاً، فيرفع كل منهم الاخر، لتقع السلطة بيد جماعة تكبر باستمرار.» (دونو، 2020، صفحة 70)

كما لا يخفى علينا أن التافهون يجدون راحتهم في وسط الجماعة التي تشبههم في مستوى التفكير والسلوك والسذاجة. فهم يشتركون في نفس المصالح والمنافع، وبالتالي فهم يقومون بتبادل الخدمات مع بعضهم البعض، وهو ما يشكل دعمًا معنويًا وماديًا لهم. فالدعم المادي يتمثل في تبادل المصالح والخدمات، أما المعنوي من خلال دعم الشعور والإحساس الجماعي أنهم على صواب، إذ انهم حين يلتفتون حولهم يجدون التفاهة منتشرة، أي هناك من يشاركهم الرأي يدعمهم ويساندهم في سذاجتهم ويقف إلى جانبهم، وهذا ما يمنحهم القدرة والقوة للاستمرار في طريقهم، ويُبعد عنهم الإحساس بالغربة أو الشذوذ في الوسط الذي يعيشون أو يعملون فيه.

في المقابل، فإن الأفراد الذين يمتلكون درجة من الوعي ويحاولون التمرد والثورة على ما هو قائم، يُواجهون بالرد والرفض والمقاومة والصد من قبل التافهين؛ حيث يُمارس عليهم ضغط جماعي بهدف إشعارهم بأنهم على خطأ، لأنهم مصدر إزعاج وتعطيل لمصالح التافهين لذا لابد عليهم من الاندماج قسرًا في القطيع، لكي لا يخلقوا لهم أي مشاكل، وحتى لا يحدثوا أي خلل في المنظومة القائمة، فكل فرد له الرغبة في الثورة الفكرية مجبر على أن يسايرهم ويدعم نظام التفاهة وإلا سيكون خروج عن المألوف. فمن الصعب جدا التغيير وقلب موازين القيم وسط التافهين.

وفي الغالب، يتمتع التافهون بقدرة على التأثير في الآخرين من خلال السفسطة -أي الكلام الفارغ المغلف بمظهر عقلاني-كما يتقنون فن الخطاب والتلاعب بأفكار الناس ومشاعرهم، لكي يقنعوا الآخرين بأنهم على صواب.

ومن مظاهر التفاهة التي أصبحت كنظام أن الاشخاص الذين يصلون إلى السلطة ويشغلون مناصب عليا أصبحوا يركزون اهتمامهم على أن تبقى السلطة بيدهم ويهتمون بالمحافظة على مركزهم، أكثر من الاهتمام بتحقيق المصلحة العامة. فكل من يتسلق سلم السلطة ويتربع على كرسيها، يتمسك به بشدة ولا يتركه بسهولة، ساعيًا إلى تلبية رغباته واغراضهم وأهدافه الشخصية، نظرًا للامتيازات والمنافع التي توفرها لهم المكانة التي يشغلونها، حتى وإن لم يكونوا اهلًا لذلك المنصب، وكانت الرداءة في القيادة واضحة وجلية إلا أنهم يستمرون في الريادة «...القادة الرديئون أو الفاشلون في مؤسساتهم ونواديهم هم الذين يُصرون دوما على تنفيذ أوامرهم في مختلف الادارات وعبر كل المستويات دون نقاش أو تعقيب». (مقلاتي، 2020)

في حقيقة الأمر، لا يوُلي التافهون أي اهتمام حقيقي للتقدم والرقي أو الازدهار. فهم لا يهتمون بأن يكون عملهم ذو نوعية وجودة، ولا يهتمون بطريقة تحسين مهاراتهم وخبراتهم وتطوير من انتاجهم وعملهم، وأن تكون قراراتهم وافعالهم ذات قيمة أو أثر إيجابي، فالتافهون لا يبذلون أي الجهد من أجل تغيير وتحسين أوضاع المجتمع. بل يجدون الراحة في الجمود وعدم التغيير وفي قبول السلبي للوضع القائم مهما كان فاسدًا أو مختلاً.

ومن هنا تبرز الرداءة بوصفها نتيجة مباشرة لتفريغ القيم من مضمونها. فالناس هم من يصنعون مظاهر التفاهة، وهذه التفاهة تعيد تشكيل الناس أيضا، فهي تصنعهم في آن واحد، بمعنى أنها عملية تبادلية. فالإنسان بطبيعته وبعفوية يميل إلى اختيار الطرق السهلة التي يغيب فيها التفكير ولا تتطلب مجهودًا، وهكذا يجد نفسه ينخرط في ثقافة تافهة دون وعي.

ولا يكون من السهل التخلص من التفاهة بالنسبة لمن اعتاد عليها وألفها، فقد أصبحت جزءًا من سلوكه اليومي. والأخطر من ذلك أن الأفراد صاروا يتبعون سلوك الجماعة التي ينتمون إليها دون وعي منهم أو تفكير، وهم يعتبرون هذا الانخراط هو شكل من أشكال مواكبة لروح العصر، فهم يتبنون ثقافة القطيع.

ومن بين أبرز مظاهر التفاهة في العصر الحالي؛ غياب العقل وفاعليته في التفكير، خاصة عند الذين يتولون مواقع السلطة، وهو ما يؤدي بالضرورة إلى غياب الحكمة، وهذا الواقع عكس المنشود وعكس ما ينبغي أن يكون عليه حال القادة. وهذا الواقع يناقض تمامًا التصور الفلسفي الذي قدمه الفيلسوف اليوناني افلاطون، الذي رأى أن الشخص الجدير بتولي القيادة يجب أن يكون حكيما ومن أهل الفلسفة.

وعندما يقول أفلاطون أن القائد يجب أن يكون من الفلاسفة فهو يقصد أن يكون ذا قدرة على التفكير العميق والحكيم، وأن يحسن اتخاذ القرارات من أجل بناء دولة قوية ومتزنة وعادلة. فالعقلاء مكانهم في أعلى هرم السلطة في الدولة المثلى عند أفلاطون وفضيلتهم الحكمة. وافلاطون من خلال محاورة «الجمهورية» وفي تحديده لنموذج الدولة المثلى رأى أنه لابد من المزج بين الفلسفة والسلطة السياسية لكي يكون النظام عادلا. (مقلاتي، 2020)

فكل من يتولى السلطة والقيادة ينبغي أن تتوفر فيه شروط أساسية، لابد أن يكون ذا درجة عليا من الوعي والقدرة على التفكير المنطقي الجاد وأخذ القرارات الحازمة والمصرية وتكون له القدرة على التخطيط الجيد للإدارة جيدة والتحكم في الجانب الذي أوكل إليه.

غير أن واقعنا يظهر نقيض هذا النموذج؛ إذ الكثير من القادة الذين يتولون السلطة يفتقرون للشروط الجوهرية سابقة الذكر، فهم يصلون اليها بالرغم من غياب الكفاءة والوعي والحكمة والجدارة والاستحقاق، مما يسهم في ترسيخ نظام التفاهة داخل السلطة السياسية.

**التفاهة في الجانب الاجتماعي:**

لقد شهد نمط الحياة الاجتماعية تغيرات عميقة، حيث أصبح الفراغ الروحي الذي يعيشه الكثير من الناس سببًا في انشغالهم واهتمامهم بالعرض والمظاهر السطحية بدلا من الاهتمام بجوهر الاشياء، فالأفعال التي تفتقر للقيمة الخلقية أصبحت سائدة، مما دفع العديد من الأفراد إلى التوجه صوب الأمور التافهة ولأمور المنحطة والرديئة، سواء في السلوك أو في أنماط الاستهلاك والتفكير.

وقد أدى هذا التحول إلى تآكل المكانة المعنوية للفرد داخل المجتمع جراء فقدان المواضيع والاشياء قيمتها من خلال تراجع الجودة والنوعية، فقد أصبحت الأفعال والأعمال التي يقوم بها أغلبية الناس خالية من الجدية ومن المسؤولية ومن الالتزام، حيث طغت روح اللامبالاة.

فقد طغت النزعة البرغماتية، صار الناس يهتمون بتحقيق مصالحهم الذاتية حتى ولو كانت على حساب القيم والآخرين. وبهذا نشهد تراجع حاد في الضمير الخلقي الذي من المفروض أن يوجه مختلف التصرفات لأفراد، حيث اصبحت افعال الناس تطبعها اللامبالاة وانطفاء الحماس والاهتمام وكأنها تُنجز فقط لأداء واجب لا عن إيمان وقناعة بأهميتها وقيمتها.

والإنسان بطبعه يميل إلى ما هو سهل وبسيط، ويميل للأشياء التي لا يبذل فيها أي جهد ذهني أو بدني. وهذا كله جعل للتفاهة أرضًا خصبة في مجتمعات تغيب فيها القيم السامية العميقة، ويهمش فيها الوعي والتفكير النقدي الجاد الذي يساهم في التغيير.

إن السلوكيات والأفعال التافهة لا يمكن تجاوزها والتخلص منها إلا عن طريق إطلاق العنان للعقل وتفعيله من خلال دفع الفرد إلى ممارسة التفكير العميق والنقدي فيما يصدر عنه من تصرفات، وفيما ينعكس عليه من نتائج. فلكي يكون وجود الانسان له معنى وقيمة لابد من تفعيل خاصية العقل، باعتباره المقوم الاساسي لتمييز، نحو ما هو أرقي وأجدر بالإنسانية. فمهمته الاساسية هي البحث في السلوكيات والافعال الصادرة من الانسان واعطائها قيمة معينة، « فلابد أن يستتبع التغير الاجتماعي تغيير في النسق القيمي» (كريمة، 2021)، فلكي يكون هناك تقدم لابد من اصلاح البنية الفكرية، التي توجه نظرتنا لذواتنا وللعالم أيضا.

وفي هذا السياق، نستحضر فكرة الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه حول تحطيم الاصنام الفكرية، أي كسر للقيم السائدة. فمن ضروري في عصرنا القيام بتحطيم نظام التفاهة المتداول من خلال القيام بثورة فكرية جذرية في محاولة لإصلاح منظوماتنا الثقافية والفكرية والقيمية عن طريق تغيير وقلب القيم السائدة، وابداع القيم اخلاقية سامية نقوم ببنائها على أسس متينة وقويمة من شأنها رفع مستوى الإنسان، تنبثق من صميم العقل الإنساني ومن إرادة القوة لا الخضوع للثقافة المهيمنة، حيث أن»...خَالق القيم هو الانسان، وليس لها خارج الفاعلية الانسانية أي كيان واقعي، فالإنسان هو الذي اضفى على الكون كل ما فيه من معنى». (زكريا، 1966، صفحة 57،58)

لكن في نظام التفاهة يحاول الناس التملص من المسؤولية التغيير، من خلال اختيار الطريق الأسهل الذي يحقق لهم الراحة، وعدم اتخاذ قرارات جريئة واعية من شأنها أن تساهم في والتقدم وتكون مخالفة لما هو سائد، لذلك يختار الناس مواكبة التفاهة والانخراط فيها، فهم يعجزون عن كسر هذا النظام.

بالإضافة إلى أن القضاء على التفاهة سيتطلب الوعي وبذل جهد ذهني وهذا يعتبر مرهقا ومتعسرًا ومستعصيًا على الناس بصفة عامة. فبلوغ القيم الأخلاقية العليا وجعل الافعال والقرارات وفق مبدأ الذوق والرقي هو في الواقع أمر صعب على التافه للخروج من وضعه فالناس يفضلون البقاء في نظام تفاهة، دون وعي منهم وذلك لما يوفره لهم هذا النظام من راحة نفسية كاذبة. فالارتياح النفسي الناتج عن قبول التفاهة يدفع الانسان أن يتقبل هذه التفاهة ويدخل العقل في سباته العميق

فالتفاهة والسلوكيات المنعدمة القيمة والجودة نجدها في مختلف المجالات.

ومع مرور الوقت، ومع كثرة التصرفات التافهة التي يسلكها الناس وطغيان التفاهة وانتشارها في المجتمع أصبحت مألوفة وأصبحنا بشكل يومي نعيشها حتى اعتدنا عليها وتشبعنا بها نفسيا حتى أصبحت بمثابة النظام وأكثر من ذلك، فهي بمثابة نموذج يقتدى به وفي هذا قضاء وطمس الذوق والقيمة.

كما أن انتشار التفاهة هو من أبرز أسباب الازمات الاخلاقية المختلفة التي نعيشها اليوم، وما ترتب عنها من الانحطاط وتدني في القيم وتدهورها، وتغيُّر الثقافة، بمعنى تغيُّر طرق واساليب ونمط عيش الفرد والجماعة، أي تغير في « نمط حياتهم وطريقة تفاهمهم واتفاقهم وتواصلهم ونظامهم الاجتماعي والاخلاقي والسياسي». (ماريف، 2024)

بمعنى أننا نحن من سمحنا بصناعة هذا النظام. الدليل على ذلك أن الناس أصبحوا يؤمنون بفكر تافهين ومواقفهم، فهم بمثابة نماذج يقتدى بها ويحذون حذوهم فهم منزهون عن الزلل والخطأ.

إن تفشي التفاهة لم يكن صدفة، ولم يظهر دفعة واحدة، وإنما تشكل بشكل تدريجي من خلال السكوت على الأفعال التافهة المنحطة، فرضى الاغلبية الساحقة هو الذي وسع انتشار التفاهة. حيث أصبحت من شدة كثرتها وطغيانها في المجتمعات تبدو أنها افعال عادية يتقبلها الناس دون وعي منهم. ولمجابهة هذا الوضع نجد الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز يدعوا « لتدمير الحماقة بكل اشكالها «. (دولوز، 1998، صفحة 65) في إشارة إلى ضرورة قلب وتجاوز هذا الواقع الثقافي المنحط والرديء من خلال طرح التساؤلات النقدية وذلك بهدف كشف زيف النماذج المتداولة. وفي حقيقة الأمر توكل هذه المهمة للفلسفة التي لها اسهام كبير في التغيير « الفلسفة لن تكون أي شيء ان كانت لا تحمل توقيع مبدعيها» (صورية، 2018)، حيث يحاول النخبة أي الحكماء تجاوز الوضع الراهن بخلق قيم جديدة. حيث أكد نيتشه على ضرورة أن يكون في المجتمع فيلسوف مشرع، يقوم بتفسير الوضع ويحلله، فيطمح لوضع ومستقبل أفضل، فيحاول تقويم الاعوجاج وكل ما يؤثر على القيم السامية من خلال التشريع « فالفلاسفة الحقيقيين هم أولئك الذين يقودون يُشرِّعون». (دولوز، 1998، صفحة 71)

**التفاهة في الجانب الاقتصادي:**

يعتبر الجانب الاقتصادي من بين اهم الجوانب التي ينبغي أن يهتم بها الانسان، نظرًا لما يوفره من استقرار مادي وحتى المعنوي. ومن هذا المنطلق، يسعى الفرد للعمل من أجل تلبية حاجياته الأساسية. ويمكن القول أن نظام التفاهة ارتبط ارتباطا وثيقا بالرأسمالية القائمة على مبدأ حرية السوق، هذا النظام الذي صار فيه العمل عبارة عن مهنة يكسب الفرد منها قوت يومه فلم تبقى هناك مكانة للحرفة لأصيلة. (دونو، 2020، الصفحات 42-41)

وتتجلى مظاهر التفاهة في هذا المجال من خلال وصول الاشخاص الذين هم دون مستوى ومن دون كفاءة ومن دون جدارة إلى مناصب عمل مهمة وحساسة، فمن التفاهة ومن مظاهر العبث أن نجد أهل الاختصاص الحقيقين وأصحاب الكفاءات والقدرات مهمشين، في المقابل تُمنح المناصب والمسؤوليات لمن يفتقرون للمؤهلات ولمن هم أقل مستوى وكفاءة. وفي المقابل تنعكس هذه المفارقة على الأداء المهني. فهذا ما يؤدي إلى نقص الكفاءة والفاعلية في انجاز مختلف الواجبات، فالتافهون يكتفون بأداء عملهم بشكل روتيني دون تفنن واتقان وابداع فيه.

وغالبًا ما يلجأ التافهون إلى استغلال ذوي الخبرة والكفاءة العاملين تحت سلطتهم، فيعتمدون على جهودهم ويسندون عملهم إليهم، وذلك لتغطية نقصهم وعجزهم المهني، كما انهم يحاولون استغلال سلطتهم ومنصبهم في الالقاء الاوامر على من هم تحت إمرتهم بدل المساهمة الفعلية في تطوير الأداء وتحسين بيئة العمل. ليتحول ذلك المنصب كوسيلة لممارسة الضغط والهيمنة والتسلط والاستبداد، مما يؤدي إلى ترسخ الرداءة.

ومن مظاهر التفاهة كذلك، أن يخضع الفرد للامتثال الاوامر الصادرة عن رب العمل أو السلطة العليا دون اقتناعه بما يقوم به ودون تفكير نقدي فيما طلب منه. فحاجة الناس الملحة إلى المال جعلتهم يرضخون لمختلف الممارسات الساذجة ويتقبلون الأفعال الخالية من القيمة الحقيقية، فهم بذلك يتنازلون عن كرامتهم المهنية وعن حسهم النقدي في سبيل تأمين لقمة العيش، فكما يقول آلان دونو»... المال يمنع جميع طرائق التفكير» (دونو، 2020، صفحة 181)، فلم يعد يهم طريقة الحصول على المال بقدر ما يهم المال، فانتشار ثقافة استهلاك التفاهة شجع على

صناعتها، وقد اتخذت التفاهة أشكالًا متعددة : المكتوبة، المسموعة، المصورة...الخ، هذه التفاهة أصبحت تنتشر بقوة عبر وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة. فقد باتت الإنتاجات التافهة تحتل الصدارة وتلقى اقبال واسع من عامة الناس، وأصبح صُناع هذه المحتويات والانتاجات التافهة هم من يسيطرون، فهؤلاء المؤثرون يفسدون عقول الشباب وعامة الناس. ولا يخفى علينا أن الكثر من الناس من خلال الانخراط في صناعة التفاهة وجدوا منافع ومكاسب مادية تسد حاجاتهم ومتطلبات الحياة في ظل الظروف الاقتصادية الصعبة التي يعيشونها.

**التفاهة في الجانب التعليمي:**

وصلت التفاهة إلى أحد أكثر الجوانب حساسية وحيوية في كل مجتمع من المجتمعات، الا وهو الجانب التعليمي، وهو الجانب الذي به تُبنى الامم وترتقي وتزدهر وتتحضر، غير أن الناس أصبحوا يهتمون بهذا الجانب فقط من أجل المظهر الاجتماعي، حيث غلبت المظاهر على المضامين، ولم يعد الهدف طلب العلم لذاته او التكوين المعرفي المتين وبناء العقول، بل الحصول على شهادة تكسب حاملها مكانة اجتماعية، وهذه هي قمة التفاهة. فالمعرفة أصبحت عبارة عن سلعة أكاديمية تباع لجهات خاصة -الشركات التجارية -تمول الجامعات، خاصة في الدول الغربية. فبعدما كانت الجامعات هي مصدر انتاج للمعارف والعلوم، اضحت كمؤسسة تجارية تهتم بكم الشهادات العلمية لا بجودة التعليم. (دونو، 2020، الصفحات 38-35)

فعندما نستقرئ الواقع نجد أن نظام التفاهة قد أفرز مفاهيم وأنماط جديدة من التنظيمات العلمية والمعرفية التي تستجيب لجوانب سوسيومهنية معينة. فالأنظمة التعليمية لا تهتم بتحصيل الفرد للعلوم والمعارف وتطويرها، بل أصبحت الأنظمة التعليمية تتماشى مع أولويات سياسة واقتصاد، بدلاً من أن تهتم بإنتاج العلم لذاته. فعلى سبيل المثال هناك عدد كبير من الحاملين الشهادات لكن لو نتأمل نوعية التكوين الذي يتحصلون عليه، نجده يخدم مصالح من بيدهم السلطة ولو نتحدث عن التخصصات التي تفتح لحملة شهادة البكالوريا في الجامعات هي في الواقع ما يخدم مصالح العليا وسوق العمل، وليس بالضرورة ما يعبر عن ميول ورغبات واحتياجات الفرد،

أي أن نوع التعليم الذي يتلقاه الفرد هو في الواقع محدد انفا او مسبقا وفقا لما يحتاجه المجتمع والدولة في الجانب العملي. والفرد رغما عنه يجد نفسه مجبر على

أن يسير في طريق حدد له مسبقا دون وعي منه، حيث أن اختيار الفرد بين مجموعة الممكنات المحددة له من طرف السلطات العليا مسبقا تمنحه الشعور أنه هو الذي يختار، لكن في الواقع عكس ذلك.

وهذا ما يجعلنا نؤكد أن التفاهة لم تعد مجرد ظاهرة عابرة، بل أصبحت بمثابة نظامًا ثابتًا ومتغلغلًا في البنى التعليمية والاجتماعية. فالناس أصبحوا يسيرون وفق ما يسيرو عليه أفراد المجتمع دون تخطيط أو وعي أو تفكير أو بحث وتمحيص وغربلة لما يحدث، متبنين سلوك القطيع، ومفتقرين للتخطيط والوعي والتفكير النقدي.

**الخاتمة:**

وفي الاخير، يمكن القول ان انتشار التفاهة أثر سلبيا في سلوك الافراد ووعيهم، حيث شهد العصر تراجعًا ملحوظا في القيم الاخلاقية وطمسًا لثقافة الامم وثوابتها الحضارية. وهذه التفاهة لم تكن نتاج قوة خارجية مفروضة فحسب، بل نشأت أولاً من داخل الفرد، حين قَبِل بها وصنعها وشارك في ترويجها، مما جعلها تتفشى وتنتشر بسرعة حيث اصبحت بمثابة نظام ثقافي شبه مفروض على المجتمعات تستهلكه دون وعي منها. يسيره الجانب الاقتصادي والمصالح المادية والمنافع الشخصية بالدرجة الاولى. وقد ساهم الافراد في مواكبته هذا النظام دون مقاومة، كما أشار اوجست كونت أن الفرد بمثابة دمية تحرك خيوطها المجتمع، لأن الفرد في النهاية هو نتاج المجتمع، فالإنسان يتأثر بالوضع السائد، وبالتالي يصبح الإنسان خاضعًا لواقع يُعيد إنتاج التفاهة بدلاً من مواجهتها أو تجاوزه.

وفي المقابل، يظل الفرد هو الفاعل الحقيقي القادر على مقاومة نظام التفاهة وتغييره. وذلك من خلال تفعيل الحرية الفكرية وإطلاق العنان للطاقات الكامنة في الانسان من أجل تجديد القيم وإبداع معايير اخلاقية جديدة تسمو بالإنسان، وترتقي بوعيه. ولا يمكن تحقيق ذلك إلا عن طريق ممارسة النقد الجذري لما هو سائد، والانتباه الدقيق لمختلف الممارسات التافهة والفوضوية التي تسللت إلى حياتنا وأصبحت جزءًا من الواقع اليومي لمجتمعنا.

إن التغيير الحقيقي يبدأ من التغيير الجذري لطريقة تفكيرنا، ومن ثمة تغيير الواقع والمنظومة الثقافية السائدة، وإحياء للجوانب القيمية والروحية، والارتقاء من عفوية الانسان واستهلاكه للثقافة الى الجانب الواعي الابداعي، الذي يرتقي بحياة

الناس في مختلف مستوياتها. وهنا، يبرز دور من يتحملون مسؤولية التغيير، أي أولئك القدرين على التفكير الفلسفي النقدي الخلاق، من أجل دفع الفرد إلى مواجهة ذاته وتجاوز منطقه العفوي، ويقلل على الأقل من التفاهة الصادرة عنه في الجانب النظري وفي الممارسات العملية. وهكذا يتحول الفرد من مستهلك سلبي للثقافة إلى ذات فاعلة تُنتج وتبني وتنهض بالمجتمع.

**المراجع:**


1. ألان دونو. (2020). نظام التفاهة. (الطبعة الأولى، المحرر) بيروت، لبنان: دار السؤال للنشر.
2. جيل دولوز. (1998). نيتشه. (اسامة الحاج) لبنان: المؤسسة الجامعية لنشر والتوزيع.
3. فؤاد زكريا. (1966). نوابغ الفكر الغربي: نيتشه (الإصدار ط 2). مصر: دار المعرفة.


**المقالات:**


1. أحمد دانة، كريمة دانة. (2021). القيم ودورها في الاجتماعي والعوامل المؤثرة فيها. مجلة دراسات في التنمية والمجتمع، 118-129.
2. أحمد ماريف. (افريل،2024). فلسفة الثقافة السياقات والمفاهيم: بين تعدد المعاني والدلالات ووحدتها. المعيار، الصفحات 128-141.
3. عمران صورية. (ماي، 2018). المشروع التطبيقي لفلسفة جديدة (جيل دولوز أنموذجا). سلسلة الأنوار، 8(1)، الصفحات 18-27.
4. مرزوق مقلاتي. (ديسمبر،2020). القيادة الرديئة: دراسة للمؤشرات والمرتكزات. مجلة العلوم الإنسانية، 07(03)، الصفحات 845-861.
5. هالي نورالدين. (ديسمبر، 2011). المعرفة والسلطة في المدينة اليونانية: قراءة في جمهورية أفلاطون. مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2(2)، الصفحات 51-64.

# النقد الفلسفي لثقافة التفاهة وتجلياتها السياسية الراهنة

# Philosophical critique of the culture of triviality and its current political manifestations

**د. أيمن بوطرفة**
**جامعة أم البواقي، الجزائر.**

**مقدمة:**

ليست التفاهة اليوم مجرد صفة سلبية يتم انتقادها، بقدر ما أنها أصبحت نظام حياة يعيش به وفيه الأفراد والمجتمعات، وحين نتحدث عن أن التفاهة أصبحت نظام حياة، فإننا نعني أن صفة السلبية تلك قد انتفت عنها في المخيال في المخيال الجمعي، بفعل تحول التفاهة إلى ثقافة حياة ونظام اجتماعي قائم في حد ذاته. للتحول التفاهة إلى معطى تاريخي، وليس عرضا تاريخيا، لا بل إنها أصبحت تمثل عنوان مرحلة تاريخية بالبنط العريض. لكن مع ذلك فليست التفاهة وليدة اليوم، بل إن النزعة نحوها تبدو كامنة في الطبيعة التجمعات البشرية ذاتها، وهذا الأمر بالذات ما انتبه إليه نخبة من الفلاسفة قديما وحديثا. منذرين البشرية من خلال تنظيراتهم وتحليلاتهم بمخاطر التفاهة ومساوئها.

في هذا السياق تعمد هذه المداخلة على التطرق إلى نماذج من مطارحات النقد الفلسفي لثقافة التفاهة وتجلياتها السياسية والاجتماعية من خلال اختيار نخبة من أهم الأطروحات الفلسفية التي تطرقت إلى هذا الموضوع: البداية مع نيتشه الذي تنبأ بأزمة الذوق، والفكر التي ستعصف بمستقبل البشرية مع سيادة الديمقراطية ونموذجها الإنساني. ثم مع هربرت ماركيوز الذي تطرق إلى نموذج الإنسان الواحد متجلي للمجتمعات الاستهلاكية وسيادة الرأسمالية وعلانيتها الزائفة، وبعدها سيتم التعريج على علاقة التفاهة بدوستوبيات القرن العشرين من قبيل «1984»، «عالم جديد شجاع» والتي تطرقت إلى كيف يعمد السياسي على إنتاج نموذج إنساني تافه. بعدها سيتم المرور بمفهوم مجتمع الشفافية في زمن ما بعد الحداثة باعتباره راعيا للتفاهة كما أشار إلى ذلك «بيونج تشول هان» الألماني من أصل كوري للتعرف على إسهامه المهم في نقد التفاهة باعتبارها نظاما عالميا وسياقا تاريخيا. ت

بالعموم هدف هذه المداخلة على معالجة إشكالية قوامها السؤال: عن كيف تطرق النقد الفلسفي لسؤال التفاهة وتجلياته السياسية؟ بحثا عن علاقة السياسي بانتشار التفاهة؟

**1. نيتشه منذرا بأزمة الذوق المعاصرة: الديمقراطية وخاتم البشر**

«وحدها التفاهة تجني كثيرا هذه الأيام» عبارة كتبها نيتشه في نهاية القرن التاسع عشر، كأنها كتبت اليوم، لتعبر عن واقع راهن يعيش الإنسان الراهن، هذا الإنسان الذي لطالما حذر من كونه نموذج «خاتم البشر» أو الإنسان الديمقراطي الأخير، هذا النموذج الذي هلل له فرنسيس فوكوياما طويلا بعيد سقوط الاتحاد السوفيتي، لكن نيتشه كان قد حذر منه قبل أزيد من مائة عام عن فرنسيس فوكوياما. فما المقصود بخاتم البشر؟ وما علاقته بالتفاهة بحسب نيتشه؟

إذا ما بحثنا عن الجذور الفلسفية لمفهوم خاتم البشر، وجدنا أن من استعمل هكذا لفظ هو فريدريك نيتشه. فقد عمد فيلسوف القوة والإنسان الأسمى إلى استخدام مصطلح خاتم البشر إشارة إلى دلالة الحالة السلبية التي تلي مرحلة العدمية الناتجة عن تجاوز الإنسان الحديث لذاته. إن الإنسان في هاته المرحلة لن يرغب في أكثر من الأمان والراحة والعيش الرغيد، وسيقبل طوعا بغياب طموحات كبرى في أفقه، وهو بهذا يناقض مبدأ إرادة القوة الذي يقود إلى الإنسان الأسمى بمفهومه النيتشوي.

أما عن دلالته الراهنة، فيمكن القول إنه يرمز أساسا لإنسان العولمة، وهو مثله مثل مفهوم نهاية التاريخ ليس مفهوما قياميا apolyptique، بل هو طرح إيديولوجي ومحاولة للإجابة عن سؤال قديم تم طرحه بدآ من أفلاطون أي سؤال: ما هي أفضل النظم السياسية الممكنة (قاعود، 1436هـ، صفحة 114)؟ إن مفهوم خاتم البشر كما هو مفهوم تمثلي يحيلنا إلى منظومة قيم الإنسان الراهنة، فالنظام العالمي الحالي يدعو إلى قيم الفردانية والمساواة والسلام والحرية والرخاء المادي، وفي مقابل هاته الامتيازات فهو يعمد على تحييد نزع أصيلة في الإنسان، مثل الطبيعة التوسعية للإنسان التي كانت مسئولة قديما عن ظهور الحضارات وتوسعها. وإذا كانت كل منظومة قيم تعمد إلى تبيان حدود خير وشر معينة، فان حدود الإنسان المعاصر القيمية هي ما يصنع مثال (خاتم البشر). أما على المستوى التصوري أو النظري فإننا نجد أول الإشارات إلى مفهوم خاتم البشر في أعمال نيتشه نقديا، حيث رأى نيتشه بأن المستقبل سيكون

صراعا بين نموذجين، نموذج خاتم البشر، أي الإنسان الديمقراطي، ذو طبيعة سلبية. ونموذج الإنسان الأسمى وهو الإنسان المرغوب في الفلسفة النيتشوية.

إن كلبا ينام كل اليوم قانعا تحت أشعة الشمس طالما يتم إطعامه .لأنه راض بحاله. انه لا يهتم أن يكون هنالك كلب آخر أفضل منه، أو أن سيرته ككلب متوقفة، أو أن كلبا مماثلا له يتعرض للاضطهاد في مكان آخر في العالم. بمعنى أن المجتمع الذي يتم في إلغاء كل أشكال التفاوت، سيتحول الفرد فيه إلى شبيه بهذا الكلب. حياة الإنسان بهذا المعنى تحمل في طياتها مفارقة مقلقة :إنها تستلزم اللاعدالة، لأن النضال ضد هذه اللاعدالة يستلزم أعلى ما تنتجه القيم الإنسانية.

على عكس نيتشه، لم يكن ألكسندر كوجيف غاضبا من العودة إلى الحيوانية في نهاية التاريخ. انه قانع بالعمل بقية حياته في المنظومة التي ستكون مهمتها الإشراف على بناء الموطن الأخير لخاتم البشر .لقد أوضح كوجيف من خلال قراءته لأعمال هيجل أن نهاية التاريخ تعني أيضا نهاية الفن ونهاية الفلسفة (Fukuyama، 1992، , p. 311) .

يطرح فرنسيس فوكوياما فكرة خاتم البشر على أنها تجسيد لانتصار قيم الإنسان المعاصر، أي القيم الليبرالية الديمقراطية. ويشرح كيف أن التاريخ يصل إلى خاتمته مع نموذج خاتم البشر وذلك عبر الاستناد لمبدأ الرغبة في نيل الاعتراف، هذا المبدأ هيجلي. ويستند فوكوياما أيضا بعودة للجذور الفلسفية لأفلاطون في نظريته حول تقسيم النفس إلى ثلاثة أقسام، حيث يركز فوكوياما على الجانب الغضبي «الثيموس» لصياغة مسار الطريق نحو خاتم البشر. إن جدل الرغبة في الاعتراف هذا يحكمه مبدأين، أي الرغبة في المساواة «الايسوثيميا» والرغبة في التفوق «الميجالوثيميا». وينطلق فوكوياما استنادا لطرح هيجل الذي أنكر إن يكون لديه نظرية عن إنسان الطبيعة مثل هوبز وروسو، فالإنسان عنده حر غير محدد، وقادر بالتالي على تشكيل طبيعته عبر الزمن التاريخي، ويشترك الإنسان الأول عند هيجل مع إنسان الطبيعة في حاجاته الغريزية ولكنه يختلف عنه بأنه يملك الثيموس (فوكوياما، 1993، صفحة 138). ومن هاته الطبيعة يمكن تحديد تصور حول فجر التاريخ: فالإنسان كما يراه نيتشه هو ذلك الوحش ذو الخدين الأحمرين، والإنسان هو الكائن الوحيد الذي يرغب في امتلاك ميزات غير نفعية، مثل الحصول على وسام أو ميدالية أو راية جيش العدو ...الخ. كذلك فهذا الإنسان يريد الاعتراف به كانسان وبان يكون محبوبا ومعترفا بمكانته،

لذا فان لقاء الإنسان الأول مع غيره من البشر يكون عبارة عن صراع عنيف يسعى كل متنافس لإجبار الآخر على الاعتراف به (فوكوياما، 1993، صفحة 139). وتستمر سيرورة الصراع هاته عبر التاريخ بين نزعتين في الإنسان، الأولى لفرض نفسه مساويا لغيره، حيث ينال الاعتراف بإنسانيته، والثانية حيث يحاول أن يفرض وجوده عبر تأكيد تفوقه على غيره، مثلما يشير إليه نيتشه في إنسانه الأعلى. ويرى فوكوياما بأن المنظومة الليبرالية الديمقراطية هي الوحيدة القادرة على إشباع الأولى منها أي الايسوثيميا وتحقيق المساواة والحرية للجميع. وفي مقابل ذلك ستعمد لتقييد وقنونة الرغبة في التفوق من المجال السياسي إلى أنشطة بديلة مثل الرياضة والفنون والتجارة وغيرها.

إن الإنسان الديمقراطي وكما تمثله نيتشه نقدا وفوكوياما تبجيلا، هو إنسان يرضى بالتخلي عن بعض من طبيعته البشرية ورغباته في التفوق على أقرانه مقابل الحصول على الاعتراف المتساوي بإنسانيته. إن طابع الإنسان الديمقراطي أو خاتم البشر هو المسالمة والرغبة في العيش الرغيد، حيث يجسد طروح نهاية الميتافيزيقا والأيدولوجيا. على عكس الإنسان الراغب في التفوق على غيره والذي يرضى بالعيش في خطر!

بالنسبة لنيتشه فإن الإنسان النموذجي الديمقراطي، أي خاتم البشرder letzte Mensch في نهاية التاريخ التي تزعم الديمقراطية أنها تبشر بمجيئه يمثل مجموعة من البشر المدجنين منزوعي القوى، من حيث يفترض بهم أن يحققوا العيش المشترك فيما بينهم تحت قيم المساواة والحرية. بيد أن فيلسوف القوة يرى بعدمية هاته القيم وأنها تهدف إلى تجسيد إنسان نمطي مدجن. بينما هو على النقيض يرفض الأمر ويعتبر فكرة نهاية التاريخ تحويرا معلمنا لفكرة نهاية التاريخ اللاهوتية. حيث ستفضي الحركة الديمقراطية لإنتاج طراز بشري معد للعبودية بألطف معاني اللفظ (نيتشه، 2003، صفحة 215). إن الديمقراطية هي وريثة المسيحية في حمل لواء أخلاق العبيد، وإنسانها الجديد هو تمثل لهذا الأمر. بهذا المعنى يسمي زرادشت هؤلاء الأخيار، مرة بالإنسان الأخير ومرة ببداية النهاية انه يحس فيهم أنهم الجنس البشري الأكثر إفسادا. لأنهم يفرضون وجودهم على حساب الحقيقة وعلى حساب المستقبل (Nietzsche, 2011، p. 131) «.

إن الإنسان المدجن بهذا المعنى يمثل فاعلا بشريا منحطا بطريقة لا يمكن إصلاحها. حيث قد بدأ يعتقد في نفسه بأنه تعبير ومعنى التاريخ، بأنه إنسان متفوق .أجل انه

يملك بعض الحق في أن يعتقد هذا بسبب ذلك الكم الهائل من الفساد والمرض والتعنت والشيخوخة التي بدأت تنخر أوروبا (Nietzsche، 1900، , 61. pp. -62)

كان نيتشه يعتقد أن الديمقراطية الحديثة لا تمثل مرحلة يصبح فيها عبيد الماضي سادة أنفسهم، بل إنها تمثل انتصارا كاملا للعبيد ولأخلاقهم وقيمهم. فالمواطن النموذجي في الديمقراطيات الليبرالية هو خاتم البشر الذي ربته الليبرالية الحديثة كي يتخلى عن اعتزازه بتفوقه في مقابل حصوله على الراحة والبقاء. لقد أنجبت الديمقراطية بشرا لا صدور لهم.

إن الديمقراطية وفاعلها البشري الذي ستنتجه، تعني حصول الرضى بالحال ونوعا من القناعة القائمة على الإشباع المادي والمتعي. لن يبحث الديمقراطيون بعدها عن أي انجاز جديد، ولن يخجلوا بعدها من عجزهم عن الارتقاء فوق مستوى احتياجاتهم اليومية.

إن خاتم البشر هو برؤية نقدية أخرى إنسان المجتمع الاستهلاكي، إنسان العقل الأداتي على ما يشير إليه رواد مدرسة فرانكفورت. وبما أن إنسان المجتمع الاستهلاكي هذا يتميز بقصر النظر، فانه سيركز جل اهتمامه على إشباع الرغبات الآنية متجاهلا المشاريع الكبرى. وفي هذا الصدد يرى نيتشه بأن: الناس المتشابهون والعاديون كانوا ومازالوا أفضل حالا، أما الناس الأكثر ندرة ورفها وغرابة ولبسا، فغالبا ما يلبثون وحيدين ... يجب استنهاض قوى مضادة عظيمة للوقوف بوجه هذا التقدم الطبيعي، والطبيعي بإفراط، نحو التشابه .بوجه سيرورة الإنسان نحو المتشابه والعادي والوسطي والقطيعي ...نحو العادي (نيتشه، 2003، صفحة 26)!

إن خطر الجمود وفكر الانحطاط الذي يطرحه الفاعل الإنساني الديمقراطي النموذجي، يتهددنا بالولوج لما يسميه ميشيل فوكو مرحلة نهاية الإنسان أو موت الإنسان، وهو الأمر الذي جعل نيتشه يقترح الإنسان الأسمى كبديل وحل لعطالة خاتم البشر.

بهذا المعنى فالإنسان الديمقراطي خاتم البشر_ يشكل خطرا على روح الإنسان المبدع، وعلى تطور الجنس البشري. بل إن الركود الذي تبشر به سيادة الديمقراطية مستقبلا يمثل عارض انحلال للإنسان.

مع صعود مفاهيم الديمقراطية والدولة الحديثة تم التنظير لمفهوم خاتم البشر، أي الإنسان المستقبلي المكتفي من ناحية الحاجيات المادية والمتعقل والمسالم. لكن نيتشه يضع الإنسان الأسمى كنقيض لخاتم البشر، بل إن كل ما يصنع الإنسان الأعلى يقف على وجه النقيض لكل ما يتصف به خاتم البشر. هذا الأخير الذي هو مرضي بنفسه، يحب ذاته بذاته، ويعيش مرتاحا. انه بهذا لم يعد يحيى، انه فقط موجود (kynast, 2014 ,p. 110).

إن الفاعل الإنساني الذي تبشر به نظريات نهاية التاريخ الديمقراطية سماه نيتشه بخاتم البشر. وهو نموذج سلبي، هو باختصار المرحلة الأخيرة قبل نهاية الإنسان ذاته. ولا حل للهروب من هذا المصير الموعود الذي تنذر به سيادة الديمقراطية وقيمها إلا القفز على حدود الهاوية للوصول إلى الإنسان الأسمى!

كان نيتشه أول من استعمل مصطلح خاتم البشر، لكنه تمثله سلبيا على طول خط. فرادفه بالإنسان التافه، المكتفي بحاجياته اليومية، والطالب للمتعة والسعادة الآنية، إنسان يسميه الأخلاقيون والديمقراطيون بالإنسان الصالح. ومن هنا مكمن الخلل حيث تختلط المعايير وتختل تراتبية القيم ويصبح التافه هو السيد.

**2. العقلانية الزائفة و إنسان البعد الواحد عند هربرت ماركيوز**

يجد نقد ماركوزه لإنسان المجتمعات الحديثة المتقدمة راهنيته ليس في منطلقاته النظرية أو انتماءاته الفكرية، بل في إسقاطاته على واقع الإنسان الراهن. فمع التقدم العلمي والتكنولوجي الكبيرين الذي يشدهما العصر، أصبحت حياة الإنسان المعاصر أكثر سهولة وأحسن جودة، وقد رافقت هذه التطورات التي شهدتها حياة الإنسان الحديث تغيرات كثيرة في البنى الاقتصادية والاجتماعية السياسية وكل الإطار الحياتي للفاعل الإنساني. وان كان الخطاب الإعلامي يعمد دائما لإحاطة الإنسان الحديث وقيمه هذه بهالة من التبجيل، فان الأمر لا ينطلي على أحد أكثر المفكرين النقديين جذرية في القرن العشرين، والقصد هنا هو هربرت ماركوزه.

انطلاقا من محاولة تجديد النظرية النقدية الكبرى «الماركسية»، يحاول ماركوزه قراءة وضع الإنسان في المجتمعات الصناعية وما بعد الصناعية، وآثار الوضع العالمي على مستقبل الإنسان والمجتمع البشري. فيصوغ ماركوزه منظوريته هذه استنادا إلى سؤال رئيسي: لماذا لم تعد الثورة ممكنة في ظروف يفترض أنها تحقق كل متطلبات

الثورة في النظرية الماركسية الكلاسيكية؟ انطلاقا من هاته السؤال سيعمد ماركوزه على تبيان طبيعة الإنسان في المجتمعات الرأسمالية المعاصرة ونقدها.

ان الأوهام التي أقنع الإنسان المعاصر نفسه بها، لهي الأكثر إقناعا في التاريخ. فالإنسان المعاصر ظن أنه عبر النزعة الفردانية والتطور العلمي والتكنولوجي تمكن أخيرا من تحقيق المساواة والحرية. لكنه مخطأ في ذلك، فخلف العقلانية التي يزعم الإنسان المعاصر الاحتكام إليها، تقبع لا عقلانية مخفية، حيث أنه هاته المرة لم تعد اللاعقلانية صريحة مثلما كان الأمر مع المجتمعات الدينية أو الأيديولوجية سابقا، بل هي لا عقلانية ذات صبغة عقلانية. وهنا يكمن وجه الخطر في قيم المجتمعات المعاصرة على الإنسان ومستقبله، أي في طابعها المخادع هذا.

المجتمع الصناعي المتقدم هو برمته مجتمع لا عقلاني، لأن تطور إنتاجيته لا يؤدي بالحاجات والمواهب الإنسانية أن تتطور تطورا حرا، بل على العكس من ذلك تماما، فإنتاجيته لا يمكن أن تتطور على الوتيرة الراهنة إلا اذا قمعت تطور الحاجات والمواهب الإنسانية وتفتحها الحر ... ولكن التمييز بين الظاهر والواقع ليس بالأمر السهل دوما، لا سيما في شروط المجتمع الصناعي المتقدم الذي يميل فيه جهاز الإنتاج لأن يكون كليا، على أن يمارس تأثيره في كل مستويات الحياة المادية والفكرية، والى أن يحدد الصبوات والحاجات الفردية تحديده للنشاطات والمواقف الاجتماعية، وبكلمة واحدة إن مجتمع الحضارة الصناعية الراهنة يسير قدما نحو تحقيق التلاحم الاجتماعي الداخلي واستبعاد كل شكل من أشكال التناقض والتجاوز والتعالي. ومن هنا كان هذا المجتمع مجتمعا أحادي البعد، مجتمعا يحيلك باستمرار إلى ذاته ويجرد من المعنى كل محاولة لمناوأته ومعارضته ونفيه وهدمه، مادام يلبي حاجات الناس ويرفع مستوى حياتهم باستمرار... هنا بالتحديد تكمن قوة المجتمع ذو البعد الواحد في الطابع العقلاني للاعقلانيته (ماركوز، 1988، الصفحات 11-12).

ويواصل ماركوزه نقده لطرح ما يعرف بالأيديولوجيا، فالإنسان المعاصر في المجتمعات المتقدمة يعتقد أنه تخلص نهائيا من سطوة الأيديولوجيا والأفكار اللاعقلانية، لكنه على النقيض محكوم بأيديولوجيا خفية وسطوة وهيمنة أشد من كل التي سبقتها. إن المجتمع ذو البعد الواحد يقوم بتزييف وعي الإنسان ليوهمه بتوصله لغايات وهمية. إن المجتمع الصناعي المتقدم لم يقم بتزييف الحاجات المادية

للإنسان فحسب، بل قام بتزييف الحاجات الفكرية، وذلك على قاعدة كون الفكر هو العدو اللدود للمجتمع المسيطر، فهو قوة العقل النقدية السالبة والمحركة باتجاه ما يجب أن يكون لا ما هو كائن، ويقصد بهذه القوة الأيديولوجيا التي يقوم المجتمع ذي البعد الواحد بتحقيرها وازدرائها باسم عقلانية التكنولوجيا، بل امتصها وأبطل مفعولها، وهذا لا يعني بالطبع أنه لم تعد هنالك أيديولوجيا، وكل ما هنالك أن المدنية التقنية أصبحت أيدولوجيا (ماركوز، 1988، صفحة 13).

انطلاقا من كشف آليات الهيمنة الخفية في المجتمع ذو البعد الواحد، يمكن أن نعرض فيما هو آت أهم محددات نقد ماركوزه للمجتمع المتقدم ذو البعد الواحد:

- نقد التكنولوجيا: تلعب التكنولوجيا دورا رئيسا في شرعنة المجتمعات المتقدمة وصياغتها، فالتكنولوجيا هي المسئولة عن أهم التحولات في المجتمعات الإنسانية المعاصرة، كما أنها تخلق نوعا من الإشباع المتعي والحياتي للإنسان. وإذا كانت التكنولوجيا المعاصرة شاملة لكل المجالات الحياتية، فالإنسان بذاته لا يمكنه أن يخرج من سطوة هاته التكنولوجيا. بهذا المعنى رأى ماركوزه بأن التكنولوجيا هي أهم وسائل الهيمنة في المجتمع ذو البعد الواحد. حيث تعمد التكنولوجيا والعلم لإصباغ اللاعقلانية صبغة العقلانية، ومن هنا اعتبار التكنولوجيا كأيدولوجيا في حد ذاتها.

التكنولوجيا هي دائما مشروع تاريخي اجتماعي، وما يستهدف منها هو ما يعتزم المجتمع والمصالح السائدة أن تفعله بالناس والأشياء (بوتومور، 2004، صفحة 79).

السيطرة على الطبيعة من خلال العلم والتكنولوجيا تنشئ بالضرورة شكلا جديدا من التسلط على البشر، يعبر عنه ماركوزه بقوله أن: المجتمع يولد نفسه في مجموعة تقنية متناسقة ومتنامية من العمل من الأشياء والعلاقات التي تشمل على الاستخدام التقني للبشر. وبكلمات أخرى، فان الصراع من أجل الوجود واستغلال الإنسان والطبيعة أصبحا يكتسبان صبغة علمية وعقلانية أكبر (بوتومور، 2004، صفحة 78).

- نقد ثقافة البعد الواحد: إن الثقافة كثقافة تكون في الغالب ثنائية البعد، بمعنى أنها تميز بين الواقع والمأمول، بين ما هو كائن وبين ما يجب أن يكون. وحيث أنها تحمل مجموعة من القيم من المفترض أنها تشكل مجال الما-يجب في مجال الواقع الثقافي. ولكن الثقافة في المجتمع المتقدم لها خصوصيات مغايرة، إنها ثقافة أحادية البعد

وذلك بفعل تأثير التقدم العلمي والتكنولوجي. إن الطاقة الهائلة التي تملكها وسائل الاتصال الجماهيري في المجتمعات التكنولوجية هي في سبيلها اليوم إلى التخفيف من حدة التناقض بين الواقع الثقافي والواقع الاجتماعي عن طريق دمج الأول بالثاني وإعادة توزيعها على نطاق واسع وتجاري. لقد أضحت الثقافة في المجتمع التكنولوجي بضاعة (ماركوز، 1988، صفحة 15). بعد نقد تشيئ الثقافة هذا يقوم ماركزوه بنقد ثقافة المجتمع الرأسمالي والتكنولوجي معتبرا آلياتها مسئولة عن تشيئ الوعي الإنساني. حيث تعمد إلى تشكيل وعي نمطي، أي أحادي البعد.

اذن فالإنسان ذو البعد الواحد هو ذلك الإنسان ذو الوعي المرتاح لوضعه الراهن بفعل ثقافة المجتمع التكنولوجي المعاصر التي تعمد على تشيئ وعيه وقنونته في بعد أحادي.

- نقد الرأسمالية: بحكم انتماء هربرت ماركوزه اليساري وانطلاقه من النظرية الماركسية، فان منظوره للنظام الرأسمالي هي نظرية نقدية بحتة. فإذا كان ماركس رأى بأن النظام الرأسمالي يحمل بذور تفككه من الداخل، فان ماركوزه رأى بان النظام الرأسمالي نجح في أن يتجاوز أزمته الداخلية هاته، وألغى احتمالية انحلاله من الداخل، وذلك عبر السيطرة على وعي كافة الطبقات وضمها داخل مجال مشروعيته. حيث عمد عبر التكنولوجيا المعاصرة وبث ثقافة أقصى حد ممكن لأكبر عدد ممكن من المتعة إلى إلغاء الوعي بالاستلاب، وبالتالي بناء عقلانية زائفة. هاته العقلانية هي ما تجعل النظام الرأسمالي المعاصر يتجاوز تناقضاته التي أشار إليها ماركس، وبالتالي يجعل الثورة من قبيل الاستحالة في المجتمع التكنولوجي المتقدم. بهذا فشلت الثورة في المجتمعات التي يفترض أن تحدث فيها بحسب النظرية الكلاسيكية الماركسية، بل انه تم إلغاء إمكانية حدوثها تماما مع عقلنة المجتمع الحديث للنظام الرأسمالي.
- نقد الديمقراطية ودولة الرفاه: إن فكرة الديمقراطية المعاصرة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالنظام الرأسمالي الليبرالي، وهو ما نراه حين أعلن فرنسيس فوكوياما أن نهاية التاريخ تمثل انتصار الليبرالية الديمقراطية الرأسمالية. وقد توصل ماركوزه أيضا إلى أن الديمقراطية الحديثة هي رديفة النظام الرأسمالي في وعي المجتمع التكنولوجي المتقدم.

لقد كانت السياسة ميدانا مفضلا للصراع والتعارض والتناقض، ميدانا لما هو ثنائي البعد. ولم تستطع أكثر الأنظمة الدكتاتورية مغالاة وإحفاشا أن تلغي في يوم من الأيام البعد النافي والسالب للسيطرة والإكراه. ولكن ما عجزت عنه الدكتاتورية حققته الديمقراطية، أو على الأقل ذلك الشكل من الديمقراطية الذي تعرفه الآن المجتمعات الصناعية المتقدمة.

أضف إلى ذلك أن الالة نفسها تلعب دورا سياسيا بارزا في المجتمع التكنولوجي. فمكننة العمل وتأليهه أبطلا مفعول الرفض والنفي الذي كانت تمثله الطبقة العاملة الكادحة، ودفعا بهذه الطبقة إلى الاندماج بالنظام القائم فصار مطلبها الأول المساهمة في تسيير المشاريع لا تغيير النظام الذي يوفر لها نسبيا رغد العيش ورفاهه (ماركوز، 1988، صفحة 14).

وكذلك ينتقد مركوزه مفهوم دولة الرفاه، هذا المفهوم الزائف الذي يعمد على تشيؤ الوعي الإنساني. حيث يعمد لخلق حاجات يشغل بها الإنسان عن تحقيق خلاصه الإنساني. وهو ما يجعل ماركوزه يرى بأنه لا تجب على الطبقة العاملة رفض مفهوم دولة الرفاه من وجهة نظر ميتافيزيقية باسم مفاهيم الحرية وغيرها، لكن من الواجب أيضا ألا تنسى أنه يمكن دائما في الإمكان أفضل مما كان، وأن دولة الرفاه هاته يمكن أن تحسن وتطور.

- نقد اللغة، الفن والأدب الأحادي البعد: بالنسبة لماركوزه فان اللغة تساهم في صياغة الإنسان ذو البعد الواحد، من حيث تحولها هي ذاتها إلى لغة ذات بعد واحد في المجتمعات التكنولوجية المتقدمة. كذلك الأمر بالنسبة للأدب والفن، حيث يتم تشيئ كل منها وجعلهما في خدمة الأيديولوجيا الخفية للمجتمع التكنولوجي المعاصر.

لقد أضحت الثقافة في المجتمع التكنولوجي بضاعة، وحتى موسيقى الروح أمست موسيقى تجارية أو قابلة للتنجير. وإذا كان عالم الأدب والفن قد مثل على الدوام بالنسبة للناس عالما متعاليا، بعدا آخر للواقع، الرفض الأكبر على حد تعبير فلسفة علم الجمال، فان هذا الرفض بات مرفوضا وامتص عالم الأعمال «البعد الآخر» (ماركوز، 1988، صفحة 15).

### 3. الدستوريات المعاصرة: صناعة المواطن التافه

فلسفيا فإن التفاهة تعني سيادة الرديء على الجيد، وهي كذلك تعني أيضا أزمة في المعنى. فاذا كانت الفلسفات الكلاسيكية تحلم بعوالم يتجسد فيها الحق والخير والجمال وبالتالي العدالة، وفق تصورات يوتوبية، فإن الفكر المعاصر وجد نفسه يحذر من العكس. أي أنه يحذر من تصورات تبدو لنا جيدة حتى يتضح خطورتها ومساوئها، وها ما يسمى ب «الدستوريات» Dystopie أو أدب المدينة الفاسدة، وهي تأتي عكسا عن اليوتوبيا أي أدب المدينة الفاضلة. تقترح الدستوريات تصورا مستقبليا عن تطور المجتمعات الإنسانية يؤول فيه الوضع للأسوء، حيث يقود تطور مسار التاريخ الإنسان إلى سياقات حتمية يفقد من خلالها أرادته وحريته، ليجد نفسه في وضع مفروض عليه نتيجة خيارات بدت في البداية جيدة لكنها انقلبت إلى كوابيس يعجز الإنسان المستقبلي عن تجاوزها. وقد كانت أبرز وأشهر الروايات الفلسفية الديستوبية روايتا جورج أورويل «1984»، ورواية ألدوس هكسلي «عالم جديد شجاع». فقد كانت هاتين الروايتين الأكثر نجاحا في استشراف المستقبل، خصوصا أنهما تطرقتا إلى استشراف المستقبل انطلاقا من استشراف تطور العلوم والتكنولوجيات وأثرها على المجتمعات الإنسانية.

ديستوبيا أورويل المجسدة في رواية 1984 بالرغم أنها تركز على مساوئ الاستعمالات السياسية للتكنولوجيا من تطور أنظمة المراقبة والمعلومات والحواسيب الآلية، إلا أنها أيضا تشير إلى عواقب تطور البيوتكنولوجيا حين يتم استخدماها في محاولة السيطرة على البشر الذي تعتبرهم الأنظمة السياسية الشمولية القائمة مارقين أو يحتاجون لإعادة تهيئة طبيعتهم. حيث يصف مشهد استخدام الكهرباء وعقاقير الألم والهلوسة أثناء تعذيب بطل الرواية «وينستون» كيفية استخدام مكتسبات التقانة الحيوية في أعمال توصم ب «الشريرة» بغية قمع الحريات للسيطرة على الإنسان.

«في المقابل كان موضوع كتاب «عالم شجاع جديد» هو الثورة التقنية الكبيرة الأخرى التي توشك على الحدوث، التقنية الحيوية: تفقيس البشر، ليس في الأرحام ولكن خارج الجسم الحي، دواء السوما الذي يمنح الناس سعادة فورية، والمجسات التي يتم تنبيه الإحساس بواسطة أقطاب كهربية مزروعة، وتعديل السلوك بواسطة التكرار المستمر في مستوى ما دون الوعي، وعندما يفشل ذلك ينجزونه من خلال إعطاء مزيد من الهرمونات الصناعية، وهو ما أعطى الكتاب بيئته المروعة على وجه

الخصوص» (فوكوياما، مستقبلنا ما بعد البشري: عواقب الثورة البيوتكنولوجية، 2006، صفحة 14).

فهسكلي يتصور مجتمعا تتمكن فيه الآلة والعلم من تعويض الوظائف الطبيعية للإنسان. «ففي مراكز التكييف والحضانة، تولت مصانع تربية الأجنة الحقيقية و»مديرو الحضانة» من قسم الولادة مهمة الأمومة وتكاثر البشر. فالأفراد الذين تم إنشاؤهم في هذه المصانع هم نتيجة الجرعات الجينية الدقيقة أثناء عملية النضج. وهكذا توجد الآن عدة «أنواع وأصناف» من البشر المحتملين الذين يشكلون الطبقات التي يقوم عليها المجتمع: ألفا وبيتا وجاما ودلتا وإبسيلون» (Le meilleur des mondes d'Aldous Huxley).

ففي حين يبدو المجتمع الذي تصوره هكسلي جذابا نظريا، لأنه يؤمن المتع المختلفة لجميع أفراده بسهولة. فالشر هنا ليس بمثل هذا الوضوح لأن أحدا لا يصاب بأذى، فالواقع أن هذا عالم يحصل فيه كل إنسان على ما يريد، وكما يريد. وكما يقول أحد شخوص الرواية: «أدرك المتحكمون أن العنف لا يجدي». وأنه ينبغي إغراء الناس وليس اجبارهم على العيش في مجتمع منظم» (فوكوياما، 2006، صفحة 15). فالجميع يعيشون بصحة جيدة، الجنس متوفر بسهولة والمتع بأنواعها متوفرة، تم إلغاء الدين وبالتالي إلغاء الضمير، ولم يعد أحد يهتم للفلسفات المتشائمة، والجميع متناغم في بيئته وطبقته الاجتماعية التي تلائم ذكاءه وإمكانياته. فأين تكمن مكامن الشر هنا؟

إن جوهر الإشكال هو في اغتراب الإنسان واستلابه، فالإنسان هنا يغرق في بعد واحد، هو المتعة والاستهلاك وينسى ذاته الحرة والمفكرة، فيتحول إلى ما يشبه الآلة الغير واعية. وهذا ما قاد هكسلي إلى القول أنه «اليوم، بعد حربين عالميتين وثلاث ثورات كبرى، يتجلى لنا أنه لا يوجد ارتباط ضروري بين التكنولوجيا الأكثر تقدمًا والأخلاق الأكثر تقدمًا» (HUXLEY، 1954 , ، p. 281) .

إن المجتمع العلمي الموعود هذا الذي يرتكز على العلم والتكنولوجيا في كل أجزاءه ومعالمه، قد أصبح مجتمعا منزوع الروحانية والحميمية، باردا أخلاقيا، مجتمعا حوّل الإنسان إلى ما يشبه الآلة، مفقدا إياه كثيرا من الصفات التي صنعت جوهر الإنسانية عبر التاريخ، وأهمها: الحرية والوعي والقدرة على الاختيار.

«التقدم التكنولوجي لا يزيل الحواجز، إنه ببساطة يغير طبيعتها. وهذا صحيح حتى في الحالات التي يؤثر فيها التقدم التكنولوجي بشكل مباشر على حياة الأفراد وشخصهم. على سبيل المثال، قللت مرافق الصرف الصحي بشكل كبير من حدوث الأمراض المعدية، وخفضت وفيات الرضع، وزادت متوسط العمر المحتمل. يبدو للوهلة الأولى أن هذا التقدم التكنولوجي يجب أن يكون في نفس الوقت تقدمًا بشريًا. لكن نظرة فاحصة تكشف أنه، حتى هناك، كل ما حدث هو أن شروط تحقيق التقدم البشري قد تغيرت. الحقائق العرضية لهذا التغيير هي الارتفاع الأخير في طب الشيخوخة إلى مرتبة فرع مهم من فروع الطب، ومنح المعاشات التقاعدية لكبار السن، وتهجير نقطة التوازن السكاني، في البلدان ذات معدل المواليد المنخفض، نحو الفئات العمرية الأعلى. بفضل المرافق الصحية، فإن المسنين في طريقهم لأن يصبحوا أقلية ذات أهمية اجتماعية، وبالنسبة لهذه الأقلية المهمة، فإن مشاكل التقدم البشري فيما يتعلق بالسعادة والخير والإبداع صعبة بشكل خاص» (HUXLEY , 1954، pp. 282 -283).

كان «جورج أورويل» في استشرافه للمستقبل في ديستوبيا 1984 يتصور مجتمعا مستقبليا يتمكن في السياسيون المستبدون من إحكام سيطرتهم باستخدام العلم والتكنولوجيا لقمع كل حريات الإنسان، أما هكسلي فقد كان يخاف من أن يتم استخدام مكتسبات العلم والتكنولوجيا لإقناع الإنسان بتغيير طبيعته والتخلي طوعا عن حرياته. كان أورويل يخاف من أن تختفي الحقيقة ويغترب الإنسان نهائيا عندما يتم منع المعلومات والكتب نهائيا بفعل تطور الرقابة والاستبداد السياسي. أما «ألدوس هكسلي» فعلى العكس كان يخشى أن تضيع الحقيقة في بحر هائل من المعلومات والحقائق عندما تتطور التكنولوجيات لتسمح بانتشار كم هائل من الكتب والمعلومات بدون تمحيص. وإذا كان أورويل يخشى من تغوّل الاستبداد وشموليته، فإن هكسلي كان يخشى من أن تتمكن الهيمنة الناعمة من إقناع الناس بقبول وضعية اغترابهم وإقناعهم بأنها أفضل العوالم الممكنة. وهذا تقريبا ما ذهب إلى «هربرت ماركيوز» من القول أن المجتمعات الصناعية المتقدمة قد تمكنت من عقلنة لاعقلانيتها من خلال تطوير التكنولوجيا وما تخلقه من غايات زائفة للإنسان بفعل انتشار ثقافة الاستهلاك.

حذرت الديستوبيات من أن السياسات المستقبلية تهدف لإنتاج إنسان تافه يتلاءم مع غاياتها وتصوراتها المستقبلية. فالتافه بهذا المعنى يصبح مواطنا نموذجيا،

حتى بالرغم من سلبياتها فإنه يضل غير خطير سياسيا، وهذا هو الأهم بالنسبة للأنظمة السياسية في التصورات الديستوبية، التي وان كانت أعمالا أدبية في طبيعتها، فإن إحالاتها واقعية مفرطة في واقعيتها.

### 4. مجتمع الشفافية ومستقبل التفاهة

يحذر بيون تشول هان صاحب كتاب مجتمع الشفافية من طبيعة المجتمعات المابعد حداثية التي يسميها بمجتمعات الشفافية، وأثرها على طبيعة الإنسان فيها.

الشفافية تلك الكلمة التي دأبنا على سماعها في وقتنا الراهن عبر مجالات الحياة كافة، ليس داخل عوالم السياسية فحسب، بل في عوالم الاقتصاد أيضا، المزيد من الديمقراطية، والمزيد من حرية تداول المعلومات، والمزيد من الكفاءة، هي النتائج المتوقعة من تعتيم وسيادة الشفافية.

حيث تعمل الشفافية على خلق الثقة وهي بذلك ترسخ لعقيدة جديدة، إلا أن ما يتم تجاهله هنا يتمثل في أن رفع شعار الشفافية يحدث في مجتمع يكون في معنى الثقة ملتبسا إلى درجة كبيرة للغاية. وحيثما يسهل الحصول على المعلمات، كما هو الحال في عالمنا اليوم، يتحول النظام الاجتماعي من الثقة إلى السيطرة. مجتمع الشفافية ليس مجتمع ثقة، بل مجتمع سيطرة.

إذا غدا كل شيء شائعا أو عاما، وفي الوقت الذي يحدث فيه ستغدو السياسية أيضا قصيرة الأجل على نحو مطرد، ستسبح محدودة المدى الزمني، ولن تعود كونها مجرد ثرثرة، سيؤدي فرض الشفافية الكاملة على التوافقات السياسية إلى اجهاض التخطيط البطيء، وتجعل تنفيذ مخطط طويل المدى مستحيلا. سيغدو من الصعوبة أيضا الحصول على رؤية للمستقبل، وستنال الأمور التي لا بد من أن تستغرق وقتا حتى تنضج، اهتمام أقل فأقل (هان، 2019، الصفحات 7-8).

تمثل وسائل التواصل الاجتماعي أهم مجال لتجلي ثقافة التفاهة في عصرنا الحالي، وقد انخرطت المؤسسات السياسية بامتياز في ذلك المجال. فبعد أن أبدت توجسا مبدئيا منه، أقدمت على الدخول فيه والاستثمار فيه بغية خدمة غاياتها، أي مجتمعات السيطرة الناعمة. فتحول تلك التفاهة إلى وسيلة للسيطرة ذاتها، من خلال ازدياد قدرة الحكومات على جمع المعلومات وتتبع المعارضين والأصوات السياسية

الأخرى من خلال الشفافية التي تؤمنها تطور تكنولوجيات الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي.

خطورة التفاهة وصُناعها لا تقف عند الحراك الثقافي بقدر تأثيرها العميق في مُدخلات المعرفة والرؤية للحياة عند جيل المراهقين الذين يشكلون العامود الفقري لجمهورهم.

وهذا واضح اليوم في مفاهيم قطاع كبير من المراهقين يرى أن إصرار المربين بمختلف أنواعهم على تنمية القيم إنّما هو ضرب من العبث، لما يرونه من معايير مختلفة عن الجيل السابق، وأولويات الغنى والتميّز والتأثير إنّما تأتي عن طريق الشهرة وليس العلم أو المعرفة، وهذا ما يصدقه الواقع.

فأن تدرس وتقرأ لتصبح في النهاية موظفاً لا يكفيه راتبه نهاية الشهر لهو طريق طويل، فيما أن تصبح مشهوراً وتنهال عليك العروض والإعلانات فهذا طريق أكثر متعة وغنى واختصاراً.

وما يحدث عند اتخاذ هذا القرار هو مزيد من صناعة التافهين، لأنّهم ببساطة لا يستطيعون التميّز إلا بها، فولادة التافه رقمياً يقابلها انهيار مجتمعي يعادل قوته الرقمية ووصوله إلى جمهوره، وهو بالضرورة تأثير مجتمعي سلبي مدمّر (فلاحي، 2023).

**خاتمة:**

فيما وراء الخطاب السياسي والإعلامي الذي قد يدين التفاهة قولا لا فعلا، فإن الخطاب الفلسفي يعمد على مساءلة ثقافة التفاهة أسبابها وتجلياتها، من خلال العمل على توضيح أن ثقافة التفاهة السائدة اليوم ليست وليدة صدفة تاريخية، أو خطأ غير محسوب، بقدر ما أنها تمثل نتاج نظام قائم متكامل جاء نتيجة لمسار تاريخي معين وخيارات سياسية اجتماعية اقتصادية وثقافية معينة. بهذا فإن مقاومة التفاهة تبدأ أولا من فهم أسباب وعوامل سيادتها، وتجلياتها وتمثلاتها.

فصحيح أن عصر ما يعرف ب «ما بعد الحداثة» يحمل في دلالته زوال مرجعيات المعنى التقليدية، وتخلل اليقين والحقيقة والمعايير النموذجية، مما أنتج أزمة معنى عامة تجلت تبعاتها وإيحاءاتها في مختلف فلسفات ما بعد الحداثة التي عبرت عنها

أيما تعبير عن هذه الأزمة. كما تجلّت أيضا بوضوح في مضامين السينما والتلفزيون والأعمال الأدبية والفنية عالميا وعربيا بصفة أخص، أين غدت جلّها فارغة من المعنى والدلالة. مما يدل أن المدى الراهن يمثّل سيادة ثقافة التفاهة وما يتبعها من إفلاس فكري وعقلي بامتياز. وفي مدى تاريخي يحدد فيه اقتصاد السوق والثقافة الاستهلاكية معيار ما هو جدير بالاهتمام وما هو غير جدير، ما هو قيّم وما هو دون ذلك. فأصبحنا نعيش فعلا المقولة النيتشوية أنه قد «غدت التفاهة بهذا وحدها من تجني كثيرا هذه الأيام.»

إن انتشار «التفاهة» والتشجيع عليها ومكافئتها حتى تحولت إلى نظام حياة وثقافة، إلى تصور وتمثل، بدعم من «الخطابة السياسية والإعلامية الرسمية»، التي تبدو هي أيضا مستفيدة من الوضع، في زمن اختلطت فيه مفاهيم الديمقراطية بالشعبوية، وهو ما يحيل إلى ضرورة مساءلة العلاقة بين السياسي والتفاهة، والمصلحة والغايات المشتركة بينهما.

في هذا السياق انتبه كثير من الفلاسفة أن «التفاهة» قد تم توظيفها في خدمة الأنظمة السياسية، فبالنسبة لنيتشه فقد تنبأ بأن سيادة الديمقراطية في المستقبل ستنتج لنا فاعلا بشريا جديد سماه خاتم البشر، وهذا الفاعل البشري سيمثل تجسيد انتصار قيم التفاهة ذاتها. أما هربرت ماركيوز فقد كشف أن هنالك علاقة وطيدة بين ما يسمى ب «المجتمع الاستهلاكي» وثقافة التفاهة، وأن وجود التفاهة ليسا بريئا! فهنالك غايات ثاوية وراء توهج كل ما هو تافه، وتدهور الآداب والفلسفات والإنسان بعامة، وكل ذلك يتم بواسطة تطور التكنولوجيا، التي تعمل على تمويه مظاهر الاستلاب في الرأسمالية والليبرالية المعاصرة، وإكسابها عقلانية زائفة، تعمل على عقلنة لاعقلانيتها، وبالتالي تتحول التفاهة إلى أمر إيجابي. وفي هذا السياق حذر بيونغ تشول هان من سيادة الوجود الزائف على الوجود الحقيقي كما أشار سابقا مارتن هايدغر، حيث أن مجتمعات الشفافية هي مجتمعات مموهة لمجتمعا السيطرة الناعمة الما بعد حداثية، ومن نتائجها انتشار التفاهة والتشجيع عليها باعتبارها نمط حياة مفترض. وهو الأمر ذاته التي حذرت منه الدوستوبيات المعاصرة، عن انقلاب المشاريع السياسية المستقبلية إلى ضدها، بحيث تتحول إلى خطر على الإنسان ذاته، فيصبح نموذج الإنسان التافه غاية في حد ذاته لخدمة مشاريع سياسية شمولية.

**قائمة المراجع:**


1. بوتومور ,ت .(2004) .مدرسة فرانكفورت) .س .هجرس (.Trans ,ليبيا :دار أويا.
2. بيونغ تشول هان. (2019). مجتمع الشفافية. (بدر الدين مصطفى، المترجمون) الرباط: مؤسسة مؤمنون بلا حدود.
3. صهيب فلاحي. (17 08, 2023). صناعة التفاهة: المفهوم الجديد للتواصل. تاريخ الاسترداد 2025 01, 24، من TRT عربي: (https://www.trtarabi.com/opinion/
4. فريدريك نيتشه. (2003). ما وراء الخير والشر: تباشير فلسفة المستقبل. (جيزيلا فالور حجار، المترجمون) بيروت: دار الفارابي.
5. فوكوياما، ف. (2006). مستقبلنا ما بعد البشري: عواقب الثورة البيوتكنولوجية. (ايهاب عبد الرحيم محمد، المترجمون) أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث.
6. فوكوياما، ف .(1993) .نهاية التاريخ والإنسان الأخير) .ا .أمين (.Trans ,القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر.
7. قاعود، ي .س1436) .هـ) .أطروحات فوكوياما وهنتنغتون والنظام العالمي الجديد. الرياض :مركز البيان للدراسات والبحوث.
8. ماركوز، هـ .(1988) .الإنسان دو البعد الواحد) .ج .طرابيشي (.Trans ,بيروت :دار الآداب.
9. Fukuyama،, F. (1992). The end of history & the last man. New York: the free press،.
10. HUXLEY،, A. (1954). LES PORTES DE LA PERCEPTION ،Traduit par Jules Castier France1954 ،. (j. castier, Trad.) France : Éditions du Rocher.
11. kynast, P. (2014). le surhomme de Friedrich Nietzsche : une introduction philosophique. (F. Clarke, Trad.) Paris : édition PKP.
12. Le meilleur des mondes d'Aldous Huxley : Un monde sous conditionnement pour une civilisation « zéro défaut ». (s.d.). Consulté le 01 22, 2023, sur http://www.buzz-litteraire.com/20061029612-le-meilleur-des-mondes-d-aldous-huxley/

13. Nietzsche, F. (2011). Ecce homo. (d. Vialatte, Trans.) Canada : édition œuvres ouvertes.
14. Nietzsche، F. (1900). Généalogie de la morale. (H. Albert, Trad.) mercure de France.

# سطوة التفاهة على المجتمع الجزائري -بين الأسباب والحلول.

# The dominance of triviality over Algerian society - between causes and solutions

**بن سلامة عبد الوهاب**
**مخبر الفلسفة والعلوم الإنسانية. جامعة مستغانم**

**المقدمة:**

تعتبر التفاهة ظاهرة إنسانية، بدت منتشرة في عصرنا الحالي، حيث سيطرت للأسف على جميع مجالات الحياة، فنجدها قد شملت التلفزيون والكتب والصحف ووسائل التواصل الاجتماعي باختلاف أنواعها، إضافة إلى الثقافة والفنون ومختلف العادات والتقاليد الساذجة التي رسخت لمثل هذه المنظومة، ومست بذلك مختلف طبقات المجتمع، بل ووصلت حتى للسياسة والسلطة، ولقد تغلغلت كالأوبئة واستطاعت السيطرة على عقول البشر وإخضاعهم ا لسيطرتها، واستطاعت هذه التفاهة أن تغزو المجتمعات بفعل التافهين من خلال دعهم لبعضهم العض من خلال الخطابات المتبادلة.

لقد تمكّن التافهون من خلال مختلف الوسائط الموجودة، أن يظهروا للمشهد العام، مصطحبين في ذلك بأذواقهم المنحطة والرديئة، وليس هذا فقط، بل فرضوا أنفسهم على شاشات التلفاز وهم بهذا نجحوا في السيطرة على عقول وتفكير الناس، حيث أصبح التافهون أمثالهم يقضون معظم أوقاتهم في مشاهدة هؤلاء قليلي المستوى بدل من قراءة كتاب ما يحمل قيمة معرفية.

الملاحظ هو ان التافهين أصبحوا يسعون وراء تحقيق الشهرة والأموال، من خلال أعمالهم هذه البسيطة، عديمة المنفعة الخالية من القيم ومعايير الجمال الحقة، ولقد نال هذا الموضوع أهمية وعناية بالغة من قبل الدارسين والباحثين المعاصرين، فنجد من بين هؤلاء المفكرين الفيلسوف الكندي **آلان دونو** Alain Deneault (26_ سبتمبر_) 1970، الذي أولى اهتمامه بهذه المشكلة وخصص لها كتابا أسماه «نظام التفاهة»، حيث تناول فيه التفاهة وعلاقتها بالنظام السياسي، على أساس أن للمنظومة السياسية يد في ذلك.

مما لا شك فيه أنّ عصرنا اليوم يعرف انتقالاً نوعيا وكمًّيا في الوسائل العلمية والتقنية جد المتطورة، وما انجر عليها من تطور في وسائل التواصل المسموعة منها والمرئية، فكان لها اليد الأكبر في نشر ثقافة التفاهة في أوساط المجتمعات، فلم تترك مجال إلاّ وسيطرت عليه، لتأخذ بذلك الطابع العالمي، فلم يعد تقليد الآخر أمر صعب، بل فقط يحتاج إلى كبسة زر على النيت، ومحاولة تقليدها بشتى الوسائل حتى تصنع منه إنسانا تافهًا، لذا في هذه الورقة البحثية سنحاول الوقوف على طبيعة حالة المجتمع الجزائري، في ظل انتشار التافهين أو الرويبضة، ثمّ بعده ستحاول تقديم بعض الحلول، كترياقات علّها تقلّل من هذه النزيف والسرطان الذي أصبح ينخر كل مجتمعنا، وبكل ما يحمله من خصائص ومميّزات. فيا ترى كيف أصبح المجتمع الجزائري في ظل انتشار التفاهة؟ وكيف يجب الحد منها.

**تعريف التفاهة**

جاء في مختلف المعاجم العربية أنّ كلمة التفاهة تشير إلى القلة والخسة والأمر الحقير اليسير الذي لا قيمة له. فعن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن بين يدي الساعة سنين خداعة: يصدّق فيها الكاذب، ويكذّب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخّون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة» قيل: يا رسول الله: وما الرويبضة؟ قال: «المرء التافه يتكلم في أمر العامة» (الحديث أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه) وهذا يعني أنه يمكن أن نستعيض بمصطلح التفاهة بالرويبضة، لأن لهما تقريبا نفس الحمولة، بغض النظر عن مرجعيتهما.

حسب تعريف **دونو** لمصطلح التفاهة فإن هذه الكلمة تعني كل ما لا قيمة له وكل ما هو غير جيد، فالتفاهة بتعبير أخر تعني السخافة ونقص الأصالة وهذا يعني أن الشيء التافه هو ما كان غير كفؤ في مجال ما وكل ما يعبر عن الرداءة.

**تعريف الثقافة:**

تعرَّف على أنّها ذلك الكل المركب الذي يشمل العادات والتقاليد والقيم التربوية والاجتماعية والأخلاقية والموروث، أو «هي الصورة الانعكاسية لتنشئة الفرد ومعتقداته من خلال سلوكياته وتصرفاته في حياته اليومية أمام مواقف متوقعة أو غير متوقعة.» (بشار، 1995، صفحة 40) يعني أن سلوكيات الفرد تعكس بالضرورة مختلف الخصائص الثقافية التي تلقاها من منظومة الاجتماعية.

**عن صفات التافهين:**

الملاحظ أن هؤلاء التافهين يشتركون في صفات، مهما كان جغرافياتهم، لذا « الشخص التافه يتمثل في مخلوق منحط ,يستفيد من معرفته بالأخبار الداخلية والدسائس في أوساط ذوي السلطة لاستغلال كل موقف كان سياسي، ينحدر من خلفية تافهة، مع ذلك فان أشخاصا من ذوي المراتب العليا يتأثروا به , لم يكن عالما لكنه ذو علاقة بالعلماء , كان قليل الجدارة لكنه يعرف أشخاصا ذوي جدارة كبيرة (...) قد أصبحوا جماعة مسيطرة (...) صاروا يقبضون على السلطة تدريجيا (...) إن كل المزايا غير المستحقة التواطؤ والتآمر هي أشياء قد جعلتهم يتربعون على قمة والمؤسسات» (دونو، 2020، صفحة 74)، فما يميّز الرويبضة أن لهم نفوذ في كل الشتات الاجتماعي، للأسف حتى بين النخبة الذين، نلاحظ أنهم في مجتمعنا قد اختُرِقوا، من طرف السفهاء والدهماء، لأسباب متعددة.

إنّ التافهين في عصرنا، وبالرغم من أنّهم لا يجملون ربّما في سجل إنجازاتهم سوى شهادة ميلادهم، إلاّ أنّهم كثيري التأثير، بل والسيطرة على عقول المجتمعات داخل أوطانهم وخارجها ف «المتأمل لأحوال هؤلاء التافهين يجد أنهم لا يمتلكون أدنى موجبات التصدر على مختلف المستويات العلمية والثقافية والاجتماعية -سوى موجب امتلاك الجمهور الذي لم يتكون حولهم إلا لما يعرضونه من التفاهات والترفيه المتدني» (السيد، 2023، صفحة 24)، وهذا أمر ينذر بأن مجتمعنا الجزائري في خطر، يستلزم إيجاد آليات للتعامل مع هذه الوضع الخطير.

**عن خطورتهم:**

من دون شك أن ثقافة التفاهة، لم تطل فقط المسائل العمومية في مجتمعنا، فلو كان الأمر كذلك لكان هيّناً، ولكن للأسف الأمر عظيم، حيث أن أصبح يطال حتى المرجعية الدينية، حيث نلاحظ في البلاطوهات الجزائرية، أفراد يخوضون في المسائل الدينية، ويفتون دون نعرف تاريخهم ولا مساراتهم، أو مرجعياتهم، وربّما»قد تصل إلى الترويج للشبهات المشككة في الدين وثوابته، أو نشر الأفلام والمسلسلات الهابطة والتفاعل معها وتقييمها وهي قضية منتشرة- أو محاربة المصلحين والدعاة لدوافع سياسية أو الانغماس في الملهيات والحياة المادية وترسيخ الغفلة، مع التنبيه إلى أن من هؤلاء المشاهير من لديه حرص على بعض جوانب الخير، أو ابتعاد عن الفحش والشبهات، مع الاشتراك العام في معنى الترويج للتفاهة.» (السيد، 2023، الصفحات

24-25)، وهذا الأمر موجود في واقعنا، حيث أنّ من يشجّع التفاهة تسخّر له ترسانة ضخمة من الإعلام، ومن يكن له المحتوى محترم ومفيد وعلمي، لا يُنتبه له حتى.

نجد اليوم أن التافهين من أصبحوا يصنعون لنا القدوة، وهذا لشدّة تأثيرهم في واقعنا، بدليل أن المؤثرين اليوم، معروفون جيّدا في مجتمعنا، بينما مثقفون علماء أو مفكرين، في أي مجال فهم نكرة، لا يحدّثون سوى أنفسهم» ومما يلاحظ في ظاهرة التفاهة أن طبيعة التأثير الحاصل من خلالها عميق يتناول الجذور ولا يكتفي بالسطح، فعالم التفاهة يصنع القدوات ويؤسس المعايير التي من خلالها يحكم الإنسان على الأشياء، مثل: معيار التقدم، والتسامح، والتشدد، والتدين، والسعادة، والحزن، وبناء العلاقات، هذه المعايير وغيرها يتلقاها الشاب من خلال رموز شبكات التواصل وهذا أعمق ما يكون من التأثير، إذ إن من يصنع المعايير يظفر بالتأثير» (السيد، 2023، صفحة 31).

**عن خصائص هذا العصر أو الجيل الصاعد:**

إنّ ما يميّز خصائص جيلنا اليوم هو أنه جيل رقمي، أو ما يعرف بإنسان الشاشة، فحسب إمبيرتو إيكو، فالتافهين لم يكن لهم صدى قديما، ولم تكن لهم حتى فرصة مخاطبة العامة، وكان مكانهم فقط الحانات، بينما اليوم قد اقتحموا كل الأماكن فيقول **Umberto Eco:"إن أدوات** مثل تويتر وفايسبوك منحت حق الكلام لفيالق من الحمقى ممن كانوا يتكلمون في الحانات فقط بعد كأس من النبيذ أن يتسببوا بأي ضرر للمجتمع وكان يتم إسكاتهم فورا أما الآن فلهم الحق بالكلام مثلهم مثل من يحمل جائزة نوبل إنه غزو البلهاء"

بالإضافة إلى ذلك نجد أفراد مجتمعنا اليوم» محاطون بمُشِّتتات وملهيات كثيرة ومتجددة، تمنعهم من تمام التركيز، وتعيق هممهم، وتشتت عزائمهم، وتنحى بهم نحو التفاهة وانعدام المسؤولية، فضلا ً عما يواجهونه من انفتاح أبواب الشهوات والمحرمات، والشبهات الفكرية المهددة لأساس دينهم وثوابتهم» (السيد، 2023، صفحة 9)، وهذا ما نلاحظه في واقعي الحالي، الذي أصبح مفتوح على مصراعيه، على كل ما يهدد الهوية الجزائرية، سواء في بعدها الإسلامي والتاريخي والحضاري والثقافي. فما يميّز هويّة التافهين، أنّها تعرف انتشارا غير مسبوق، لسدّة سرعتها. فنجدها «مشكلة متنامية الانتشار في عامة المجتمعات البشرية، وخاصة في الأجيال الصاعدة منها،

تنتشر في الفضاء الإلكتروني والواقعي، وتخترق مختلف مجالات الحياة: الثقافية والتعليمية والاجتماعية والسياسية وغيرها،» (السيد، 2023، صفحة 20).

وللاستدلال أكثر على مدى تأثير هؤلاء التافهين نأخذ الدراسة التالية «أقامت عائلة من العوائل العربية احتفالا بمناسبة تحديد جنس الجنين الذي في بطن الأم، وكان ذلك الاحتفال حدثا ٍكبيرا ٍلاقى اهتماما ٍواسعا من ملايين المتابعين، وبلغت مشاهدات المقطع إلى اليوم44 مليون مشاهدة مع آلاف الرسائل المهنّئة والمباركة، والقضية التي اجتمع هؤلاء عليها وأقاموا الدنيا وأقعدوها ليست إلا معرفة ما في بطن الأم أذكر هو أم أنثى» (السيد، 2023، صفحة 26).

**أسباب تقبل التفاهة (السيد، 2023، الصفحات 38-42)**

**السبب الأول: غياب المعنى والهدف:**

من المعلوم أن الإنسان كلما كان له هدف يعيش لتحقيقه فإن تركيزه على هذا الهدف يجعله منشغلا عن الصوارف والعوائق التي تحول بينه وبين تحقيقه، وهذا أمر واضح من جهة المعنى ومشاهد في الواقع، وبعكس ذلك فإنه كلما انعدمت الأهداف اختلت بوصلة السير، فيتشتت الإنسان، وينشغل بكل شيء يلهيه أثناء الطريق

**السبب الثاني: اختلال الهوية واضطرابها:**

من أهم الأسباب التي تكوّن الوقاية من التأثر بالأفكار المضادة للإسلام: قوة الهوية الإسلامية ووضوحها. ولكي تكون الهوية الإسلامية قوية فلا بد أن تكون مرجعية الوحي (الكتاب والسنة( واضحة فاعلة في حياة المسلم، ولا بد من وضوح مركزية الآخرة، وكذلك الشعور بالانتماء للأمة الإسلامية وتاريخها وتراثها، والاعتزاز بلغة القرآن وعظمتها.

**السبب الثالث: ضعف التدين والتعبد:**

من المشكلات الكبرى في العالم الإسلامي اليوم: ضعف التدين لدى شرائح واسعة من المسلمين، وذلك لأسباب كثيرة، منها: هيمنة الإعلام الفاسد، وتبني كثير من الدول لسياسة نشر الفساد وإلهاء الشعوب، وكذلك ضعف الدعاة والمصلحين والتضييق عليهم ومحاربتهم، بالإضافة إلى وجود الأفكار العلمانية المتصلة بالثقافة الغربية والآتية عن طريق الاستعمار والاستشراق وأدواتهما

**السبب الرابع: الفراغ والخواء الحسي والمعنوي:**

موجة التفاهة لا تنتشر إلا في مساحة من الفراغ، وهذا أمر مشاهد في الواقع، وقلما تجد من هو ممتلئ الذهن والقلب -ممن سخر وقته في معالي الأمور-نازلاً ٍ إلى مستنقعات التفاهة غارقا فيها، وإن كان قد وجد في الواقع من تأثر بمثل ذلك لبريق التفاهة وإغراءاتها، فيكون سبب سقوطه ليس عدم امتلاء وقته وإنما ضعف إرادته بحيث لم يرجح ما يستحق الترجيح عند التزاحم

**السبب الخامس: كثرة البيئات المشجعة على التفاهة وقلة البيئات التربوية الحاضنة:**

من أشد البيئات المحيطة بالجيل تأثيرا: بيئة المدرسة في العالم الواقعي، وبيئة شبكات التواصل في العالم الافتراضي، حيث يتشكل وعي أكثر الطلاب واهتماماتهم عبر هاتين البيئتين.

**التفاهة والسلطة:**

الملاحظ هو أن السلطة عموما، لا تهتم بخطورة هذه الثقافة بالرغم من خطورتها، وهذه اللامبالاة أشار إليها **آلان دونو** في كتاب «نظام التفاهة» حيث أنّ «من يقرأ كتاب (نظام التفاهة) لـ(آلان دونو) يدرك أن طبيعة الأنظمة العامة في الحياة المعاصرة تقود إلى عالم من التفاهة وتدني المستوى، فهو يتحدث عن نظام التعليم -مثلا- وأثره في صناعة التافهين، ويذكر أن النظام التعليمي صار مجرد خادم لاحتياجات سوق العمل، وأنه انتقل من صناعة المعرفة إلى صناعة الخبرة التي يقصد بها التخصص في مجالات معرفية فرعية متناهية الصغر دون إدراك للنظرة الكلية، أو الخلفيات الفكرية، أو اهتمام بالتفكير النقدي، وإنما مجرد هوس بالتطور الوظيفي، ويرى أن العقول استعمرت من قبل الإعلان التجاري وصناعة الترفيه، إلى غير ذلك من الحديث في كتابه المهم» (السيد، 2023، صفحة 32)

**تشخيص الوضع المعاصر:**

من دون شك أنّنا نعيش اليوم لحظات فارقة، تتطلّب على سبيل العجلة، تدخل النخبة بدق ناقوس الخطر، انطلاقا من التهديدات التي يعرفها مجتمعنا ف»نحن نعيش مرحلة تاريخية غير مسبوقة تتعلق بسيادة نظام تافه أدى تدريجيا إلى السيطرة التافهين على جميع مفاصل الدولة الحديث"(دونو، 2020، صفحة 13)**حيث أصبح**

**يسمّى هذا المجتمع نتيجة للرداءة التي أصبح يتميّز بها بمجتمع**»ما بعد الحقيقة»، والتي تتميّز بالتضليل الرقمي والمعلومات المزيفة المتعددة العوامل التي تشن حملات معلوماتية لتلاعب بالرأي العام وما يُطلق عليه الآن «التزييف العميق»، الذي يعتبر الفيديو الواقعي المفرط الواقعي باستخدام تغيير الوجوه، والذي هو نتاج تطبيقات الذكاء الاصطناعي التي تدمج الصور ومقاطع الفيديو وتجمها وتستبدلها وتضعها فوقها لإنشاء مقاطع فيديو مزيفة تبدوا أصلية» (بوعبيسة، 2022، صفحة 5)» وإذا نظرنا إلى **أسباب انتشار مشكلة التفاهة** وتأثيرها فسنجد أن لدينا ثلاث جهات، في كل جهة منها عدة أسباب، وذلك على النحو التالي:

الجهة الأولى: المصادر المولدة للتفاهة.والجهة الثانية: قابلية الجيل الصاعد للتأثر بالتفاهة والجهة الثالثة: ضعف الجهود المضادة للتفاهة»(السيد، 2023، الصفحات 33-34)، وربّما الذي يأخذ حصة الأسباب من جهة المسؤولية عن المستوى المنحط الذي يعرفه مجتمعنا اليوم هو المجتمع بالدرجة الأولى ف» ما يجعل من كثير من تافهي مشاهير مواقع التواصل الاجتماعي يظهرون لنا بمظهر النجاح، هو أمر يسأل عنه المجتمع نفسه، الذي دأب على التقليص التدريجي لصور النجاح التي تعرفها البشرية ك(العمل الجاد والخير للأهل والمواطنة الصالحة وحسن الخلق والاكاديمي والآداب والفنون والرياضة...)، فألغاها جميعاً من قائمة معايير النجاح، حتى اختزلها في المال فقط، فلم يبق إلا عليه وحده معيارا» (بوعبيسة، 2022، صفحة 5) أي أنّ مجتمعنا أصبح ماديا، فلا يقدّر الانسان لعلمه أو معرفته أو خلقه، بل فقط لماله للأسف. فهذا الوعي الذي أصبحنا نتميّز.

من بين الصفات الدخيلة على مجتمعنا في الراهن هو «"صعود غريب لقواعد تتسم بالرداءة والانحطاط والمعياريين:فتدهورت متطلبات الجودة العالية،وغيب الأداء الرفيع، وهمشت منظومات القيم, وبرزت الأذواق المنحطة»(دونو، 2020، صفحة 13)، وهذا يعني أن التفاهة أصبحت هي القاعدة، والكفاءة هي الاستثناء، حيث ما نلحظه اليوم في مختلف بلاطوهاتنا التلفزيونية ومرور هؤلاء الحمقى والدهماء، الذين لا يقدّمون سوى التفاهة، ومع ذلك يبقون في كل حصة مدّة كبيرة، ممّا أثر على مستوى الذوق العام، وطامتنا أنّهم أصبحوا هم المعيار والقدوة.

فالتفاهة تمكنت من النظم ونتج عنها طبقة من عديمي المستوى، وعديمي الذوق، وغيبت الجودة وحل محلها الأذواق الرديئة والمنحطة، فالملاحظ أن نظام التفاهة ككل ساهم في بروز فئة جديدة ساهمت في تكريس الرداءة والحط من القيم الإنسانية ككل في شتى مجالات الحياة النفسية منها والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية « فتسيّدت إثر ذلك شريحة كاملة من التافهين، والجاهلين وذوي البساطة الفكرية، وكل ذلك لخدمة أغراض السوق بالنهاية، ودائما تحت شعارات الديمقراطية والشعبوية والحرية الفردية والخيار الشخصي»(دونو، 2020، صفحة 14)

إنّ العالم الذي دخل منه هؤلاء التفهاء هو العالم الافتراضي، الذي أعطى لهم الحرية المطلقة، والغوص في أي موضوع مهما كانت طبيعته، وبعدها يصبحوا في الواقع الحقيقي، بعد ان يكتسبوا معجبين، فحسب مانويل كاستلز «أن العالم الافتراضي يمثل عالما موازيا دعائمه التقنيات الرقمية وشبكة الانترنيت وأساسه التواصل الافتراضي، خاصة أن العلم الافتراضي يوفر للمستخدم الحرية للتعبير دون خوف من أن تكشف هويته ودون قيود بصرية، سمعية، ولسانية وجسمية، تجعل الانغماس والتواصل والتفاعل في هذا العلم الافتراضي ممكنا وممتعا لدرجة انه في كثير من الأحيان يحل محل الحيز الواقعي والعالم الفيزيائي الحقيقي.»(شايب، 2017، صفحة 209).

إنّ التافهين لحسن حظهم، بما أنهم في مجتمع منحط يتحصلون على التهاني والتبريكات، بل والجوائز المادية القيّمة والأموال الطائلة، على نشرهم التفاهة والرداءة، فدونو يشير إلى النظام الاجتماعي الذي تكون الطبقة المسيطرة فيه، هي طبقة الأشخاص التافهين، أو الذي تتم فيه مكافأة التفاهة والرداءة عوضا عن الجدية والجودة، ففي نظام التفاهة يتبوأ التافهون موقع السلطة ،إنّ التفاهة هو الذي تكون فيه الغلبة والسيطرة على المجتمع في يد أشخاص تافهين رديء المستوى، هو النظام الذي يولي فيه المجتمع الأهمية والعناية للرداءة والانحطاط، تسلط الضوء على كل ما لا قيمة له، فيه يكون كل ما ينتج تافها، في نظام التفاهة يهمش الجدير والكفء وصاحب المستوى العالي، فيه تعلو الدناءة لتصبح قدوة، فيه تنمو التفاهة والسخافة شيئا فشيئا لتحتل الصدارة، وتتغلغل في كل مجالات الحياة، وتصبح بذلك نظاما اجتماعيا (دونو، 2020، صفحة 78).

في وقت مضى كان كل شخص يوضع في مجال هو أهل له، في مجال هو أدرى بحيثياته وخباراته، فالطبيب كان طبيبا بحق، والنجار كان نجار بحق، يوجه كل شخص حسب المجال الذي يكون كفؤ له، أما اليوم فقد أصبح بإمكان كل إنسان أن يمارس أي مهنة يريدها، حيث يتلقى تعليمات يطبقها فقط، فقد أصبح الإنسان مجرد آلة يعمل أي وظيفة، لا يهم إذا كان خبيرا فيها، ملما بجزئياتها البسيطة التي لا يعرفها إلا أهل الاختصاص أم لا؟ هذه الحالة التي انتهت إليها الحرفة، أقصت دور العقل في العمل الذي يميز الإنسان عن باقي المخلوقات، وبالتالي ساهمت بشكل كبير في توطيد نظام التفاهة، ذلك أن غياب الحرفة واضمحلالها في الجانب الاقتصادي، غيب البراعة والمهارة والكفاءة والجودة يقول دونو في هذا المقام: «لقد فقدت الحرفة، يمكن للناس الآن إنتاج الوجبات على خطوط الإنتاج، من دون أن تكون لهم معرفة بالطبخ (...) إعطاء تعليمات على الهاتف للعملاء رغم أنهمهم أنفسهم لا يفهمونها، بيع كتب أو صحف هم أصلا لا يقرؤونها، لقد صار الفخر بالعمل المنتج جيدا أمرا في طور الاضمحلال(دونو، 2020، الصفحات 71-72)

**آليات صنع التفـاهة**

**1/الجامعة:**

أصبحت الجامعة اليوم احد مكونات جهاز اليوم الصناعي المالي الإيديولوجي، هذه هي الطريقة التي تستطيع من خلالها أن تدعي لها مكانا ضمن اقتصاد المعرفة, إذ ترى الشركات الكبرى الجامعة كجهة ذات تمويل حكومي مزود بما تحتاج إليه تلك الشركات من عاملين ومعارف متقدمة(دونو، 2020، صفحة 88) يوضح آلان دونو مكانة الجامعة بالنسبة للاقتصاد والصناعة, فهي مصنع ووسيلة إنتاج المعارف والعمال المزودين بالمعارف والخبرات، ومن ثمة تستغل نخبة الجامعة لغرس وتكريس أفكار ذات توجه إيديولوجي، ومن ثمة صناعة نخبة إن صح القول مزيفة وتافهة.

فهنا تطرح إشكالية الجامعة وإشكالية المثقف، فهذا الأخير تحول من مفهوم المثقف العضوي وفقا لمفهوم ،Antonio Gramsci الملتزم بقضايا مواطنيه ومجتمعه وتوعيتهم، توارى الى الضفوف الخلفية في نظام التفاهة"(بوعبيسة، 2022، صفحة 5) وهذا يعني أن الجامعة أصبحت تنتج نخبة من نوع جديد، هي من صنع الشركات المموّلة، وفي خدمتها ورهن إشارتها، بعيداً عن الأخلاقيات وما تتطلّبه يقول آلان دونو: «ليظهر نوع جديد من المثقفين الزائفين المستعدين لبيع ذممهم وهو ما يطلق عليه

تسمية «الخبير»، فهو يمثل النموذج المركزي للتفاهة، فهذا الخبير لم يكن يملك تفكيرا خاص به بل هو نتيجة نظام منطقي تمليه مصالح خاصة، وفقا لعقد أطلق عليه المهنية»(دونو، 2020، صفحة 81) فهذا الخبير، تيم تحوير دوره من منتج للمعرف الى تاجر لها، لأنّه خرج من جامعات « تحولت الى مركز لتسليع المعرفة الاكاديمية وبيعها للجهات الممولة للجامعات»(بوعبيسة، 2022، صفحة 6)

ويرد السبب في ذلك دونو الى «فصل العلوم الدقيقة عن العلوم الإنسانية وأهمها الفلسفة، وإنشاء تخصص في العلوم، زيادة على ذلك توجيه الباحثين الى العمل على مشاريع ومواضيع من اقتراح الشركات الممولة للدراسة(المنح)، مما أدى الى ظهور ذلك الخبير صاحب التخصص الضيق الذين يخدمون السوق، لا العلماء ذوي الأفق الواسع القادرين على مواجهة المشاكل الحياتية.»(دونو، 2020، صفحة 37) وهنا نجد أن الرأسمالية هي أحد العوامل التي أدّت إلى انتشار الرداءة والوقاحة، فلا همّ لها سوى الأموال وكفي. كما يؤكد دونو، أن الطلبة الجامعيين ما عادوا مستهلكين للتدريس, فقد صاروا هم أنفسهم سلعا, فالجامعة تبيع ما تصنعه منهم إلى زبائنها الجدد تحديدا إلى الشركات, فقد صرح رئيس جامعة مونتريال عام 2011بأن «العقول ينبغي أن تفصل وفق احتياجات سوق العمل» (دونو، 2020، صفحة 92)يرى دون أن الجامعة باتت اليوم شبه مؤسسة اقتصادية, تضع الأفراد كما يحتاجه سوق العمل, وتوظيف المعارف والعلوم لتلبية حاجات الشركات التجارية والصناعية, ما عاد اليوم الطالب يدرس لأجل العلم والمعرفة, بل يدرس لكي يكون أداة ووسيلة تصنع وتنتج المال, فبسبب ارتباط الاقتصاد واختلاطه بالجامعة, فقدت الجامعة هيبتها

ومنه ذلك أن التافهين يدركون وزن وقيمة الجامعة سواء في المحيط المحلي أو الدولي، ومن ثمة عملوا على غزو المدرجات الجامعية، قصد غرس مختلف أفكارهم التافهة، فعوضا أن تكون قطبا الجامعة علمًيا وصرحا معرفًيا، يعمل على تكوين أجيال مثقفين ومتمسكين بمختلف مجالات الحياة العلمية والعملية، أصبحت الجامعة اليوم حسب دونو تنتج فئة مثقفة مزيفة.

**2/الصحافة والتفاهة**

يلفت دونو النظر إلى صحافة التابلويد تحديدا وهي النمط الصحفي الذي يهتم بموضوعات الفضائح والترفيه وقصص الاهتمام الإنساني وأخبار المشاهير إدراكا من

وسائل الإعلام للعوائد التجارية التي تجنيها من وراء إشباع شهية الجمهور وصورهم إن صناعة صحافة تابلويد ككل تقوم في جانب كبير منها على ممارسات تتفق جميعها على نشر المادة التافهة للقراء، وأغلبها يتعلق بملاحقة المشاهير وتصويرهم والتصنت عليهم (دونو، 2020، صفحة 46).

في حين أن الواجب هو تفعيل ما أصبح يُعرف بالتربية الإعلامية ف:»هي عملية توظيف وسائل الاتصال بطريقة مثلى من اجل تحقيق الأهداف التربوية المرسومة في السياسة التعليمية والسياسة الإعلامية للدولة، ولذا لا يقتصر تأثيرها على الطلبة في المدرسة، وإنما يتعدى ذلك إلى التأثير في الآباء والامهات والاخوة والاخوات داخل الأسرة، وإلى التأثير في كافة المجتمع»(شايب، 2017، صفحة 54) فحسب دون لا يجب فقط أن نوجّه كلّ الاتهام إلى الصحافة فقط، بل إنّ المستهلكين أو المتفرّجين على ما تبثّه الصحافة هم أيضا مسؤولين عن التدهور الاجتماعي والقيمي والأخلاقي، على أساسا أنّهم يصدّقون كل ما يبث على أنّه حقيقة مطلقة غير قابلة للنقاش(دونو، 2020، صفحة 47)

**3/الكتب والتفاهة**

إنّ الملاحظ أيضا في مجتمع التفاهة، هو أن الكتب التي يقتنيها أفراده، هي كتب أيضا دون المستوى المطلوب، وهذا ما نلاحظه نحن في مكتباتنا، وما حدث ما الكاتب السعودي «مسلم» في آخر معرض للكتاب أقامته الجزائر، بعكس هذا قوائم الكتب الأكثر مبيعات التي معظمها اقل قيمة فكرية، وأصبح الآن مجرد جود كتاب ضمن قائمة الكتب الأكثر مبيعات دلالة على ضحالته. (دونو، 2020، صفحة 50) نفهم من خلال هذا أن الناس أصبحوا يميلون للكتب التي لا تحمل أي قيمة علمية أو معرفية للكتب التافهة التي تناولت مواضيع لا فائدة منها وأصبح بديهيا وجود كتاب ضمن الكتب ذات الإقبال عليها والأكثر مبيعات دلالة على تفاهتها.

**4/التلفازوالتفاهة**

يعد التلفاز وسيلة من وسائل الإعلام والاتصال، فهو الذي ينقل لنا الأخبار والأحداث والوقائع الحاصلة وحتى أن التطور التقني والتكنولوجي أتاح لنا وسائل عديدة بإمكانها أن تحل محله إلا أنه محافظ عليه وموجود في كل مكان، إلاّ أنّه اليوم أصبح يبث لنا سموماً في قنواتنا التليفزيونية، خاصة بعد ظهور القنوات الخاصة،

فاليوم «بإمكان أي جميلة بلهاء أو وسيم فارغ أن يعرضون انسفهم على المشاهدين من خلال عدة منصات عامة في حقيقتها غير منتجة وأصبح هؤلاء عديمي القيمة يتقافزون من فقرات الربط إلى المسلسلات إلى الفوازير وما شجعهم هو افتقارهم لثقافة الجمال الحقيقي»(دونو، 2020، الصفحات 50-51).

أما ضيوف التلفاز فقد كانوا صانعو الملوك في الماضي هم رجال الدين ورجال السياسة وحاشية البلاط أما الآن في ثقافتنا العربية فان الاستديو التلفزيوني هو الصانع الجديد للملوك وما عاديهم أن يكون هؤلاء الضيوف ذو كفاءة وانجاز وقدرة وضمير بقدر ما أصبح مطلوب توفر الذوق والأدب والحس السليم، وما يهم الاستديو هو تقديم هؤلاء الملوك الجدد لنا نجن من خلال التفعيل الذكي لأدوات الحكم المعاصرة (دونو، 2020، صفحة 51).

**5/شبكات التواصل الاجتماعي والتفاهة**

**بعد التطور العلمي والتقني الذي تعرفه اليوم الجزائر، نلاحظ ظهور مجتمع جديد، بحمولة جديدة غير الحمولة التقليدية، «فبعد الانتقال الى** عصر الموجة الثالثة، بظهور وسائل التواص الاجتماعي وصناعة المحتوى الثقافي الذي أصبح يسير وفقا للمبدأ الميكيافيلي، ومتغاضيا عن مبدأ القيم والاهداف التربوية والتثقيفية، متوجها الى مبدأ الربح المادي من خلال الرفع من عدد النقرات عبر مضامين يتم صناعتها وبثها خاصة عبر منصات التواصل الاجتماعي، في ظل تدني الوعي الثقافي، والتسطيح الفكري للكثير من مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي، فطفت الى السطح العديد من الأنواع الثقافية منها ثقافة اللامعنى»(بوعبيسة، 2022، صفحة 4) ولكن ما يجب أن نؤكد عليه، هو أن تصديق الاخبار الكاذبة ونشرها، هو سلوك قديم، وهذا ما يؤكده «**عالم النفس «كيث أبلو»** يرى أن نشر وتصديق الاخبار الزائفة ظاهرة لها جذورها الثقافية القديمة، ولكن منصات التواصل الاجتماعي جعلتنا هدفا أسهل، وسلبتنا الوقت الكافي للتحقق من الاخبار بسبب كثافة وسرعة الشبكات الاجتماعية.»(مكاوي، صفحة 254)

ولذا أخذت الاخبار الكاذبة طابع الانتشار السريع على هذه المنصات خاصة في أوقات الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والصحية على غرار جائحة كورونا. وهذا دون أن نغفل على أن هذه الظاهرة لها بعد تاريخي ضارب في القدم والذي

تطور مع جل تطور وسائل الاعلام والاتصال.

وهذا ما جعل كثير من التافهين يظهرون لنا بمظهر «النجاح «وأصبحت معايير النجاح تختزل في المال بغض النظر عن باقي القيم الأخرى الملغاة من قائمة معايير النجاح. (دونو، 2020، صفحة 52)فسنجد أن **عن اليوتيوب** القنوات اليوتيوبية المتعلقة بالتفاهات أكثر من أن تحصى، وأن أعداد المتابعين تصل إلى مستوى في غاية العجب، وأن صور التفاهات فيها كثيرة جدا، مما يدل بمجموعه على أننا أمام ظاهرة عامة متنامية شديدة التأثير، وأن آثارها وإن كان قد ظهر كثير منها على شرائح واسعة، إلا أننا ربما سنواجه في المستقبل آثارا أكثر وضوحا ورسوخا في الأجيال الناشئة، وأن هؤلاء المشاهير هم من أكثر الناس تأثيرا في المجتمع حقا مع افتقادهم لأدنى مقومات القدوة أو التوجيه» (السيد، 2023، صفحة 28) في بعض الحلول التوعية الرقمية أو المواطنة الرقمية:» وتشمل محو الامية الرقمية واخلاقيات التعامل وآداب السلوك والسلامة على الانترنيت، والقواعد المنظمة، والحقوق، والمسؤوليات، وغيرها من الأمور المتعلقة بالأساليب المثلى لاستخدام التكنولوجيا الرقمية، فذلك سوف يؤدي الى توعية المواطن الرقمي الذي يحب وطنه ويسعى ويفكر لخدمته ومصلحته وحمايته، فهو يستخدم التكنولوجيا الحديثة بصورة امثل، وخاصة مواقع التواصل الاجتماعي، لخدمة وحماية مجتمعه ووطنه بعيدا عن الإساءة والتشهير بالآخرين.»(الحمداني، 2015، صفحة 207).

**6/الفن والتفاهة**

للأسف حتى الذي كان قديما مع الفلاسفة والمفكرين، أرقى أسلوب يلجأ إليه الانسان ولكن، الفن لم يعد ينظر إليه مثل السابق، حيث أصبح الناس ينظرون إلى الفن الساقط والقبيح، ويضربون به المثل في الانحدار والقبح، وفي حقيقة الأمر يرجع هذا إلى الخطاء في التصنيف، فهناك معايير جميلة للفن في العلم والفلسفة، لقد غيبت علوم الجمال من موسيقى ومسرح ورسم لقرون طويلة وها نحن نعاني هذا التغييب (دونو، 2020، صفحة 53)

الفن يكاد يكون المجال العلمي الوحيد الذي يقبل فيه الإسقاط تجريبيا من دون أخد الضمانات المنهجية في الاعتبار، فعروض الأزياء مثلا لاسيما فما تتضمنه من شخصيات فنية وملابس استعراضية غير قابلة للارتداء عملا، هي أكثر من جنون فني

أو غرض مظهري أو إغراق في الجماليات فهذه العروض هي استعراض عضلات حقيقي للحدود الفنية القصوى لذهنية المصمم. (دونو، 2020، صفحة 53).

كما يتبيّن من خلال هذه النوع من الثقافة أنه في عالم ما قبل الرقمنة، كان الفن يتألف من جهد مقارب لإتقان مادة متمردة، أما في العصر الرقمي على العكس من ذلك يتم تقديم الواقع كشيء»(بوعبيسة، 2022، صفحة 4).

**عن الحلول والآليات:**

من دون شك أن لكل مشكلة، أو على محاولات وعدم استسلام لما وصل إليه المجتمع اليوم، بغية بناء مجتمع عصي على التفاهة والتافهين، ف «تحقيق هذا النموذج الصعب في ظل هذه التحديات المحيطة بالجيل لن يكون -بطبيعة الحال- عبر الاستسلام للقوالب التي تفرضها ثقافة شبكات التواصل، من لغة السرعة، والترفيه، والمعلومات المعلبة، والتحديث المستمر، وتثبيت النظرة الاستحقاقية، وإنما بإيجاد لغة التفاهم المناسبة مع الجيل، والقرب منهم، مع الوعي بمشكلاتهم، وملامسة همومهم، وإذابة الحواجز النفسية المتوهمة بينهم وبين المطالب العالية في الدنيا والآخرة»(السيد، 2023، صفحة 10) ولمّا كانت مشكلة التفاهة ضاربة في جذورها في أوصال جسد المجتمع، وجب العقلنة في التعامل مع الظاهرة « وقد تأكد لي مع هذه التجربة أن المعالجات المؤقتة السريعة لمشكلات الجيل الصاعد ليست هي الخيار الأنسب لوقايتهم من التحديات المحيطة بهم، فهي تصطدم بأسوار هائلة من التأثيرات المضادة، التي لا يمكن تجاوزها إلا بمعالجات عميقة وجذرية...إن من المهم لمن يتعامل مع الجيل أن يدرك ضخامة المؤثرات المضادة للحلول السريعة، وحجم التحديات المعيقة عن فاعلية المعالجات الجزئية، وأنه بدون الوعي بنوع العلاج الم ِجدي، وطبيعة الحل ِ المؤثر لن نجني إلا مزيدا من المشكلات والتحديات.»(السيد، 2023، صفحة 11).

ومن بين الحلول التي وجب التعويل عليها للحد من هذه الظاهرة نشر التربية الإعلامية:» فالوعي الإعلامي لا يقتصر فقط على تحليل وتقويم المضامين الإعلامية، والقدرة على قراءة طبقاتها المتعددة واستخدام مهارة التفكير الناقد وفقط، بل هو أكثر من ذلك يتضمن أيضا مهارة حسن الاختيار، والتواصل والمشاركة في صياغة الرسائل الإعلامية والتأثير فيها، وكذلك إنتاج المحتوى الإعلامي.»(شايب، 2017،

صفحة 285).

بالإضافة إلى ذلك، لا شك أن مسؤولية أولياء أمور هؤلاء الأطفال كبيرة، فعليهم أن يدركوا أنهم في أمانة حقيقية على أبنائهم أولاً، وذلك أن هذا التصدر له ضريبته وتبعاته على الأبناء خاصة على المستوى السلوكي والنفسي، ثم على أولياء الأمور أن يدركوا الأمانة كذلك من الجهة العامة المتعلقة بالمتابعين والجمهور، وأن أقل ما يمكن عمله هو ألا يكون المرء حلقة في سلسلة ترسيخ التفاهة في المجتمعات الإسلامية، وأعلى من ذلك هو أن يكون صاحب رسالة هادفة وأثر طيب ينفعه بعد موته، وأن يدرك أن هذه المنابر من الابتلاء العظيم الذي سيسأل عنه الإنسان: كيف عمل فيه، وهل اتقى الله فيه أم لا»(السيد، 2023، صفحة 28).

**الخاتمة:**

ما يمكن أن نستخلصه في الأخير هو أنّ المجتمع الجزائري فعلاً بحاجة إلى إيجاد حلول جديّة، وليست ترقيعية، وهذا نظرا للوضع المزر خاصة من الناحية الفكرية والقيمية التي تشهد حالة تصحّر، وبالمقابل نجدها تعرف انهيارا قيميّا وانحطاطا يصعب وصفه، لذا وجب إدخال إصلاحات استعجالية، عبر تظافر كل الجهود سواء بين مختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية، والسلطة، والاعلام، وعقلنة التواصل الاجتماعي، وهذا بغية على الأقل للتخفيف من هذه الآلام التي تعرفها كل فئات مجتمعنا، بسبب التفاهة وسطوتها، كما ذكرنا، في كل مجلات حياتنا للأسف.

**قائمة المراجع:**


1. أحمد بن يوسف السيد. (2023). مقاومة التفاهة (الإصدار 1). إسطنبول: منار الفكر.
2. آلان دونو. (2020). نظام التفاهة (الإصدار 01). (مشاعل عبد العزيز الهاجري، المترجمون) لبنان: دار سؤال.
3. الحمداني. (2015). التعليم الإعلامي ومحو الحماية الرقمية (الإصدار 1). عمان، الأردن: دار وايل للنشر.
4. العيفة شايب. (2017). تداخل الرهانات بين التربية الإعلامية وعادات مشاهدة الأعمال الدرامية التلفزيونية وتأثيرها على الهوية الثقافية. مجلة أطروحة

الدراسات والبحوث البشرية.

5. عبد الكريم بوعبيسة. (2022). التربية الرقمية لمواجهة سطوة التفاهة في المجتمع الشبكي: دراسة وصفية. المجلة الدولية للاتصال الاجتماعي.

6. محمد بشار. (1995). المخاطر في أدب اللغة والثقافة (الإصدار 01). مص: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.

7. ممدوح عبد الله مكاوي. (بلا تاريخ). الأخبار الكاذبة بين الوسائط التقليدية والرقمية: دراسة تحليلية نقدية لعينة من (2016- 2020). مجلة الرأي العام للبحوث.

# التفاهة بين الماضي والحاضر، دراسة أنثربولوجية لتطور التفاهة من الكتابات الجدرانية إلى مواقع التواصل الاجتماعي

# Triviality between past and present, an anthropological study of the evolution of triviality from graffiti to social media

**أ. بن ناصر شيماء**

**مخبر الفلسفة والعلوم الإنسانية بجامعة عبد الحميد ابن باديس مستغانم**

**المقدمة:**

طرأت على الإنسان في السنوات الأخيرة مجموعة من الأفكار والتصورات فشكلت حلقة من المفاهيم والتعابير وأصبحت تستهدف المجتمع وتتماشى مع متطلبات العصر، فظهرت موجة التفاهة التي برزت من طرف التافه التي أصبحت تسيطر على الحياة اليومية، فأول وهلة ومن أول ميلاد فكرة التفاهة أصبح الأفراد يتابعون نظام التفاهة ويتأثرون بمحتواهم، لقد سيطرت التفاهة على العالم حتى أصبح الحديث عن الثقافة ضربا من العبث العقلي في العصر الراهن فالإنسان الحالي لا رغبة له في التأمل والتفكير ولا وقت له لذلك فلقد حاصره التافهون من حدب وصوب بالمشاهد وحاصروه بالصور حتى أصبحت الصورة هي الوسيلة الوحيدة للتفكير وأصبحت الكتابة غريبة في العصر الراهن وغدت الكلمات مشردة تبحث لها عن مأوي بين الأنا، حيث أصبحت الكتابات الجدارية ممارسة يقوم بها بعض الأفراد للتعبير عن بعض المصالح والأغراض والجوانب من بينها جانب التفاهة عن طريق الكتابات على الحائط بغرض السخرية والقصف أو الضحك وعلى الأخر أو تمثيله ورسم رسومات من أجل ذلك والفكاهة والكوميديا، فالأفراد الممارسون لهذه الظاهرة هم أفراد من المجتمع يلقبون بالتافهين.

ومن جهة أخرى شهدت الإنسانية تحولا سريعا نحو الاعتماد بشكل كبير على وسائل التواصل الاجتماعي والاتصال الرقمي لتشكيل الرأي العام وصياغة الأفكار ومع هذا التحول برزت موجة ضربت مواقع التواصل الاجتماعي خاصة موقع التيك توك الذي أصبح رواجا للتفاهة من طرف التافه الصانع للمحتوى.

**مفاهيم ومصطلحات**

**تعاريف التفاهة:**

**التفاهة:** تعريف لامبرت لامبرت 2013 هو أسلوب منظم منسق في التفكير والشعور وردود الفعل اتجاه الأفراد والجماعات والقضايا الاجتماعية (منير، 2016، صفحة 16). ألان دونو في كتابه نظام التفاهة يؤكد أن البشرية يعيش مرحلة غير مسبوقة في تاريخها، سيطر التافهون على جميع مفاصل الدولة الحديثة وتلازم مع هذه السيطرة وضع قواعد تتسم والانحطاط المعياري، تسبب في اختلالات نظام الجودة والأداء وتهميش لمنظومة القيم وبروز للأذواق المنحطة.

تعتبر التفاهة ظاهرة انسانية واجتماعية معلقة في جميع نواحي الحياة ومجالات الحياة ،في الكتب، الصحف، الثقافة والفنون ومختلف العادات والتقاليد الساذجة هي الخصائص أو الأمور التي تفتقد الى القيمة أو الأهمية أو الجدية وغالبا ما تكون سطحية وغير مقيدة ومثمرة من الناحية العقلية او الثقافية نظام التفاهة حسب ألان دونو الى النظام الاجتماعي الذي تكون الطبقة المسيطرة فيه هي طبقة أشخاص التافهين أو الذي تتم فيه مكافأة التفاهة والرداءة عوضا عن الجدية والجودة ففي نظام التفاهة يتنبأ التافهون موقع السلطة (دونو، د.س ،صفحة 78) .

**الكتابات الجدارية:**

إن الكتابات الجدارية هي تعبير عن الثقافة الحضرية وهي كثيرا ما تنتشر لكنها أيضا متواجدة أو متواجدة أو ممارسة من قبل غالبية الطبقات الاجتماعية بل وفي كل البلدان ويقول بوني سبيل دو أن الكتابة الجدارية لديها لغتها الخاصة وهي تستلزم استخدام رموز وشفرات وتحمل معاني التي يقصد أصحابها إيصالها.

**التافه في الو اقع والمو اقع:**

عالم التفاهة فيه هيمنة مسيطرة على الذهن والوقت والعلاقات والشعور بل يمكن أن تصل بالبعض الى حالات متقدمة يصنفها بعض المتخصصين بالإدمان وهي صورة أخرى من صور المزاحمة التفاهة لمعاني الأمور (السيد، 2023، صفحة 23).

التفاهة هي إنتاج اجتماعي وممارسة اجتماعية، ارتبطت بالعديد من الجوانب في المجتمع، فالمسؤول الوحيد عن هذه التفاهة هو الفرد يعتبر كفاعل اجتماعي منتج ومروج فترتبط هذه الأفعال والممارسات بالتصورات الاجتماعية فهذه الأخيرة يعتبرها

ايميل دوركايم مفتاح الفهم عند الفرد فالفرد يتصرف من خلال الجماعة ويعتبر التمثل والتصور كتأثير من طرف مظاهر المجتمع على مظاهر الفرد (زهير، 2022، صفحة 333).

أما موسكوفسي فيرى أن التصور هو نسق من القيم والمفاهيم والممارسات المتعلقة بمواضيع أو مظاهر أو أبعاد الوسط الاجتماعي ويسمح ليس باستقرار إطار حياة الأفراد والجماعات وإنما بشكل أيضا أداة لتوجيه إدراك الوضعيات وتصميم الاستجابة يرى أن كلا الجنسين أن طريقة المعاملة مع من يكتبون على الحائط ترجع الى الحرية الشخصية للشباب واقتناعاتهم بهذه الظاهرة فمنهم من يعتبرها عنف رمزي.

**1 – التفاهة في الكتابات الجدرانية:**

التافه هدفه الأكبر هو الانشغال بالتفاصيل التافه وإظهارها ذات قيمة بحيث يسعى صانع التفاهة الى لفت الانتباه دون الأخذ بعين الاعتبار النتائج الحاصلة، فيقوم التافه بكتابة في الجدار عن أشياء ربما لها معنى ورموز مهمة مثلا التعبير عن العلاقات العاطفية والرومنسية أو كتابة بعض المصطلحات المضحكة فهذه كلها تعابير توحي بمجموعة من الدلالات بالرغم انها تافهة وتقوم برسم الضحكة على أوجه الأفراد. التافه همه الوحيد هو الكتابة على الجدران بمسحوق الذي يستعمل في الكتابة بمجموعة من الألوان وكل كتابة جدارية أو موضوع جداري له اللون الخاص به.

**دلالات الكتابة الجدارية:**

لقد ارتبط ظهور الكتابات الجدارية في نيويورك السبعينات اضافة الى الراب والدجي قبل العلماء العلماء والسلطات المحلية بعد أن لوحظ وجود خربشات على الجدران المراحيض العامة ظهرت في بداية القرن الماضي وأول من اهتم بهذه الظاهرة وحللها لغويا واجتماعيا 1928 الباحث الأمريكي «ريد» (الهاشمي، صفحة 9).

تسمى الكتابات الجدارية حسب الباحث هو كل ما يتصوره الفرد عندما يكتب على الحائط من تخطيطات ورسومات وألفاظ وغيرها للتعبير أحمد شراك يقول أن الغرافيتا الكتابات الجدارية نصف خانة الثقافة المضادة على أن الثقافة تفهم الثقافة المضادة بأنها مجمل القيم والأفكار والسلوكيات الناتجة عن شرائح اجتماعية مختلفة لم تستوعبها الثقافة السائدة.(moscovici, p. 23)

نشأت في الأحياء مدينة نيويورك في منتصف السبعينيات حركة شبانية سعت الى الكتابة على الجدران من أجل الهزل والمزاج بين الشباب ومكان تواجد هذه الكتابات الأنفاق والقطارات وقد مارس هذه الكتابة على وجه الخصوص الأمريكيون من أصل افريقي واسباني وكانوا غالبا من الطبقات الفقيرة والمهمشة، التعبير عن قضايا الشعوب وعن فكرة وهوية، هما عبارة عن رموز له جدور تاريخية وقديمة رسم العظام على جدور الكهوف من موسيقى الهيب الهوب ولوحاتهم.

يجمع الدارسون في أصل الغرافيتي بأنها حركة فنية وممارسة يومية قام بتوظيفها الفرد والجماعة للتعبير عن أمنياتهم ومكوناتهم وأحلامهم وأموالهم (مصطفى، 2023) الكتابة الحائطية أسلوب يلجأ اليه الأفراد في التعبير عن أفكارهم وضغوطاتهم الاجتماعية والنفسية والسياسية في ظل غياب قنوات التعبير الجماعة.

إنها تعبر عن حرية شخصية في التعبير عن محتويات الأفراد وطريقة تعبيرهم عن ما يجول في داخلهم من صراعات واضطرابات وحتى ضغوطات في جميع الجوانب، فبالرغم من تواجد العديد من وسائل التواصل الاجتماعي من أجل الفضفضة والدردشة وحرية التعبير الا أن الظاهرة متأصلة في المجتمع الجزائري نتيجة تعايش الشباب بالضغوطات النفسية والعاطفية وسياسية والاقتصادية، فيتم التعبير والكشف عن هذه الضغوطات عن طريق استعمال بعض الألوان وبكتابات كبيرة طويلة وعريضة بغية وضوحها وظهورها، وفي جانب أخر يوجد بعض الكتابات التي ترمز الى السخرية والكتابات الغير اللائقة نجدها متصدرة في بعض الجدران، وتتأقلم الافراد مع هذه الكتابات وتقوم بتصويرها وحفظها وبعض الأحيان نشرها على مواقع التواصل الاجتماعي . فهذه الممارسة تتحكم بالجسد الإنسان وتجعله مواكبا لها ومتحكما في تصرفاته وتصبح عادة في حياته اليومية.

2-مواقع التواصل الاجتماعي التيك توك: فهذه المواقع هي مجرد مواقع للقاء الفضائي وتبادل الآراء ولا أكثر فيها يتكون العقل الجمعي من خلال المنشورات المتتابعة (دونو أ.)

**من هو التافه:**

هم مجموعة من الأفراد لهم الجرأة والمقدورية في التعبير عن المواضيع التي لها علاقة بالتفاهة ولهم الكفأة عن تأدية الدور التافه، فمجال التفاهة يتطلب أشخاص لهم روح التفاهة فهذا الأفراد قد يكونون من فئات مختلفة نساء رجال ولهم مستويات.

هم الأشخاص الدين لهم حسابات التيك توك لديهم مشاهدات كبيرة ومتابعين وحسابات ذات جماهير واسعة من المتابعين، فالسبب في ارتفاع عدد المتابعين والمشاهدين عند هؤلاء الأفراد هو المحتوى التافه الغرض منه رسم بيئة ترفيهية للآخر، فالأفراد التافهون يقومون بالعديد من المجهودات من أجل بناء وتصميم هذا المحتوى عن طريق العديد من الوسائل.

المؤثرون هم أفراد لهم القدرة أعلى من المتوسط على التأثير في الأخرين بأفكارهم وأرائهم من خلال منصتهم الاجتماعية تمكنوا من انشاء ملف تعريفه اجتماعي معتمد من قبل معجبيهم المتابعين لهم، وقد أنشأ المؤثرون تلك المنصات الاجتماعية من خلال صناعة محتوى للترفيه عنهم (أمينة، 2002) فمن خصائص المحتوى التافه في موقع التيك توك هو استغلال التافهين لهذا المحتوى التافه من أجل عروض أخرى وهي عروض تجارية وسياسية، فبعض التافهين الغرض والهدف من بناء المواضع والمحتويات التافهة هو التجارة والتسويق والترويج للإعلانات التجارية، ووسيلة ربحية لزيادة الرصيد المالي ومن جهة أخرى هو مصدر ووسيلة ربحية لزيادة الرصيد المالي.

وبذلك لقد أصبح لدينا صناع للتفاهة بامتياز وأصبحوا سلعا رائجة نوعية من الناس من طراز رديء يشحنون لعقول الناس ويروجون التافهات حيث يقول الكاتب النمساوي كارل كرواس هوت شمس الثقافة أرضا حتى أصبح الأقزام أنفسهم يظهرون بمظهر العمالقة (حميش، 2024) إلى ذلك يعبر الباحث شراك الغرافيتا ثقافة الجماهيرية باعتبارها هذه الأخيرة تعتمد على وسائل اتصال له دور بارز على المستوى المرئي.

تطرق الباحث إلى هذه الممارسة باعتبارها سلوك ثقافي مكون من رموز محملة من معاني ودلالات مختلفة، يعني البحث في معاني الرمزية وتأويلها من المنظور الأنثروبولوجي أصبحت تتميز بالحضور اللافت في مجال البحوث الأنثروبولوجية، وبذلك طبيعة الإنسان الاجتماعية تجعله يتفاعل مع الأشخاص والأحداث ويميل دائما للتغيير في شتى المجالات الاجتماعية والثقافية.

**المنصات الاجتماعية:**

يعرف بأنها عملية التواصل مع عدد من الأفراد منهم زملاء أصدقاء أقارب عن طريق خدمات ومواقع الكترونية توفر سرعة توصيل المعلومات على نطاق واسع، فهي مواقع لا تعطيك معلومات فقط بل تتزامن وتتفاعل معك أثناء امدادك بتلك المعلومات في

نطاق شبكات وبذلك تكون أسلوب لتبادل المعلومات بشكل فوري عن طريق شبكة الأنترنت (المقدادي، 2012) الفكرة الأساسية التي تقوم عليها هذه المنصات هي تقديم محتويات تصير الفضول والاهتمام السريع لكنها تفتقر الى العمق المعرفي أو التحليلي.

وفقا لدراسة صدرت في 2022 لمركز الأبحاث الأمريكي والمتخصص في تتبع القضايا والمواقف والاتجاهات التي تشكل الرأي العام يعتمد على 63 بالمئة من الشباب من الفئة العمرية بين 18 و29 عاما على وسائل التواصل الاجتماعي كمصدر رئيسي للأخبار ويعزز من التفاهة ويضعف قدرة الشباب على التمييز بين المحتوى الجاد والمحتوى التافه.

**أسباب انتشار التفاهة بين الو اقع والمو اقع**

**مو اقع التواصل الاجتماعي:**

ومن خلال دراسة أبو عيطة المشهداني في دراستهما للأنترنت يعتبرها من أهم وسائل الاتصال الحديثة والمتطورة التي تنقل الأفكار والآراء والثقافات العالمية بكل أبعادها ومنها الظواهر السلبية التي تؤدي الى تغيير القيم والاتجاهات والتقاليد والأعراف السائدة في المجتمعات (المشهداني، 2012، صفحة 15) انتشرت في الآونة الأخيرة وسائل التواصل الاجتماعي واعلام التفاهة في كل شيء، ولذلك أصبحت التفاهة في مواقع التواصل الاجتماعي لا تخلو من الرداءة والتفاهة والوقاحة، وبذلك فان التافه أصبح يقود وسائل الإعلام التواصل الاجتماعي فصنعت منهم مشاهير (خالد، صفحة 13) فهؤلاء المشاهير يسجلون حضورهم وبقوة في مواقع التواصل الاجتماعي ويفرضون وجودهم وبقوة في صنع مواضيع وغالبا ماتكون أتفه من أجل الشهرة ويعرفه الأخر ويجلب عقول الأفراد .

السبب الرئيسي يعود إلى مواقع التواصل الاجتماعي التي كان لها الفضل في نشر الفكر الغربي الذي يحمل في خلفياته مواطن التحضر والحضرية والعصرنة والحرية الراي والتعبير والظهور، فكل هذه المصطلحات والمرادفات قد فأصبح الأفراد كفاعليين اجتماعيين منهم فئة الشباب الذكور والاناث بمختلف الاعمار والمتزوجين يظهرون بشكل عفوي لا يوجد عواقب عن ذلك بعدما كان الفرد يكتسي صبغة الحشمة والاحترام والظهور في المناسبات المهمة.

أصبح موقع التواصل الاجتماعي **التيك توك** وسيلة وطريقة للظهور وإبراز ذاتهم وأنفسهم يحللون ويتوقعون ويفسرون ما يجري ويتحدثون ويقولون ما يريدون وبالشكل والصورة الذي يريدونها، لهم حرية التعبير والحوار والنقاش ويقولون ما يحلو لهم من أفكار ورسائل وأكاذيب وسياسة القصف والشتم والتعابير الغير المنطقية، وبذلك يصبح الفرد متتبعا وبأدان صاغية ويسير وفق خطة التلاعب بعقول الأفراد حتى يصبحون فريستهم في المواقع ويكون لهم الفضل في رفع نسبة المشاهدات.

**الهواتف الذكية:**

مع ظهور الثورة الصناعية التي أدت إلى التطور التكنولوجي مما ساهمت في انتقال من الهاتف الثابت إلى الهواتف الذكية، ففي القديم كانت عملية التصوير والتصميم الفيديوهات شبه ضئيلة، وكانت لا تتطلب جهدا ولا مالا ولا وقتا وكان المصور يقوم بعملية التصوير ويستخرج الصورة مباشرة، أما الأن مع تطور وسائل التصوير والفيديوهات وأيقونات السهلة للتصميم الصور والفيديوهات وتوفرها بكثرة وفي كل مكان وزمان أصبح الفرد يصور أتفه الأشياء ويقوم ويدقق ويعدل الصور والفيديوهات، فالهاتف المحمول من الأدوات الاتصال التكنولوجية والعوامل السهلة في نشر كل مايريده الفرد في المواقع والتحكم في لأفكاره وسلوكياته.

**سياسية التفاهة أو تسييس التفاهة:**

فمواقع التواصل الاجتماعي منها التيك توك أصبح يقدم لصناع المحتوى التافه الصدارة وأنهم هم رواد المجتمع ومن يومياتهم وفيديوهاتهم التافهة على أنهم نجوم أو سينمائيين ومسرحيين وقدوة المجتمع وبذلك أتاح موقع التيك توك الفرصة في تشكيل فيديوهات وفتح اللايفات، التافه هو معطى وقدوة لانتشار التفاهة في المجتمع ولعل أخطرها في الأمر أن يصبح بعض الشخصيات من نوع أخر مشاهير وقدوة للأجيال (الحوزي، من المسؤول عن التفاهة في مواقع التواصل الاجتماعي، 2023).

**مجانية التفاهة:**

احتل موقع التيك توك الصدارة والمرتبة الأولى في إنفاق الملايين من أجل انتاج برامج وفتح اللايفات وتصميم الفيديوهات أيا كان نوعها وتسويقها في الصفحة الخاصة لأفراد المجتمع، فامتلك التيك توك خاصية فتح البث المباشر لساعات طويلة بغية نشر المواضيع التافهة وأصبح الأفراد المجتمع يدخلون لهذه اللايفات من أجل الحوار

والنقاش وتبادل المواضيع التي هي مبنية ومشكلة للتفاهة، فعندما تكون البضاعة تذكر أنك أنت البضاعة وليس ما تقدمه.

**التفاهة والمحتوى التافه:**

قد سادت في الآونة الأخيرة مواضيع التفاهة فهي نوعا ما اجتماعية واقتصادية وسياسية بغية جلب الانتباه ومن أسباب انتشار التفاهة هو تواجد بعض فئات المجتمع تنعدم عندهم القيم والمبادئ والاخلاق الراقية فاستغلوا التيك توك فرصة للتعبير عن جل المواضيع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والتنمر على فئات من المجتمع والسخرية على بعض المحتويات التي لها قيمة ووزن ثقيل في المجتمع وهذا ما يدل على انعدام الوعي، ارتبطت التفاهة بوصف الأعمال الفنية، الأعمال الثقافية، مجالات البحث العلمي والمعرفي وغيرها من مجالات النشاط التي ارتبطت بتحقيق المنافع واشباع الحاجات الانسانية، وبذلك كل صانع محتوى في أي حق كان يستخدم أسلوب معينا لعرض الفكرة أو الموضوع حتى يصل الى الفئة المستهدفة (الخالدي، 2021).

**التيك توك والمحتوى التافه:**

ففي الآونة الأخيرة عرف موقع التيك توك ترويجا مذهلا لصناع المحتوى التافه من أجل جلب المشاهدات عن طريق فيديوهات يبرزون حياتهم اليومية بالتفصيل المهم خاصة عند فئة الشباب بصفة عامة والشباب المتزوجين ينشرون تفاصيل يومياتهم عن طريق تصوير فيديوهات يومية وتصميمها ويذكرون تفاصيلهم المملة بشكل يومي فتعددت أساليب التافهين في نشر ثقافتهم حتى أصبحت حياتهم اليومية حديث شبابنا والنساء في نشر لباسهم ونومهم وحركاتهم وتسريحاتهم وحتى شخصياتهم فهنا يبقى السؤال المطروح لماذا وصلنا الى هذه المرحلة، خاصة فالأسرة الجزائرية عرفت قفزة نوعية، فعالم التفاهة فيه هيمنة مسيطرة على الدهن والعلاقات والشعور بل يمكن ان يصل بالبعض الى حالات متقدمة يصفها بعض المتخصصين بالإدمان وهي صورة اخرى من صورة المزاحمة التفاهة كباقي الامور (السيد، 2023، صفحة 32) ومن بين العوامل والأسباب هو ما تقدمه الأسرة من تربية لأبنائها وما يقدمه الأسرة من تربية لأبنائها وما يقدمه المصلحون والمربون الناصحون من بناء وتوجيه ومزاحمة لمصادر الفاسدة، فادا قامت الأسرة بدورها والتربية وأحسنوا العمل والتربية والدعوة الدينية الإسلامية، فيقوم التافهين بعملية إفساد ما أصلحته الأسر.

ومن الأسباب المساعدة على الانتشار المحتوى التافه والتفاهة هي غياب الوعي الديني الإسلامي عند هؤلاء التافهين وعدم انشغالهم بالعبادات الإسلامية **أصبح عرض محتويات عن طريق العديد من المتتبعين:**

**منها المحتوى الكوميدي:** وهو تقمص الفرد لمحتوى كوميدي من أجل تسلية الأخر والمرح والدعاية ومقاطع الضحك والترفيه بغية جلب العديد من المتتبعين والمشاهدات فالمشاهد هو الأخر يبقى متابعا من أجل الفكاهة والترويج عن النفس، خاصة وأن الفرد يعيش في بيئة تعمها الضغوطات والمشاكل.

وبذلك يوجد بعض الأفراد من المجتمع ينتقدون التفاهة ويعبرون عنها أنها مشكلة اجتماعية وظاهرة اجتماعية اصبحت تعج بعض الفضاءات وتجعله عارا على بعض المجتمعات، فالجميع ينتقد التفاهة يسخر منها من الذي يسبح في فلكها وهو تساؤل منطقي في ظل الشهرة الكبيرة التي تحققها العديد من المحتويات التي لا تستحق أدنى شهرة والتي وجدنا أن الجمهور الساخر المتفاعل معها عبر مواقع التواصل الاجتماعي التي لها دور كبير في الترويج لها.

ومن جهة أخرى يوجد غياب التفكير والوعي والحس النقدي لدى فئات كبيرة من المتفاعلين مع هذا الموقع وهذه المحتويات التي باتت تضع وقتها وفكرها في متابعة التفاهات والسخافات ومشاركتها مع الأخر (الحوزي، من المسؤول عن التفاهة في مواقع التواصل الاجتماعي، 2023).

**الغاية من نشر التفاهة في بعض الدول:**

سيطر هؤلاء التافهين على نشر هذا الفيروس الخطير كانت غايتهم تغييب الفكر وسلخ الأمة من مناهجها وأعراقها في الفتن والملهيات، فالغزو الفكري هو السبيل الوحيد لاختلال العقل المسلم ثم العقل البشري فركز على الجانب الإعلامي، تحدث المفكر الأمريكي ناعوم تشومسكي من عشرات استراتيجيات تتبناها واعتمدتها أصحاب النفود العالمي من سياسة ورأسمالية من عام 1986 بعنوان الأسلحة الصامتة لخوض حرب هادئة، هو دليل السيطرة على عقول ومقدرات وأموال الشعوب وبالتالي توجيه سلوكهم والسيطرة على أفعالهم (الفاخوري، 2022)، فالغاية من هذه التفاهة تكمن في الهاء الشعوب في مواضيع تافهة لتجنب الرأي العام والمواضيع السياسية والاقتصادية، استراتيجية التغافل أو التدرج وهي عبارة عن مجموعة من المخططات

لإحداث التغيير الظروف الاجتماعية والاقتصادية حيث تتم السيطرة على الشعوب في حوض التنويم المغناطيسي ،خاصة وأن مجتمعات دول العالم الثالث تستقطب وتتأثر بالثقافات الأخرى والخارجية ويتأثر الفرد بالفرد.

**قائمة المراجع:**


1. Serge Moscovici .La psychanalyse signe image et public, Paris, PUF.
2. أبو عيطة المشهداني. (2012). مواقع التواصل الاجتماعي. القاهرة: المعارف.
3. أحمد بن يوسف السيد. (2023). مقاومة التفاهة. دار المنار.
4. ألان دونو. نظام التفاهة.
5. الحوزي. (11 ماي , 2023). من المسؤول عن التفاهة في مواقع التواصل الاجتماعي. الجزيرة نت.
6. الحوزي. (11 ماي, 2023). من المسؤول عن التفاهة في مواقع التواصل الاجتماعي. الجزيرة نت.
7. بصافية أمينة. (2002). سيكولوجية المؤثر والقبائل المتأثرين في البيئة الرقمية، مجلة رقمنة الدراسات الاعلامية والاتصالية. 03، 93.
8. خالد غسان يوسف المقدادي. (2012-2013). ثورة الشبكات الاجتماعية. الأردن، الأردن: دار النفائس.
9. دحماني خالد. زمن التفاهة (المجلد 01).
10. عبد الحق حميش. (سبتمبر, 2024). ظاهرة انتشار التفاهة والتافهين على وسائل التواصل الاجتماعي وكيفية مواجهتها.
11. عبد الوافي زهير. (2022). التصورات الاجتماعية لدى الطالب الجامعي للكتابات الحائطية دراسة ميدانية على عينة من الطلبة جامعة حسيبة بن بوعلي. مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، 3، 333.
12. عزام الخالدي. (2021). صناعة المحتوى الرقمي صراع بين الخير والشر.

13. علاء الدين الحوزي. (07 09, 2023). من المسؤول عن التفاهة في مواقع التواصل الاجتماعي. 10.

14. علاء الدين الحوزي. (2023 09, 2023). من المسؤول عن التفاهة في مواقع التواصل الاجتماعي.

15. غزلان الهاشمي. الكتابات الجدارية.

16. مصطفى الفاخوري. (2022). الجزيرة نت، 14.

17. مصطفى بحر محمد، زيان محمد. (2023). سوسيولوجيا الكتابات الحائطية في الفضاء الجامعي دراسة ميدانية بجامعة حسيبة بن بوعلي الشلف. 01 (11)، 685.

18. منير الشيخ. (2016). بحث محتوى التافه على مواقع التواقع الاجتماعي (المجلد الطبعة الأولى ).

# التفاهة النسوية في مجتمع الفُرجة: صنمية السلعة وباتولوجيات إظهار الذات -قراءة سوسيوثقافية نفسية في أبعاد التحوّر القيمي-

# Feminist Banality in the Spectacle Society: Commodity Fetishism and the Pathologies of Self-Presentation

## A Socio-Cultural and Psychological reading of the Dimensions ofValue Transformation"

**د. خديجي مختارية، علم الاجتماع**
**جامعة عين تموشنت، الجزائر**

**مقدمة:**

لطالما اعتبرت الحياة الاجتماعية سياقا جذابا ومهما للبحث العلمي، كون أنّ الحياة الاجتماعية بكل تفاصيلها تتميّز بثنائية الانبثاق والتغيّر المستمر. لذلك تعتبر التفاصيل الثقافية التي تؤسس للعلاقة الاجتماعية ديناميكيا، تفاصيل مهمة في برمجة الوعي الاجتماعي العلمي الذي يسعى لمحاولة تقديم قراءات علمية متعددة الأبعاد والمقاربات، حتى يتم الكشف عن بعض من العلاقات البينية الكامنة، التي بإمكانها تغيير نمط العلاقة ذاتها أو اكسابها طابعا مختلفا غير متعارف عليه. ليبدأ في مرحلة لاحقة التقليد والانتشار في منح هذه السمات صفتي الثبوت والشيوع إلى أن تصبح بمثابة هابيتوس جماعي.

ولعلّ انتقال الثقافة إلى سلعة متداولة اجتماعيا، يؤكد الرأي القائل بخطورة الثقافة حين انتقالها من سياق اجتماعي إلى سياق اجتماعي مغاير ثقافيا وقيميا. الأمر الذي يجعل الثقافة تعيش نوعا من التحوّر على مستوى عوالمها المعيارية والقيمية، خاصة وأننا نعيش في زمن السرعة ولامحدودية الزمان والمكان.

الأمر الذي أسهم وسيسهم بدوره في خلق عديد الباتولوجيات والذهنيات التي باتت تحاكي واقعها بنوع من المتعة والفرجة. حتى أننا أصبحنا نعايش وتيرة مضطربة من التغيرات الثقافية والاجتماعية، والتي أُنْتِجت بسبب غياب الحدود المعيارية الفاصلة ما بين الثقافات، الأمر الذي جعلنا نتحدث عن مجتمعات الفرجة في زمن

الفرجة وصنمية السلعة في زمن الاعلام المفتوح وتكنولوجيا السمعي البصري والذكاء الاصطناعي.

- **الإشكالية:**

سلعنة الثقافة إذن، باتت أمرا حتميا في سياقية التفاعلات الراهنة التي أقصت أي تحديد لمعالم التاريخ والجغرافيا.

ويظهر لنا ذلك جليا من خلال ملامسة هذا التمرّد التكنولوجي لأهم محددات الخصوصيات الثقافية ذات الأبعاد الدينية أو الاجتماعية المقدسة ثقافيا.

فالمرأة ككائن اجتماعي ملزم ثقافيا بجملة من المعايير والضوابط، ومحدد مجاليا بجملة من المعتقدات والأفكار الثقافية، والتي باتت اليوم في مجتمعات الفرجة هي الفرجة ذاتها. وهنا يظهر التأسيس اللامحدود لقوّة مناقضة، تحاول بناء صورة مخالفة من خلال ترويجها وربطها برمزيات تكاد تكون نقطة ضعف الغالبية.

إذ أصبحت المرأة رمزا للجنس والاثارة وجلب المال والأرباح من خلال قوّة المشاهدة وتحقيق التفرّد في عرض أقوى اللقطات إثارة والتعامل مع الفلاتر الجسدية والتلميحات التعبيرية والألفاظ المبتذلة التي تؤسس بدورها لثقافة جديدة من خلال تحوّر قيمي، قد يؤدي إلى تغيّر ثقافي حقيقي على المدى البعيد.

موجة المؤثرين والمؤثرات على مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة أنموذجا لهذه التمظهرات والتي باتت تحاكي اللامعيارية في مجتمع المعايير التجارية. بات المجال الخاص مجالا مفتوحا وعاما على كل الأصعدة، وباتت الحميمية تُعْرَض علنا في كل الفرص المتاحة والممكنة. حتى أنه أصبح هناك نوع من الذهنية التنافسية ذات الطابع الاشهاري التسويقي، عُمْلتها الاعجاب وعدد المتابعين لتنبثق خلفية ثقافية جديدة لدى مرتاديها وهي خلفية الربح والخسارة في جولات علنية يتم فيها الانفلات من كل المعايير والقيم الأخلاقية المفروضة اجتماعيا وثقافيا.

بات الكلام البذيء والجرأة الجسدية الصارخة رمزا من رموز الذيوع والانتشار، والدليل على ذلك سرعة التداول. وكأننا في نظام للبورصة والتجارة لكن بمعنى وسياق مختلف، اذ بات الاستهلاك للمضامين التافهة والاشاعات الاجتماعية الكاذبة يحظى بأعلى نسب مشاهدة من قبل الجمهور في وقت وجيز على عكس المضامين الهادفة

باختلاف أشكالها وأنواعها وأهدافها وطبيعتها.

باتت عقلية جنود التكبيس ذهنية شائعة الوجود، قوية الحضور أمام سهولة الوصول إليها من دون شروط تعجيزية تتطلب مثلا مستوى علميا أو ثقافيا أو اجتماعيا معيّنا أو جهدا مبذولا أو مالا ينفق أو مهارة يجب أن تطبّق. الكل يستطيع ركوب موجة البووز هاته، متى ما توفرت الرغبة والكل يستطيع الولوج إلى سوق المنافسة، سوق تحوير الثقافة والقيم بنوع من التلاعب النفسي على كل مقدسات الثقافة ذاتها، ونقصد البعد الاجتماعي المتعارف عليه.

إذ أصبحت هناك مسميات ثقافية جديدة لمواضيع قديمة تدخل في صلب الدين والأعراف والمبادئ والقيّم والأخلاق. ومن سلعة الجسد إلى سلعة الجنس ومن ثمّ إلى وسم القبول للعلاقات الجنسية الافتراضية بالايحاءات اللفظية والايماءات السلوكية، غير أنّ الفضاء الافتراضي ومواقع التواصل الاجتماعي مكنتها من اكتساب صفة التشارك والولوج، أي الانتقال من الحميمية البينية في السياق الخاص والخاص جدا إلى سياق الحميمية الجماعية في سياق عام على مرأى ومسمع الجميع.

بات التحاور بالخطاب الشعبوي المبتذل من بين صفات وشروط نيل القبول والاعجاب، وباتت المبالغة في اظهار التفاصيل الخاصة من أهم شروط تحقيق ذلك ومن بين سمات واستحقاق الشهرة. ذلك المعطى -الشهرة-الرمزي المؤسس في موجة التمرّد التكنولوجي وانفتاح سياق التواصل على مصراعيه، جعل الجسد يحظى بعمليات تجميل لا ملموسة، فالفلاتر كفيلة بفعل ذلك، وباتت الهويات المستعارة جواز انتقال من المسموح إلى الممنوع في ظل توفر الوسيلة والقدرة ومن ثمّ الرغبة الملحة.

باتت الايحاءات اللفظية والجسدية ذات الطابع الجنسي بين الجنسين ومن ثقافات مختلفة أمرا يجلب أكبر عدد ممكن من المتابعين والمعجبين، وبصفة القبول هذه، انتقلت القيمة من سياقها السلبي المرفوض اجتماعيا وقيميا إلى سياق مقبول ومرغوب ما لم يحدث ذلك بفعل ملموس والتقاء جسدي فعلي بين طرفي العلاقة.

وفي ظل غياب القيمة تتجلى عديد الباتولوجيات الضمنية التي يعتبر ما ذكرناه بخصوصها مجرّد عَرَضٍ من أعراض «ثقافة التفاهة»:

**فما هي إذن القراءة التفسيرية الفهمية التي يمكننا تقديمها لانتشار ظاهرة التفاهة النسوية في مو اقع التواصل الاجتماعي؟ وما تجليات التحوّر القيمي من خلال ذلك كانعكاس وكتأثير؟**

**الو اقع المتموقع في المو اقع: روتيني اليومي أنموذجا:**

يعيش المجتمع الحداثي اليوم نوعا من الاغتراب على عدّة مستويات، الأمر الذي خلق نوعا من الميكانيزمات النفسية التي باتت تلعب دورا جوهريا في بناء الذات البشرية وهويتها الاجتماعية. أصبحت مقولة الهوية مقولة مشكوك في وضوح أبعادها ومعالمها وثوابتها، خاصة وأننا نعيش موجة من التزاوج والاختلاط الثقافي الذي انجر عنه عديد التحورات والتغيرات العميقة منها والظاهرية.

انتقل الواقع المحسوس بكل معطياته وتفاصيله إلى سياق مختلف كطبيعة، وهو السياق الافتراضي الذكي الذي أسهم في بروز واقع جديد متموقع على مستوى المواقع. واقع يُحاول عرض كل ما هو اجتماعي ثقافي، سياسي، ديني، اقتصادي دون عملية تصفية معيارية قيمية، الكل صالح للعرض والكل قادر على العرض.

انتقلت الرقابة الاجتماعية إلى حيّز مغلق تحكمه شرطية الانفلات بل القدرة على الانفلات من الرقابة الاجتماعية ذاتها، كون أنّ طبيعة السياق التفاعلي والتواصلي مختلفة أتمّ الاختلاف عن الطبيعة المتعارف عليها، والتي تلعب فيها الرقابة الاجتماعية دورا محوريا وسلطة قوية. وانتقل معطى «اليومي» والمعيش من الواقع التفاعلي الفعلي وجها لوجه إلى المعيش الافتراضي أو بالأحرى مشاركة اليوميات والروتين اليومي مع الآخرين بأدق تفاصيله. غزّت القنوات مواقع التواصل الاجتماعي، قنوات تتنافس في عرض روتينها اليومي بشكل متباين ومختلف سواء من ناحية العرض ذاته أو من ناحية الهدف.

إذ بات من الواضح تماما أنّ «الروتين اليومي» ومتابعيه لم يعد يقتصر على فئة نسوية بذاتها، بل قد شمل فئة الرجال أيضا، ليظهر لنا خلل في تحديد الهوية الجنسانية ما بين الذكورة والأنوثة. كما وأنه بات من اليوميات التي لا يمكن لمرتاديها الاستغناء عنها، مشاركة اليوميات قد يوحي في بعض الحالات إلى نوع من الاغتراب النفسي الناتج عن الاغتراب الاجتماعي أو الثقافي. والواقع المشاهد من خلال المواقع يُظهر عدّة صور نمطية في عرض محتوى الروتين اليومي، فقد يكون فرديا كما قد

يكون جماعيا، قد يشمل فئة المتزوجين أو غير المتزوجين، المقيمين أو المهاجرين.

قد يكون محتواه التسوّق أو الجنس الرمزي أو الحياة اليومية بتفاصيلها، قد يشمل العادات اليومية كما هي أو بنوع من التباهي والتزييف. فالروتين اليومي لم يعد مقتصرا على فئة اجتماعية بعينها أو طبقة بعينها، بل قد يشمل فئات مختلفة تماما.

وبين هذه الثنائيات نلمح نوعا من الباتولوجيات الاجتماعية التي تعزز فكرة الاغتراب النفسي أو عدم القدرة على الاندماج الاجتماعي الفعلي (التنمر الافتراضي وإعادة إنتاج الاغتراب).

كما قد يكون الافتراض القائل بأنّ ظاهرة» الروتين اليومي» قد تكون شكلا من أشكال الميكانيزمات الدفاعية التي يستخدمها الفرد لتعويض الناقص الكامن في منظومة قيم مجتمعه أو جماعته التي ينتمي إليها أسريا (التنفيس).

لتحل قيمة جديدة محل قيم الاحترام وصلة الرحم والستر والعفاف والمسؤولية وغيرها من القيم الإيجابية التي تنبع من سياق اجتماعي سليم ثقافيا، وهو شكل من أشكال الاستبطان الثقافي المشوّه. ومن هنا أصبحت التفاهة ظاهرة اجتماعية وثقافية متنامية في المجتمع المعاصر، فأصبحت الذات البشرية تميل في ظل الضغوطات المتنامية إلى الترفيه قاصدة التفاهة.

والتفاهة هي نمط من التصرفات أو المحتوى الذي يفتقر إلى العمق الفكري أو القيمة الثقافية، ويُركز على مواضيع سطحية أو ترفيهية بشكل مفرط، فهي الاهتمام بالمظاهر بدلاً من الجوهر، والإثارة المؤقتة بدلاً من التفكير العميق **(سعيد، 2001، ص.112)**. الإبحار من خلال المشاهد وعدم القدرة على متابعة النقد الذاتي قد يسمح بخلق تفكير سطحي ساذج، وقد يخلق بؤر اهتمام لا علاقة لها بالأهمية.

وبالتالي مساهمة وسائل الإعلام والشبكات الاجتماعية في نشر ثقافة التفاهة هي مساهمة قوية، كما يشير **مات ريتشاردسون (2015)** في تأكيده على أنّ «الوسائط الرقمية تسهم إلى حد كبير في تعزيز المحتوى السطحي من خلال التركيز على الحصول على أكبر عدد من المشاهدات والتفاعلات «(**Richardson, 2015، p. 87**) ، كما تعمل هذه الوسائط على ترويج المحتوى الترفيهي البسيط على حساب المواد التعليمية أو التحليلية الأكثر عمقًا.

وبهذا سيتشكّل وفقا لذلك جيل بصري سمعي، يميل إلى التفاهة بكل حواسه لأنه يحفز من خلالها هرمونات سعادته أمام تزايد ضغوطات الحياة اليومية الواقعية. فالهروب للتفاهة سيكون الحل الأنجع والأسرع للإفلات من واقع الواقع، وهنا تتجلى أمامنا صورة من صور التشكيل الثقافي الذي سيغرس جملة من الصور النمطية بخصوص عديد المواضيع المصيرية سيكون الرهان قائما ليس على المواضيع الجوهرية بل سيكون الرهان قائما على مدى قدرتنا على رؤيتها وإدراك وجودها أساسا، وبهذا تُضْرَبُ قيمة المسؤولية في الصميم.

طبعا، كل هذه التجليات ستؤدي على المدى المتوسط والبعيد إلى نوع من التفكك أو الانحلال الثقافي بمعنى سيحدث نوع من الاستبدال القيمي ما بين القيمة ونقيضها، وسيظهر تبعا لذلك هشاشة النسيج الاجتماعي والمناعة النفسية القابلة للانهيار في أية لحظة وبضغطة زر واحدة أو بتعليق بسيط لا يتعدى كلمة واحدة.

وكما يقول «**جيل دولوز**»: نحن لا نرى إلاّ ما نبحث عنه، فإنّ التفاهة مشكلة لها أبعاد معقدة جدا لا تقف عند حد الفعل التافه في حد ذاته، بل تتعدى ذلك إلى تبني الفكر الواعي بالتفاهة بدون وعي أو دعونا نسميه الفكر القائم على الحواس دون الإدراك. أساسه التركيز عل الظاهر والبسيط والسريع وغير المكلف ولا المتعب، وهنا تحديدا تبرز مفارقة الذات كما هي وكما يجب أن تكون وكما خُطِطَ لها أن تكون.

تشير الأبحاث إلى أنّ التفاهة قد تؤدي إلى ضعف القدرة على التفكير النقدي والتركيز على القضايا المهمة. فحسب دراسة أجرتها **ناتالي موريس (2019)** نجد أنّ «التعرّض المستمر للمحتوى التافه يمكن أن يضعف من قدرة الأفراد على التفاعل بفعالية مع القضايا المعقدة ويؤثر سلبًا على مستوى التعليم والفكر النقدي« **(Morris, 2019, p. 45)**، خاصة وأنها تركز على المحتوى الذي يفتقر إلى العمق الفكري ويعتمد بشكل كبير على السطحية، وهو ما يؤكده **رالف كينسون** (2018) في قوله أنّ «التفاهة ترتبط بشكل وثيق بالاستهلاك السريع للمعلومات السطحية، والذي يعزز من ثقافة التسلية على حساب المعرفة الحقيقية **(Kinsson, 2018, p. 67)**» ويتجلى هذا في الإعلام والترفيه الذي يُقدم للجماهير بشكل مكثف.

هي معادلة صعبة لأنّ أطرافها معقدة ومتشابكة إلى حد الجمع بين المتناقضات، وهذا ما يميّز التفاهة تحديدا، أي أنّ من شروط الولوج لعالم التفاهة تسطيح قيمة

القيمة وتعويضها بالقيمة المعطاة لها فرديا.

وهذا ما يتجلى بوضوح في تنميط المرأة في صورة نمطية حسية ذات طابع ترويجي استهلاكي محض، فالمرأة ككيان لن تكون إلّا باشتراط الجمال والبحث عنه بأية وسيلة، كما وأنّ الجسد ركن أساسي في هذه الصورة الجمالية المنشودة، ومن هنا تتجلى مفارقة الذات والجسد، الذات والجمال، الذات والآخر. كيف ذلك؟

**1. هاجس الجمال وثنائية: المرأة والجسد:**

إنّ المتتبع للدراسات والأدبيات المختلفة التي جعلت من المرأة موضوعا جوهريا لها، يجد أنّها اتفقت في مجملها على العلاقة ما بين المرأة والجمال والجسد، غير أنّ بناء الصورة الذهنية المتداولة والشائعة قد يكون له دورا جوهريا في الترويج لثقافة نمطية محددة وفقا لمتطلبات العصر المعيش.

ولأننا في عصر الاستهلاك، فإنّ دراسة الروتين اليومي تقدم فهماً عميقاً للكيفية التي يتم بها تشكيل الواقع الحيّ والتجريدي، إذ يتأثر هذا الواقع بعوامل متغيرة، مثل وسائل الإعلام، وعوامل اجتماعية وثقافية، وتصورات الفرد ذاته حول الذات والمجتمع **(فادي زكريا، 2022، ص. 45-58)**.

إنّ فهم هذه الروتينات اليومية، بما في ذلك ارتباطها بالجسد، يسمح بتفكيك الأفكار النمطية التي تهيمن على واقعنا اليومي وتؤثر في تصورنا للجمال والجسد **(أحمد حسين، 2021، ص. 99-113)**. بحيث أصبح الجمال قيمة مضاعفة في السلم القيمي المجتمعي، خاصة إذا ما تعلّق الأمر بالمرأة في الواقع المعاصر، أين تمّ ربط الجمال الأنثوي بالمعنى الجنسي والاثارة والرفاه.

وبهذا انتشرت عمليات التجميل المختلفة التي تؤسس بدورها لبعث ثقافة جمالية ذات طابع جنسي في المقام الأول، كما أصبح البحث عن الجمال والرضا المجتمعي هاجسا حقيقيا في ظل الانتشار الواسع لمواقع التواصل الاجتماعي وكذا انتشار موجة المؤثرين. ليأخذ هاجس الجمال بعدا آخر ذا طابع تجاري محض، يساهم في زيادة المدخلات المادية في مقابل رسم صورة نمطية للجمال لدى المرأة العصرية.

غير أنّ انتشار التركيز على البعد الضيق في حصر الجمال بالقيم المادية والحسية وربطه بجسد المرأة قد ساهم في خلق ثقافة موازية تؤسس للتركيز على ما هو حسي

بعيدا عن التأسيس الثقافي الأعمق والذي يعزز القيم المعنوية جنبا إلى جنب مع الجمال الحسي.

ساهمت ثقافة التفاهة إلى حد بعيد في ترسيخ فكرة عدم اظهار الذات الفعلية والاستناد على الفلاتر الافتراضية في ابراز الجمال المنشود، وفقا لرؤية تحقق هدف البحث عن القبول الاجتماعي، خاصة من طرف الجنس الآخر.

الأمر الذي سيسهم بدوره في خلق فكر محدود يؤسس لتبني تمثلات سطحية للجمال لدى الأجيال الصاعدة ويخلق صورا نمطية جديدة في تمثّل المرأة والجسد والجمال ضمن نطاق ضيق، سطحي ومحدود.

وهذا ما جعل العلاقة بين المرأة وجسدها قضية مركزية في معظم النقاشات الثقافية والنقدية، بحيث تتداخل مفاهيم الجمال مع المعايير الاجتماعية والثقافية التي تعكس في الغالب صورة نمطية للمرأة.

ومن هنا يمكننا القول بأنّ هذه الثنائية (المرأة والجسد)، والتي غالباً ما تكون خاضعة لنظرة المجتمع المعترف بها، تخلق حالة من «الهاجس الجمالي» الذي لا ينفصل عن معركة السيطرة على الهوية الأنثوية في الثقافات الحديثة.

وهي شكل من أشكال البحث عن المأمول ومحاكاته وفقا لمثالية زائفة تعكس مؤشرا من مؤشرات ثقافة التفاهة في سياق ديناميكي.

**2. سلطة المأمول ومحاكاته: المثالية الزائفة:**

إنّ المثالية الزائفة التي تروج لها وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي والحملات الدعائية تخلق صورة غير واقعية للجمال والنجاح، مما يجعل الأفراد في حالة دائمة من السعي لتحقيق هذه الصورة المثالية.

هذا السعي يقود في بعض الأحيان إلى تهديدات نفسية وعرقلة في مسارات التطور الشخصي، بحيث أنّ السلطة التي يمارسها هذا المأمول تساهم في إنتاج نماذج اجتماعية مثالية، لكنها في الوقت نفسه تقود الأفراد نحو إشباع تطلعات خيالية قد تكون بعيدة عن الواقع.

ولوج المرأة إلى عالم الافتراضي ومواقع التواصل الاجتماعي قد أسهم إلى حد كبير

في بروز ظاهرة التمرّد النسوي القيمي، الذي يحاول التأسيس لواقع مختلف تسعى من خلاله المرأة لإنتاج سياق تفاعلي ترى من خلاله ذاتها بمنظور الاعجاب والقبول والسيطرة الرمزية، التي تجعلها تؤسس فكريا وتصوريا لإطار مفاهيمي مختلف يساهم في بروز قيم هجينة تبني واقعها لاحقا.

البحث عن المثالية والتقليد سعيا منها لربط واقعها بما تشاهده من أشكال مختلفة للتمظهرات النسائية السلوكية، مدعمة بأرضية نفسية متعلقة بها كأنثى ومُسَيَرة بقوّة عاطفية تقصي إلى حد بعيد الجانب العقلاني لديها، خاصة إذا تعلّق الأمر بفئة هشة اجتماعيا ونفسيا، ليبقى المأمول يمارس سلطته عليها.

الرفاه المأمول والسعادة المأمولة والجمال المأمول، كلها مؤشرات تعكس ولوج المرأة إلى سياق ثقافة التفاهة، مما يسهم في تراجع أهمية القيم التعليمية والفكرية لديها، حيث يُفَضَل المحتويات الترفيهية السطحية على التعلّم العميق والتفكير النقدي، كما يؤكد ذلك **ديفيد باركر (2019)** من أنّ «التفاهة تؤدي إلى تقليل الاهتمام بالمعرفة العميقة والبحث العلمي، مما يضعف من قدرة الأفراد على المشاركة الفعالة في القضايا المعقدة**(Parker, 2019, p. 63)** « وهذا يسهم في تغيير بؤر اهتمام المرأة وعدم فاعليتها ضمن سياق الدور الاجتماعي لاحقا في مقابل زيادة تركيزها على المظاهر والنجاح السريع، بينما يتم تقليل التركيز على القيم الدائمة مثل الجهد والإيثار، والمساهمة في بناء الأسرة والاستقرار والفاعلية في إنتاج الرأسمال البشري، فوسائل الإعلام الرقمية تعزز من ثقافة النجاح السريع والمظاهر الجذابة على حساب القيم الأخلاقية العميقة**(Richardson, 2015, p. 87)** «.

كما تؤدي التفاهة إلى تغيير طبيعة العلاقات الاجتماعية، حيث يتم تفضيل العلاقات السطحية والاتصالات قصيرة المدى على العلاقات العميقة والمستدامة، مما يقلل من جودة العلاقات الشخصية**(Wilson, 2023 ,p. 81)** «، لأنّ معيار الحكم عليها اختلف وأصبح معيارا مثاليا تروج له مواقع التواصل الاجتماعي وذلك من خلال رسم صور نمطية وهمية للعلاقات الزوجية والاجتماعية عموما وهذا يؤدي بدوره إلى نشوء تناقضات عدّة واخفاقات اجتماعية تعقبها أمراض نفسية مجتمعية بسبب الهوة القائمة بين المتخيّل والممكن.

**3. لعب الجولات والتكبيس: عروض الاستحقاق ووهم تحقيق الذات:**

أصبحت فكرة الاستحقاق في المجتمعات المعاصرة مصدراً للضغط على الأفراد، حيث تُطرح العديد من العروض التي تقدم وعوداً بمستقبل أفضل من خلال الجهد المستمر والمثابرة، ومع ذلك، فإنّ هذه العروض غالباً ما تكون مغلفة بوهم تحقيق الذات، حيث يعتقد الأفراد أنهم قادرون على تغيير حياتهم إذا تبنوا بعض الممارسات أو انخرطوا في بعض التوجهات رغم أنها سطحية وتعزز لواقع ثقافة التفاهة.

الولوج إلى عالم المنافسة في السياق الافتراضي الرامي لتبني ثقافة التفاهة يعتبر بمثابة مختصر للحصول على الاستحقاق والاعتراف، وهذا أسهم في بروز موجة قوية من المؤثرين والمؤثرات من خلال محتويات تافهة وسطحية تحاكي الاهتمامات الفردية في مقابل التعبير عن الرفض وتحقيق الحرية الظاهرية بالانفلات من الرقابة القيمية المجتمعية الصارمة.

بات العمل على جمع أكبر عدد ممكن من المعجبين والداعمين أمرا مقدسا في ثقافة التفاهة وأصبح يعزز فكرة القوّة والسلطة وصراع الفاعلين في السياق الافتراضي بشرط تحقق القدرة على استحداث المضامين القوية ذات الايحاءات القيمية المنافية للقيم الأصيلة، وكأنها ثورة حقيقية ضد السلطة المعيارية المجتمعية وتعبير ضمني عن الرغبة في تحقيق الذات بعيدا عن أي قيود قيمية اجتماعية او ثقافية.

ووفقا لمسلمة كل ممنوع مرغوب، تلج الكثير من النساء إلى عالم المواجهة الافتراضية الرامية إلى استنطاق القوّة الأنثوية السطحية والظاهرية لأجل تحقيق الشعور بالوجود والاستحقاق أمام توسع نطاق الطلب وعدد المشاهدات وطبيعة السياق التفاعلي ومخرجاته الرمزية والدلالية.

العبثية والارتجالية وتقمص الأدوار الانثوية المختلفة بلغة الاغراء والتمرّد أمام الجولات الافتراضية عبر مواقع التواصل الاجتماعي يؤسس لرفع درجة الإيغو التافه خاصة أمام استحداث فكرة «جنود التكبيس».

والواقع أنّ هذا النوع من الممارسات قد يؤدي دورا سلبيا في المجتمع من خلال خلق أنموذج «القدوة التافه» مما يشكل تهديدا لانبثاق تربية مضادة للتنشئة الأسرية السليمة خاصة في ظل عدم فاعلية الرقابة الاجتماعية الأسرية وكل هذا سيؤسس

تراكميا لانبثاق باتولوجيات نفس اجتماعية ستمس السلم القيمي بقوّة لدى الأجيال الصاعدة.

**4. الانبثاق الباتولوجي: المرأة والفُرجة:**

في عصر التكنولوجيا ووسائل الإعلام الحديثة، أصبحت فكرة «مجتمع الفُرجة» أحد المواضيع الرئيسية في الدراسات الاجتماعية والثقافية، إذ يُشير المفهوم إلى تلك المجتمعات التي يتسم فيها الأفراد بتركيز كبير على الاستهلاك البصري والترفيهي، حيث يتخذ الترفيه والمشاهدات البصرية مكانة مركزية في حياة الأفراد اليومية.

ف»مجتمع الفُرجة» هو «المجتمع الذي يعتمد بشكل أساسي على الصور والأحداث السطحية في تشكيل واقع الأفراد وتصوراتهم**(Baudrillard, 1994, p. 38)** «. بحيث أدى ظهور الإنترنت ووسائل الإعلام الرقمية إلى زيادة القدرة على الوصول إلى المحتويات البصرية والترفيهية والتي غيرت الطريقة التي يتفاعل بها الأفراد مع المحتوى، مما يعزز من ثقافة التفاهة والفُرجة**(Richardson, 2015, p. 87)** «.

خاصة وأنّ مجتمع الفُرجة يسهم إلى حد كبير في تغيّر مفهوم النجاح ليصبح أكثر ارتباطًا بالظهور العام والشهرة، بدلاً من الإنجازات الشخصية أو المهنية، بحيث يميل الأفراد في هذا المجتمع إلى تقدير النجاح بناءً على المظاهر والشهرة أكثر من القيم الداخلية مثل الجهد والإبداع**(Wilson, 2023, p. 81)** «.

كما يمكن أن يؤدي التركيز المفرط على الفُرجة إلى تآكل القيم الثقافية الأصيلة، حيث يتراجع الاهتمام بالتقاليد والأنشطة الثقافية العميقة لصالح المحتوى الترفيهي السريع، مما يهدد الحفاظ على القيم الثقافية التقليدية**(Parker, 2019, p. 63)** «.

إضافة إلى ذلك، تؤدي ثقافة الفُرجة إلى مشاكل في الصحة العقلية مثل القلق والاكتئاب، بسبب التركيز على المحتويات السطحية والضغط للظهور بشكل مثير.

والمرأة، في سياق وسائل الإعلام والسينما والثقافة الشعبية، غالباً ما تُعرض كموضوع فرجة أو ككائن يُراقب، في حالة من الانبثاق الباتولوجي الذي يعكس نظرة دونية للمرأة، هذا الانبثاق يتجلى في كيفية تصوير المرأة في الأفلام والبرامج الإعلامية كعنصر للتسلية والترفيه، مما يعزز من تصورات اجتماعية سلبية اتجاه دورها في المجتمع **(رانيا محمد، 2023، ص. 74-89).**

غير أنّ الفضاء الافتراضي قد عزز وبقوّة هذه الصورة النمطية التي قد ساهمت المرأة في ذاتها من تعزيزها والعمل على إبرازها واستمرارها. من خلال خلق فضاءات للفرجة فاعلها الرئيسي المرأة سواء تعلّق الأمر بتبنيها لسياق علائقي افتراضي مختلف أو استحداثها للغة رمزية بدلالات وايحاءات تجعلها محل فرجة، وهذا كله يساهم في خلق استراتيجيات الترويج التي تعتمد على جذب الانتباه بدلاً من تقديم قيمة حقيقية (Levin, 2021, p. 92)وكذا تعزيز هذا النوع من المحتوى من خلال خوارزميات تعتمد على الشعبية وليس الجودة.

**الخاتمة:**

تُعتبر التفاهة ظاهرة معقدة تؤثر بشكل عميق على القيم الاجتماعية والفردية، ومن الضروري التعرّف على تأثيراتها والبحث عن طرق فعالة لمواجهتها من خلال تعزيز التربية الإعلامية وتشجيع الإنتاج الثقافي المبتكر، خاصة وأنّ التفاهة لا تقف عند حد الفعل بل تتعداها إلى سيرورة ديناميكية من الإنتاج القيمي المصاحب لانبثاق وشيوع ثقافة التفاهة.

كما وأنّ ثقافة التفاهة لها فاعلين قد يساهموا بشكل كبير وتراكمي في انبثاق مجموعة من القيم المضادة للقيم الأصيلة والتي ستمرر إلى الأجيال الصاعدة من خلال عملية الاستبطان الثقافي، التي ستعزز بدورها من الفكر التافه والسطحي.

ومن هنا تتم عملية إقصاء ضمنية لهذه القيم لتحل محلها قيم ثقافية أخرى، لذا وجب العمل على إعادة هيكلة التفاعل الافتراضي والواقعي بشكل واعي يعزز فاعلية الادراك والانتقاء لأجل أن يكون الهدف هو بناء مجتمع يُقدّر القيم العميقة والمعرفة، ويستعيد التوازن بين الترفيه والفكر.

ولمّا كانت المرأة فاعلا رئيسية في حلقة الاستبطان القيمي هذه وجب إعادة تأهيل قيمي وفكري يكسبها مناعة ثقافية قائمة على تعزيز القيم الإيجابية الواقعية بدل التركيز على منطق الشهرة والاستحقاق الوهمي والبحث عن المثالية الزائفة.

وبالتالي تعدّ ظاهرة التفاهة من الظواهر التي تنتشر في المجتمعات المعاصرة نتيجة للعديد من العوامل الثقافية والإعلامية والاجتماعية، وتؤثر بشكل سلبي على مستوى التفكير العميق والوعي المجتمعي، لذا وجب التصدي لها والحد منها، باتباع مجموعة

من التوصيات العملية التي تساهم في تعزيز الفكر النقدي والوعي الثقافي، وهذه بعض منها:

**التوصيات:**

- تتطلب مواجهة ظاهرة التفاهة تبني استراتيجيات متنوعة، منها تعزيز التربية الإعلامية والبحث عن بدائل ثقافية تعزز التفكير العميق
- يجب على الأفراد والمؤسسات تشجيع إنتاج وتوزيع محتوى ذو جودة عالية، ويشمل ذلك دعم المبادرات الثقافية والتعليمية التي تروج للتفكير العميق.
- تعزيز التعليم النقدي والتفكير المستقل وذلك من خلال تفعيل المناهج التعليمية التي تركز على تطوير التفكير النقدي والتحليلي منذ المراحل التعليمية المبكرة.
- تشجيع القراءة والتفاعل مع الكتب والمصادر العلمية وتحفيز الأفراد على قراءة الكتب العلمية والفلسفية التي تقدم رؤى عميقة وواقعية بدلاً من الاعتماد على المحتوى السطحي والمبسط.
- مراقبة وتحليل المحتوى الإعلامي وكذا التوعية الإعلامية بأن تُنظّم حملات توعية حول تأثير وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي وضرورة اختيار المحتوى بعناية وعدم الانسياق وراء المحتوى السطحي.
- تشجيع المؤسسات الإعلامية على تقديم محتوى هادف وذي قيمة بدلًا من التركيز على الجوانب الترفيهية السطحية أو الجدالات الفارغة التي تروج للتفاهة.
- تنظيم منتديات ثقافية وأكاديمية تستهدف مناقشة القضايا الفكرية والفلسفية، وتشجيع النقاشات العميقة التي تسهم في بناء الوعي الاجتماعي والنقدي.
- الاستفادة من وسائل التواصل الاجتماعي بشكل إيجابي بنشر الأفكار العميقة وتحفيز المستخدمين على المشاركة في مناقشات بناءة تساهم في رفع مستوى الوعي والاهتمام بالقضايا الجادة.
- من المهم أن تُعلم الأسرة الأبناء أهمية التفكير العميق والبحث عن المعنى في الحياة بدلاً من الانجراف وراء التفاهة
- مكافحة ظاهرة استهلاك المحتوى السطحي من خلال تشجيع الأفراد على استهلاك المحتوى المعرفي :دورات تعليمية أو ورش عمل تركز على كيفية اختيار المحتوى التعليمي والمعرفي والبحث عن محتوى ذو قيمة.

**المراجع:**


1. سعيد، إدوارد، (2001)الثقافة والإمبريالية، دار الشروق.
2. ريتشاردسون، مات (2015) الوسائط الرقمية وثقافة التفاهة، مجلة دراسات الإعلام، 23(2)، 85-95.
3. موريس، ناتالي ( (2019آثار الإعلام السطحي على التفكير النقدي، مجلة علم النفس الاجتماعي، 29(1)، 40-52.
4. فادي زكريا، «الروتين اليومي وتأثيره على تشكيل الهوية الاجتماعية»، مجلة دراسات اجتماعية، 2022، ص. 45-58.
5. أحمد حسين، «تأثير التقنية الحديثة على ممارسات الجسد اليومية»، مجلة دراسات ثقافية، 2021، ص. 99-113
6. مريم حسن، «الجسد الأنثوي في السياقات الاجتماعية: بين الجمال والاستلاب»، المجلة العربية للعلوم الثقافية، 2023، ص. 132-145.
7. McNally, L. (2021). Feminist Frivolity: Challenges and Opportunities. Academic Press.
8. Hirsch, R. (2018). Marketing and Media: The Impact of Feminist Frivolity. Contemporary Media Journal, 10(4), 4560-.
9. Gold, S. (2020). Digital Education and Feminist Frivolity. Academic Publishing.
10. Parker, D. (2019). Feminist Issues in the Age of Frivolity: Strategies and Challenges. Social Sciences Journal, 18(1), 5872-.
11. Richardson, M. (2015). Digital Media and Culture of Frivolity. Media Studies Journal, 23(2), 8595-.
12. Wilson, E. (2023). Achieving Equality in the Age of Frivolity: Analysis and Shifts. Culture and Arts Journal, 12(2), 7892-.
13. Blake, K. (2020). Feminist Frivolity and Media Representation. Educational Psychology Journal, 30(2), 7585-.
14. Barnes, N. (2022). Media Literacy in Addressing Frivolity. Academic Press.

# الاستهزاء بالكادر التعليمي -المعلم أنموذجا-

# Mocking the Teaching Profession: The Teacher as a Case Study

**د. بهلولي خالد**
**جامعة زيان عاشور-الجلفة.**

**مقدمة:**

يُعد النسق التربوي من الأنساق القليلة التي ترتبط ارتباطًا دائمًا بمكونات أي مجتمع، وذلك لكون المدرسة، بما تحويه من مدخلات، تتفاعل بشكل مستمر مع الأسرة. فالمدرسة كمؤسسة اجتماعية وظيفتها التنشئة الاجتماعية للمتعلمين الذين يعيشون داخل محيطها .ولعل الفاعل الأول والمسؤول المباشر عن هذه العملية هو المعلم؛ هذا الأخير تُوكل له مهمتان محوريتان هما التربية والتعليم لأبناء المجتمع. وهو الحصانة الأولى لأي مجتمع؛ فإن أدى دوره على الوجه المطلوب تماسك المجتمع وعرف الرقي والازدهار، وإن حدث العكس انحرف المجتمع عن جادة الصواب وحاد عن السكة الصحيحة.

ومن هذا كله، يبرز ما للمعلم من دور وأهمية بالغتين في تنمية المجتمع وتحصينه من كل الآفات والمخاطر .وعندما نذكر المعلم هنا، فهو طبعًا ليس بمعزل عن محيطه التربوي أولًا – ونعني بذلك المدرسة – ثم المجتمعي، ونعني به كل المؤسسات المؤثرة في تنشئة وتهيئة الأطفال والناشئة بصفة عامة .فالمعلم مؤثر ومتأثر على السواء، وهذا ما يُحيلنا إلى ضرورة معرفة واقع وراهن هذا الفاعل التربوي والمجتمعي في المنظومة التربوية والاجتماعية على السواء، بل وأي قيمة ومكانة يحملها هذا الرجل؟ وما مرئية هذا الإنسان – إن صح القول – لدى أفراد المجتمع بتعدد توجهاتهم ومنطلقاتهم الفكرية والإيديولوجية؟

**مفهوم المعلم:**

تتعدد التعاريف لمفهوم المعلم، وذلك نتاج الأدوار والمهام التي يؤديها داخل النسق التربوي أو في غيرها من الأنساق الاجتماعية الأخرى، ومنها:

المعلم هو إنسان يتولى عملية تعليم أناس آخرين وإرشادهم وتوجيههم، وذلك

بإكسابهم المعارف والحقائق والقواعد والمهارات والقيم والاتجاهات من خلال أنواع النشاط والاستعانة بالوسائل المناسبة .ويظهر من خلال هذا التعريف أنّ المعلم هو مُرشد وموجه لمن هم تحت يده، بمدّهم بكل ما يحتاجونه من معارف وحقائق حياتية ومبادئ تُسهم في بناء شخصياتهم وتفاعلها مع البيئة التي يعيشون فيها.

المعلم هو: "الشخص الذي يُستخدم بصفة رسمية لتوجيه تعلم الأولاد والتلاميذ والإشراف على أعمالهم وخبراتهم التربوية في معهد أو مدرسة رسمية أو خاصة ." أي أنّ المعلم يمارس نشاطه في إطار قانوني معتمد لتربية وتعليم المتعلمين كل صنوف الخبرات والاحتياجات الضرورية لصقل شخصياتهم، وهذا في محيط وفضاء مُهيكل كالمدارس والمعاهد، سواء أكانت عمومية أو خاصة. المعلم هو عصب العملية التعليمية، والعامل الرئيسي الذي يتوقف عليه نجاح التربية في تحقيق دورها في المجالين الاقتصادي والاجتماعي) .قاسم بوسعدة، 2017، ص .(111

المعلم المنتمي لمجتمعه هو ذلك الشخص الذي يكون على درجة عالية من التكيف والانسجام مع المجتمع) .نجية بن العمري، 2011، ص .(92 ويعتبر إدغار موران المعلم هو الذي يستطيع من خلال ما يعلمه مساعدتك على اكتشاف حقائقك الخاصة. أي يعتبره مرافقًا وموجهًا ومساعدًا لمن هم تحت رعايته على فهم وبناء شخصياتهم الخاصة من خلال سبر مكنوناتهم والتعبير عن أفكارهم ورؤاهم بشكل صحيح وملائم.

ومن خلال ما سبق، يمكن القول إن المعلم الذي نقصده هنا هو إنسان تلقى تكوينًا نظريًا وتطبيقيًا في كيفيات وطرائق التدريس التي تسمح له، وفق القانون، بمهمة تربية وتعليم التلاميذ في فصول دراسية وتحت وصاية وزارة التربية الوطنية، وفق منهاج تربوي محدد المعالم والأهداف .وهو لا يخرج عن غايات ومرامي المجتمع الذي يمارس فيه مهنة التعليم.

**المكانة الاجتماعية للمعلم وأسباب تدنيها:**

إنّ الحديث عن المكانة الاجتماعية للمعلم، وفق ما يتم تصوره لدى أفراد المجتمع، يُحتّم علينا إبراز مفهوم المكانة في حد ذاته، وقد اختلفت تعريفات مفهوم "المكانة" باختلاف التوجهات والمنطلقات الفكرية. فقد حدّد "لينتون" مفهوم المكانة بأنه وضع الفرد في المجتمع، وهو مجموع الحقوق والالتزامات. (نبيلة باوية، 2006، ص 04).

ويتضح أنّ مفهوم المكانة هو أنها تُعبّر عن المكان الذي يشغله الفرد داخل نظام مجتمعه، وينعكس على أدائه من خلال الحقوق التي يمتلكها ويحوزها، والواجبات المفروضة عليه وفق المهنة التي يمارسها.

والمكانة هي الوضع الذي يشغله الفرد في النسق الاجتماعي بالنسبة للآخرين. (نبيلة باوية، 2006، ص 06). وهذا في تفاعله المتواصل مع من هم أوصياء عليه، ومن هو وصي عليهم من جهة، ومع بقية أفراد المجتمع من جهة أخرى.

وحدّد "كمال دسوقي" المركز بالوضع الذي يشغله الفرد في مجتمعه بحكم: سنّه، جنسه، ميلاده، حالته العائلية، وظيفته، تحصيله العلمي. (نبيلة باوية، 2006، ص 08). فالمركز أو المهنة من المؤشرات الهامة في تحديد المكانة الاجتماعية للفرد.

فالمكانة الاجتماعية للفرد ليست خاصية ذاتية فطرية له، بل هي عطاء يُقدّم إليه بناءً على عدة عوامل ومؤشرات، في ظل ما يُتوقّع منه من أدوار. إنها وحدة تفاعل اجتماعي، وتُستخدم كوحدة في تحليل النظام التربوي. (خلود صالح علي العجمي، 2023، ص 167). ونجد أنّ المكانة الاجتماعية تحدد الدور الاجتماعي المتوقع منها، كما أنّ الدور يُعيّن مستوى المكانة المناظر لها. (خلود صالح علي العجمي، 2023، ص 168). إذن، فالمكانة الاجتماعية للمعلم هي الوضعية التي تعكس الأدوار التي يقوم بها في النسق التربوي، وما يتوقعه الآخرون منه في إطار المهام الموكلة له.

أي: المكانة الاجتماعية للمعلم تعني المنزلة والتقدير الممنوحين له، ويُستدل عليها من خلال:

مستوى الامتنان والتقدير لأهمية عمله، ومن قدراته، ومن الظروف العملية المحيطة، والأجور، والمنافع المادية الأخرى الممنوحة له، وهذا بالقياس إلى مجموعات المهن الأخرى. (منظمة اليونسكو ومنظمة العمل الدولية) (خلود صالح علي العجمي، 2023، ص 170).

ويُعبّر عن المكانة الاجتماعية سوسيولوجيًا بأنها الرأسمال الاجتماعي، والذي يتمثّل في الحظوة الاجتماعية التي يكتسبها الفرد بشبكة من العلاقات، بمقتضاها يمتلك قيمة اجتماعية. (إبراهيم ماين، 2024، ص 17).

والمعلم بصفته يحمل راية العلم والعلماء، فينطبق عليه القول: "بأن العالم يجتمع إليه الناس حبًّا وطواعية لا إلزامًا، كما يجتمعون للملوك لمكانته ورفعته". (خولة علي حسن صالح، 2020، ص 59) .أي: المعلم الواجب أن يُحَبَّ ويُقدَّر من منطلق الرسالة العظيمة التي يؤديها، وبأنه يكاد يكون رسولًا، وهم -أي المعلمون -ورثة الأنبياء، وكل هذا التقدير والاحترام لشخصه عائد بشكل تلقائي وطواعية، ليس مفروضًا على الآخرين.

ولكن، هذه المكانة والحظوة الاجتماعية يعاني المعلم من عدم توفرها في جلّ المجتمعات التي يمارس فيها مهامه، وذلك في المجتمعات التي لا تُعطي قدرًا كافيًا له وللمهنة العظيمة التي يؤديها.

أما من أسباب تدنّي مكانة المعلم: تهميشه من الناحية البيداغوجية والمعرفية، فهو لا يملك القدرة على اتخاذ القرارات والتخطيط للمناهج. أمّا المعلم الجزائري، بالخصوص، فيعاني من الاستهتار والتقليل من شأنه وشأن مهنته. (إبراهيم سني، 2020، ص 246) .وتُلخّص عناصر مكانة المعلم فيما يلي: اقتصادية، شخصية، اجتماعية، ثقافية. (إبراهيم سني، 2020، ص 229).

ولا أدلّ على ما سبق في تراجع مكانة المعلم من تعرضه لكل أشكال العنف (لفظي، جسدي، رمزي)، فتمزّقت قيمة المعلم رمزيًّا. وهذا ما تطالعنا به كل يوم الصحف والوسائط الاجتماعية والعديد من التقارير التي تصل إلى مصلحة المنازعات في مديريات التربية، من اعتداءات تكاد تكون يومية على الأساتذة والأستاذات، في قاعات الدراسة وخارجها.

كما أنّ من دواعي تدني مكانة المعلم المجتمعية هي تلك التصورات والتمثلات الاجتماعية المتمحورة حول المعلم، من خلال أنه:

- شخص يرتدي أرخص الثياب.
- نموذج للطبقة الفقيرة.
- راتبه وثيابه وسيارته. (إبراهيم ماين، 2024، ص 18).

وهذا ما خلق مواجهة وصدامًا بين المعلم والمجتمع – الرأي العام – حين تم توجيه التهم والمساءلة للمعلم، وتحميله إخفاق المنظومة التعليمية. وأيضًا، فإنّ انحطاط

واهتزاز قيمة المعلم له امتداد، وهو انحطاط قيمة العلم في حد ذاته في الصورة المجتمعية. فكيف بنا ننتظر علوّ مكانة وقيمة صاحب الأمر المُنحط؟ أيّ قيمة ومكانة ننتظرها من معلم هو في حد ذاته فاقد ومسلوب منها؟!! وكما قيل: فاقد الشيء لا يعطيه.

ثم إنّ من أسباب غُبن المعلم اجتماعيًّا:

ضعف الراتب.

نظرة المجتمع السلبية. (صالح أحمد الراشد، 2007، ص 35).

فرواتب المعلمين قاصرة حتى عن الوفاء بحاجاتهم الضرورية، وهو ما يؤثر بدوره في درجة الرضا والمكانة الوظيفية لديهم. (خلود صالح علي العجمي، 2023، ص 166).

لا المعلم ولا المدرسة سلما من الإساءة والإذلال، في زمن أصبحت فيه المظاهر أسمى من الجواهر. (إبراهيم ماين، 2024، ص 17). فالمعلم يحتاج إلى رأسمال اقتصادي، واجتماعي، وثقافي، ومعرفي، واختلال أي رأسمال ينعكس سلبًا على قيمته. ولابد أن يُحترم المعلم من قبل: [الإدارة، عمال المدرسة، الشركاء الاجتماعيين، الأولياء، الفاعلين التربويين، المتعلمين، المجتمع...]. وأهم مشكل يُثقل كاهل المعلم: راتبه القليل مقارنة بغيره، كما سبق ذكره، وهذا أمام ظروف اجتماعية مزرية، مما يضطره للبحث عن عمل إضافي. (نجية بن العمري، 2011، ص 48).

أضف إلى ذلك النظرة المتدنية لمهنة التعليم والمعلم، خاصة في مرحلة التعليم الابتدائي، وهذا نتاج التمييز بين المراحل الثلاثة – ابتدائي، متوسط، ثانوي – من جهة، وبين أساتذة المراحل الثلاثة تحديدًا، رغم أحقية التعليم الابتدائي مقارنة بالمرحلتين الباقيتين. فالمعلم المبتدئ، خاصة في مرحلة التعليم الابتدائي، يتعرض لصدمة الواقع... صدمة الحقيقة.

**المعلم بين الحقوق والواجبات:**

كما أنّ من أسباب تدنّي مكانة المعلم اجتماعيًّا هو نتاج جملة أبعاد، أولها البعد الاقتصادي، ممثلًا في الراتب، والبعد القانوني، ممثلًا في تحجيم صلاحياته ومنع الضرب، مما نتج عنه استفحال ظاهرة العنف ضده، والتطاول على شخصه. كما يتحمّل المعلم جزءًا من تراجع مكانته، وهذا راجع لعدة اعتبارات؛ فالمعلم الذي يرتبط

بعلاقة شخصية مع تلاميذه، هذا التصرف يجعله لا يحافظ على مكانته وهيبته. والمعلم الذي لا يحترم مهنته، ولا يُخلص فيها، ويتذمّر منها على الدوام، بل وينكّت عليها وعلى نفسه، فكيف ينتظر من الآخرين احترامه والرفع من شأنه؟ إلى جانب ذلك، عدم اهتمامه بنفسه، وهندامه، وشخصيته، كلّ ذلك يسهم في اهتزاز قيمته ومرئيّته لدى الآخر. ويمارس المعلم مهنة اجتماعية كثيرة المطالب، وهي من أكثر المهن التي ترتبط بمستوى عالٍ من ضغوط العمل، فهل يحظى المعلم بالتقدير والاحترام والرعاية والإعداد، بالمقدار والنوعية التي يفرضها دوره المهم في عمليات التعليم والتعلّم والتربية والتنشئة الاجتماعية وتنمية المجتمع؟

كما يساهم أيضًا توبيخ الأولياء للمعلم أمام مرأى ومسمع التلاميذ في توليد جيل لا يحترم المعلم.

معنى هذا أن التهميش والإقصاء ركيزتان لانحدار فئات اجتماعية بأوضاعها المزرية، في مقابل فئات أخرى تُرسّخ معاني التفاهة وممارساتها. فليس الفارق بين الفئتين سوى هذا التعويض الهشّ. وعليه، سيسير هؤلاء التافهون تجاه إعلان وجودهم الممنوح مجانًا، وفي الوقت نفسه، سيكون المهمّشون غير ذوي مكانة، مما يجعلهم محبطين، ولن يجدوا إلا اجترار آمال تفتقد للحياة. (سامي عبد العال، 2017، ص 22).

يعاني المعلمون اليوم من عدم معرفتهم لحقوقهم وواجباتهم، بالإضافة إلى إهمالهم للمبادئ التربوية والأساليب التعليمية. (خولة، علي حسن صالح، 2020، ص 52). هذا يعود لعدة أسباب، أهمها نقص التكوين سواء قبل الخدمة أو أثناءها، الذي من الواجب أن توفّره الدولة للهيئة التدريسية، وأيضًا لتغاضي غالبية المعلمين عن تكوين أنفسهم في العديد من المجالات العملية كالتشريع المدرسي، وأهم استراتيجيات التدريس الحديثة، والاستخدامات المثلى للوسائل التعليمية وتكنولوجيا التعليم... وهذا في إطار التكوين الذاتي.

لذا، فإن من حق المعلم على السلطة التشريعية أن تضمن فلسفة الدولة التربوية حقوقًا تتناسب مع ما يقدّمه للمجتمع، وأن تكون القوانين والأنظمة التي تخص التربية تلبّي حقوق المعلم، كونه الشريحة الأهم من الموظفين. (سامي، يحيى عبد اللطيف، 2009، ص 106). أي بمعنى أن تكون هناك قوانين تحمي المعلم وتضمن له حقوقه وتُجسَّد على أرض الواقع، بل وتجعل منه في أعلى السلّم التراتبي في الوظائف. كما على

الوزارة أن تبذل المزيد من الاهتمام بشأنه، والتعرّف على مشاكله، وتقديم المعونات اللازمة له باعتباره أقلّ الطبقات ربحًا، وتخفف عنه الإرهاق الذي يعانيه، وتتعاون معه على إنجاح التعليم، وأن تبثّ فيه روح الإخلاص للواجب. (سامي، يحيى عبد اللطيف، 2009، ص 108). وهذا بالاهتمام والرفع من قيمته، وحمايته من أيّ تعدٍّ عليه، خاصة أثناء أداء مهامه ورسالته.

ومن حقوق المعلم: حقه في رفع معنوياته، وحقه في التكريم، وحقه في الألقاب، وحقه في تعديل المناهج، وحقه في توفير المستلزمات المطلوبة، وحقه في إغناء العملية التعليمية بتكنولوجيا المعلومات. (سامي، يحيى عبد اللطيف، 2009، ص 111). وكلّ هذه الأمور تدخل في إطار تحفيزه ودعمه في فعله التربوي والتعليمي، وأنه صاحب قرار، ويُرجَع إليه على الدوام في أيّ عملية إصلاح للمنظومة التربوية، بل وأيّ تغيير في المناهج التعليمية...

كما ينبغي على المنظمات والاتحادات الطلابية تركيز جلّ اهتمامها بالمعلم، وإبراز دوره الرائع في المجتمع، من خلال توجيه الطلاب إلى حسن التعامل مع المعلم وتوقيره بما يتناسب مع مكانته في المجتمع. (سامي، يحيى عبد اللطيف، 2009، ص 119). مع شعار المعلمين بعظمة عملهم، ورفع معنوياتهم، وتحفيزهم على تقديم الأفضل. (سامي، يحيى عبد اللطيف، 2009، ص 120).

وللأسرة أيضًا دور في هذا المجال، باعتبارها جزءًا من المجتمع، تقع عليها مسؤولية كبيرة تجاه المعلم وتعليم أبنائهم حب المعلم وتوقيره، وزرع حبّه في نفوسهم كحبّهم لوالدهم. (سامي، يحيى عبد اللطيف، 2009، ص 121) .فالمعلم الصالح هو سيّد الموقف التعليمي، وهو أقدر الناس على إدراك العوامل التي تحيط بعمله. فالمعلم الجديد أو من له مدة خدمة طويلة في التعليم، كلاهما في حاجة إلى عناية ترفع من الروح المعنوية له؛ فالعناية بالمعلمين تؤدي بالضرورة إلى رفع مستوى كفايتهم، كما تساعد على خلق قيادات مستنيرة واعية، خاصة أن المعلم عضو في البيئة، تقع عليه مسؤولية رفع مستواها عن طريق توجيه الأجيال المتعاقبة من الأبناء، مما يَحتم على المجتمعات بذل الجهود لإعداد المعلم إعدادًا سليمًا. (قاسم، بوسعدة، 2017، ص 16).

إذن، المعلم مسؤول ضمن معاييره، ومدير المؤسسة مسؤول ضمن معاييره، وهذا نابع من تحديد الأدوار والمسؤوليات. (محمد، تيسير الزعبي، 2024، ص 22). وهذا

كله في إطار تنظيمي يوضح حقوق وواجبات كل طرف في العملية التعليمية، كما يُحدِّد صلاحيات كل فاعل تربوي، لإضفاء الاستقرار والتكامل بين أعضاء الجماعة التربوية، خدمةً للمتعلمين في المؤسسة التربوية.

ينشد أي موظف في كل قطاع، سواء أكان عموميًّا أو خاصًّا، راحته النفسية والاجتماعية حتى يؤدي المهام الموكلة إليه وفق الأداء المتوقع منه، وهذا الهدوء والرضا عن أدائه يُعبَّر عنه بالرضا الوظيفي. فالرضا الوظيفي هو مدى شعور المعلم باحترام واعتراف المحيطين به في حقل التعليم. (صالح، أحمد الراشد، 2007، ص 38) والرضا الوظيفي هو مشاعر وأحاسيس من الارتياح يبديها الموظف عن عمله، نتيجة إشباع حاجاته – المادية والمعنوية – من حوافز وترقيات وتقدير واحترام، مما ينعكس على ولائه وأدائه وقدرته الإنتاجية. (آلاء عبد الله سالم، 2024، ص 09)

يشعر الموظف بأهميته عندما يُمنح صلاحيات لإنجاز عمله، وإتاحة الفرص للابتكار، الأمر الذي يرفع من مستوى رضاه عن العمل. )آلاء عبد الله سالم، 2024، ص .(19

ورفاه المعلم يتمثل في:

رفاه نفسي – رضا وظيفي–

رفاه اجتماعي – رضا حياتي – النظرة الاجتماعية أي احترام وتقدير لا دونية.

رفاه مهني. (محمد، حمور، 2024، ص 10). فرفاه المعلمين يُسهم في إقامتهم وبنائهم لعلاقات فعالة مع الآخرين) .محمد، حمور، 2024، ص 10–.(11 ورفاه المعلمين ماديًّا ومعنويًّا ينعكس في تحسن جودة التعليم. وفي دراسة أعدّتها مؤسسة الملكة رانيا سنة 2018 حول سؤال موجه للمعلمين:

هل تشعرون بالسعادة والدافعية العالية عندما تستيقظون صباحًا للذهاب إلى مدارسكم؟ جاءت الإجابات بأنّ الرغبة في الانخراط في التدريس كانت الأدنى بين الاحتياجات التي قدّمها المستجيبون، مبررين ذلك بانخفاض الأجور وتدنّي النظرة المجتمعية للمعلم. )محمد، تيسير الزعبي، 2024، ص .(23

وهنا يبرز ما للجانب الاقتصادي من انعكاس على الأداء الوظيفي، والذي لا يمكن إغفاله بحال من الأحوال. زد على ذلك نظرة المجتمع الاحتقارية والدونية، من خلال أفراده، لمهنة التعليم وللمعلم بالخصوص، وكل هذا يُشعر المعلمين بالاغتراب الوظيفي وكُرههم للمهنة، مع شعورهم بإضاعة وقتهم في الدورات المُكرّرة وذات المضمون النظري الجاف.

ولتنفيذ المهمات وتحقيق الإنجازات ومحورية دورهم، لن يبخل المعلمون والعاملون في المدرسة بوقتهم وتعبهم وحرصهم، عندما يكون بالهم مطمئنًا تجاه مسؤوليات أسرهم وعائلاتهم معيشيًّا. )محمد، تيسير الزعبي، 2024، ص .(21

وفشل المنظومة التربوية في بلد ما يُعزى للمعلم ويُحمّلونه وزر الإخفاق، في حين أن حصول النجاح لا يتم تكريمه فيه، بل يُكرّم التلاميذ والمدراء، وكأنه لم يساهم في هذا النجاح، مما يُقلّص أو قد يقضي على رغبته وحبه للمهنة والتميز فيها. فألف علامة استفهام حول العبارة الأشهر التي تُقصي المعلم، وهي القول: إن المتعلم هو محور العملية التعليمية التعلمية... وكأن المعلم لا معنى له. وهذا ما يظهر في تشكّل ظاهرتين بارزتين، هما:

**المعلم والرضا الوظيفي:**

العزوف عن مهنة التعليم.

الإقلال من شأن المعلم ماديًّا واجتماعيًّا.

**التوصيات:**

- جعل المعلمين يؤمنون بأنّ جهودهم هي المُحرّك والفيصل في نجاح العملية التعليمية.
- لا بد من دعم مادي ومهني ونفسي للمعلمين، وتخصيص الموارد والمصادر التي يحتاجونها، وأن تُفتح لهم أبواب الرأي والمشورة، وأن يُعاملوا باحترام.
- تحسين النظرة الاجتماعية إلى المعلمين، من نظرة دونية إلى نظرة تقدير واحترام وعرفان بالجميل.
- احترام مهنة المدرّس ودعمها من قِبل الحكومات.
- دعم المدرسين في عملية التطوير المهني.

- الخروج من نموذج "مدرسة العسكر" إلى نموذج "مدرسة الحياة."
- تكريس ثقافة الاعتراف والتقدير لجهود المعلمين من خلال المكافآت والتحفيزات.

**خاتمة:**

اتضح أنّ الراهن الذي يعيشه المعلم في العديد من المجتمعات هو وضع لا يُمكن تقبله بأي حال من الأحوال، ونحن في عصر التفاهة بكل تجلّياته، ولعلّ شراسة التفاهة تشتد في طرح موضوعات السخرية من الشخصيات والإيعاز بالكراهية، فوصل الاستهتار والاستهزاء بالمعلم إلى مستويات لا تُطاق، وهذا في مجتمعات تقول إنها تحترم نفسها. فكيف بالمعلم يُصبح شغله الشاغل تحصيل ظروف معيشته وتوفير مستلزماته الضرورية؟ وهو الذي يُفترض أن يكون في أعلى مراتب الموظفين، وله الريادة والمنزلة العالية على غرار نظرائه في مجتمعات أخرى.

فمثلاً: "ديغول" رئيس فرنسا زار إحدى القرى في فرنسا، وعندما التقى بأعيان المنطقة سلّم عليهم سلامًا عاديًا، وحين أُخذ إلى إحدى المدارس الابتدائية والتقى بمعلم سلّم عليه سلام احترام وتقدير، فتعجب الحاضرون، وخاصة المسؤولون، فقال لهم: "هذا الذي أنتج فرنسا وأنتج ديغول"!

رئيس الوزراء الياباني، لما سُئل عن السبب الذي جعل اليابان تصل إلى ما وصلت إليه من معجزة، أجاب: "حين وضعنا المعلم في مرتبة الوزير، وصلنا إلى ما وصلنا إليه".

رئيسة وزراء ألمانيا السابقة -أنجيلا ميركل -لما طُلب منها مساواة الموظفين في الرواتب مع المعلمين، كان جوابها مقنعًا وصادمًا: "كيف أسويكم مع من علّمكم ودرّسكم؟"

ختامًا، إذا أراد أي مجتمع أو أمة أن تنهض من كبوتها وتخلُفها، فما عليها إلا أن تولي الاهتمام والمنزلة المثلى لنظامها التعليمي، وبالدرجة الأولى لصانعيه ومهندسيه، ألا وهم المعلمون... وما أدراك ما المعلمون! فهم أساس نهضة المجتمع، وأول لبنة في التنمية الاجتماعية، هم المعلمون.

**قائمة المصادروالمراجع:**


1. بن زاف، جميلة .(2014) تأهيل المعلم كأحد متطلبات الإصلاح التربوي الجديد في ضوء نظرية الموارد البشرية .أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، الجزائر.
2. بوسعدة، قاسم (2017). المعلم الكفء أو الفعال .مجلة دراسات نفسية وتربوية، العدد 18، الجزائر.
3. بن العمري، نجية .(2011) تصور المعلم لمهنة التعليم في مرحلة التعليم الابتدائي. رسالة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر، الجزائر.
4. باوية، نبيلة .(2006) تقدير المكانة الاجتماعية لمهنة الأستاذ الجامعي .رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ورقلة، الجزائر.
5. حمور، محمد (2024). تأثير التتالي: كيف يسهم رفاه المعلمين في نجاح المتعلمين؟ مجلة منهجيات، العدد 17، لبنان.
6. الزعبي، محمد تيسير (2024). كيف يرضى المعلمون عن مهنتهم؟ مجلة منهجيات، العدد 17، لبنان.
7. سني، إبراهيم .(2020) واقع الهيئة التعليمية وعلاقته بالمكانة الاجتماعية للمعلم في الجزائر من وجهة تصور أولياء التلاميذ .أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة بسكرة، الجزائر.
8. صالح، أحمد الراشد (2007). واقع المكانة الاجتماعية للمعلم في الكويت .مجلة العلوم الإنسانية، العدد 27، الكويت.
9. صالح علي العجمي، خلود (2023). مكانة المعلم الاجتماعية وعلاقتها بدوره في تنمية المجتمع الكويتي .مجلة كلية التربية، العدد 90، الكويت.
10. علي حسن صالح، خولة، ومريم أحمد الزهراني (2020). صورة المعلم في أدب التراجم .مجلة العلوم الإنسانية والحضارة، المجلد 5، العدد الأول، السعودية.
11. عبد الله سالم، آلاء .(2024) الرضا الوظيفي لدى المعلم .رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة الخليل، فلسطين.
12. عبد العال، سامي (2017). أنطولوجيا التفاهة -سؤال اليومي في عصر ما بعد الحداثة .مجلة مركز الخدمة للاستشارات البحثية واللغات، العدد 56، مصر.
13. ماين، إبراهيم (2024). المعلم وأزمة القيمة: قراءة في قيمة المعلم الاجتماعية.

مجلة منهجيات، العدد 17، لبنان.
14. يحيى عبد اللطيف، سامي (2009). حقوق المعلم على الدولة والمجتمع والمتعلم. مجلة دراسات تربوية، العدد الثامن، الكويت.

# المثقف العربي في مواجهة التافهين على شبكات التواصل الاجتماعي والتلفزيون، قراءة في تحولات المثقف العربي من المعرفي إلى المثقف الشبكي.

# The Arabic Intellectual Confronting the Trivial on Social Media and Television: A Study of the Transformation from the Knowledge-Based Intellectual to the Networked Intellectual.

**د. أحمد معط الله**

**جامعة عباس لغرور-خنشلة.**

**مقدمة:**

المثقف تميز على مر العصور بسرعة انخراطه في الحراك الاجتماعي، وانتقاله من أدوار إلى أخرى تماشيا مع تطور المجتمعات الإنسانية والمستجدات التي تعرفها، فالمهمة التي يحملها المثقف، والدور الذي يلعبه، يتعدى دور التفاعل مع الأحداث إلى دور أكثر أهمية وحسما في تاريخ الشعوب والأمم، وهو صناعة الأحداث، وقيادة المجتمع، وبناء الوعي، ويواجه المثقف دوما عوائق ومثبطات تحول أحيانا بينه وبين أدائه الحضاري فالتاريخ العالمي يروي لنا كيف أن المثقفين واجهوا الكثير من التحديات والأخطار سواء من قوى اجتماعية أو دينية أو سياسية، كما هو حال مثقفي أوروبا في العصور الوسطى، فقد نكل بالكثير منهم من طرف محاكم التفتيش التي حكمت بحرق "جوردانو برونو" وسجن «غاليليو" وفي تاريخنا العربي الإسلامي واجه المثقفون الكثير من التحديات، ولعبوا أدوارا لا يستهان بها في صناعة الأحداث وقيادة المجتمع وحمايته ولأدل على ذلك من محنتي "أحمد بن حنبل" و"ابن رشد" وتاريخنا المرير حافل بهذه النماذج.

وقد أدى المثقفون قديما أدوارا تتراوح بين بنائهم للأفكار، ونقدهم لكل ما يرونه يستحق النقد ورفضهم الظلم، وتفاعلهم مع مجريات اللحظة الاجتماعية، وقيادتهم للمجتمع، ولكن المثقف العربي اليوم يواجه تحديات جديدة لم يعرفها من قبل، فهو اليوم في عالم ما بعد الحداثة يعيش تحولات جذرية، شملت شتى المجالات، فالعالم اليوم يعرف انهيارا فظيعا للقيم وطغيانا للنزعة المادية وتغييرا في النظرة للعالم

وللإنسان وقد صحب هذه التغييرات تحولا في ملامح المجتمعات العربية، فهي لم تعد مجتمعات تقليدية، كما كان عليه الوضع فيما مضى.

إن الصورة التي تنقلها وسائل الإعلام قد قلبت تماما دور المجتمع والأسرة خاصة واغتصبت الذات والفردانية وانتهكت الحرمات والخصوصية، جهارا نهارا دون أن تطرح أية علامات استفهام، وعملت الكثير من الحصص التلفزيونية على تسويق صورة جديدة للقدوات في المجتمع فارتفع التافهون وصاروا مؤثرين بشكل لافت في المجتمع وقيمه، ما يشكل خطرا على التربية والأخلاق والوعي، ناهيك عن خطر شبكات التواصل الاجتماعي التي أصبحت متاحة للجميع فارتفع التافهون وصاروا ينظرون للمجتمع وينشرون تفاهتهم، التي أصبحت ديدنا للكثير من الشباب العربي للأسف الشديد وقلبت منظومة المعايير لديهم، هنا ظهر نوع جديد من المثقفين وهو المثقف الشبكي الذي لم يخرج عن إطار الأدوار الحضارية التي من المفترض أن يؤديها المثقف في كل مكان وزمان

فالمثقف الشبكي لا يقوم بالدور المعرفي فقط على الشبكة، بل يقوم بأدوار متنوعة، فهو الذي ينشئ المواقع والصفحات ويديرها ويحميها من الاختراق، فيكون بذلك منيرا للحقيقة، وموجها لمستعملي الانترنت وشبكات التواصل الاجتماعي، فاضح لبعض الممارسات خاصة ما يتعلق منها بالرد على التافهين وبيان خطرهم على المجتمع وأعادتهم إلى مكانهم الطبيعي فيه، وحماية الشباب من السموم التي يبثونها من خلال ما ينشرونه.

وهكذا ينخرط المثقف الشبكي في المجتمع، ويشارك في صيرورة الأحداث ويتحول من منظر إلى فاعل اجتماعي وحام للمجتمع من التافهين ونظام التفاهة المراد فرضه من خلال التلفزيون ووسائط التواصل الاجتماعي.

فكيف يمكن للمثقف كمعرفي مواجهة نظام التفاهة والتافهين؟ وكيف يمكن له حماية المجتمع وقيمه من محاولات التمييع وتسطيح الوعي الجماهيري؟

من الصعب أن نجد مرادفا مباشرا لمفهوم التفاهة، كما هي واردة في كتاب **نظام التفاهة** لصاحبه **ألان دونو**، فهي مفهوم جديد الميلاد والنحت، ويعبر عن دلالات تلتقي مع معنى «ما هو متوسط» (ألان ،2020 ص70) أي متوسط الذكاء،

سيئ القدرات، قليل المفهومية، ضعيف المهارات، الرديء، المستبعد والمهمل بالتالي فالتفاهة هي نقص الأصالة والكفاءة أو القيمة، تعبر عن الدرجة المتوسطة في الفعل بما هي معيار نخضع له، وقد رفع إلى درجة الحكم والسلطة والهيمنة ليتخذ صفة نظام قائم الذات نافذ السلطة.

يشير مفهوم التفاهة إلى التافه médiocrité، وهو وصف حالة من السطحية والسخافة، ترتكز على أبعاد نفسية وفكرية واجتماعية فهو – التافه -مخلوق منحط عديم القيمة ولكن للأسف يصبح يحتل الصدارة ويخطف الأضواء ويصبح هو الفاعل والموجه للقيم، وصانعا لها.

مع العلم أن ابتذال الأشخاص التافهين هو أمر يغيب عن أنظارهم هم أنفسهم[1] فالتافه لا يعي تفاهته، فما أشبهه بدونكيشوت في رواية سارفانتس، ولكن دونكيشوت سارفانتس خجول ومتقوقع على نفسه أما دونكيشوت مجتمعنا -التافه -فهو متفتح كثيرا على المجتمع إنه يبني قيمه وتوجهاته رغم سطحية أفكاره وضحالتها.

إن جوهر الكفاءة عند التافه تكمن أساسا في القدرة على التعرف على تافه أخر مثله، وحسن انتقائه وتدعيمه ومؤازرته، فالتافهون يساندون بعضهم البعض، ولقد صدق "نيتشه" عندما قال: حيثما تجد اصطفافا واكتظاظا فثمة تجمع للحمقى.

ولقد عانت المجتمعات الإنسانية على مر العصور، من التافهين كلما احتلوا المشهد الاجتماعي، ولكن الأمر في زماننا زاد عن حده، وأصبح الأمر ينبأ بانهيار فضيع في القيم والأخلاق، وسقوطا حرا في يم الرذيلة والغريزة والحيوانية. لقد سعى أفلاطون التافهين في زمانه تارة بالغوغاء وتارة أخرى بالسوقة واتهمهم بإفساد الديمقراطية الأثينية، ولعب التافهون دورا محوريا في الترويج لأباطيل الكنيسة وترهاتها كصكوك الغفران، وفي عصرنا الحالي لعب التلفزيون ووسائط التواصل الاجتماعي دورا حاسما، في الترويج للتافهين ونشر تفاهتهم.

فمن يستضاف في البرامج التلفزيونية؟ إنهم التافهون لا يهم موضوع الحصة التلفزيونية ولا المجال الذي تتناوله، التافه هو محور النقاش وله الكعب العليا على غيره، فطريقة كلامه ونقاشه الفوضوية والاندفاعية، واستعماله للعبارات النابية في الكثير من الأحيان تجعله المتفوق في النقاش والجدال، وتظهر موقفه أقوى، كل

هذا بتواطؤ مقدم الحصة، وفي كثير من الأحيان يتم استضافة كاتب أو عالم، أو مفكر ومثقف ويستضاف معه تافه أو مجموعة من التافهين ودائما بتواطؤ من المقدم الحصة، يتم محاصرته وإحراجه ومهاجمته، في عمل شيطاني الهدف منه هو تصوير ضعف المثقف وتهافت أرائه وعدم جدواها، وتصوير التافه وتوجهاته وآرائه بأنها الأصح والأنسب والأقوى. في الحقيقة إن صناعة التافهين أمر هين ويسير وسهل، وهذا إما عملت على بناءه الأنظمة التوتاليتارية على حد تعبير **حنة أرندت**، فالمثقف يشكل صوت الوعي الأصيل الذي يهدد السلطة الحاكمة لهذا يجب تقزيمه وإلغاء دوره، فما الحل...؟ التافه في الصدارة وليذهب المثقف إلى الجحيم...

يكتب ألان دونو أستاذ الفكر النقدي في العلوم السياسة في جامعة مونتريال بكندا في مستهل كتابه **نظام التفاهة:** ضع عنك تلك المؤلفات المعقدة، لأن دفاتر الحسابات سوف تفي بالغرض. لا تكن مزهوا بنفسك ولا حصيفا، ولا في دعة، قد تبدو متغطرسا، ألجم غلبة شهواتك، إنها مخيفة، وقبل كل شيء لا تدل بأدنى فكرة حسنة(...) يجب أن تفكر برخاوة وتظهر ذلك، وتتحدث عن نفسك بتحقيرها بقدر لا يؤبه به، ينبغي أن تسهل على الغير وضعك في خانة، لقد تغيرت الأحوال (...)لقد استولى التافهون على السلطة (ألان، مقدمة الكتاب).

أين تكمن مقدرة التافه الرئيسية؟ في التعرف على تافه أخر مثله ينخرط معه في تفاهته ونشرها، ويعمل جميع التافهون بمبدأ شجعني أصطف معك وأشجعك، وهكذا تقوى شوكة جماعة التافهين، وتتسع دائرة نفوذهم في المجتمع ويكاد حشدهم يشكل الأغلبية فيه، هكذا يزيد عدد التافهين من المؤيدين والمعجبين وكل من يريد الظهور وإيجاد مكانة له في المجتمع، هكذا يصبح المجتمع مرتعا خصبا للقطيع الكبير من الضعاف وفاقدي المكانة في المجتمع ،ليس المهم تجنب السخافة، والوضاعة ،والشذوذ في السلوك والدوس على قيم المجتمع، والقانون والدين، فالمهم هو جعل هذه السخافة والوضاعة والشذوذ شكلا من أشكال السلطة، فالاصطفاف الجديد في المجتمع حول التافه يمنحه سلطة معنوية، تجعله يشكل بالفعل خطرا داهما للمجتمع وقيمه واستقراره ويحرج السلطة الفعلية والحاكمة في المجتمع - إن لم تكن هي الراعية لهؤلاء التافهين - فأي رد فعل من السلطة الحاكمة وأي قرار تتخذه ضد التافه، قد يوصل المجتمع إلى مالا تحمد عقباه، فمساءلة التافه أو محاكمته أو سجنه، قد يؤدي إلى ثورة ....

نعم إن السلطة التي صار التافه يمثلها تقوى يوما بعد يوم، وصوته أصبح الغالب في المجتمع وللأسف صار التافه قدوة، وللأسف فإن نظام التفاهة منح بعض النكرات في المجتمع سلطة تقوى شوكتها يوما بعد يوم، بل وأصبح التافهون يجنون الأموال نتيجة ما ينشروه من تفاهة على مواقع التواصل الاجتماعي وفي القنوات التلفزيونية، فهذا الجو الغير طبيعي في المجتمع واللاعقلاني يسمح لتافه جويهل أن يجني أموالا طائلة بتفاهته، فقد يكون بائع خمور أو مخدرات أو صاحب بيت دعارة، فيقوم بتبييض أمواله فينشأ مدرسة ويشتغل عنده مدرسين، وقد يبني مستشفى ويشتغل عنده أطباء وجراحون، وقد ينشأ شركة بناء أو أشغال حفر أو تعبيد الطرقات، فيشغل عددا من التقنيين والمهندسين ممن يشكلون الطبقة المثقفة في المجتمع، هكذا يصبح التافه هو المسيطر ويتحكم في الطبقة المثقفة ولقمة عيشها، إن هذا الوضع الغير طبيعي واللاعقلاني هو ناتج عن خطة محكمة، هدفها تدجين الشعوب وجعلها كالقطعان هدفها استحمار البشرية، وجعل المجتمع الإنساني مجتمعا سطحيا إلى أقصى الحدود مغيبا عن الأسئلة الحضارية الكبرى، إن السلطة الحاكمة وبعض الدوائر السرية في العالم بدهائها ومكرها تعمل على جعل المثقف ودوره هامشيا، وتمنح الفرص لفئة طفيلية في المجتمع تطفو إلى السطح، وتحتل الصدارة، وتملأ المشهد الاجتماعي، وتصبح هي الصانعة للأحداث، للأسف تصبح القدوة والنموذج في المجتمع لجمهرة الشباب، فحينما يرون أن المغنية الفلانية، أو تاجر الخمر الفلاني، أو الراقصة أو صاحب مقاطع الريلز أو التيك توك أصبح يملك سيارة فاخرة، امتلأ حسابه البنكي، يحذون حذو هؤلاء ويتبعون دربهم شبرا بشبر وذرعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكوه هم أيضا.

لقد سيطرة التفاهة على الحياة في المجتمع، فالمثقف في زمننا الحالي لم يعد يرغب في التفكير ولا وقت له لذلك، فقد حاصره التافهون من كل حدب وصوب، حاصروه بالمشاهد وبالصور حتى أصبحت الكتابة والتأليف عيثا، فالقراءة أزيحت تماما وحلت محلها الصور والفيديوهات، صور التافهين وفيديوهاتهم فبعد أن كان الفكر والتنظير للمجتمع عملا ثقافيا خالصا للمثقف وحده، أصبح التافهون هم من يرسمون معالم المشهد الثقافي في المجتمع، وأية ثقافة يمكن لهؤلاء إنتاجها...

لقد شلت أنامل المثقف وتحجر عقله، وفقد المسار، وارتفع التافه وسيطر على المجتمع وتبعه القطيع

لقد تغيير الذوق بفعل التفاهة في المجتمع وصار الحديث السائد في الحياة اليومية عن أفضل رقصة، وأجمل قصة شعر، وأجود حذاء، وأجمل راقصة، وأكثر أغنية تأثيرا لهذه السنة ولهذا الشهر، وتطول الساعات في البلاتوهات وعلى صفحات الفيسبوك في الجدال ،والنقاش ،والتحليل والتدقيق في هذا الأمر، للأسف لقد غزت التفاهة كل مناحي الحياة، والسبب الأول هو منحهم الفرصة الأكبر للظهور على القنوات التلفزيونية، كما أن شبكة الانترنت ومختلف وسائطها وسهولة استعمالها ومنحت التافهين المجال الأوسع لنشر تفاهتهم وتسطيح الوعي في المجتمع.

عرفت نهاية القرن العشرين بروز ثلاث ثورات متزامنة، ولا تقل أهمية عن بعضها البعض، هي الثورة العلمية نتيجة تطور البحوث والاختراعات في مختلف العلوم، وثورة عصر الفضاء نتيجة للتطور في مجال الاتصالات، وثورة المعلومات نتيجة للتطور الكبير في مجال الحواسيب، وظهور الشبكات والطرق السريعة للمعلومات، حقيقة إننا نعيش اليوم ثورة في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصال، أسفرت عن ظهور مجتمع جديد باحتياجات متجددة، تغيرت فيه المعادلة من إنسان إلى إنسان آلة أو جهاز ذكي (عبد الرزاق 2011، ص ص31-32). وحقيقة إن عصرنا الحالي وعصر المعلومات، فقد صار تدفق المعلومات رهيبا، وبلغت الدقة والتقنية في هذا المجال درجة عالية من الجودة وأصبح بالإمكان امتلاكها واستعمالها بسهولة تامة، ونتيجة لهذه التغيرات والثورة التكنولوجية في هذا المجال، تغيرت ملامح المجتمعات الإنسانية وأسفر ذلك عن تغير في الذوق وفي الكثير من القيم المجتمعية وتغيرت بعض ملامح الثقافة المحلية والعالمية.

إن العلاقة ما بين الثقافة والاتصال أو الإعلام هي علاقة وطيدة، لأن الاتصال يشكل العنصر الحيوي أو الجوهري في الحياة الإنسانية، على اعتبار أن الاتصال هو الرحم الذي احتضن الثقافة، وساهم في نقلها وإيصالها للمجتمع الإنساني في جميع أنحاء الدنيا بل إنه الوسيلة الحقيقية التي تعبر عن فلسفة وجوهر الثقافة، والاتصال من وظائفه نقل التراث الإنساني، وفي حماية الثقافة والتفاعل مع المجتمعات والثقافات الإنسانية الأخرى[2*] وكذلك فالاتصال له دور كبير في تدبير شؤون المعرفة، وتنظيم الذاكرة الجماعية للجميع، وخاصة جمع المعلومات العلمية ومعالجتها. واستخدامها، وهو يستطيع احتمالا على الأقل إعادة صياغة القالب الثقافي للمجتمع (بسام ،2013، ص134)، ولكن وللأسف أصبح وسيلة لقلب القيم في المجتمعات الإنسانية، وسلاحا

سهل المنال للتلاعب بالعقول وتوجيهها نحو التفاهة والسطحية والابتذال والسخافة.

ومن سمات عصرنا الراهن أنه «عصر الصورة»، مما يعني هيمنة الصورة وسيادتها لتكون إحدى أهم أدوات عالمنا المعرفية والثقافية والاقتصادية، والصورة ليست أمرا مستجدا في التاريخ الإنساني، وإنما تحولت من الهامش إلى المركز، ومن الحضور الجزئي إلى موقع الهيمنة والسيادة على غيرها من العناصر والأدوات الثقافية والإعلامية (فهد ،2010، ص78).

إن الصورة حلت محل أدوات المعرفة وأدوات نقل الثقافة كالجريدة والكتاب وما يلاحظ في عصرنا الحالي هو انخفاض كبير ولافت للنظر، لقراء الجرائد والكتب وفي المقابل ظهرت وسائل تكنولوجية تتميز بالسرعة والتدفق الكبير للمعلومة، فلو نأخذ مثلا متتبعي الفيسبوك أو التويتر أو اليوتيوب سنجدهم بالملايين، في حين أن متتبعي الصحف والجرائد والكتب أعدادهم لا تتجاوز بضعة آلاف، هكذا حلت الصورة مكان الوسائل الثقافية التقليدية وأصبحت السمة البارزة لعصرنا الحالي وسمي تبعا لذلك هذا العصر بعصر الصورة، وهذا ما فشل المثقفون للأسف في إدراكه منذ الوهلة الأولى ما سمح لجحافل التافهين من السيطرة على المشهد الثقافي للشعوب ،والتأثير في عقول الشباب وأذواقهم، ولم تسلم حتى النساء الماكثات في البيوت من تأثيرهم ومن تفاهتهم، فكم هي كثيرة مقاطع الفيديو والرولز التي تنشرها نساء ماكثات بالبيوت، بعض هذه الفيديوهات والصور للأسف الشديد فاقت ما يمكن أن يخطر على بال، رقصات وتمايل وكلمات نابية وإغراء وحديث عن أمور خاصة تخدش الحياء .

لقد عمت الصورة البشرية كلها، وتساوت العيون في رؤية المادة المصورة مبثوثة على البشر، كل البشر دون رقيب أو وسيط، هذا تغير جذري من الكلمة المدونة التي هي روح الأدب وعنوان الثقافة الأصيلة، إلى الصورة التلفزيونية التي هي لغة من نوع جديد وخطاب حديث له صفة المفاجأة والمباغتة مع السرعة الشديدة، ومع قوة المؤثرات المصاحبة وحدية الإرسال وقربه الشديد. حتى لكأنك في الحدث المصدر من دون حواجز[3].

إن للتلفزيون مكانة خاصة في حياتنا المعاصرة، فقد دخل كل بيت وأصبحنا مدمنين على مشاهدة البرامج التي تعرضها القنوات الفضائية والتلفزيونية، والتلفزيون اليوم وسيلة إعلامية له مميزات وخصائص كثيرة منها انتشاره الواسع إضافة لما يقوم به

من تقديم المتعة والترفيه، وإمكانيته على التأثير على الجميع كون من يشاهده كافة فئات المجتمع، من فقير وغني، من متعلم وأمي، من كبير وصغير، وتزداد مشاهدة التلفزيون في الدول النامية عنه في الدول المتقدمة، وخاصة بين الشباب بسبب زيادة نسبة الأمية، والظروف الاقتصادية الصعبة والبطالة ووقت الفراغ الكبير، وعدم توفر وسائل اللهو الأخرى مما يدفع بهم إلى الجلوس طويلا أمامه، وقد أصبح وسيلة مهمة لتوجيه المواطنين، وهو وسيلة للإنتاج الثقافي، وأن كل ما يبثه له تأثير ثقافي معين سواء كان هذا التأثير سلبيا أم إيجابيا (عبد الله ،2005، ص24).

لقد أضحى جهاز التلفزيون وسيلة لتكوين قيم ثقافية جديدة للمشاهدين وأصبح الوسيلة الأولى للإنتاج الثقافي، ناهيك عن كونه وسيلة للإعلام ونقل الأخبار بسرعة كبيرة، بالصورة والصوت وكأنك في قلب الحدث، وتتنوع البرامج التلفزيونية لتعطي مناحي الحياة الإنسانية تاركة تأثيرات كبيرة وواضحة على المشاهدين. بل وأصبح التلفزيون وسيلة لتمرير بعض الأفكار والقيم وترسيخها في ثقافة المجتمع.

لقد صار الإنسان اليوم في مواجهة مباشرة وفردية وتلقائية مع العالم عبر الشاشة الصغيرة، وفي مقابل هذه الفردية والتلقائية فإن الصورة لا تستقر على حال، وبما أنها لا تستقر على حال، وبما أنها سريعة ومتجددة فإنها قد صارت عاجزة عن الثبات، على عكس ما كانت عليه الثقافة التقليدية المعتمدة على الكلمة المكتوبة، حيث تثبت الفكرة ربما لقرون وليس لسنوات فحسب، بينما نحن في ثقافة الصورة فقدنا أول ما فقدنا عنصر الثبات، وفقدان هذا العنصر يهدد الصورة دائما بالنسخ والإلغاء (عبد الله ،2005،ص46) إنها ميزة عصرنا الحالي بامتياز، الصورة تتوالد بشكل رهيب فلا تثبت صورة في الذهن حتى تلغيها صورة جديدة أو تنسينا فيها . هكذا فقدنا عنصر الثبات في الثقافة البصرية التي هي ميزة عصرنا الحالي.

وللصور التلفزيونية تأثيرا وسيطرة كبيرة على عقول البشر المتتبعين من خلال مفعول الصور التي يبثها التلفزيون فتلقى قبولا، ثم ما يلبث أن يبث صورا تنسخها، فيكون القبول في البداية، ولكن سرعان ما يصبح رفضا بسبب الصور الناسخة، وهكذا سيطر التلفزيون على تقليد البشر وأصبح هو الذي يبني قناعاتهم وآرائهم.

إن الوحش الإعلامي إذ يتمادى في وحشيته، فهو ينقض نفسه بنفسه، والصورة تنسخ بذاتها صورة ناقضة لها وفي زمن سريع، وهذا يفضي بأن تنكشف حيل الخطاب

وينقض الخطاب نفسه بنفسه[4]. فالصور لا تثبت على حال وبعضها ينسخ البعض الآخر، ما يعني النسبية وعدم وجود حقائق ثابتة. وللآن كان لوسائل الإعلام ومختلف الوسائط التكنولوجية الأخرى كالأنترنت وتطبيقاتها محاسن وفوائد كثيرة، إلا أنها لعبت دورا كبيرا في تزييف الحقائق، وتوجيه الوعي وتسطيحه وجعله وعيا زائفا، سهل الاختراق والتوجيه والتنميط، فقد لعبت وسائل الإعلام دورا في تنميط المجتمعات الإنسانية - خاصة في العالم الثالث - وتوجيهها وجهة محددة، هي ترسيخ ثقافة الاستهلاك والتسليع، وجعلت الوعي لدى شعوبها سطحيا وهشا بغية التحكم في هذه الشعوب، واختراقها تمهيدا للتدخل في شؤونها واستغلال ثرواتها، وجعلها أسواقا مفتوحة لكل ما تنتجه .

وقد وظفت السلطة الإعلام في الحفاظ على بقائها واستمرارها، ويقوم الإعلام بدوره كأداة للسلطة من خلال أربعة وظائف رئيسية هي: تبرير وجود السلطة ومنحها المشروعية والإشادة بمنجزاتها، والتنديد بخصومها (المثقفون)، وبهذا الدور الدعائي أصبحت وظيفة وسائل الإعلام أقرب إلى الدعاية منها إلى الإعلام، ولكن هذا الدور الدعائي المؤيد للسلطة هو الغالب على طبيعة العلاقة بين الإعلام والسلطة (عبد الله ،2005،ص47)، فقد استطاعت السلطة في كل البلدان وخاصة في العالم الثالث وفي الدول العربية أن تبسط سيطرتها على المجال الإعلامي، واستخدمته وجعلته وسيلة للدعاية ولتزيين صورة السلطة الحاكمة وللإشادة بمنجزاتها واستعملته أيضا للدعاية المضادة، لتشويه صورة المناوئين والمعارضين وتخوينهم ولإلصاق التهم بهم، وإبطال تأثيراتهم بالرأي العام.، ولهذا عملت على صناعة مجموعة من التافهين تابعة لها، ومنحتها كل الفرصة وكل الوسائل والحماية لتتصدر المشهد الاجتماعي والأحداث ولتخرج المثقفين إلى الهامش .

إن ثورة الاتصال الثالثة هي الثورة الإلكترونية، وقد بدأت باستخدام الراديو كوسيط لنقل الرموز عبر الأثير، وكان التلفزيون أحد الإنجازات الهامة لهذه الثورة الإلكترونية ثم جاءت القنوات الفضائية نتيجة الامتزاج بين تكنولوجيا الحاسب الآلي وتكنولوجيا أقمار الاتصال الصناعية، وبعدها ظهرت الأنترنت واستقرت كوسيلة اتصال حديثة، مستقلة عن عداها من وسائل الاتصال الجماهيرية الاتصال الجماهيرية.

ويعمل الإعلام الموجه على إنتاج جمهور مغيب عن حقيقة واقعه المعاش، من خلال غرس قيم الخنوع، والاستكانة والرضا بما تقدمه له الأنظمة الاستبدادية، بحيث يصبح سلعة طيعة التداول في قبضة الحاكم الفرد الدكتاتور، من منطق أنه ليس في الإمكان أفضل مما كان، بما يجعل قيادته أسهل وأسلس وطبعا ستجد في التافهين أبواقا متاحة وسهلة للترويج لأفكارها والدفاع عنها، وهو ما أكده الباحث الفرنسي جان بودلير بقوله: «إن سيطرة شركات وسائل الإعلام الخاضعة لنفوذ المؤسسات الصناعية والمالية الكبرى من خلال فرض سلطتها في اختيار القائمين على الإعلام وما يتبعه من تقييد للمعلومات التي توجه من خلال وسائل الإعلام، لتصنع طبقة من صانعي المنتج الإعلامي، هؤلاء يمثلون مصالح الحكومة ويضللون المستهلكين المخدوعين الذين تم إدخال الغش عليهم بوسائل مغلوطة من وسائل الإعلام لتقبل وجهات نظر الحكومة أو الطبقة الحاكمة» (ياسر،2012،ص ص 26-27) إن التحالف المفضوح بين السلطات الحاكمة وأصحاب المال توجه في وقتنا الحالي للسيطرة على وسائل الإعلام وملكيتها لتمرير مخططات السلطة وتبريرها ومنحها الشرعية بطرق تعمل أساسا على اللعب على وتر الوعي، وتوجيه الرأي العام.

يبني الإعلام الموجه على قاعدة «أكذب ثم أكذب، ثم أكذب» حتى تصدق نفسك فيصدقك الناس، فإن لم يصدقوك فاخترع لهم عدوا وهميا وخوفهم به، وأخبرهم أنهم معرضون للخطر، وأن أمنهم تحت التهديد، فإن لم يصدقوك، فاتهمهم بالخيانة وشكك في ولائهم ووطنيتهم (ياسر،2012،ص29) وإذا ما تم كشف كذب السلطة وإعلامها، يبدأ الإعلام الرسمي بالترويج لاتهامات التخوين، وتعقب المعارضين واغتيالهم سياسيا ومعنويا فظهرت مصطلحات على الساحة الإعلامية العربية كمصطلح «القلة المندسة» أو «الجماعة الحاقدة»، أو «مثيري البلبلة» وقد سمى بشار الأسد الانتفاضة الأولى للشعب السوري بـ«انتفاضة الحرامية»، وفي مصر والسعودية والمغرب ظهر مصطلح «أصحاب الأجندات» وحشدت الحكومات الدكتاتورية في الوطن العربي ترساناتها الإعلامية، للرد على المناوئين أو بالأحرى أولئك الذين يعملون على كشف زيف الخطاب السلطوي المروج له من طرف الإعلام الخائن، فكان الإعلام الموجه سيف على رقاب المثقفين ذوي الوعي الأصيل.

وتمتلك وسائل الإعلام بالتحالف مع السياسيين قدرة كبيرة على تزييف وعي الناس من خلال ما يمتلكه النظامين السياسي والإعلامي من قدرات تنظيمية هائلة قياسا إلى

عموم الجماهير التي تتصف بانعدام التنظيم، وضعف التماسك، وبسبب أن تزييف الوعي لا يتم بغير تواطؤ وتوافق بين النظامين في المجال السياسي خصوصا، فإننا هنا نستخدم تعبير الإعلامي السياسي للإشارة إلى ذلك التواطؤ، لصعوبة الفصل أيضا ما بين منتجات النظام الإعلامي والنظام السياسي، إن هذه الوسائل أيضا تقوم بدور خطير في تزييف الوعي الجماعي للجماهير، من خلال تواطؤها مع الجهات السياسية، التي تضع نصب أعينها هذا الهدف حفاظا على مصالحها كفئة حاكمة، أو مستفيدة من زيف الوعي بقضايا المجتمع السياسية (حسن،2008 ص70) وحينما يصبح الوعي زائفا يسهل على السلطات الحاكمة الحفاظ على بقائها واستنعاج الشعوب وتوجيهها الوجهة المراد توجيهها إليها، فتصبح الشعوب كالقطيع يوجهه الراعي الوجهة التي يرغبها دونما مقاومة أو امتعاض، هكذا أصبحت وسائل الإعلام وسيلة في يد الحاكم العربي بواسطتها يعمل على توجيه الوعي وتنظيمه وتزييفه فيبتعد المواطن العربي عن التفكير في القضايا الأساسية للوطن للأمة ويشتغل بقضايا تافهة وهامشية.

ومن أخطار وسائل الإعلام أيضا التلاعب بالعقول وتوجيهها، فقد كشف بورديو في كتابه «التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول»، عما يسميه بالرقابة الخفية وهي التي تمارس على المدعوين ومقدمي البرامج أنفسهم لخوفهم من مواقعهم من جهة، وتحكم الشركات والمعلنين من جهة أخرى، مما يجعلهم خاضعين للتلاعب والتأثير، وهو ما يمارسوه بأنفسهم أيضا في أكثر الأحيان على الآخرين وهو ما يؤدي إلى العنف الرمزي، الذي يمارسه بتواطؤ ضمني من المشاركين في تلك اللعبة (مجدي،2005، ص ص34-35) فمثلا بعض الوجوه الإعلامية والمحليين في قناة الجزيرة القطرية، وهم من جنسيات عربية مختلفة، وأثناء الأزمة القطرية الخليجية، أرغموا بشكل أو بآخر على تبني وجهة النظر القطرية، وأقنعوا أو اقتنعوا بها ومضوا للدفاع عنها ومحاولة إقناع المشاهدين بها، ووصل الحد إلى درجة تخوين الطرف السعودي، والأمر نفسه بالنسبة لإعلاميي ومحللي قناة العربية السعودية وهم أيضا من جنسيات عربية مختلفة ،فقد تبنوا وجهة النظر السعودية ودافعوا عنها وحاولوا إقناع المشاهدين بها. وتوصل بهم الأمر أيضا إلى درجة تخوين الطرف القطري، وإلحاق تهمة تمويل الإرهاب به، وتقديم قطر في صورة الراعي الرسمي للإرهاب بمنطقة الشرق الأوسط والخليج. هكذا يظهر خطر وسائل الإعلام لا على المشاهدين فقط بل حتى على العاملين بهذا المجال، على اعتبار أن الإعلام أصبح وسيلة في يد السلطة توظفه كيفما تشاء ووقت ما تشاء.

والتحول الكبير في المجال الإعلامي والانتقال من الكتاب والصحيفة والجريدة إلى التلفزيون والسينما والانترنت زادت خطر وسائل الإعلام، وزاد من إمكانية استغلالها للاستخفاف بالعقول وتوجيهها.

فقد كان أول المخاطر في تحول الصحافة هو تلك الدعوة المسمومة التي تطرقت إليها تحت لواء الكسب المادي، إلى الاهتمام بنشر الأخبار المثيرة والترويج لكل أسباب الإغراء للمشاهد والقارئ، وهدهدة غرائزه، ودعوته إلى الإباحية والكشف، ونشر كل ما يتصل باللذات والإغراء والأهواء، والجنس رغبة في كسبه تجارة رخيصة، تستهدف استدرار الموارد ببيع هذه السموم، وكان هذا خروجا بالصحافة –المكتوبة أو المرئية أو المسموعة– عن مسؤوليتها الأدبية وأمانة الكلمة والالتزام الأخلاقي، لحماية الشباب والفتيات والأبناء جميعا من أخطار الدعوات الهدامة، وعواصف المذاهب الانحلالية (أنور، 1980، ص11) فقد أصبحت الصحافة تلعب على وتر اللذة والشهوة، وانتشارها لجلب أكبر عدد من المتابعين وتحقيق أرباح نتيجة ذلك دون أن يأبه أرباب الصحافة بهذا الخطر الداهم للمجتمع والمهدد لقيمه وأخلاقه، وهكذا ابتعدت الصحافة عن هدفها الثقافي النبيل لتدخل في خندق ضيق هو نشر الإباحية وكل ما يخدش الأخلاق من أجل الربح والربح وفقط ،ودائما سيضطلع التافهون بهذه المهمة القذرة، وسيتفننون في ذلك .

وهكذا كانت الصحافة من أكبر العوامل المساهمة في هدم مقومات الأسرة وتمزيقها وتدمير وحدتها والتأثير بالخطأ والانحراف على الأجيال الجديدة، إلى جوار تأثير السينما والمسرح والإذاعة والتلفزيون، بل إن الصحافة نفسها هي التي هيأت لهذه الوسائل جميعا سبيل النشاط، وقدمت الصحافة قصص الجريمة وقصص الجنس، وأفاضت في نشر التفاصيل والأحداث، وأولت جوانب الفساد فيها اهتماما كبيرا.

وعنيت بلفت النظر إلى الوسائل والأساليب، التي قام بها المجرمون في سرقة البيوت أو ترصد الناس، وعمدت إلى الاهتمام بنشر الفساد وأساليبه، وكشفت للشباب الساذج والفتيات الطيبات عن طرق الاتصال بأصحاب الأهواء سواء بمخاطبتهم بالهاتف أثناء نوم أفراد الأسرة أو الخروج من البيوت في أوقات النوم، وعملت الصحافة على خلق أعراف بعيدة عن فطرة الأمم العربية والمسلمة، وذلك بإعلاء شأن الراقصات والمغنيين والعاملين في مجال الفاحشة والإثم بإطلاق اسم الفنانين عليهم،

ثم أذاعوا أن هذا الفن شيء مقدس له أصوله وقيمه، ثم عملوا على تبرير هذه الصور الفاسدة، وهكذا استعملت الصحافة أساليب الكتابة وكلمة الخير والحق والجمال لتضفيها على هذه السموم (مجدي، 2005،ص ص11-12).

هكذا يصبح الانحلال والرذيلة، والفسق، والخنا والاختلاط، والرقص والغناء فنا يجب تقديسه واحترام أهله فهم الفنانون، وهم أهل الثقافة، أما الطهر والعفاف والأخلاق العالية فتصور على أنها تخلف وتزمت ورجعية.

يتابع أولادك ذلك الكرتون الذي يجعل من الفأر عنوانا للحق والانتصار أو ذلك البرنامج الذي يجعل الحياة أكثر مرحا في ظل الاختلاط بين الفتيان والفتيات، في النهاية تنتزع نفسك بمشقة من أمام التلفاز لتذهب إلى النوم مضطرا، وقد امتلأ ذهنك وعقلك اللاواعي بكم هائل من المعلومات المغلوطة، والأفكار السلبية التي تحدد نظرتك للحياة وللناس وللأشياء من حولك، وتؤثر في قراراتك اليومية والاستراتيجية، ألا يعد ذلك خداعا شاملا؟ هذا لا يقتضي أن الخداع عمل تمارسه كل وسائل الإعلام في كل وقت، كما لا يعني أن وسيلة الإعلام المخادعة تفعل ذلك في كل ما تبثه، وتنشره، بل ربما حرص بعضها على تنظيف ذيله وتبييض صفحته ببعض الحلال (أحمد،2014، ص84) فقد تقوم بعض القنوات التلفزيونية في وطننا العربي -والتي هي أساسا تركز على جانب الإثارة والجنس، وما يسمونه فنونا لاستمالة الشباب والفتيات لبرامجها، كبرنامج ستار أكاديمي الذي صار خطرا فعليا على الأسر والمجتمعات العربية– بتخصيص وقت من أوقات بثها لتبييض صورتها وذلك من خلال برنامج ديني لكن بمقاساتها!، ويسمونه بالموعد الديني، وكأنها دعوة خفية لجعل الدين له وقت محدد، أما باقي الأوقات فلا مكان له وهذه هي الدعوة للعلمانية.

ومن الأساليب التي تتبعها وسائل الإعلام في إبعاد المشاهد عن الواقع وعن الحقيقة حجب للمعلومات وهو ما يقرنه بالأشياء التي تخفيها عن طريق عرضها شيء آخر ما ينبغي عرضه، ويتفنن الإعلاميون في هذا عندما يضخمون أو يقللون من شأن الحدث حيث يمارسون عملية اختيار، ثم عملية تركيب لما تم اختياره، أو عندما يغلبون اختباراتهم النسبية، وهو ما يعقبه مخاطر سياسية، وهذه القدرة على الاستدعاء لها تأثيرات اجتماعية، إذ يمكن أن يؤثر التلفزيون بنفس القدر الذي تؤثر به مظاهرة من 50 ألف شخص (مجدي،2005 ،ص35) يبدو هكذا أن الأمر ليس محض الصدفة

فكل شيء مخطط له مسبقا والهدف منه هو إعادة بناء الوعي للمشاهدين، وبذلك يسهل توجيه أفراد المجتمع الوجهة المرغوب فيها لتحقيق أهداف السلطة السياسية المتحالفة مع مالكي وسائل الإعلام والشركات الكبرى لتحقيق الربح.

الصورة تخيف لأنها تفضح وتثير وتستفز، والإنسان يتوقف دوما أمام نسق المشهد منبهرا ومرتبكا عند حدود قوة لا يمكن مقاومتها، وحتى الكاميرا نفسها، التي تقدم إلينا فرصة الانصهار في محتوى الصورة وتعليبها ثم إطلاقها، تمثل لنا لغزا يصعب تفسير ظاهرة الخوف منها وتجنبها، لكن ذلك الصندوق «التلفزيون» كسب الناس له وشدهم على نحو غير مسبوق لوسائل الإعلام الأخرى، جعلهم يقتربون منه دون أن يلمسوا شعاع جاذبيته المسيطرة، الناس يجلسون أمامه مخدرين بمتعة مرتقبة لا يمكن الفكاك من لغزها، حتى تلك المغرقة بمشاهد الموت بأنواعه (ياسين،2013، ص45) فالصورة التي ينقلها إلينا جهاز التلفزيون تأسر وتسحر في آن واحد معا، فهي لها من الجاذبية مالها، فقد يمكث الواحد منا ساعات طوال أمام التلفزيون لا يشعر بالوقت كيف يمر، وهو في هذه الحالة تعاد برمجة دماغه، وتتشكل لديه أفكار جديدة وقناعات أخرى إن ثقافة الصورة هي ثقافة مفروضة علينا، تقتحم بيوتنا وتؤثر على ثقافتنا وأفكارنا، وليس لنا سيطرة عليها فهي قابلة للتكرار ومن خلال هذه العملية. يحدث نوع من التأثير ومن ثم التفاعل والاقتناع بكل ما تنقله لنا وسائل الإعلام من صور.

إن الصورة عبر وسائل الاتصال الحديثة قد قلبت تماما دور المجتمع عامة والأسرة خاصة، واغتصبت الذات، وانتهكت الحرمات الخصوصية علنا، جهارا نهارا، ودون أية علامات استفهام لهذا الواقع الذي يعرض علينا مساءلة علاقته بالواقع الذي نعيشه.

نحن بأمس الحاجة إلى تلفزيون ذي برامج تساعد على التنشئة الاجتماعية والتربوية، لأجل تربية الناشئة العربية على الالتزام، وأن تبتعد عن التطبيع والانكشاف، حيث القبول بكشف كل عوراتنا وإنهاء هذه الظواهر الناشئة عن تأثير وسائل الاتصال الحديثة، كالتحول في القيم والتطبيع مع العنف والخنوع والإذلال (باسم،2015، ص431). فوسائل الإعلام قد قلبت الكثير من القيم المجتمعية والأسرة، وأصبحت في عالمنا العربي تهدد ثقافتنا وتهدد مستقبل الناشئة وتطبعهم بطابع مغاير للطابع الثقافي والهوياتي الخاص بنا، فكل ما جرته علينا وسائل الإعلام هو العري والإباحية وثقافة العنف واللامبالاة، وثقافة الاستهلاك والتقليد الأعمى لكل ما هو غربي وقد

لعبت وسائل الإعلام العربية والغربية على حد سواء دورا كبيرا في تدمير القيم وإسقاط القدوات وإضعاف الهمم، وبناء جيل مدجن ومستنعج ثقافته رقص وموسيقى وأكبر همه إرضاء النزوات والغرائز.

ويعالج نسيم خوري الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام وخاصة جهاز التلفزيون في إضعاف الجانب اللغوي للطفل العربي الذي يكثر من الوقوف أمام شاشة التلفزيون مؤكدا أن الأطفال الذين استغرقوا في مشاهدة التلفزيون وبرامجه آلاف الساعات قد أظهروا مستويات متدنية أورثت أجيالا صامتة إلى حد كبير نسميها «أجيال التلفزيون» أو الأجيال غير اللغوية، ولا تجزم الدراسات أن مشاهدات الشاشة الطويلة وألعابها تحول دون تعلم الأطفال الكلام السوي، بل تؤكد أنها لا تساعد على اكتساب أصول الكلام (نسيم،2005،ص376)ويظهر هذا الأمر بشكل جلي وفي واقعنا، حيث أن الكثير من الأمراض المتعلقة بالنطق وتأخره أو ضعفه لدى بعض الأطفال مرتبط بمكوث الطفل منذ الصغر أمام شاشة التلفزيون يشاهد الرسوم المتحركة حتى أن البعض منهم يصاب بمرض التوحد الذي يوعز الكثير من الأطباء النفسانيون أسبابه إلى التلفزيون وإلى قنوات فضائية بعينها كطيور الجنة، وقناة طه وغيرها من القنوات المخصصة للأطفال في عالمنا العربي، فيصبح الطفل يعيش في عالم افتراضي منذ الصغر بعيدا عن عالمه ومجتمعه الحقيقي.

ويمكن تحديد التأثيرات المفترضة لثقافة الصورة على السلوك البشري، استنادا إلى خلاصة ما توصلت إليه الدراسات الأكاديمية حول الاتصال الجماهيري كالتالي:

**1_ المؤالفة SOCIALIZATION:** حيث يسهم الإعلام المرئي في احتواء الفرد داخل إطار اجتماعي محدد. ويفرض عليه بمرور الوقت الاستجابة لمتطلباته.

**2_ السيطرة الاجتماعية CONTROL SOCIAL:** ويلعب الإعلام بطريقة ما في إعادة إنتاج للنظام الاجتماعي القائم، عن طريق إثارة احتجاجات مستمرة تجاه النظر للأشياء كما هي، وينسحب ذلك على السلوك القانوني والنظرة السياسية.

**3_ إعداد الأجندةAGENDA SETTING:** وهو هدف غير مباشر مبني على فكرة أن الإعلام عموما والمرئي منه خصوصا يحدد النظرات حيال الحوادث والموضوعات التي تستحق الاهتمام.

**4_ المخاوف الأخلاقية MORAL PANICS:** وهي تأثيرات نابعة من كون الإعلام ممثلا بجماعة فرعية أو ثقافية فرعية بوصفها خطرة أو شاذة.

**5_ التبدل السلوكي CHANGING ATITUDE**: ويحدث هذا التبدل كنتيجة مباشرة للتعبئة الفاضحة أو كنتيجة للتناوب الناجح -SUCCESSFULALTERATION- بطريقة تدفع الناس للتفكير عن موضوعات محددة لتهيئتهم للتصرف بحسب أفكارهم ونظراتهم الجديدة (باسم، 2015، ص108).

ويمكن استجلاء سلبيات الصورة في النقاط التالية:

_ هيمنة الواقع الافتراضي، وهذا يؤدي إلى حالة إدمان تكون شبيهة بالإدمان على ألعاب التسلية.

_ هيمنة ثقافة الشكل والمظهر والإبهار على حساب ثقافة الجوهر والمضمون والقيمة والعمق، حيث تتحول الصورة إلى واقع بدل أن تكون تعكس الواقع.

_ هيمنة الصورة في حالتها السلبية، يعد معاكسا للإبداع وما أحوجنا إليه في حياتنا اليومية، وذلك نظرا لهيمنة ثقافة الكثرة، والنقل والمحاكاة عن غيرنا.

_ هيمنة ثقافة صناعة النجوم، وما يستتبعها من أساليب غير أخلاقية.

_ توليد حالة من الإجبار العقلي أو غسل المخ (باسم، ص109).

وإزاء هذه التطورات المتواصلة في تكنولوجيا الاتصالات، بدأت العديد من القنوات الفضائية العامة والخاصة تلعب على أوتار المكبوت العاطفي، ونجحت في اجتذاب نسبة عالية من الجمهور من خلال البرامج التوجيهية، وأخرى أخذت تعمل على عنصر المكبوت السياسي من خلال برامج تستخدم الإثارة في العرض والتقديم (حسين، محمد،2015، ص68). وتساهم وسائل الإعلام في توجيه الوعي الجماعي وتسطيحه عن طريق إيهام الشعوب بالحرية الفكرية عن طريق الخوض في بعض المواضيع التي كانت وحتى وقت قريب من الطابوهات، كالجنس، والدين والأداة المثلى للقيام بهذه المهمة هم التافهون في المجتمع، في حين تبعد التفكير والوعي الجماعي عن مناقشة مواضيع الحكم والسياسة، وفي هذا توجيه للفكر ووضع للأجندات ولإقناع الجماهير بها، من أجل أن يكون وعيهم بعيدا عن الحقيقة، ويكون وعيا سطحيا موجها. وتعتمد

في ذلك على الدعاية «البروباجندا».

ولا أحد ينكر أن وسائل الإعلام باتت اليوم عاملا مؤثرا في تشكيل الوعي وتوجيه القيم، والتأثير على الأخلاق والسلوك من خلال إحلال الثقافة الاستهلاكية مكان الثقافة التقليدية، ووسائل الإعلام في قيامها بهذه الوظيفة بعيدة عن عين المراقبة والمحاسبة، وأصبحت تنتهج نهجا ربحيا من خلال برامجها التي تبثها على الهواء، والتي تطرحها على الجرائد والمجلات، وتبثها على القنوات وعلى الشبكة العنكبوتية، قد اصبحت تمثل خطرا على الأمن القومي، فالكثير من البرامج تمس القيم الأسرية والدينية، وبعضها يخدش الحياء ويهتك الستر الأسري والمجتمعي، وكل هذا يحدث بطريقة مقننة ومخطط لها مسبقا، وهنا يبرز الدور الجديد للمثقف، فيدخل في حرب جديدة، غير تلك الحرب التقليدية، ستكون الحرب الجديدة للمثقف ضد جحافل التافهين في المجتمع، فأصبح الأمر يستوجب على المثقفين أن يغيروا من وسائلهم وأساليبهم وأدوارهم، خاصة وأن السلطة والقوى المتحالفة معها أصبحت تعتمد أساسا على القنوات الفضائية، وعلى الشبكة العنكبوتية كونها الأكثر متابعة من قبل الجمهور.

فالمثقف العربي أصبح في مواجهة مع ثقافات جديدة وافدة حملتها وسائل الإعلام ومختلف الوسائط التكنولوجية في مجال الاتصال.

وأصبح الشباب خاصة وكل أفراد المجتمع بصفة عامة يستخدم هذه التقنيات التي أصبحت بامتياز السمة البارزة في عصرنا الحالي، وهنا يلعب المثقفون دورا كبيرا في توجيه المجتمع للاستعمال المفيد لهذه التقنيات والاستفادة منها من خلال استغلالها في التوجيه والوعظ، والحث على استخدامها في بناء النهضة واستغلالها استغلالا صحيحا نحافظ فيه على هويتنا الثقافية دون أن ننسلخ أو أن نذوب في ثقافة الآخر.

وربما هذا ما قصده على شريعتي الذي يؤكد بأن المثقف يجب أن يقوم في مجتمعه بدور خاص، وأن يأخذ على عاتقه مسؤولية مفكر، وأن يقوم بمنح المجتمع الإيمان، وتحليل الأمراض الاجتماعية، وبث الوعي في الناس، وأعظم مسؤوليات المفكر في مجتمعه هي أن يجد السبب الأساسي لانحطاط المجتمع ويكشف السبب الأساسي للركود والتأخر والمأساة (علي،2005، ص129).

وقد استطاع بعض المثقفين العرب المساهمة في محاربة الظواهر الهدامة، التي حاولت بعض وسائل الإعلام المأجورة أو الخاضعة للدكتاتورية نشرها، بواسطة أتباعه بين أفراد المجتمع، من خلال إلقاء المحاضرات أو المشاركة في الندوات العلمية، والكتابة في الصحف، وحضور البرامج التلفزيونية، أو نشر مقاطع فيديو على اليوتيوب، والكتابة في المواقع الإلكترونية، على الرغم من شدة وطأة وقبضة النظام وسيطرته على وسائل الإعلام ومراقبته لها، وتقييده لحرية التعبير، عن طريق تكليف الإعلاميين وأشباه المثقفين والتافهين التابعين له بإدارة المؤسسات الإعلامية، والإشراف على الصحف، والرقابة على المطبوعات، ولكن بعض المثقفين العرب كسروا حاجز الخوف، ودخلوا في مواجهة مباشرة مع الأنظمة الحاكمة واتخذوا من وسائل الإعلام والشبكة العنكبوتية وسيلة لإيصال أصواتهم للجماهير العربية فظهر بذلك ما يسمى بالإعلام البديل أو الإعلام الحر والمقاوم، الذي أسهم بشكل كبير في تعرية إعلام السلطة وبيان خدعه ووسائله في تمرير الأكاذيب والمخططات التي تضعها السلطة ويروج لها هذا الإعلام، وبالفعل ظهرت قنوات إعلامية مناوئة للدكتاتوريات، بعضها ينشط داخل الدول العربية - على الرغم من التضييق والتهديد والعنف- وبعضها الآخر ينشط خارجها.

لقد اثبت الإعلام البديل أنه مساحة حرة لإبراز المواهب، وحافز للإبداع، وهكذا أصبح المثقف العربي يسخر الثقافة لخدمة القضية الجوهرية، وهي بناء مجتمعات عربية قومية تنهض في شتى المجالات للحاق بالركب الحضاري، ومنافسة الغرب وتحقيق الأمن القومي لها، فأصبح المثقف العربي يوجه ويتحكم في المحتوى الإعلامي، مبعدا بذلك أساليب التضليل التي تنتهجها السلطة، لتزييف الوعي وتوجيهه فصار ينافس الإعلام الحكومي داخليا، والإعلام الغربي خارجيا، فأصبح الدور الملقى على عاتق المثقف العربي في ظل ثورة الإنفوميديا، هو تحقيق الالتفاف حول القضايا العربية المفصلية، كالأمن القومي والتخلص من التبعية للغرب، وقضية فلسطين، والتخلص من الأنظمة الدكتاتورية، ومواجهة الأفكار المتطرفة والتافهة، والعمل على توعية الجيل الجديد –الجيل الرقمي– فيعمل المثقف العربي على توحيد الجمهور في الفضاء الإعلامي والفضاء الافتراضي، تمهيدا لتوحيدها على أرض الواقع، وتحقيق الوحدة العربية التي تعد حلم كل عربي.

وكذلك استفاد المثقفون من الشبكة العنكبوتية ووسائطها في مهمتهم المجتمعية، وفي محاربة كل أشكال الظلم والزيف والفساد، وعملوا على إجهاض المشاريع التغريبية والمخططات الخبيثة الهادفة إلى انسلاخ الشباب العربي خاصة عن ثقافتهم ودينهم، وانهماكهم في تعلم ثقافة جديدة يؤمنون بها ويقدسونها إنها ثقافة استهلاكية إباحية تعصف بالدين والأخلاق وتضرب بها عرض الحائط، تمهيدا لبناء جيل ضعيف تافه همه بطنه وفرجه، وقوام ثقافته الموسيقى والرقص والموضة، فيكون بذلك وعيهم زائفا، يسهل توجيههم والسيطرة عليهم، جيل مخدر لا يفكر في القضايا المحورية للأمة العربية، بعيد عن دينه وأخلاقه الإسلامية، تابع للغرب سهل التحكم والتوجيه.

إن ما نشهده هو صراع عملي للأنساق، ففي حين تتجرد الحداثة التكنولوجية لخدمة النسق الفحولي، واستلاب الخطاب الإعلامي لتهيمن عليه –كما كانت مهيمنة على الخطابات التقليدية من قبل-وذلك عبر تمثيل القيم الفحولية بما أن الخطاب الإعلامي والصور الإعلامية تقدم نسقا فحولي يتمثل في قيم العنف والجنس والمال، كما هو قائم في الثقافة التلفزيونية وثقافة الصور، في حين إن هذا واقع فعلا ويغلب على الخطاب كله ويصبغه بصبغته، إلا أن ثقافة الرفض أيضا تأخذ مجالها وصوتها، وهو صوت قوي وله صداه المسموع (علي،2005، ص43).

بالفعل فإن الثقافة التلفزيونية المروجة هي ثقافة العنف والجنس والمال، فكل المسلسلات والبرامج وحتى الإشهار والرسوم المتحركة تدور حول هذا الثالوث الخطير الذي تروج له وسائل الإعلام، ولكن فئة من المثقفين العرب تجندوا للتحذير وللحد من خطر هذه الثقافة المروج لها، وذلك عن طريق استغلال الثورة التكنولوجية واستعمال وسائلها في التوعية بالخطر الذي تشكله هذه الثقافة المراد تكريسها، لبناء جيل مدجن وضعيف يسهل اختراقه وتوجيهه والسيطرة عليه.

ومع انتشار الثقافة البصرية وسيطرة الصورة التلفزيونية على وسائل الإرسال وتحولها إلى أداة ثقافية مهيمنة، جاءت الدراسات النقدية حول هذا الخطاب الذي صار هو العلامة الدالة وهو المكون الأخطر للذهنية البشرية في الوعي والتأويل، لقد تحول مفكرون جادون ليكونوا في صدارة المهتمين بالخطاب الإعلامي من مثل نعوم تشومسكي وإدوارد سعيد، وقد تنبها إلى خطورة هذا الخطاب وتعاملا معه في البحث من جهة واستخدامه كوسيلة مواجهة ثقافية من جهة أخرى (عبد الله،2005، ص13).

وفي الوطن العرب كثرت الدراسات حول هذا الموضوع، تلك الدراسات التي تتمحور حول خطر وسائل الإعلام وخاصة التلفزيون والانترنت، فكثرت الكتابات والتحاليل والنقد كل هذا لتبيان الخطر الكبير الذي تشكله الظاهرة الإعلامية المستغلة لأغراض خبيثة من قبيل التفريغ الثقافي وسلخ الهوية، ونشر ثقافة الاستهلاك والجنس والعنف، ونذكر من المثقفين العرب الذين تجندوا لهذه المهمة الحضارية، إدوارد سعيد، ومحمد جابر الجابري وعبدالله الغذامي، حسين الأنصاري، وفهد بن عبدالرحمن الشمري الذي تحدث عن التربية الإعلامية الصحيحة وحذر من خطر بعض البرامج، وبين أهدافها الخفية، فيعض البرامج التي ثبت وللأسف على قنوات عربية، تهتك ستر الأسر وتفضح أسرارها، كحصة ما وراء الجدران التي تبث في قناة الشروق الجزائرية، والتي تتناول أسرار البيوت من طلاق وانفصال وانتقام وخصومات بين أفراد الأسرة الواحدة، وحصة جاك المرسول التي تبث على قناة نسمة التونسية والتي لا تختلف عن سابقتها من حيث حدة وطأتها وخطرها على الأسرار الأسرية والمجتمع العربي، وهناك حصص أخرى تخدش الحياء تبث على بعض القنوات المصرية واللبنانية وحتى السعودية، كحصة ستار أكاديمي وحصة عرب أيدول وغيرها، وهنا ظهرت بعض الأصوات لبعض المثقفين العرب الذين عملوا على محاربة مثل هذه المظاهر الهدامة للمجتمعات العربية وثقافاتها المحافظة القائمة على العفة والطهر والستر.

ويجب على المثقف العربي أن يؤدي دوره في التوعية بالخطر الذي يحمله التلفاز والعمل من أجل مقاومة إغراءات المال والمنطق التجاري، الذي يعمل به منتجي البرامج، وأن يعمل المثقف العربي على تكريس الحرية الفكرية، واحترام عقول المشاهدين، وحمايتها من الطابع التجاري للدعاية والإعلان والبرامج، فبعض البرامج تخدش الحياء وتهتك الستر وتضرب بالأخلاق عرض الحائط، لكنها تحقق نسبا خيالية من المشاهدة في عالمنا العربي فمثلا برنامج ستار أكاديمي وArabAydol وما وراء الجدران، واحكي حكايتك، كلها برامج تهتك ستر الأسر وتنشر قيم الفساد والحرية بلا حدود وتنشر ثقافة الاختلاط والعري، وتجعل أسرار الأسر معروفة لدى الجميع، فانقلبت المقولة القديمة «للبيوت أسرار» لتصبح «للبيوت أخبار». هنا يبرز دور المثقف الأصيل، فيعمل على محاربة هذه المظاهر والحد من خطر هذه البرامج، والعمل من أجل أن تلعب الشاشة الصغيرة دورها المفترض في الارتفاع بمستوى الجماهير البسيطة نحو أهداف بعينها، وهذا الأمر يصبح واجبا ومسؤولية أخلاقية ملقاة على كاهل المثقف

العربي، ويصبح دوره الأساسي العمل على الحد من التلاعب بعقول الجماهير العربية باسم الديمقراطية وحرية التعبير تارة، وباسم التقدم والحداثة تارة أخرى.

ويتحدث محمد عابد الجابري عن ثقافة الصورة فيقول بأنها: «ثقافة إشهارية إعلامية سمعية وبصرية تصنع الذوق الاستهلاكي –الإشهار التجاري-والرأي السياسي– الدعاية الانتخابية. وتشيد رؤية خاصة للإنسان، والمجتمع، والتاريخ، إنها ثقافة الاختراق، التي تقدمها العولمة بديلا عن الصراع الأيديولوجي، إنها تسعى إلى تسطيح الوعي بهدف تكريس نوع معين من الاستهلاك لنوع معين من المعارف والسلع والبضائع» (محمد عابد،1988، ص18). والجابري يحذر من الثقافة التي تسوقها وسائل الإعلام التي هي وسيلة من وسائل العولمة الهادفة أصلا إلى الاختراق الثقافي للشعوب والمجتمعات، محاولة تغيير ثقافاتها المحلية بثقافة جديدة هي ثقافة التسليع والاستهلاك الغير واعي للأفكار والبضائع، ما يعني تبدل النمط الثقافي وتوجيهه.

وقد ينخرط بعض المثقفون العرب في بعض البرامج إما تقديما أو مشاركة، ولكن في كثير من الأحيان يجدون أنفسهم محاصرين وتحت رقابة من المنتجين وأصحاب القنوات الفضائية، الذين يفرضون نوعا من الرقابة والتوجيه للمثقف، ما يعني المساس بحرية المثقف الفكرية، ولما كانت الحرية الفكرية أهم ميزة للمثقف، فقد توجه البعض الآخر من المثقفين العرب إلى رفض المشاركة في الحصص التلفزيونية أو المقابلات والبرامج، لما رأوا فيها من تقييد وتوجيه وحصار يمارس عليهم في تلك الحصص لنسف آرائهم وتسفيهها، وللحط من قيمتهم، خاصة وأن الحصص تبرمج بدهاء كبير يوضع فيها المثقف الرافض أو الناقد للوضع القائم. أمام مجموعة من الخصوم من أرباب السياسة والمال فيقيمون محاكمة له ويخرجون عن موضوع الحصة التلفزيونية، ويكون النقاش سوقيا في كثير من الأحيان لا يحتكم إلى قواعد ولا إلى منطق سليم، ما يعني هزيمة المثقف وكل ذلك يحدث أمام الجمهور العربي المتابع، لهذا فضل الكثير من المثقفين العرب عدم الظهور على شاشات التلفاز وتوجهوا لاتخاذ طرق جديدة لإيصال صوتهم وآرائهم كالاعتماد على الأنترنت والصحافة المكتوبة والتأليف.

ولهذا على المثقف العربي الآن أن يتخذ آليات جديدة لإيصال صوته بعيدا عن التلفزيون العمومي التابع للسلطة، أو بعض القنوات المؤدلجة، وفعلا قد ظهرت قنوات عربية. أسسها بعض المثقفون وجعلوا منها منابر للمثقفين العرب لإيصال

أصواتهم، ومن خلالها يتم مناقشة بعض المسائل الحساسة والمفصلية في الساحة العربية، ويكون مستوى النقاش رفيعا، عكس الحصص المبرمجة في القنوات الرسمية والمؤدلجة، والتي كثيرا ما يجد المثقف العربي نفسه في الحصص التي يدعى للمشاركة فيها، في مواجهة مع بعض الجهلة من أصحاب الأموال والسياسيين ذوي المستوى العلمي الضعيف (التافهين)، ويكون النفاش سوقيا ومستواه منحط، وكثيرا ما يكون المثقف متهما وخاسرا، سبب طبيعة النقاش، ومحاولة مقدمي البرامج ومن معهم فرض الأمر الواقع على المثقف وإخضاعه للأعراف السياسية والاجتماعية السائدة.

وعلى المثقف العربي الآن أن يقوم بدور الرقيب الناقد وكاشف الحقيقة، بأن يفضح التلاعب الذي تمارسه القنوات التلفزيونية العمومية أو الخاصة، من إخفاء للحقائق أو تزييف لها، أو إظهارها بغير معنى، عليه أن يقوم بتعرية هذه الممارسات، وكشفها مستعملا نفس الأدوات التي تستعملها القوى الموجهة لهذه القنوات، ويكون ذلك بإنشاء إعلام بديل لإعلام السلطة وما يدور في فلكها من قنوات خاصة، فينقل الصور الصحيحة والمعلومة الصحيحة التي يتم حجبها، ويعمل على تحليل الوقائع والأحداث بطريقة موضوعية ومعمقة تتجلى من خلالها الحقيقة، ويقوم بعملية نقدية وتمحيص دقيق لكل شاردة وواردة، فيعمل بذلك على رفع درجة الوعي لدى المواطن العربي المتابع للبرامج التلفزيونية.

لقد توجه الكثير من المثقفين العرب للشبكة العنكبوتية نظرا لسهولة استغلالها وانتشارها الرهيب في الأوساط الشعبية، فظهر مصطلح ما يسمى بالمثقف الشبكي.

ولضمان التوازن الضروري في المجتمع ولتأكيد الاستخدامات الإيجابية للثقافة وتطبيقاتها، كان من اللازم على المثقفين والمفكرين وضع أطر تنظيمية جديدة تحمي المستخدمين والمتهافتين على هذه الثقافة، ورصد المتغيرات المستجدة والناتجة منها لتفسيرها وأقلمة المفاهيم القديمة منها، قصد الاستجابة لمقتضيات الواقع الجديد الذي أفرزته الثورة الاتصالية، إضافة إلى وضع السياسات والاستراتيجيات من خلال المؤتمرات والندوات والورش، للوصول إلى أعلى درجات الفهم والتفسير من جهة، وصوغ الحلول المجدية والعملية للمشكلات الناتجة من الاستخدام الثقافي (نديم،2017، ص537) فالمثقفون العرب يجب أن يقوموا بدور هام في هذه المرحلة وهو تتبع التطورات التقنية في مجال والإعلام الاتصال ورصدها ومحاولة التحكم فيها،

وفي الآن نفسه رصد آثارها وأخطارها وايجابياتها بتقديمها للجماهير العربية قصد الاستفادة من إيجابياتها وتحاشي مخاطرها وسلبياتها.

المثقف الشبكي هو مستخدم الشبكة البسيط، وهو ليس مستهلكا خدماتها فحسب، يجوب القضاء السيبراني من دون أي إضافة علمية أو أي إنتاج معرفي جديد، بل المثقف الشبكي هو المستخدم المنتج في الشبكة المؤثر في أفرادها والمغني في محتواها وهو يضطلع بذلك بأدوار متنوعة، إذ لا يستطيع هذا المثقف الشبكي أن يبلغ بجهده المنصات الإلكترونية، كلها، بل هو متنوع التخصصات والنشاط متعدد المجالات والوظائف ما يجعله منظرا ومسيطرا، ولا سيما مع تفاعل المستهلكين معه في الشبكة. بيد أن دور المثقف الشبكي لا ينحصر في تفسير الـ «عن بعد» وانعكاساته في المجتمع الواقعي فحسب، بل في تفسير «ما بعد» بوصفه مجتمع ما بعد الحداثة، في أثر مجتمع المعلومات والاتصال، وأثر ثقافة الأنترنت ووسائطها (نديم ،2017، ص ص540-541).

**خاتمة:**

إن المثقف الشبكي لا يقوم بالدور المعرفي فقط على الشبكة العنكبوتية، أي أنه لا يضطلع بالجانب العلمي والمعرفي، بل يقوم بأدوار متنوعة فهو الذي ينشئ الموقع أو الصفحة على الفيسبوك أو الأنستغرام ويقوم بإدارتها، وإثرائها وصيانتها وحتى حمايتها من الاختراق أحيانا، فيكون بذلك منبرا للحقيقة، وموجها لمستعملي الانترنت لاستغلالها استغلالا إيجابيا، قصد الاستفادة منها، ولإيصال الحقيقة والمعلومة الصحيحة ولتبيان خطأ بعض المعلومات وللتحذير من خطر بعضها، وفضح بعض الممارسات خاصة ما تعلق منها بالعنف والفساد ونشر التفاهة وإفساد عقول الشباب خاصة، والمهمة الكبرى في عصرنا الحالي للمثقف الشبكي هي محاربة التفاهة والتافهين، التي أصبحت وللأسف نظاما قائما بذاته، وعليه أن يهبط إلى أرض الواقع وأن يعمل على نشر الوعي ومحاربة كل أشكال الابتذال والسخافة والتفاهة ،وفضح كل الممارسات التي تحاول قلب القيم المجتمعية أخلاقية ودينية ،سواء ما تعلق منها بالحصص أو البرامج التلفزيونية ،أو عبر وسائط الانترنت، فكما أن المثقفين على مر العصور اضطلعوا بمهام سامية في مجتمعاتهم، فكذلك المثقف الشبكي سيقوم بمهمة حضارية حساسة وسامية ألا وهي محاربة التفاهة، وفضح الدوائر التي تقف خلف الستار داعمة ومشجعة لها ،والمثقف الشبكي هو آخر قلاع صوت الضمير الإنساني

وصوت الأخلاق لأن ما نراه في واقعنا الحالي هو انحطاط أخلاقي ليس له نظير وعبث مخطط له بالقيم ،وهكذا وأمام هذه المخاطر والتحديات سيعمل المثقف الشبكي على حماية الأسرة والمجتمع، محاولا إعادتهما للوظيفة السامية التي وجدا من أجلها وهي بناء الإنسان السوي الإيجابي في علاقته داخل الأسرة والمجتمع.

**قائمة المراجع:**


1. عبد الرزاق. تومي(2011) تكنولوجيا المعلومات ودورها في التنمية الوطنية، مجلة دراسات استراتيجية دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، -العدد 15، جوان-، ص ص 31-32.
2. بسام عبد الرحمن. المشاقبة (2013) الإعلام والسلطة، ط1، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن ص 134.
3. فهد بن عبد الرحمان. الشميمري (2010) التربية الإعلامية، كيف نتعامل مع الإعلام، ط1، مكتبة الملك فهد، الرياض، السعودية، ص78.
4. عبد الله. الغذامي (2005) الثقافة التلفزيونية، سقوط النخبة وبروز الشعبي، ط2، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، المغرب، ص24-46.
5. ياسر. بكر(2012) أخلاقيات الصورة الصحفية، ط1، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ص 26-29.
6. حسن مظفر. الرزو وآخرون (2008) ثورة الصورة، المشهد الإعلامي وفضاء الواقع، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ص70.
7. مجدي. عبد الحافظ (2005) التلفزيون خطر على الديمقراطية، مقالات مختارة ومترجمة، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ص ص 34-35.
8. أنور. الجندي (1980) الصحافة والأقلام المسمومة، ط1، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، ص11-12.
9. أحمد. فهمي (2014) هندسة الجمهور، كيف تغير وسائل الإعلام الأفكار والتصرفات، ط1، مركز البيان للبحوث والدراسات، الرياض، السعودية، ص84.
10. ياسين. صباح (2013) الإعلام الفضائي في الوطن العربي، تحليل للمضمون والتأثير في النخب والرأي العام، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، لبنان، ص45.
11. باسم. محمد ولي، محمد. جاسم العبيدي (2015) علم النفس الاجتماعي، ط1،

دار الثقافة، عمان الأردن ص431.
12. نسيم. الخوري (2005) الإعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، لبنان، ص376.
13. الأنصاري، حسن (2015)، محمد كحط الربيعي، الدور الثقافي للقنوات الفضائية العربية، ط1، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، الأردن، ص68.
14. على شريعتي (2005) مسؤولية المثقف، تر: إبراهيم الدسوقي شتا، ط1، دار الأمير، بيروت، لبنان ص129.
15. محمد. عابد الجابري (1998) العولمة والهوية الثقافية، مجلة المستقبل العربي، العدد 2، بيروت، لبنان ص18.
16. نديم. منصوري، وآخرون (2017) دور المثقف في التحولات التاريخية، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، لبنان، ص537-541.

# خطاب التفاهة وصناعة ثقافة الاستهلاك

# The Discourse of Triviality and the Making of a Culture of Consumerism

**د. درسوني شهرة.**
**جامعة باجي مختار عنابة.**

**مقدمـــة:**

في عصر تعدّد الأيديولوجيات وتنوّعها بات من اليسير إنتاج الخطابات وصناعة الثقافات التي تخدم القوة الإمبريالية، ويعدّ النظام النيوليبيرالي لبنة أساسية تعزّز هذه الهيمنة الإمبريالية ويستمد قوته التنظيرية من « ثقافة الاستهلاك» التي قعّدت لبوادره الأولى ولا تزال تصاحبه لغاية العصر الراهن أين أضحى الإنسان المعاصر محاصرا في ثنايا الثقافة الاستهلاكية، محوّلة إيّاه إلى كائن مغترب ذو بعد واحد استهلاكي، يمارس فعل الاستهلاك بنهم ويحوّل الآخر إلى موضوع قابل للاستهلاك، وتحويل كل علاقاته الإنسانية إلى علاقات آلية استهلاكية تخلو من كل رابط قيمي في ظل سيادة ومصاحبة خطاب التفاهة وتضييق أسس ثقافة الذوق ومعاييرها، نتيجة الخلخلة الجذرية للنظم والثوابت وقلب للقيم والمبادئ تحت مسميات الاختلاف والتحرّر والخروج من الأطر.

ويعدّ خطاب التفاهة اليوم الراعي الرسمي لصناعة ثقافة الاستهلاك من خلال إنتاجها وتنميطها وقولبتها ثم توسيع عملية نشرها، وتكريس واقع يزيف وعي الأفراد ويتلاعب بعقولهم ويسلب إراداتهم، لبلوغ الهيمنة الإمبريالية، لقد أضحت آفة التفاهة والابتذال موضة العصر الراهن التي طغت على مختلف مجالات الحياة العصرية: الاقتصادية لأجل طغيان التسليع التجاري وسطوة قيم السوق والمال، الاجتماعية بهدف فك الروابط والعلاقات الإنسانية القيمية، الثقافية بغية نشر ثقافة اللامعنى وتسطيح الفكر في زمن الميديا الاجتماعية والاستعمال المفرط لشبكة الأنترنيت ومواقع التواصل الاجتماعي، الإعلامية لأجل التلاعب بالعقول وتخديرها. وفي هذا الصدد سأحاول البحث والتعمّق في تمفصلات المشكلة التالية: **كيف ساهم خطاب التفاهة في صناعة ثقافة الاستهلاك؟**

**1/ النيوليبرالية وصناعة الثقافة الاستهلاكية.**

إنّ المشكلة الاقتصادية أو مشكلة الندرة كما يطلق عليها بعضهم تعدّ السبب من وراء نشوء علم الاقتصاد، لذلك فإنّ مفهومها هو المدخل الأساسي لإدراك العلاقة الوثيقة بين الفرد وعلاقته بالآخر من ناحية، والموارد الاقتصادية من ناحية أخرى، كما أنّها إحدى العوامل الأساسية في ظهور الصراع السياسي بالمجتمعات، ولأجل البحث عن حل لها كان ظهور النظام الاقتصادي ضروريا، وبين النظام الاشتراكي والرأسمالي والاحتدام العنيف بينهما انتصر النظام الرأسمالي الذي تزامن وعصر النهضة في القرن السادس عشر وازدهار المجال العلمي حتى أواخر القرن الثامن عشر بعد الثورة الصناعية وظهور التمدّن وأساليب العيش الحديثة في أوروبا، أين كان يتلّون بتلّون الفترة الزمنية ويغيّر الأسماء من **الرأسمالية** أو **الليبيرالية** إلى **النيوليبيرالية** ومن بداياته الأولى استند إلى» **فعل الاستهلاك**» لخلق « **فعل الإنتاج**» والانتقال من « **مجتمع الندرة** « إلى « **مجتمع الوفرة** « تحت مبدأ الحرية والخلق والتجديد والإبداع، وعلى هذا النحو كان الاستهلاك حجر الأساس للرأسمالية.

وكانت **فلسفة الاستهلاك** التي قعّدت لظهور الرأسمالية وفرض سيطرتها، وساهمت في تبلورها وتلوّنها مع الصيرورة التاريخية، ركّزت على تفرّدها لخدمة **الإمبريالية الغربية**، وبدورها **فالنزعة النيوليبرالية** عملت على تجذير **ثقافة الاستهلاك** وشيوعها بشكل متسارع ما أدّى إلى تصاعد حركتها بدليل انقلاب المعادلة بين الإنتاج والاستهلاك، إذ أنّه ومن المفروض أنّ الاستهلاك هو الذي يخلق الإنتاج ويبّرر وجوده وضرورته ولكن أضحى الإنتاج هو الذي يخلق الاستهلاك وينوّعه، أي أنّ « **فعل الإنتاج**» يخلق « **فعل الاستهلاك** « ومنه يتم الانتقال من « **مجتمع الوفرة** « إلى « **مجتمع الندرة** « نتيجة للإنتاج والاستهلاك المفرطين، يقول **جان بودريار** في هذا الصدد:» فرط السوق هو بمثابة نواة لا تبتلعها حتى المدينة الحديثة، فهو الذي يقيم مدارا يتحرك حوله التجمّع السكني».**(بودريار، 2008، ص 144)**

وفي ظلّ النزعة النيوليبيرالية وتصاعد الثقافة الاستهلاكية تمّ **تغيير الخريطة المفاهيمية**، من خلال إعادة قلب المفاهيم، وفرض مفاهيم محل مفاهيم، وإنتاج مفاهيم جديدة تتناسب وحياة الإنسان المعاصر الاستهلاكي، فلقد حلّ مفهوم **الذات** محل **الآخر**، **والمادة** محل **الروح**، **والاستهلاك** على **الإنتاج**، **والكمالي** على **الضروري**، فالإمبريالية النيوليبيرالية فرضت العلاقة الاستهلاكية بين الأنا والآخر والتي فرضت

بدورها أولا سيادة منطق الثنائية، وجذّرت ثانيا العلاقة العدوانية الهادفة إلى استبداد وتدمير الآخر وإلغائه وإقصائه أثناء عملية استهلاكه أو بعد الانتهاء منها، لتتوّلد أزمة العيش المشترك وتشرع عملية التهديد المعلن والصريح نحوها، مستعينة في ذلك بالتقنية « فالتكنولوجيا القائمة أصبحت أداة لسياسة تدميرية.» **(ماركيوز، 1988، ص 240)**

لقد أصيب كل أفراد المجتمع الاستهلاكي **بحمّى الاستهلاك**، وأصبح» الكائن الوحيد الذي يبدي ممارسو السوق قدرة واستعدادا للاعتراف به والتوافق معه فهو الإنسان المستهلك، المتسوّق الوحيد المتمركز حول نفسه ومصالحه من أجل تحقيق أفضل الصفقات باعتبارها علاجا لوحدته، وباعتباره العلاج الوحيد الذي يعرفه»**(باومان، 2016، ص 109)**، ثم مع غيره الذي حوّله أيضا موضوع للاستهلاك لهذا « تسعى الرأسمالية إلى التخلص من الآخر في كليته من أجل إخضاع كل شيء للاستهلاك «**( شول هان، 2022، ص 10)**، بمعنى يضحى مبدأ وفعل الاستهلاك هو المتحكّم في حياة الإنسان المعاصر سواء مع نفسه أو في علاقته مع الآخر، وعلى أساسه يسوّى الإنسان بالشيء ويكون كلاهما موضوعا قابلا للاستهلاك، أي» كل شيء يجري تهيئته لأن يغدو موضوعا للاستهلاك.» **(شول هان،2022، ص 10)**

ولهذا» فإنّ المجتمع الصناعي المعاصر يميل بحكم طريقة تنظيمية لقاعدته التكنولوجية إلى النزعة الكلية الاستبدادية. والنزعة الكلية الاستبدادية ليست مجرد تنميط سياسي إرهابي، بل هي أيضا تنميط اقتصادي-تقني غير إرهابي يؤدّي دوره عن طريق تحكّمه بالحاجات باسم مصلحة عامة زائفة»**(ماركيوز، 1988، ص 39)**، إذن، مع المجتمع الاستهلاكي تظهر **أخلاقيات جديدة** تسود العلاقة بين الأنا والآخر من مثيل **الهشاشة والعنف والكراهية والتدمير** وكلّها مفاهيم مؤسّسة **لأزمة العيش المشترك** أين» أصبح التضامن الإنساني هو الخاسر الأول أمام انتصارات السوق الاستهلاكية»**(باومان، 2016، ص 116)**، وأصبح الآخر في سيادة النزعة الاستهلاكية مجرّدا من أتوبيته واختلافاته وحقوقه من طرف الذات المستهلكة خدمة وتلبية لبعدها الأحادي الواحد وهو الاستهلاكي بعبارة هربرت ماركيوز، وهو ما جعل» مجتمع الاستهلاك يسعى إلى القضاء على أتوبيا الآخر لصالح الاختلافات التي تخدم عملية الاستهلاك.»**( شول هان، 2022، ص 10)**

**2/ النيوليبيرالية و إنتاج خطاب التفاهة.**

لم تكتف النزعة النيوليبيرالية بصناعة الثقافة الاستهلاكية فقط وإنّما أنتجت العديد من الخطابات التي تدعم بها هذه الصناعة وفي مقدمتها **خطاب التفاهة** الذي أضحى يعدّ اليوم الراعي الرسمي لصناعة ثقافة الاستهلاك من خلال إنتاجها وتنميطها وقولبتها ثم توسيع عملية نشرها، وتكريس واقع يزيف وعي الأفراد ويتلاعب بعقولهم ويسلب إراداتهم، لبلوغ الهيمنة الإمبريالية، وقد عرّفه **آلان دونو** في كتابه **نظام التفاهة** بقوله:» إنّ نظام التفاهة **Mediocracy** هو المصطلح الذي يشير إلى النظام التافه الذي يتم نصبه كنموذج.» **(دونو، 2020، ص 77)**، ويشرحه أكثر في موضع آخر قائلا:» مصطلح نظام التفاهة يفيد المرحلة المتوسطة خلال فعل ينطوي على ما هو أكثر من التوسّط: إنّه يعني هذه الدرجة الوسطى بعد رفعها إلى مصاف السلطة. إنّه يؤسس لوسط لا يعود فيه المعتاد هو محض توليف مجرد يسمح لنا بالوقوف على كنه الأمور، بل يصبح هو المعيار الذي نضطّر للخضوع له.» **(دونو، 2020، ص 70)**

كما ويؤكد **آلان** بأنّ هذا النظام بني على كفاءة الشخص التافه التي تتجلّى أساسا في معرفة الأخبار والدسائس التي يمتلكها ويوظّفها لبلوغ السلطة، وبالتالي فإنّ التافهين يتعرّفون على بعضهم بل ويعرفون ويدعمون بعضهم البعض لبلوغ السلطة واستغلالها، ومن هنا يتضّح بأنّ **خطاب التفاهة** الذي يقعّد **لنظام التفاهة** يرفض إعمال العقل والتفكير النقدي وما ينتجه من خلق وتجديد وإبداع، ويكرّس لكل ما يجمّد العقل ويعوّده على الخمول الفكري الذي توصله إلى درجة الغباء، وهو ما جعل **آلان** يقول:» إنّ التفاهة تشجعنا، بكل طريقة ممكنة على الإغفاء بدلا من التفكير، النظر إلى ما هو غير مقبول وكأنّه حتمي، وإلى ما هو مقيت وكأنّه ضروري: إنّها تحيلنا إلى أغبياء.» **(دونو، 2020، ص 85)**

في المجتمع الاستهلاكي كل ما يطرح في السوق لا ينتج من عقل مبتكر مبدع لغاية ضرورية، وإنّما ينتج عملا مقلّدا لنموذج اعتباطي مسوّق له من قبل السلطة، **والموضة** في كل المنتوجات خاضعة هي الأخرى لنظام التفاهة، بحكم كونها « نظاما لا ينفصل عن الشطط والمبالغة والإفراط، لأنّها محكومة بمنطق الاستعراضية. ويظل مصيرها مرتبطا بالزخم والمبالغة في الحجم، وتضخيم الصورة لدرجة قد تصل السخرية. **(ليبوفتسكي، 2007، ص 38)**، وإذا قلنا التفاهة حضر التوسّط والانحطاط والبهرجة والابتذال والمبالغة وكلّها تعدّ مقوّمات للموضة، التي تتغير ولكن

لا يتغير محتواها»**(ليبوفتسكي، 2007، ص 32)**، ما يثبت علاقتها بالتفاهة كنظام لدعم وتجذير صناعة الثقافة الاستهلاكية الخادمة للإمبريالية الغربية.

**3/ علاقة خطاب التفاهة بصناعة الثقافة الاستهلاكية وتجذير الإمبريالية الغربية.**

بما أنّ النزعة النيوليبيرالية كانت ولا تزال المسؤول الأول عن صناعة الثقافة الاستهلاكية وإنتاج خطاب التفاهة كنظام سائد في حياة الإنسان المعاصر، وذلك خدمة لاستمرار الإمبريالية الغربية وهيمنتها، فإنّها بهذه الغاية تعمل من خلال تجذير مبدأ التفاوت والطبقية في المجتمع المعاصر الذي أضحى مجتمعا مستهلكا بامتياز، وقد أشار إلى ذلك **جيل ليبوفتسكي** في كتابه **مملكة الموضة زوال متجدّد الموضة ومصيرها في المجتمعات الغربية** حيث قال:» إنّ مجتمع الاستهلاك بعلاماته المؤكّدة وسلاسل المنتجات ليس إلّا سيرورة من إنتاج « قيم الإشارات» مهمتها تثبيت الدرجة الاجتماعية وإعادة تدوين الفروق الاجتماعية في عصر المساواة الذي ألغى التراتبية الطبيعية.»**( ليبوفتسكي، 2007، ص 175)**، ويعدّ المال المسؤول عن فرض القيم والعلاقات فلقد « فرض نفسه على الثقافة الحديثة كطريقة لحساب متوسط القيمة، بعدما أصبح العلامة المفضّلة للتوسّط بين السلع. فهذه الوحدة للقياس المتوسط للقيم فرضت نفسها خلال التاريخ كناقل للتفاهة.» **(دونو، 2020، ص 201)**

وتظهر العلاقة الوطيدة بين خطاب التفاهة ودعمه لصناعة الثقافة الاستهلاكية في الإفراط الذي انتصرت فيه الكماليات على الضروريات، وبالتحديد الكماليات التي تتسم بالابتذال والزخم والمبالغة، وتوظيف الموضة زاد من ترجيح الكفة للكماليات وبالتالي فتح الأبواب أمام التبذير وخلق مشكلة الوفرة، ما جعل « مستقبل الموضة في مجتمعاتنا يتحدّد من خلال تقويم التبذير وعملية خلق احتياجات غير ضرورية، وكذا معايير التحكّم في الحياة الخاصة. إنّ مجتمع الاستهلاك هو البرمجة اليومية، إنّه تلاعب عقلاني للحياة الفردية والاجتماعية في كل المجالات، كل شيء أصبح مصطنعا ووهميا لخدمة الصالح الرأسمالي والطبقات المهيمنة.» **(ليبوفتسكي، 2007، ص 161)**

وقد قدّم **آلان دونو** مثالا بسيطا يؤكّد فيه حلول الكمالي على الضروري والغباء على الذكاء لسوء استخدام هذا الأخير، إذ « أنّ إنتاج طائرات الرفاهية هو إساءة استخدام للذكاء من أجل تحقيق أغراض تافهة»**(دونو،2020، ص 187)**، فعوض الاستفادة من الطائرات في أمور ضرورية للإنسان في مجال الطب والعلم خصّصت

طائرات بأموال طائلة للرفاهية، وهذا يحيل إلى كون المجتمع المستهلك قد طغى عليه **تسليع الحياة والقيم** محوّلة إيّاه إلى مجتمع مادي بحت، لأنّ « القيمة في الثقافة الرأسمالية تكون مسألة أصول مالية وأغراض رفاهية للأغنياء، فيما هي للفقراء والمستهلكين الاعتياديين محض مسألة مساومات ومقارنات بين الجودة والسعر، هو أمر قد أدّى إلى تطوّر باثولوجيات خاصة « **(دونو، 2020، ص 209)**، يمكن الإشارة إلى إحداها والمتمثّلة في الانتقال من مستوى **الحرفة** إلى **المهنة** في مختلف المجالات، وذلك بإغفال الجودة والذوق والإبداع والجمالية وعمر المنتوج بطول المدى، والتركيز على الشكل والاصطناع والتقليد وقصر عمر المنتوج والربح السريع، ومنه فإنّ « القيمة في الثقافة الرأسمالية تكون مسألة أصول مالية وأغراض رفاهية للأغنياء، فيما هي للفقراء والمستهلكين الاعتياديين محض مسألة مساومات ومقارنات بين الجودة والسعر، هو أمر قد أدّى إلى تطوّر باثولوجيات خاصة.» **(دونو، 2020، ص 209)**

كما يساهم خطاب التفاهة اليوم في صناعة الثقافة الاستهلاكية من خلال توظيفه للموضة من منطلق أن **الاقتصاد الاستهلاكي** هو في حقيقته **اقتصاد استعماري**، يحتاج إلى لغة حربائية متغيرة بتغير الظروف والفترة الزمنية وإن كانت الغاية واحدة وثابتة وهي هيمنة الإمبريالية الغربية واستمرارها، وهذه اللغة تتمثل في الموضة باعتبارها صناعة خفيفة ناعمة لأنّ» الصناعة الخفيفة صناعة منظمة»**(ليبوفتسكي، 2007، ص 163)**، وموجّهة لغاية محددة، هذا ناهيك عن كون المجتمع الاستهلاكي مصاب بحمى الاستهلاك أبرز سماته تفشّي الموضة فيه، بحيث « يمكن أن نميز « مجتمعات الاستهلاك» تجريبيا، بسمات عديدة مثل ارتفاع مستوى المعيشة، انطلاق التجارة والخدمات، تقديس الأشياء والمتع، وروح مبدأ المتعة والرأسمالية. لكن بنيويا، فإنّ تعميم عملية الموضة هو ما يعرّفها بشكل خاص.» (ليبوفتسكي، **2007، ص 163)**

إنّ الإنسان المعاصر مع نفسه أصبح متشيّئا بحكم سعيه الدائم لاستهلاك الأشياء التي تحقّق وفقا لمنظوره حاجاته ورفاهيته والتي ترتبط أكثر شيء بكل ما هو مادي، وهو ما فكّرت به النزعة النيوليبيرالية وذلك بتوظيفها للتقنية والتكنولوجيا لإغرائه في عملية الاستهلاك وجعلها تكون بشكل مفرط، لأنّ» وسائل الاتصال الجماهيري التي تقوم بدور الوساطة بين السيد والعبد متشبّعة بهذا النوع من الرفاهية، بهذه البنية الفوقية الإنتاجية القائمة على قاعدة المجتمع التعيس. فوكلاء الإعلان يصنعون عالم الاتصال الذي يترجم فيه السلوك الأحادي البعد»(ماركيوز، **1988، ص 122**)، وقد

أطلق بودريار على ذلك النوع الجديد من القمع» صفة « الاحتواء» حيث يتم التحكّم في المجتمع عن طريق احتوائه ضمن المشهد الاستهلاكي»(هوروكس **وجيفتك، 2005، ص 17)**، بالاستناد إلى العمل على الحاجات النفسية واستثارة الجانب الغرائزي في الإنسان بوسائل إغرائية، « فكم هي هشة أوضاع الإنسان المعاصر الذي تتقاذفه إغراءات الحياة المعاصرة ورغبته اللامحدودة في أن يرتقي الأعالي.» (عبد **السلام، 2012، ص 31)**

فالمجتمع النيوليبرالي الاستهلاكي يقوم على الاستهلاك الاقتصادي الذي يؤسّس له الاستهلاك الثقافي من خلال الموضة و**توّحش الإعلان**، والمعروض **بصبغة التفاهة** نتيجة لإسباغ التفاهة على كل شيء في أشكال مختلفة ومتنوعة في الفن، الطعام، الموسيقى، السياحة، وغيرها، فالثقافة وسيلة للسيطرة على الاقتصاد والمحرّك الأساسي لنمّوه، من منطلق كون **الرأسمال الرمزي** يؤسس **للرأسمال المادي**، وفي هذه النقطة يقول **بودريار**:» بقدر ما تكون عملية الاستهلاك ذات دلالات معيّنة، فإنّها نظام صارم للرموز، فالسلع هي نماذج لسلع تمارس سلطانها في إغراء أشخاص ما» **(هوروكس وجيفتك، 2005، ص 27)**، أمّا بالنّسبة للإعلانات فإنّها « توّحد الرغبات والأذواق، تقلّص من فردانية الشخصيات، على غرار الدعاية الشمولية، إنّها تغسل المخ، تنتهك الجماهير، تقضي على ملكة الحكم على الأمور والقدرة على اتخاذ القرار.»**( ليبوفتسكي، 2007، ص 198)**

بمعنى أنّه في الثقافة الاستهلاكية يتم عرض الرمز وفي الاقتصاد الاستهلاكي يتم بيع المعنى، ويتمّ تصعيد الثقافة الاستهلاكية بقدر تصعيد رسملة القيم والمعاني من خلال استهلاك الذات والآخر وكل العلاقات وما يحكمها من قيم ومعاني، ما جعل بودريار يقول:» نحن لا نستهلك مجرد السلع كرموز، لكننا نستهلك العلاقات بين هذه السلع، وهذا تطوّر حضاري جديد»( **هوروكس وجيفتك،2005، ص 27)**، تتجلّى فيه ثقافة اللامعنى وتسطيح الفكر والعقل المنفعل والتفكير المستقبل والكسول والخامل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يسود مبدأ الاستهلاك علاقته مع الآخر بدءا من اعتبار الذات الإنسانية الآخر مجرد موضوع فقط يحقق لها حاجاتها المراد استهلاكها ولهذا « فالإنسان الاقتصادي والإنسان الاستهلاكي يشير إلى رجال ونساء بلا روابط اجتماعية، إنّهم السكّان المثاليون لاقتصاد السوق والأنماط التي تبّث السعادة في نفوس مراقبي الناتج القومي الإجمالي»( **باومان، 2016، ص 109)**، وهو ما أكدّه بدوره **بودريار**

قائلا:» إنّ الميديا والإعلام الملزم يتابعان، خلف هذا الإخراج المحتدم للاتصال، تفكيكا للاجتماعي لا يقاوم»( **بودريار، 2008، ص 150**)، وبالتالي فالعلاقة بين الذات والآخر علاقة استهلاكية بامتياز» تتراجع مهارات الاجتماع الإنساني بشدة وبسرعة بسبب النزوع نحو معاملة البشر الآخرين باعتبارهم موضوعات استهلاك والحكم عليهم مثل نموذج الموضوعات الاستهلاكية وفق حجم اللذة التي يحتمل أن توفّرها وبلغة « القيمة مقابل المال» وهذا النزوع يصدر عن النموذج المهيمن للحياة والمتمركزة حول الاستهلاك»( **بودريار، 2008، ص 115**)، فالمجتمع الاستهلاكي غارق في عبادة الوفرة ما يبرز دليل الفائض ونفي الندرة.

**خاتمـــــة:**

يمكن أن نستخلص في ختام هذه الورقة البحثية النقاط الآتية:

- تعدّ فلسفة الاستهلاك حجر الأساس للرأسمالية وبدورها النيوليبرالية ساهمت في صناعة الثقافة الاستهلاكية وهيمنتها على المجتمع المعاصر.
- إنتاج النيوليبيرالية لخطاب التفاهة وتحويله لنظام متكامل يسبغ التفاهة على كل شيء ويكون الداعم الأساسي لصناعة الثقافة الاستهلاكية والعمل على تنميطها وقولبتها ثم توسيع عملية نشرها، وتكريس واقع يزيف وعي الأفراد ويتلاعب بعقولهم ويسلب إراداتهم واتخاذ قراراتهم، لبلوغ الهيمنة الإمبريالية.
- تجذير الإمبريالية الغربية بالاتحاد بين خطاب التفاهة والثقافة الاستهلاكية وتكريس الاقتصاد الاستعماري من خلال العمل على تفشي حمى الاستهلاك والخروج من مجتمع الندرة والدخول إلى مجتمع الوفرة الذي يمثل أساسا» المجتمع الاستهلاكي» الذي يغيب فيه العقل المفكّر النقدي والمنتج ويحضر فيه العقل المنفعل المستقبل المستهلك.
- توظيف الموضة وتوّحش الإعلان والميديا والإعلام لنشر الثقافة الاستهلاكية، وتحويل العلاقات والروابط الإنسانية إلى علاقات استهلاكية مادية تتسم بعرض الرمز وبيع المعنى ورسملة كل القيم الإنسانية التي تحكم العلاقات بين الذات والآخر.

**قائمة المراجع:**


1. بودريار، جان. ( 2008). المصطنع والاصطناع، ترجمة: عبد الله، جوزيف.ط1. بيروت. المنظمة العربية للترجمة.

2. بيونغ، شول هان. ( 2022). معاناة إيروس، ترجمة: مصطفى، بدر الدين. (د.ط). العراق. دار المعنى.

3. دونو، آلان. ( 2020). نظام التفاهة، ترجمة: عبد العزيز الهاجري، مشاعل. ط1. لبنان. دار سؤال للنشر.

4. هوروكس، كاريس. وجيفتك، زوران. ( 2005). أقدم لك جان بودريار، ترجمة: الجابري، حمدي. ط1. القاهرة. المجلس الأعلى للثقافة.

5. زيجمونت، باومان. ( 2016). الحب السائل عن هشاشة الروابط الإنسانية، ترجمة: أبو جبر، حجّاج. ط1. لبنان. الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

6. ليبوفتسكي، جيل. ( 2007). مملكة الموضة زوال متجدّد الموضة ومصيرها في المجتمعات الغربية، ترجمة: مندور، دينا. ط1. القاهرة. المركز القومي للترجمة.

7. ماركيوز، هربرت. ( 1988). الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة: طرابيشي، جورج. ط3. لبنان. دار الآداب.

8. عبد السلام، بنعبد العالي. ( 2012). الفلسفة فنّا للعيش، ط1. المغرب. دار توبقال للنشر.

# مواقع التواصل الاجتماعي بين اعادة انتاج /تعميق «/ ترسيخ / نظام «التفاهة « في المجتمعات المعاصرة

# Social Media: Between the Reproduction, Deepening, and Entrenchment of the 'Banality' System in Contemporary Societies

**أ.د/ آيت قاسي ذهبية**

**قسم علوم الاعلام والاتصال، مخبر سوسيولوجيا الاتصال الثقافي الاغواط -الجزائر**

**مقدمة:**

يعد مفهوم أو نظام التفاهة على حد تعبير « آلان دونو» محور اهتمام العديد من الباحثين والفلاسفة منذ بداية القرن الماضي الى يومنا هذا، خاصة مفكرو ما بعد الحداثة، على غرار «جان بودريار»، «زيجمونت باومان، «جيل ليبوفتسكي» و»آلان دونو»، وآخرون...، إذ سنحاول من خلال هذه المداخلة التركيز على مفهومهم « للتفاهة»، ومحاولتهم فهمها والبحث في أسبابها وتمظهراتها خاصة في المجتمعات الغربية المعاصرة. دون أن ننسى العروج على طروحات مدرسة فرانكفورت التي انتقدت الثقافة الجماهيرية، على اعتبار أنها كل ما تعرضه وسائل الإعلام، ورأت فيها تهديداً لثقافة النخبة والثقافة الشعبية، وأن تحول الثقافة الى سلعة تخضع لمعايير السوق قد أدى الى انحطاطها، ومن هنا بدأ «التوجس» من التفاهة وهيمنتها.

كما أننا سنبحث في علاقة مواقع التواصل الاجتماعي كفضاءات افتراضية، تجمع مختلف اطياف المجتمع الإنساني، بالتفاهة ومساهمتها في فرض هيمنتها على الأفراد والمجتمعات، بسبب خصوصياتها التقنية، وانعكاساتها على العلاقات الإنسانية، وتماهيها مع المنطق الاستهلاكي، واختراقها للحدود الشخصية، تحطيمها للضوابط الأخلاقية والاجتماعية باسم الحرية التشاركية.

لذا طرحنا السؤال المحوري التالي: ما المقصود بمفهوم/ نظام التفاهة عند نخبة من الفلاسفة والباحثين المعاصرين على غرار « جان بودريار «، زيجمونت باومان، جيل لبوفتسكي وغيرهم؟، وهل يمكن اعتبار « الصناعات الثقافية « وفق طروحات مدرسة فرانكفورت « شكلاً من أشكال التفاهة؟ وهل يمكن القول إن مواقع التوصل الاجتماعي كفضاءات افتراضية صنعت التفاهة أم أعادت انتاجها وفق قوالب جديدة؟

وحاولنا الإجابة عنه وفق مقاربة توثيقية تبحث في مؤلفات من تناولوا «مفهوم التفاهة» بشكل صريح او ضمني او تحت مسميات أخرى، ثم القيام بعملية اسقاطها وربطها بالتفاهة وتمظهراتها المختلفة وممارساتها ضمن الفضاءات الرقمية (مواقع التواصل الاجتماعي).

**-أولا: مفهوم التفاهة: تعددت المنطلقات والمعنى واحد**

**1-1: مدرسة فرانكفورت: الصناعات الثقافية، انحطاط الثقافة !!**

أخذت هذه المدرسة على عاتقها نقد الحضارة الغربية قصد إعادة النظر في أسسها ونتائجها في ضوء التحولات التي افرزتها الحداثة الغربية، وحاولت رصد اعراضها الباثولوجية ( المرضية) كالتشيؤ، الاغتراب، ضياع مكانة الفرد وأزمة المعنى وغيرها، ( بومنير، بسبب المفاهيم والقيم التي قامت عليها كالعلائقية والحرية والتقدم العلمي والتقني، وتحول المشروع التنويري الذي كان أساس الحداثة الغربية من مشروع للتقدم والتحرر الى اسطورة للهيمنة والسيطرة، وتحول الفكر الى آلة رياضية، صنف الواقع حسب المقولات الكمية والصور المنطقية بغية صياغة قوانين ثم التنبؤ بحدوث الظواهر . وأي شيء لا يتطابق مع معايير الحساب والكم والتقنين يعد شيئا مشبوها، ويتم بذلك استبعاد وإقصاء القيم الدينية والجمالية والأخلاقية والفلسفية التي اعتبرت ميتافيزيقا لا علاقة لها للمعرفة العلمية والتقنية.

ومع «تشيؤ العقل» أصبحت العلاقات الإنسانية وعلاقة الإنسان بذاته بمثابة علاقات مسعورة على حد تعبير هوركهايمر وأدورنو، وكرس نجاح العقل الأداتي في تشيء الإنسان، اغتراب الموضوع عن الذات واغتراب الذات عن الموضوع، إذ مع التقدم العلمي والتقني حققت المجتمعات الغربية قفزات نوعية لكنها وقعت فريسة النظم الشمولية (النازية والفاشية والستالينية ...). (بومنير، 2010، ص 15).

إذن تحكم العقلانية الأداتية في دوافع الأولية للإنسان وحياته الباطنية ولدت حسبها ((هوركهايمر وأدورنو)، ما يسمى « الاغتراب والتشيؤ «وقد تتبعا تأثيرها في الحقل الفني أو الجمالي، هذا الذي انحط وتقهقر، وتراجع معه الحقل الثقافي بفعل الصناعات الثقافية وأجهزتها الإنتاجية والإعلامية، ففقد العمل الفني والثقافي قيمته وأصالته، وتحول إلى مجرد وسيلة للتسلية في وقت الفراغ، أو أداة لفرض الأيديولوجيا او لترويج السلع الاستهلاكية وتنميط الإنسان والسيطرة عليه. (بومنير، 2010، ص 93).

اذن يمكن القول ان الحديث عن التفاهة بدأت مع مفهوم « الصناعات الثقافية» الذي جاء بها رواد مدرسة فرانكفورت.

والبداية كانت حينما عمل « أدورنو مع لازارسفيلد، على إنجاز مشروع بحثي حول التأثيرات الثقافية للبرامج الغنائية، غير أن «أدورنو» سرعان ما تخلى عن الفكرة لتعارض ذهنيتي الرجلين، حيث قال « عندما وجدت نفسي في مواجهة ضرورة قياس « الثقافة، تبين لي ان الثقافة يجب أن تكون تحديدا الشرط الذي يقصي كل عقلية قادرة على قياسها، (ماتلار، 2005، ص88).

انتقد أدورنو» في إطار دراسته للبرامج الموسيقية الاذاعية وضع الموسيقى التي تم الحط من قيمتها، ولم تعد سوى تزينا للحياة اليومية، كما فضح ما أطلق عليه « السعادة المغشوشة للفن، رافضا التنازل عن النقد الجمالي الخالص لصالح التحليلي السيكو-سوسيولوجي، واعتبار الجاز أداة للتعبير عن الحرية والتحرير، معتبرا أن الوظيفة الاجتماعية المركزية للجاز تتمثل في اختصار المسافة بين الفرد المغترب والثقافة الموالية.

وقد استحدث « أدورنو» رفقة « هوركهايمر» في منتصف الاربعينات من القرن الماضي مصطلح « الصناعة الثقافية باعتبارها ظاهرة تهدف تحويل الإنتاج الثقافي الى سلعة، أي أن النمط والمنطق الصناعي يسري على مختلف المنتجات الثقافية والأفلام والبرامج الاذاعية والمجلات .... وهنا نحصل على ثقافة جماهيرية تحمل في طياتها مواصفات الصناعة الثقافية (إنتاج غزير، تماثل معياري، تقسيم عمل).

وهنا عكست الصناعة الثقافية علامة واضحة عن تردي وإفلاس الثقافة وسقوطها في « السلعنة «، وتراجع الدور لفلسفي – الانطولوجي للثقافة، بعد أن تحول الفعل الثقافي الى قيمة سوقية تبادلية. (ماتلار، 2005، ص90)

ويشير «بنجامين والتر» أن النمط الصناعي في انتاج الثقافة يهددها بالتماثل (تنميط معايير الإنتاج)، بسبب الضغوط الاقتصادية والرغبة في الهيمنة الاجتماعية. (ماتلار، 2005، ص 91).

هربرت ماركيوز (1898-1979)، بمؤلفة « الانسان ذي البعد الواحد»، تضمن نقدا لاذعا للثقافة والحضارة البرجوازيتين، محاولا الكشف عن الأشكال الجديدة

للهيمنة السياسية من خلال استثمار التكنولوجيا والعلم، التي تدعي تحرير الفرد فيما هي في الحقيقة تعمل على استعباده.

ينتقد كل من هوركهايمر، وأدورنو وماركيز انتقادا حادا ومكثفا واقع انتقل من استخدام الأشياء استخداما مفرطا الى تطويع الأفراد تطويعا تضليلياً. (ماتلار، 2005، ص 93).

**يورغن هابرماس:** الذي مثل الجيل الثاني في مدرسة فرانكفورت، جيل التواصل وصاحب نظرية الفضاء العمومي، والذي بدوره تبنى أفكار " أدورنو وهوركهايمر "، حول تضليل الرأي العام والتماثل والتحشيد وتجزئة الجمهور، فالفرد يسعى لأن يكون مستهلكاً ذي سلوكات عاطفية وهتافية احتفالية.

انتقد هابرماس الوضعية معتبرا إياها أداة لإضفاء الشرعية لسيطرة التقنية، التي أصبح الانسان يعيش تحت رحمتها في ظل المجتمعات الرأسمالية التي تستمد هي الأخرى شرعيتها من هذه التقنية. وتوظفها الدول التكنوقراطية للسيطرة عليه وعلى الطبيعة المحيطة به.

2-1: **التفاهة عند " غوستاف لوبون"**: (1841-1931): صاحب كتاب " سيكولوجيا الجماهير «، أو " نفسية الحشود" القائل بإمكانية التحكم التوجيهي التضليلي في المجتمع. (ماتلار، 2005، ص 34) (والمعارض لفطرة المساواة مدينا كل أشكال المنطق الجماعي باعتبارها انحطاطا وتراجعا للتقدم الإنساني.

تناول "لوبون في " سيكولوجيا الجماهير" عددا من القضايا النفسية – الاجتماعية المتعلقة بنفسية الجماعات ومشاعرها واخلاقها وتخيلاتها من جانب، وبأفكارها ومعتقداتها من جانب آخر، مصنفا اياها ومركزا على جماعات الانتخاب والمجالس النيابية.

تطرق لوبون لموضوع التفاهة في تحليله لنفسية الحشود إذ اعتبر أن الفرد ضمن الحشد لا يشعر بأية مسؤولية خلقية في تصرفاته وسلوكه لأنه يطلق العنان لكل مكبوتاته التي تحركها الميولات الغريزية، فتتمظهر في عاطفة جامحة وتعصب اعمى ومبالغة ملحوظة تتخفى وراء الجماعة.

وقد حلل لوبون روح الحشد ولخص قوانينها في النقاط التالية:

- تغلب الجانب الوجداني وتنقل الحالات النفسية بين الأفراد كالوباء خاصة في حالات الخوف والفزع...
- التضخيم والمبالغة في الانفعالات مهما كانت المواقف وحقيقتها.
- تعطيل العقل وحلول الغريزة والعاطفة محله، فيختفي التفكير والذوق السليم، ويعتنق الفرد أراء وأفكار مجنونة أو خرافية.
- اضمحلال شخصية الفرد ضمن الحشد، فيفقد ملكة النقد،
- تميل الحشود حسب لوبون إلى الهدم أكثر من البناء، من خلال عمليتين نفسيتين: عملية التواصل عن طريق العدوى الفكرية (تنتقل الأفكار بين الأفراد فيرددونها بلاوعي ولا شعور، مما يبين سلبية الافراد وتجردهم من ذاتيتهم الواعية. والعملية الثانية هي عملية الإيحاء حيث يساق الحشد عن طريق الزعماء والقادة بوسائل الإغراء والإيحاء ويسلبون إرادتهم الشخصية).
- اذن لوبون ربط التفاهة بخصوصيات الأفراد المنتمين إلى الحشد، أفراد تعطل لديهم العقل والذوق وحاسة النقد، مسلوبو الإرادة والشخصية، ينجرفون وراء الأفكار السطحية تحركهم الغرائز والأهواء، يقودهم زعماء يفكرون عوضاً عنهم ويقررون. (لوبون، 1988، ص 06).

3-1: **التفاهة عند بيار بورديو**: عند بورديو مرتبطة بإنتاج وإعادة انتاج القيم المبتذلة والسطحية داخل النسق الثقافي والاجتماعي والعنف الرمزي الذي تمارسه الرأسمالية الغربية في مجتمعاتها.

إذ وجه « بورديو» في السنوات الأخيرة من التسعينات اهتماما كبيرا لنقد الدور الذي تلعبه وسائل الاعلام والميديا الجديدة في فرنسا، كما انتقد بحدة فساد وسائل الإعلام الفرنسية وتبعية المثقفين الفرنسيين، خاصة ممارسات التلفزيون الذي تسعى لتكريس الوضع السائد والمصالح السائدة والتلاعب بعقول المستهلكين من المشاهدين. (بورديو، 2004، ص 09)، ومحاولة تشكيل الأفكار والرأي العام بما يتناسب مع الجهات المهيمنة على الإعلام. وهذا ما اعتبر انتاجا وإعادة انتاج للمحتوى التافه في المجتمع. '(أشرف، (2014/02/14)، ملخص لكتاب التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، **14/02/tps://ashrafbhussain.wordpress.com/2014**، /).

كما يتهم التلفزيون بممارسته العنف الرمزي على المشاهدين من خلال تركيزها على برامج الاثارة والدم والجنس والدراما والجريمة على أساس أنها من صلب اهتمامات الجمهور، يقوم بالمبالغة في أهميتها وخطورتها، بالإضافة إلى حجب المعلومات الأساسية اثناء عرضها. ( بورديو،2004، ص 55)، كما أشار بورديو الى الانسياب الدائري للمعلومات حيث يتم تداول نفس الخبر عبر مؤسسات إعلامية مختلفة والسبب عجزها عن إيجاد خبر جديد في ظل بيئة تنافسية حادة.

مما قد يوقعها في الخطأ من خلال نشر الأخبار المثيرة والتافهة لرفع نسب المشاهدة التي يتم استغلالها تجاريا واعتبار اكثرها أرباحا انها الأفضل حتى وان كان المضمون بلا قيمة.

4-1: **التفاهة عند جان بودريار (1929-2007)**: يربط بودريار التفاهة بمصطلح " المحاكاة"، أي استبدال الواقع بواقع افتراضي، يحاكي الحقيقة بنماذج تمثيلية، مما أفرغ العلاقات الإنسانية والحياة الواقعية من معناها العميق.

ولو تتبعنا منظور بودريار للتفاهة نجده ينطلق من نظرته للعنف الذي أصبح يهمين على العالم، معتبرا إياه ظاهرة غير اخلاقية تهدد الوجود الانساني.

خاصة في الوقت الحالي حيث أصبح عنفاً افتراضيا، لا معنى له ولا هوية، يتجلى فيما خلفته عصر ما بعد الحداثة، وهو يشكل خطرا على أخلاقيات الإنسان وقيمه العليا، يفقده ثقته في نفسه وقدراته، ويولد ازمة في عالم الاخلاق وهي زمة ضياع القيم، وهذا يدخله عصر العدمية، (الذي تختفي فيه المرجعيات والأسس التقليدية) وتهيئ لقيم جديدة تشكل قيم ما بعد الحداثة وتبرز مشكلة الصراع القيمي بين مقولتي الخير والشر مما يولد العنف.

يحاول "بودريار" تفسير مشكلة العنف من وجهة اخلاقية، وهي وجهة نظر جديدة تنطلق من نظرية جديدة للواقع (باعتباره واقعا ميتاً/ موت الواقع / عدمية الواقع / انعدام المعنى في الواقع ...بعد ذوبانه في الواقع الافتراضي – واقع تنهار فيه القيم الاخلاقية.

-ربط "بودريار" العنف بالتحول إلى المجتمع الاستهلاكي (تحيط بالفرد علامات، إشارات، صور قابلة للاستهلاك .....التغير في الواقع واحلال الواقع الافتراضي الذي

يعزز العنف، ينسلخ الإنسان من إنسانيته، غياب المعايير، الضوابط الأخلاقية، انهيار الواقع الحقيقي، ليدخل عالم فوق واقعي).

-لوسائل الاعلام وفق» بودريار» دور كبير في اختفاء الحدود (انمحاق)، الحدود ما بين ما هو حقيقي وما هو افتراضي)، خاصة مع التطور التكنولوجي الكبير والثقافة المعاصرة.

أزمة القيم: يراها بودريار من عوامل تعمق العنف في المجتمع، وهذه الأزمة مرتبطة بتعقد العصر الحديث. وتطوراته المتسارعة، وضعت الإنسان أمام عالم افتراضي، (يصعب فهم وقائعه.

-مع سيادة النزعة المادية، تقدم تقني ...تحول نسق القيم، قيم جديدة مغايرة لما الفه وعايشه على مر قرون مما دعاه للتشكيك في نسق القيم المألوفة. ومدى قدرته على مواكبة التقدم الحاصل.

عوامل اخرى تسببت في أزمة القيم: الفساد، اللاّمبالاة، الفوضى الأخلاقية، زيادة وتيرة العنف والتطرف -الهيمنة الثقافية: الاحتكاك بثقافات أخرى، هيمنة وسائل الإعلام، التغلغل الفكري، تقليد المجتمعات، سيطرة الاتجاهات الاستهلاكية، أزمة القلق، الحيرة.

-التطور التكنولوجي: تحولات وتغيرات كبرى في عصر المعلومات، عجز الإنسان عن التعامل معها ومسايرتها خاصة وان الغزو الثقافي يمس الإنسان في صميم ويهدد منظومته القيمية. وتسبب في نشر قيم جديدة، تعميق الفردانية، الدخول في عوالم افتراضية، يعيش في عزلة.

-اذن بودريار يربط التفاهة بفكرة محاكاة الواقع أو الواقع المفرط، خاصة مع تطور الإعلام واستفحال النزعة الاستهلاكية، مما خلق حالة من هيمنة الصور والرموز بحمولتها الثقافية التي عطلت الفكر والعقل وخلقت لدى الافراد حاجات ظرفية يتم تلبيتها فوريا لتتولد حاجات أخرى، وأصبح التركيز منصبا على الشكل لا الجوهر، خاصة ما تقوم به وسائل التواصل الاجتماعي والتلفزيون من ترويج للمعاني السطحية المبتذلة بغية التسلية والترفيه.(عبد الله إدريس، 2018، ص ص)

5-1: **التفاهة عند زيجمونت باومان:** (1925-2017): صاحب سلسلة السيولة (الحداثة السائلة، الحب السائل، الحياة السائلة، الخوف السائل، الشر السائل، الثقافة السائلة، الرقابة السائلة، الأخلاق السائلة) والتي من خلالها يقدم تحليلاً عميقاً لمجتمع الحديث، وتعبر السيولة عن حالة التغير المستمر وعدم الثبات، كهشاشة العلاقات الإنسانية، حيث تعتبر الروابط العاطفية سطحية وسريعة الزوال، مما يعمق من النزعة الفردانية.

ومن هنا يربط باومان التفاهة بمخرجات تحول الحداثة من مرحلة الصلابة إلى مرحلة السيولة، وسماها « الحداثة السائلة، وما يميزها من تحديث وسواسي قهري مكثف، أدى إلى عدم قدرة أي شكل من أشكال الحياة الاجتماعية المتتالية أن تصمد زمنا طويلا، تماما مثل المواد السائلة، (باومان، 2018، ص 19)، مما جعل التغير المستمر والتحولات السريعة التي يعرفها المجتمع السائل، واستفحال النزعة الاستهلاكية، وهشاشة العلاقات الاجتماعية وسيولة الذوات. علامة لصيقة بالحداثة السائلة.

في كتابه « الثقافة السائلة « يقول زيجمونت انه لم يعد ممكنا تمييز النخبة الثقافية بسهولة من غيرها في السلم الثقافي وفق السمات القديمة: الحضور المنتظم للأوبرا، الحفلات الموسيقية. وغيرها،

وان وجد أولئك المثقفون فانهم ليسوا جهابذة الذوق الرفيع، انهم آكلو كل شيء، والمهام التي كانت منوطة بالثقافة اختفت واهملت وبدا تحقيقها بوسائل أخرى، وهنا تحررت الثقافة من الالتزامات الحضارية وركزت اهتماماتها على تحقيق حاجات فردية، وأصبحت تتشكل بما يلائمهم الحرية الفردية،[1]ولم تعد في مجتمعنا الاستهلاكي سوى مستودعاً للبضائع الاستهلاكية، والفن لم يعد يخدم غرضا سوى تحقيق الشهرة والثروة .و الثقافة السائلة ليس لها شعبا تنيره بل زبائن تغريهم، ولم تعد وظيفتها اسباع حاجات قائمة بل خلق حاجات جديدة، ومنع اشباعها بالشكل التام.[2] (باومان، 2018، ص32).

6-1: **التفاهة عند جيل لبوفتسكي:** 1944، عالم الاجتماع الفرنسي وصاحب مؤلف « عصر الفراغ: الفردانية المعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة، يربط هو الآخر التفاهة بالوضع الذي تحول اليه المجتمع المعاصر بفعل تعمق الفردانية وهيمنة

النيوليبرالية والنزعة الاستهلاكية، مما صنع لنا « الانسان المرتخي» الذي تخلى عن كل القيم والواجبات والالتزامات، في زمن الإغراء والانهيار أين لم تعد للتناقضات أية قيمة، وأصبح بإمكان الإنسان أن يعيش دون أي هدف او غاية في الحياة ودون أي معنى.[3] (، https://tadween.alhadath.ps/article/)

1-7: **التفاهة عند آلان دونو:** 1970، وهو الذي خص « التفاهة بمؤلف عنوانه « نظام التفاهة «، معتبرا ان كل نشاط يؤدى اليوم في الفضاء العام، هو في حقيقته لا يرنوا أن يكون مجرد «لعبة «، تستبعد فيها القيم، ويخضع كل شيء فيها للمنطق الاقتصادي، ولحسابات الربح والخسارة (المال والثروة)، او لتحقيق السمعة والشهرة والوجاهة الاجتماعية، مما يفقد الناس اهتمامهم بالشأن العام ويجعلهم يركزون على مصالحهم الفردية،

يدير هذه اللعبة أفراد ذوو مستوىً متدنٍ، يسعون للنجاح السهل، من خلال اعتماد التبسيط وتجنب كل اشكال التعقيد وبذل الجهد، (دونو، 2023، ص ص 25-28).

**المحور الثاني: مو اقع التواصل الاجتماعي « وإعادة تصنيع / ترسيخ « نظام التفاهة:**

**1-2: حقيقة مو اقع التواصل الاجتماعي:**

**أ- مو اقع التواصل الاجتماعي: تعميق مفهوم « ما بعد الحقيقة «:**

رغم ما يقال عن مواقع التواصل الاجتماعي من أنها ليست سوى «مستنقعات» لانتشار الأكاذيب والأوهام والأخبار الزائفة، فإن مفهوم «ما بعد الحقيقة» لم يظهر معها، بل كان وليد البيئة الإعلامية / الاتصالية الكلاسيكية. وقد اختار قاموس «الأكسفورد» هذه العبارة لتكون كلمة السنة في 2016، لكثرة ارتباطها واستخدامها في الحملة الانتخابية البريطانية للتصويت على خروجها من الاتحاد الأوربي، وتضاعف استخدامها بعد تمكن «ترامب» من الترشح للانتخابات الرئاسية الأمريكية في السنة نفسها.

لا تعني عبارة «ما بعد الحقيقة» بالضرورة الكذب، بل تحيل إلى تلك اللامبالاة وعدم محاولة التمييز ما بين ما هو حقيقة وما هو كذب. ولفهم معناه، استبدل « آلان بنويست»، عالم الاجتماع الفرنسي، عبارة «عصر ما بعد الحقيقة « بعصر «ديمقراطية السذج»، الذين يصدقون كل ما يقال لهم، خاصة مع فوضى المعلومات

والأخبار المجهولة المصدر.

في هذا السياق، يمكن القول إن مكانة الصدق والحقيقة قد تراجعت في المجتمعات المعاصرة، ولم تعد تقاس وفق السلم الأخلاقي، بل يكفي أن تدغدغ المعلومات والأخبار مشاعر الجمهور. إضافة لهذا، لم تعد أهمية الخطاب في عصر ما بعد الحقيقة مرتبطة بعلاقته بالواقع، وإنما بعدد الأشخاص المتأثرين به عاطفياً[4]، فالحروب الدعائية والإعلامية اليوم حروب عاطفية لا عقلانية.

كما أن التدفق الهائل والمستمر للمعلومات والأخبار والصور والفيديوهات، وسرعة انتشارها وتغلغلها عبر شبكات التواصل الاجتماعي يصعب عملية تمييز وفرز وغربلة الصدق والكذب منها. وقد أشارت إحدى الدراسات أن الأخبار الحقيقية تتطلب في المتوسط مقدارا من الوقت يتعدى ستة أضعاف الزمن الذي يستغرقه انتشار الأخبار الزائفة لتصل لـ 1500 شخص ...[5] (عبد العالي زواغي، (2021/09/26)، عصر ما بعد الحقيقة أخذ في التوسع بشكل مخيف، على الرابط: **https:alarab.co.uk/**).

من جهة أخرى، لا يمكن تبرئة الإعلام التقليدي وعزله عن عصر «ما بعد الحقيقة»، فكثيرا ما روجت الصحافة والتلفزيون والإذاعة روجت لماذا؟، على غرار « قصة « تميشورا « التي أطاحت بالرئيس الروماني شاوشسكو، ورواية امتلاك نظام صدام حسين ترسانة من الأسلحة النووية. ويعتمد الإعلام التقليدي في استقاء أخباره على ما يتم تداوله عبر شبكات التواصل الاجتماعي، دون تدقيق أو تمحيص في صحته أو كذبه.

ولا يمكننا الحديث عن عصر ما بعد الحقيقة دون الوقوف عند طروحات «جان بودريارد» المتعلقة بموت الواقع، خاصة عند نفيه وقوع حرب الخليج التي تناولها الإعلام كأنها مباراة في كرة القدم أو فيلم سينمائي أو لعبة من الألعاب الإلكترونية. يقول «بودريارد «أن الصورة الإعلامية انتقلت من عصر المشهد / الحقيقة إلى عصر المحاكاة (عصر الفضاء الافتراضي/ الرقمي)، وأنه تم قلب الحقيقة والواقع أثناء هذا التحول، وتعويضهما بكل صور التزييف والمخادعة والتشويه.

ولم يعد الإعلام ينقل الواقع والحقيقة، بل أصبح يعبر عن واقع أكثر واقعية من الواقع الحقيقي، سماه بودريارد «الواقع المفرط أو الواقع المعزز أو المصطنع ببنيته

الافتراضية». والافتراضي حسبه هو سلب للواقعي وإفراغ من محتوياته، ويقدم كمجال يوضع تحت رحمة المعالجة والتحرير والإخراج الإعلامي. (الرئيسي، (2021/07/31)، جان بودريارد وأطروحة «موت الواقع»، مجلة « الرؤية، على الرابط.https://alroya.om/post)، ويقول أمبرتو إيكو « تنبئنا ديزني لاند أن التكنولوجيا قادرة على منحنا واقعية أشد مما تمنحنا إياه الطبيعة».( محمد أسامة، (2021)، الواقعية الفائقة: كيف رأى جان بودريار حياتنا الزائفة ؟، https://www.ida2at.com/how-jean-baudrillard-saw-our-false-life).

الفضاء الافتراضي عمق مفهوم ما بعد الحقيقة والواقع المعزز، والذي يعتبر تشويهاً للواقع وتزييفاً للحقيقة.

**ب- مو اقع التواصل الاجتماعي وعصر السرعة واضمحلال القيمة/ الحقيقة:**

تعرضنا في العنصر السابق لجانب من العلاقة بين الحقيقة والفضاء الافتراضي وفق ما جاء في طروحات فلاسفة وعلماء. فالفضاء الافتراضي هو فضاء لواقع معزز ومحاكى تصنعه وسائط الإعلام والاتصال وتجمله بأساليبها وأدواتها وفق إيديولوجياتها وأهدافها. ويشمل هذا الفضاء الافتراضي في عصرنا الحالي مواقع التواصل الاجتماعي على اختلاف تطبيقاتها ومواقعها (فايسبوك، منصة x، انستغرام، تيك توك...)، التي تهيمن على سوق الاتصالات العالمية.

من جانب آخر، تمثل هذه المواقع تعزيزاً لمفهوم ما بعد الحقيقة في معناه الأساسي، وهو اللامبالاة وعدم الانشغال بمعرفة الحقيقة والكذب وسط فوضى المعلومات والأخبار المتدفقة عبرها بشكل جنوني. فالمنتجون للخبر والمعلومة والمتفاعلون معها يعدون بالملايين، لكن آليات التدقيق والتمحيص مفقودة. وحتى مؤسسات الإعلام ضاعت في الزحام في سعيها الدؤوب لرفع المشاهدات والمتابعات ورضى الملاك وأصحاب القرار. وفي هذا الصدد، نجد أن الجميع قد أحيا مقولة وزير الدعاية النازي، جوزيف غوبلز،»اكذب، اكذب، اكذب حتى يصدقك الناس».

فالجميع يبحث عن «السبق» و«آخر خبر»، و«العاجل» و«الترند»، وعن حصد المزيد من «اللايكات»، وهذا كله على حساب «التأكد» من صحة الخبر. وهكذا، ضاعت الحقيقة في زمن السرعة والعجلة وهيمنة اقتصاد الانتباه. وهذا ربما يعيدنا إلى طروحات «بول فيريليو» حول «الدروموليوجيا» وتأثيراتها على علاقة الإنسان

بالفضاء والزمن، وضياعه في العوالم الافتراضية وعيشه ضمن التمثلات التكنولوجية وأنماط رؤيتها، مما يؤثر على إدراكه ووعيه بوجوده، ( مارلين كنعان، (2023/11/07)، نهاية العالم تصور لا مستقبل له، اندبوندونت عربية بودكاست، على الرابط: **independentarabia.com**)، وإلى نظرية «هرتموت روزا عن «التسارع الاجتماعي» الذي تعيشه المجتمعات المعاصرة نتيجة ترابط ثلاثة أنواع من التسارع: التسارع التكنولوجي (الرقمنة) وتسارع التغير الاجتماعي وتسارع وتيرة الحياة. وهنا يغذي التسارع التقني المتسارع التغير الاجتماعي، والذي بدوره يسرع من وتيرة المعيشة ويخلق طلبا على المزيد من التسريع التقني (خاصة في مجال وسائل النقل والاتصالات)، الذي أثر على الحياة اليومية للأفراد، وانعكس على نمط عيشهم وعلاقاتهم الاجتماعية والأسرية. (زيادة، 2023، ص17).

جعلنا عصر السرعة والتسارع الذي تعد التقنية من أهم أدواته، وانغماسنا نحن كذوات وكمؤسسات في فضاءاته الرقمية الافتراضية، ومحاولتنا مواكبة سياقاته، نتقمص خصوصياته المحتكمة للعجلة والسرعة الجنونية والتسابق مع الزمن، ولو على حساب «واقعية «الواقع والحقيقة والقيم، بل حتى على حساب إنسانية الإنسان بعد أن يحل « السايبورغ» محله، وذلك دائما في سبيل تحقيق الربح في أقل وقت وبأقل جهد.

لذا، فلا عجب أن يكون الفضاء الرقمي الافتراضي مرادفا للزيف والكذب والتضليل، خاصة بعد أن أصبحت شبكات التواصل الاجتماعي توظف خوارزميات الذكاء الاصطناعي، لتحكم هيمنتها على مستخدميها، وتراقب تحركاتهم، وممارساتهم الاتصالية ضمن نطاقها، وتفرض رقابتها على ما يتم تداوله بين جنباتها، فتروج لخطابات وتحاصر أخرى، وفقاً لإيديولوجيات ملاكها، وسعيا لتوسيع دائرة أرباحها.

**ج-مو اقع التواصل الاجتماعي واستفحال الثقافة الاستهلاكية:**

يعد الانتقال من الكوجيتو الديكارتي «أنا أفكر فأنا موجود» إلى كوجيتو بودريار «أنا استهلك فأنا موجود»، دلالة عميقة على تعطل العقل والفكر أمام هيمنة الغريزة الاستهلاكية في عصر ما بعد الحداثة[5]، (نبيل سعو، (2022، ص)، الذي شهد تحول الاستهلاك إلى نوع من العلاقات البشرية وتداخل النظام الاستهلاكي مع النظام الثقافي، وتحول الطلب على السلعة لحمولتها الرمزية، واستهلاك الأفراد لصور ورموزا وشفرات. ولضمان الوجود في هذا العالم، لا بد للمستهلك من التمتع بالقدرة على

استقراء نظام الاستهلاك ورموزه، خاصة أن احتياجات الفرد في المجتمع المعاصر غير محدودة، والسلع المعروضة عاجزة عن إشباع رغباته، بالإضافة إلى استغلال الجنس لتسويقها وبيعها (حرمون، (د، سنة)، جان بودريارد لـ «رحلة: كل المجتمعات تستهلك الوقت وتنتج القمامة»، على الرابط: **.rehlamag.com**).

وقد ساهمت التكنولوجيات الحديثة للاتصال (الانترنت وتطبيقاتها ووسائطها) في زيادة النزعة الاستهلاكية لدى الأفراد، من خلال توظيف الصور المثيرة والمغرية والمحرّضة على فعل الاستهلاك. وتعمل المؤسسات التجارية على إيقاظ حاجات جديدة لدى الجماهير تتناسب مع سلعها ومنتجاتها وقولبتها ضمن النظام الاجتماعي والثقافي السائد. وتحاصر الصور برمزيتها الأفراد في كل مكان، خاصة عبر الفضاءات الافتراضية (الفايسبوك، اليوتيوب، الانستغرام، التيك توك....)، مستغلة سماتها الاتصالية وخصوصياتها التقنية، وتعدهم بمكانة اجتماعية راقية وتمنيهم برفاهية المشاهير والنجوم وتنتج، لديهم حاجات استهلاكية زائفة ومعقدة يستحيل إشباعها إلا ظرفياً، لتعاد مرة أخرى دورة الاستهلاك أملا في الإشباع.

**د-مو اقع التواصل الاجتماعي: منصات للرقابة لا للتحرر:**

قبل أن يهيمن موقع التواصل الاجتماعي « الفيسبوك» على عالم الاتصالات، وبحصد أسهماً مرتفعة فاقت مئات ملايين الدولارات في سوق البورصة، ادعى «مارك زوكيربيرغ « أن موقعه لم يخترع ليكون شركة، بل أنشئ ليجعل العالم أكثر انفتاحاً وتشابكاً». وهنا بادرت الأصوات المشككة بالقول» أنه إن كان استخدامك لشبكة الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي مجاناً، فاعلم أنك أنت الذي يباع»[6] (لعياضي، (2019/09/16)، عندما تصبح عملة مواقع التواصل الاجتماعي، مدونة لعياضي، على الرابط: **https:nlayadi.com**).

يظن الفرد أنّه في دوامة الفضاءات الافتراضية يمارس حرياته في أعلى مستوياتها، فقد منحه «الفايسبوك» و»منصة x «تويتر سابقا» وغيرها فرصة التعبير العلني عن رأيه وأفكاره ومشاركتها مع أصدقائه، وقد استطاع التملص من قبضة الرقابة الكلاسيكية، ووصل الوضع ببعض الشعوب أن صنعت القرار السياسي، وغيرت مجريات الحكم في بلادها، لكن سرعان من انقلب السحر على الساحر، وعاد المشهد إلى سابق عهده، بعد استُحداث آليات جديدة لمحاصرة الفضاءات الافتراضية،

والتضييق على مستخدميها، وتمييع المحتوى بالأخبار الكاذبة والشائعات و»تسييجه» بالذباب الالكتروني .

من جانب آخر، وربما هنا نستدعي الوضع الحالي في غزة والحرب الهمجية التي يشنها الاحتلال الصهيوني على المدنيين والأطفال والنساء، وكيف تعاملت وتتعامل مواقع التواصل الاجتماعي مع المحتوى الفلسطيني، والمحتوى المساند للقضية الفلسطينية، بتوظيف خوارزميات الذكاء الاصطناعي، لتصيّد المضامين الفاضحة لجرائم الاحتلال وحذفها وحجب حسابات أصحابها، في حين «تروج» للمحتوى الإسرائيلي، وتمكنه من «تملك» سلطة الخطاب الاجتماعي تماشيا مع إيديولوجيات اللوبيات المالكة لها وتضليلاً للرأي العام العالمي.

كل ما سبق يثبت «رزوحنا» تحت رقابة مستمرة ويومية في علاقاتنا وتحركاتنا عبر الفضاءات الافتراضية، وهذا يرجعنا للنماذج الرقابية في المجتمعات التي عرف بها «جورج أورويل» في روايته 1984، حينما تحدث عن شاشة مثبتة في كل بيت، وهي عين الحزب وزعيمه «الأخ الأكبر»، حيث تتيح الشاشة النفاذ إلى أفكار الفرد وسلوكاته وتسعى لمنع « جريمة التفكير». لذا يشعر الناس أنهم مراقبون على الدوام، وهذا النوع من المراقبة نجده الآن عبر الوسائط الرقمية الجديدة، مثل مراقبة برامج المحادثات، تسجيلها، تصوير فيديوهات عبر كاميرات الهاتف ونشرها عبر مواقع التواصل الاجتماعي.... إلخ. كذلك يحيل مفهوم الرقابة المجتمعية إلى «جيل دولوز» حينما لاحظ أن الذكاء الاصطناعي يتعامل مع الآثار السلوكية المخزنة في بنوك المعلومات. فمواقع التواصل الاجتماعي الآن تعرف عن المستخدم اسمه، وجنسه، وسنه وعنوانه، ولغته، وديانته، واهتماماته، وأفكاره، وتوجهاته، وكل هذا يباع للشركات الإعلانية الكبرى.

والأطفال المولودون ما بين 1996-2025، أو ما يعرف بجيل**Zalpha** ، هم الأكثر استهدافاً من قبل العلامات التجارية لأنهم الأكثر استخداماً للإنترنت وتطبيقاتها، والأكثر إنفاقاً. وحسب توقعات الخبراء سينمو إنفاق جيل **Zalpha** أسرع 3 مرات من الأجيال الأخرى عام 2030.

**توصيات:**

حسب المفكر الكندي آلان دونو فانه لا سبيل من ايقاف سيل نظام التفاهة الاّ بطريقة جماعية من خلال اتباع منهج القطيعة الجمعية.

-اما جيل ليبوفتسكي فيقترح ضرورة إعادة إحياء علاقتنا الاجتماعية وقيمنا وربطها بالآخر، وتعزيز أخلاق التضامن والمسؤولية، وتفعيل النقد الذاتي والوعي بوسائل الإعلام وتأثيراتها، والاهتمام بالمحتوى الهادف مما يعطينا فرصة بناء تفكير فلسفي معمق يمهد لفلسفة عملية وجماعية. (سعو وعقوني، 223، ص117)

**خاتمة**

تحاصرنا في عالمنا اليوم كل أشكال وأنماط ومضامين التفاهة، التي ساهمت بشكل كبير تكنولوجيات الاتصال الحديثة على انتشارها وهيمنتها على مختلف مناحي حياة الافراد والمجتمعات، ورغم عدم وضوح معايير دقيقة لتحديدها، فإن المتفق عليه أنها المضامين السطحية المبتذلة، وليدة الحداثة المفرطة، بخصوصياتها: من استفحال للنزعة الاستهلاكية، وتعميق الفردانية، وتزييف للواقع، وتلاعب بالمشاعر والعواطف، وانشغال عن الشأن العام وقضايا المجتمع بأخبار المشاهير والنجوم.

وتعتبر مواقع التواصل الاجتماعي (التيك توك، واليوتيوب، والانستغرام ....) فضاءاً لإنتاج وممارسة كل أشكال التفاهة، ومنبراً يفرض منطقها وهيمنتها على الافراد المنساقين وراء « وهم النجومية الخاطفة « و»الشهرة السهلة السريعة «، بما تحققه المحتويات السطحية المبتذلة، وأخبار الفضائح والسخرية، والخوض في أمهات القضايا بأسلوب هزلي متهكم، دون علم ولا دراية من متابعة وإعجاب ومشاهدة.

**قائمة المراجع:**


1- باومان زيجمونت، (2018)، الثقافة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

2- بورديو بيار، (2004)، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، دار كنعان، دمشق، سوريا.

3- بومنير كمال، (2010)، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر الى اكسل هونيث، منشورات الاختلاف، الجزائر.

4- دونو آلان، (2023)، نظام التفاهة، بيت الياسمين للنسر والتوزيع، بيروت، لبنان.

5- عبد الله ادريس سوزان، (2018)، لا أخلاقية العنف عند بودريار. عنف التكنولوجيا، عنف الإعلام، الواقع الافتراضي، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان.

6- ليبوفتسكي جيل، (2018)، عصر الفراغ: الفردانية المعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة، ترجمة: أدوخراز حافظ، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان.

7- ماتلار أرمان، ماتلار ميشال، (2005)، تاريخ نظريات الاتصال، ترجمة: نصر الدين لعياضي والصادق رابح، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان.

8- لوبون غوستاف، (1988)، روح الاجتماع، ترجمة: زغلول باشا احمد فتحي، موفم للنشر، الجزائر.

**المجلات:**

9- زيادة أحمد، (2023)، فاعلية نظرية التسريع الاجتماعي لهارتموت روزا في تفسير أثر الرقمنة على العلاقات الاجتماعية لكبار السن بحث ميداني على عينة من كبار السن بمحافظة القاهرة، مجلة كلية التربية، جامعة عين شمس، الجزء الأول، العدد 29.

10- سعو نبيل، (2022)، النزعة الاستهلاكية وأثرها على فلسفة ما بعد الحداثة لجان بودريار، مجلة دراسات، المجل د11، العدد 02.

11- سعو نبيل، عقوني آسيا، (2023)، جيل ليبوفتسكي، نحو أخلاقيات جديد لمجتمع ما بعد الحداثة في الغرب: كيف نعيد التفكير بعلاقتنا بالاستهلاك، مجلة أنثروبولوجيا، المجلد 09، العدد 02.

**مو اقع الكترونية :**

12- أسامة محمد، (2021)، الواقعية الفائقة: كيف رأى جان بودريار حياتنا الزائفة ؟، https://www.ida2at.com/how-jean-baudrillard-saw-our-false-life، تاريخ وساعة التصفح 2023/12/12، 18:30

13- أشرف حسين (2014/02/14)، ملخص لكتاب التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، على الرابط https://ashrafbhussain.wordpress.com/2014/02/14/، تاريخ وساعة التصفح 2024/11/27. السادسة مساءاً

14- الرئيسي، علي بن حمدان (2021/07/31)، جان بودريارد وأطروحة «موت الواقع»، مجلة « الرؤية، على الرابط.https://alroya.om/post ، ساعة تاريخ

التصفح: 2023/12/12، 18:05

15- حرمون حمية، (د، سنة)، جان بودريارد لـ«رحلة: كل المجتمعات تستهلك الوقت وتنتج القمامة»، على الرابط: **rehlamag.com.**، ساعة وتاريخ التصفح 2023/12/12

16- زواغي عبد العالي، (2021/09/26)، عصر ما بعد الحقيقة أخذ في التوسع بشكل مخيف، على الرابط: **https :alarab.co.uk/.**.

17- كنعان مارلين، (2023/11/07)، نهاية العالم تصور لا مستقبل له، اندبوندونت عربية بودكاست، على الرابط: **independentarabia.com**، تاريخ وساعة التصفح 2023/12/12. الساعة الخامسة مساء.

18- لعياضي نصر الدين، (2019/09/16)، عندما تصبح عملة مواقع التواصل الاجتماعي، مدونة لعياضي، على الرابط: **https :nlayadi.com**، تاريخ وساعة التصفح 2019/09/17، الساعة 10.30.

19- لعياضي نصر الدين، (2019/09/16)، الميديا وما بعد الحقيقة؟ على الرابط **https://nlayadi.com**.، تاريخ وساعة التصفح 2023/12/18.

# أنا تافه إذن أنا موجود: مواقع التّواصل الاجتماعي وصناعة النجوميّة المُؤقّتة

# I Am Trival, Therofore I Am: Social Media and the Making of Temporary Stardom

**د. نريمان كوسة.**
**جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر**

**1_مقدمة:**

لا يخفى على المتأمّل في ملامح هذا العصر أنّه عصر التّفاهة بامتياز، تتسيّده متاهةُ القيّم، وتغلب عليه السّطحيّة في الفكر والمعنى. وقد أسهمت الوسائل التكنولوجيّة الحديثة، وعلى وجه الخصوص وسائط التّواصل الاجتماعي، في إذكاء هذا التيه، إذ أتاحت للجموع فرصا غير مسبوقة في نحت نجوميّة زائفة، تقوم على السخريّة والتّفاهة، وتزدهر بقدر ما تنحطّ في المعنى والغاية. إنّها شهرة آنية، لا تنفكّ تتآكل بزوال لحظتها، وتذوي في خواء مضمونها.

وأمام هذا الواقع المُربك، تفرض علينا هذه الظواهر تساؤلات فلسفيّة مُلحّة، تسعى إلى تفكيك منطلقاتها، وتتبع مساراتها، وتأمّل مقاصدها العميقة. فهل تُعدّ هذه النجوميّة العابرة نتاجَ وعي اجتماعيّ جديد أم عرضًا لأزمة في منظومة القيم؟ وكيف يمكن للتفكير الفلسفي أن يضطلع بمهمّة أخلقة المشهد الرّقمي، بما يعيد الاعتبار للصّناعة الثقافيّة الجادّة، ويمنحها ما تستحقّه من مركزيّة وتأثير؟

وانطلاقًا من هذا الإشكال المحوري، يتفرّع بحثُنا إلى جملة من التساؤلات الفرعيّة التي تسعى إلى الإحاطة بجوانب الظاهرة من مختلف أبعادها، وهي كالآتي:

- ما المقصود بالتّفاهة؟ وكيف يمكن فهم علاقتها بوسائل التّواصل الاجتماعي، وتكنولوجيا الاتصال، والتّفكير الفلسفي؟
- بأيّ آليّات تتسلّل التّفاهة إلى العقول عبر ما يُعرف بـ«المؤثّر المُزيّف»، وما الذي يجعل الجماهير تقبل بها وتروّج لها؟
- هل ما زال في إمكان الفلسفة أن تُنقذ الإنسان من هذا الانحدار القيمي؟ وهل يستطيع التفكير الفلسفي أن يُعيد توجيه الوعي الجمعي نحو معاني الجدوى

والعمق والتميّز؟

وانسجاما مع الإشكال المطروح والتساؤلات المتفرّعة عنه، تنطلق دراستُنا من فرضيتين مركزيتين، تضبطان مسار البحث وتحدّدان أبعاده المنهجيّة والفكريّة:

الفرضية الأولى :إنّ التّفاهة وما تُنتجه من نجوميّة مؤقّتة تمثّل أحد الأسباب الجوهريّة في تدهور منظومة القيم، وظهور الزيف في السلوك، وتراكم الأزمات النفسيّة، وتفكّك الروابط الاجتماعية. فحين تُستبدَل المعاني العميقة بالمظاهر الفارغة، تصبح الثقافة مرآة للفراغ والخواء.

الفرضية الثانية :بإمكان التّفكير الفلسفي، بما يحمله من طاقة تأمليّة ونقديّة، أن يُعيد بناء المعنى والقيمة داخل الفضاء الثقافي، من خلال مواكبة اليوميّ وتفكيكه، وتقديم طرائق علاجيّة تجمع بين البُعد الروحي والعقلي، مستندة إلى الحوار، والتّواصل الواعي، والتحليل العميق.

وانطلاقا من تعقيد الظاهرة التي نتناولها، تفرض علينا المعالجة اعتماد أدوات منهجيّة محدّدة، في مقدّمتها المنهج التحليلي والمنهج النقدي؛ ذلك أنّ التّفاهة، بوصفها فعلا اجتماعيا متفشّيا، يمكن إدراجها ضمن ما يُعرف بالباثولوجيات الثقافيّة، أي الأمراض الرمزيّة التي تنخر جسد المجتمعات المعاصرة. وهي ظواهر تستوجب تفكيكًا دقيقا، وتحليلاً عميقا، ونقدًا بنّاء، قصد تصحيح المسارات الذهنيّة، وتنبيه العقول إلى ما انزلقت نحوه من خواء وتشويش.

إنّ هذا ما يفسّر دوافع اختيارنا لهذا الموضوع؛ فدافعُنا الذاتي ينبع من شغفنا بظواهر اليومي والتحوّلات الثقافيّة التي تصوغ وعي الأفراد وتؤثّر في سلوكهم. أمّا الدافع الموضوعي، فيرتبط بأهمية هذا الطرح في تقديم مداخل علاجيّة واقعيّة وفعّالة لمظاهر التفاهة التي باتت تُهدّد المعنى، وتُفرّغ الفكر من محتواه، نتيجة الاستخدام التّسطيحي والموجّه لمنصّات التواصل الاجتماعي.

تكمُن أهمية هذا البحث في تطرّقه إلى إحدى الإشكالات الجوهريّة التي تشغل راهننا الثقافي والاجتماعي، وهي تفشّي التّفاهة واكتساحها للواقع والمواقع على السواء، بما تسبّبه من استنزافٍ للتفكير الصّحيح، وتشويهٍ للسلوكات السّويّة. ويأتي هذا العمل كمحاولة لفهم هذه الظاهرة في عمقها، والسعي إلى اقتراح سبل للحدّ منها عبر مقاربة

عقلانية نقدية.

وقد تمّ بناء هذا البحث وفق ثلاثة محاور رئيسة، جاءت على النحو الآتي:

- أوّلا: تحليل المفاهيم المركزيّة التي تقوم عليها الدراسة، ويتعلّق الأمر بمفاهيم: التفاهة، الإعلام والتكنولوجيا، وسائل التواصل الاجتماعي، والتفكير الفلسفي، وذلك من أجل ضبط الإطار المفاهيمي للنقاش.
- ثانيا: تشخيص الكيفيّة التي تغلغلت بها ثقافة التفاهة في الوعي الجمعي، من خلال ما يُعرف بـ«المؤثّرين المزيّفين» النشطين على مختلف المنصّات الرقمية.
- ثالثا :تقديم مجموعة من الحلول الفلسفيّة ذات الطابع العملي، والتي قد تُساهم في إعادة تنمية الوعي الاجتماعي، بما يحفظ للإنسان قيمته وكرامته، ويُعزّز من حضور التفكير الراشد والتدبير الحكيم في مواجهة العبث الرّقمي المعاصر.

**2_مفاهيم الدراسة:**

من البديهي أن تنطلق كلّ دراسة علميّة جادّة من أرضيّة مفاهيميّة واضحة، إذ إنّ ضبط المفاهيم يُعدّ خطوة أولى نحو بناء فكر متماسك ومنسجم. وفي سيّاق بحثنا هذا، الذي يتمحور حول التحوّلات الثقافيّة المعاصرة، وتجلّيات التفاهة وصناعة النّجوميّة المؤقّتة عبر وسائل التواصل الاجتماعي، تزداد الحاجة إلحاحا إلى الوقوف عند المفاهيم المحوريّة التي تُشكّل البنية المعرفيّة للموضوع. من هذا المنطلق، سنعمل على تفكيك المعاني الكامنة في كل من: التفاهة، الإعلام والتكنولوجيا، وسائل التواصل الاجتماعي، والتفكير الفلسفي، وذلك لتحديد الأفق النّظري الذي نتحرّك ضمنه، وضمان وضوح الرؤية في مقاربة الإشكال المطروح.

**2_1 التفاهة:**

عند الرجوع إلى المعاجم اللغوية التراثية، نجد أن معجم لسان العرب لابن منظور يُعرّف لفظ «التّفاهة» بكونها مشتقة من الفعل تفهَ، أي: قلّ وخسّ، فهو تافِه، أي قليل الشأن، وضئيل العقل، وحقير القدر. وجاء في المعجم: «رجل تافه العقل، أي: قليله»، أي من شُحّ في تفكيره وضَعُفَ رأيه. (ابن منظور ج.، (د،س)، ص436)

انطلاقًا من هذا التأصيل اللغوي، يتبيّن أن التفاهة، تدلّ على انعدام القيمة، وفراغ المعنى، وانحطاط الفكر. فهي تعطيل منهجي لنشاط العقل وتقزيم للقدرة على

التّمييز بين الرّصين والرّكيك، بين ما يستحق التّفكير وما يُثير الضحك العبثي .فحضور التّافه، كظاهرة اجتماعية أو ثقافية، لا يتمّ اعتباطًا، بل يتطلّب أرضية من التسطيح، والعجرفة الفارغة، واللا معنى المُعمَّم.

ومن هنا، يمكن اعتبار التفاهة تمثيلا لانحدار عرضي في الذوق العام، وأزمة دلالية تعكس تغيّرًا في سُلّم القيّم، وفي طريقة تمثّل العالم والذّات داخل مشهد ثقافيّ تحكمه آليات الفراغ والتمظهر. ويمكننا، في ضوء ما سبق، أن نُقرّ بأنّ «التفاهة» تدلّ كذلك على ظهور رموز تافهة وصعود من يُطلق عليهم في التراث العربي «الرويبضات"؛ أي أولئك الذين لا يملكون مؤهّلات الفكر ولا رصيد المعنى، لكنّهم يتصدّرون المشهد ويتحكّمون في الوعي العام. (السيد، 2023، ص23).

إنّ أخطر ما تُخلّفه هذه الظاهرة، يكمن في تغييب الجديّة والاجتهاد، والأخطر من هذا في إعادة تشكيل العقول على أساس الإلهاء والاستهزاء، وفي بثّ لامبالاة جماعيّة تجاه القضايا الجوهريّة للوجود الإنساني. وفي ظلّ التحوّل الرقمي، باتت وسائل التواصل الاجتماعي منصّة مثاليّة لتكريس هذه التفاهة، حيث أُقصيت القيّم البناءة، وتَراجعت رموز المعرفة لحساب أبجديات الضحك التّافه والسطحيّة المُعمَّمة. وبهذا المعنى، فإنّ التفاهة باتت أداة لإعادة صياغة الثقافة من الداخل، نحو مزيد من التهجين والتسليع.

**2_2 وسائل التواصل الاجتماعي:**

لا يمكن توصيف وسائل التواصل الاجتماعي باعتبارها خيرا مطلقا أو شرّا خالصا؛ فهي، في الحقيقة، أدوات محايدة، لا تحمل قيمة في ذاتها، بل تستمدّ معناها من طريقة استخدامها. وبالتالي أمكن القول أنّ: «وسائل التواصل الاجتماعي ليست شيئًا جيدًا ولا سيئًا في حدّ ذاتها، وليست حلًّا سحريًا ولا كارثة، بل هي وسيلة للتواصل تعكس التحوّلات التي يعرفها المجتمع، ويمكن أن تجعل العالم أكثر حرية وأمنًا إذا أُحسن استخدامها". (Hugh Brooks، 2017، ص38)

غير أنّ هذا التصوّر المتوازن لا يُلغي حقيقة أنّ هذه الوسائل لا تُستخدم في فراغ، بل تُفعّل ضمن ديناميكيّات اجتماعية تحكمها أذواق الجماهير الغالبة، والتي تميل في الغالب إلى الاستهلاك السريع للمحتوى، والانجذاب نحو السّطحي والآني، وهو ما تُغذّيه وتضخّمه ثقافة التفاهة.

منصّات مثل فيسبوك، تيك توك، وانستغرام، لا تُنتج المحتوى بقدر ما تُضخّمه وتُعيد بلورته عبر خوارزميّات موجَّهة ترفع عدد المشاهدات والتفاعلات على حساب القيمة والمعنى. وهكذا، تصبح وسائل التواصل الاجتماعي مرجعيّة فعّالة تتمثّل في إعادة صناعة وعينا الجماعي، وتوجيهه نحو ما هو تافه، مثير، وسهل التّأثير.

ولأنها مدمجة في منطق تكنولوجي اتصالي رأسمالي، فإن هذه الوسائل لا تعمل على إظهار الأفضل، بل على تضخيم «الأكثر تداولًا»، أي ما يستجيب لمنطق السوق والتفاعل اللحظي، حتى لو كان على حساب العمق، والجدية، والحقيقة.

**3_2 تكنولوجيا الاتّصال:**

لا يمكن التطرّق إلى وسائل التواصل الاجتماعي دون العودة إلى المفهوم الجوهري الذي يحرّكها ويغذّي آلياتها، وهو مفهوم تكنولوجيا الاتصال التي يمكن اعتبارها «مجموعة من التقنيات أو الأدوات أو الوسائل أو النظم المختلفة التي يتم توظيفها لمعالجة المضمون أو المحتوى الذي يراد توصيله، سواء عبر الاتصال الجماهيري أو الشخصي أو التنظيمي أو الجمعي أو الوسَطي، وتشمل معالجة البيانات والمعلومات بجميع أشكالها: المكتوبة، المسموعة، المرئية، أو المطبوعة". (الفار، 2014، ص102)

من خلال هذا التعريف، يتّضح أن تكنولوجيا الاتصال مهمّتها تتعدّى مربّع نقل للمعلومة، إلى مهام أخرى تمثّلها كأجهزة صانعة للمحتوى، محفّزة لتضخيمه، وموجّهة لطريقة استقباله. حيث إنها الوسيط الذي يرسم صيغة الرسالة بطريقة تتماشى مع منطق «الانتشار» وليس بالضرورة مع ما يتماشى مع منطق «القيمة."

وعليه، فإن هذه التكنولوجيا، بقدر ما أتاحت للفرد إمكانات التعبير، فقد ساهمت أيضا في ترسيخ نزعة السطحي واللحظي، بخاصة عندما تُستخدم لتكريس «اقتصاد الانتباه»، حيث يصبح عدد الإعجابات والمتابعات معيارا للحقيقة والنّجاح. وهُنا تتدخّل الخوارزميات كقوة خفيّة تُعيد هندسة الذهنيّات والسلوكات، خصوصا عند أولئك المهووسين بالظّهور، والذين تُوجّههم التكنولوجيا نحو التّفاهة لأنهم يفتقرون إلى أدوات النّقد والتّفكير العميق. في هذا السياق، تبرز تكنولوجيا الاتصال كقوة ثقافية تلعب على أوتار تشكيل الوعي الجمعي والتحكّم فيه، ما يستدعي مساءلتها فلسفيا وأخلاقيا.

**2_4 التفكير الفلسفي:**

قد يتساءل القارئ: ما الذي يربط التفكير الفلسفي بمفاهيم تبدو للوهلة الأولى تقنية صرفة، كمفهومي وسائل التواصل الاجتماعي وتكنولوجيا الاتصال؟ أليس هذان المجالان من اختصاص الإعلام والميديا؟

إنّ طرح هذا السؤال في حدّ ذاته يُمثّل مدخلا لفهم وظيفة التفكير الفلسفي في السياقات المعاصرة؛ فالمسألة لا تتعلّق فقط بفهم أدوات الاتصال، بل بأخلقة استخداماتها وتوجيه أثرها في الوعي الإنساني. وهنا تظهر الفلسفة كبراديغم رئيس لا يمكن الاستغناء عنه، لأنها توفّر الإطار المفاهيمي والنّقدي اللازم لفهم ما تُنتجه هذه الوسائط من رموز، قيّم، وسلوكات؛ إذ يُعدّ التفكير الفلسفي ذلك «النمط العقلي المجرّد" (النشار، 2013، ص19) القائم على جملة من المهارات العليا كالشك، الدهشة، التساؤل، التحليل، الحوار، النقد، والاستقلالية، بالإضافة إلى القدرة على استشراف المستقبل. (النشار،2013، ص9)

بناء على ذلك، فإن الواقع لا يمكن تسييره بمعزل عن التفكير الفلسفي، لأنّ هذا الأخير هو قوّة ذهنيّة تُمكّن الإنسان من مواجهة الانزلاقات القيميّة التي تُكرّسها ثقافة التّفاهة الرقميّة .فبفضله، يمكننا التمييز بين ما هو عابر وما هو دائم، بين ما يُثير الانتباه لحظة وما يُنير الفكر عُمرا.

ولهذا، فإنّ حضور الفلسفة في الفضاء الرقمي، بات ضرورة إنسانيّة تُعيد الاعتبار للعقل، وللقيمة، وللقدرة على المساءلة في زمن يُكرّس فيه الإعجاب مكان الفهم، والتصفيق بدلا من التّفكير.

إنّ المهارات التي ينهض عليها التفكير الفلسفي . من شكّ وتساؤل، تحليل ونقد، حوار واستقلالية واستشراف .كفيلة بإخراج العقل من مستنقعات التفاهة، وإعادته إلى مساره الفِكري الرشيد. فهي مهارات تُنبه العقل إلى خطورة الانقيّاد، وتدعوه إلى رفض ما يُروَّج له بوصفه حقيقة، بينما هو مجرّد استهلاك للفراغ.

وتجدر الإشارة أنّ العالم الذي يُكرّس السرعة بدل التأمّل، والانفعال بدل الفهم، والاستهلاك بدل الوعي، يصبح فيه التفلسف فعل مقاومة، وممارسة استباقيّة للحفاظ على كرامة الإنسان أمام سيل رقميّ لا يعترف بالقيمة إلا بقدر ما تُقاس

باللايك والمشاهدة.

من هنا، يُمكن القول إن التّفكير الفلسفي، هو اليوم ضرورة وجوديّة، تحرس المعنى، وتمنح للإنسان قوّة الرفض، وفضيلة التميز، في زمن بات يساوي بين التافه والعميق بمنطق التفاعل وليس بمنطق العقل.

**3_التحوّلات الثقافيّة الراهنة: من صناعة التفكير إلى صناعة التفاهة**

إنّ المتأمل في تركيبة الثقافة الراهنة يُدرك أنّ مقولة ديكارت الشهيرة "أنا أفكّر، إذن أنا موجود "لم تَعُد تعبّر عن روح العصر. فقد خَفَتَ بريق التفكير العقلاني لصالح أنماط من الوجود تُبنى على الظهور لا على الفهم، وعلى التفاعل لا على التأمل.

في زمنٍ تُقاس فيه القيمة بعدد المتابعين، ويُقاس التأثير بعدد الإعجابات، بات التفكير بوصفه «سلسلة من النشاطات التي يقوم بها العقل حينما يتعرّض لمثير حسّي أو فكري» (النشار،2013، ص 11) حملا ثقيلا، ومجهودا لا يلقى التقدير، من طرف الجماهير المعاصرة، كون التفكير يتطلّب تركيزا، وعيا، وصبرا معرفيا، وهذا، يتنافى مع لائحة مُقتنيات «مجتمعات اللحظة» في الوقت الحالي، كونها تقوم على مبادئ مهووسة بالأداة والتّقنيّة والتّكنولوجيّات الجديدة والسريعة، دون تحليل معطياتها أو التّركيز بعمق على ما تحمله رسائلها، فقد صارت الأذهان تشعر بالإعياء نتيجة «التخمة الرقميّة» والإفراط في التلقّي دون هضم.

وهذا ما أوقع الإنسان المعاصر في قبضة الاغتراب عن ذاته والاغتراب عمّن وعمّا يدور حوله، ونتيجة هذا الاغتراب بات يهرب إلى نفسه في شقّها المُتعي، لينزلق إلى سعي محموم نحو الظهور، ولو كان هذا الظهور خواءً. المهم أن يكون مرئيا، متداولا، موجودا في واجهة الشاشة، حتى ولو افتقد لكل ما يجعل الوجود ذا مغزى (ظهور من أجل الظهور).

وعلى هذا، يتبدّى لنا أنّ ما نعيشه اليوم هو تحوّل جذري في البنية الثقافية للمجتمعات: من ثقافة تصنع الفكر وتُكرّم المفكّرين، إلى ثقافة تُكرّس «نُجوم التفاهة»، وتُعلي من شأن من يَستهلك ولا يُنتج، يثير ولا يُعمّق، يُضحك ولا يُفكّر. إنّها ثقافة الفراغ المُعلَّب، حيث تُسَوَّق التفاهة بوصفها منتجا رقميا مُغريا، ويُعاد تدوير الابتذال على أنّه إبداع شعبي. فصار هذا التحوّل من «أنا أفكّر» إلى «أنا أظهر» لا

ينفصل عن طبيعة المجتمعات الاستهلاكية المعاصرة، تلك التي تُؤلّه الأداة، وتُقدّس التقنية، وتُفرط في استهلاك التكنولوجيات.

لقد ساهمت تقنيات الإعلام المعاصر في إعادة تشكيل الوعي الجمعي، من خلال ترسيخ هيمنة الصورة والإعلان والدعاية بوصفها أدوات ترويج وإلهاء تخاطب أعماق العقل الباطني بلغة المُغالطات والمغريات، تغوي العين وتستثير الرغبة في الظهور. فباحترافية مدروسة وجاذبة، نجحت هذه الوسائل في تحويل الإنسان من متلقّ للمعنى إلى مستهلك للصورة.

ومع تطوّر الوسائط الرقمية، انتقلت الصورة من كونها تمثيلا ساكنا إلى فيديوهات متحركة تُنتج الفرجة، وتُكرّس التفاهة كمحتوى سائد، يتم تداوله بكثافة عبر منصات التواصل، من تيك توك إلى انستغرام، ومن فيسبوك إلى يوتيوب وغيرها.

وضمن هذا السياق، حدث انقلاب حقيقي في القيم: أصبح الوجود لا يُقاس بما يُفكَّر، بل بما يُعرَض؛ لا بما يُنتَج، بل بما يُصوَّر. تحوّل التحصيل الثقافي من تمرين على الفهم والإبداع، إلى تمرين على التقاط السيلفي (Selfie)، ومراكمة المشاهدات، وحصد التفاعلات.

لم يعُد السؤال "ما الذي أعرفه؟"، بل "كم مرّة شُوهدت؟"، كم صورة لي انتشرت؟، وهكذا تمّ استبدال الإنسان المفكّر بإنسان مُؤدٍّ، إنسان لا يُمثّل ذاته الأصيلة، بقدر ما يُمثّلها كما يجب أن تُستهلك بصريا.

بعد أن تبنّت الجماهير الاستهلاكيّة هذه المنظومة القيميّة الجديدة، بات فعل التفكير، بما يحمله من إعمال للعقل وتأمّل في أحوال الذات والمجتمع، فعلا مزعجا بل مُربكا، يُهدّد متعة الانغماس في الاستعراض. فالمجتمعات المعاصرة، وهي مجتمعات التكنولوجيا والثورات الرقمية، لم تَعُد تستند في تمثّلها للذات على «أنا أفكّر، إذن أنا موجود»، بل على صيغة جديدة أكثر انزياحا" :أنا أوسيلفي، إذن أنا موجود»Je Selfie (Donc Je Suis).

هذا التحوّل في منطق الوجود الرقمي تناولته الباحثة والمحلّلة النفسانيّة الفرنسيّة إلزا غودار Elsa Godart، حيث تشير في كتابها الصادر عام 2019 إلى أنّ مصطلح (Selfie) ليس بريئا، بل يحمل دلالة أنطولوجيّة معقّدة. فـ (Self)تعني «النفس»، ولكنها

تُشير أيضا، في سياق الاستعمال الرقمي، إلى «الذات المنعزلة»، أي «أنا وحدي»، بينما تُضيف اللاحقة العاميّة (ie-) لمسة عاطفية نرجسيّة. وتوضح غودار أنّ السيلفي، بفضل الثورة الرقمية، لم يعُد مجرّد صورة شخصية، وإنّما أصبح وسيلة وجودية لإثبات الذات أمام الآخر، وإقناع النفس بالحضور داخل الزمن الرقمي. (غودار، 2019،ص26) فهو دليل على الوجود البصري الذي يقود إلى صناعة الحضور السطحي.

من خلال ما تقدّم، يتبيّن أنّ الثورة التكنولوجيّة لم تكتف بإعادة تشكيل الفضاءات العامة والوسائط، بل **أعادت** تشكيل الوعي ذاته، حيث سخّرت أدواتها لتغذية ثقافة «السيلفي» بوصفها تعبيرًا يوميا عن هوس الظهور وتشيؤ الذات. فصار الإنسان يُصوّر ليُثبت وجودا رقميا هشًّا، يتجدّد كلّ لحظة، ويخبو بانقضاء التّفاعل.

وقد أدّى هذا التحوّل إلى اهتزاز بنيوي في منظومة العلاقات الأساسيّة: علاقة الإنسان بذاته أولًا، ثمّ بعالمه، وبمعتقداته، وبقيمه. إذ باتت المفاهيم الجوهرية كالثبات، واليقين، والتأمّل، تبدو اليوم غريبة في بيئة تسودها ثقافة اللامعنى، واللايقين، واللحظة المُتعيّة العابرة.

هنا يُطرح تساؤل هام: ماذا يمكن أن ننتظر من مجتمعات باتت فيها الصورة هي اللغة المُهيمنة، والمحتوى البصري هو المعيار الأوحد للفهم والتأثير؟

قد يبدو الأمر، في ظاهره، بسيطا، ترفيهيا، وربما بريئا في عين البعض، لكنه في العمق أبعد ما يكون عن البراءة. فهذه الفيديوهات، الصور، والمحتويات «الخفيفة» التي تُبثّ باستمرار على منصات التواصل، لا تعمل فقط على تسلية العقول، بل تقوم بإعادة تشكيلها ضمن مشروع غير معلن لـ«الهيمنة الناعمة.»

إنّها سياسة جديدة للإلهاء، تُمارَس بهدوء، وتمرّ بسرعة، تُراهن على اللاوعي، لا على الاقتناع، وتستثمر في التكرار لا في الإقناع. بهذا المعنى، نجد أنّ الصورة تعكس تحوّلات المجتمع، وتُوجّهها وتُصمّمها، لتخلق نمطا من الإنسان لا يُفكّر بقدر ما يُشاهِد، ولا يُحلّل بقدر ما يُكرّر.

وهذا ما يدفعنا إلى إعادة طرح سؤال مليء عن آخره بالتعجّب والقلق: كيف يمكن لموقف يبدو بسيطا وعفويّا، كتحريك أصابعنا على شاشة الهاتف، أن يتحوّل إلى

علامة دالّة على تحوّلات جذرية في علاقتنا بذواتنا وبالآخرين؟

لقد أصبحت ممارسات يومية .كالعبث المستمر بشاشة الهاتف الذكي .أكثر من مجرّد عادة؛ إنّها ممارسة تُعيد صناعة وعينا بصمت، وتُمسك بنا من حيث لا نشعر، كما لو أن الواقع الافتراضي امتصّنا دون مقاومة، أو كما لو أنّنا أصبحنا لعبة طيّعة بين يدي هذا الجهاز الذي نحمله: السمارتفون. تصف المُفكّرة إلزا غودار هذه الحالة بقولها: «إنّها حقيقة مشوّقة... ولكنّها مقلقة أيضًا»، مشيرةً إلى أن ما نعتبره مجرّد فعل يومي بريء يُخفي في باطنه استيلاءً ناعما على الإرادة الفردية، يُعيد صياغة علاقة الإنسان بالزمن، بالذات، وبالآخر. (غودار، 2019،ص27_28)

هذا التشويق المقلق الذي تُحدثه هيمنة العالم الافتراضي على عقولنا، يُعتبر مفارقة فلسفيّة، تستوجب التوقّف والتأمل. فقد بات من الضروري مساءلة: كيف تحوّل «الافتراضي» إلى واقع أكثر واقعية من الواقع نفسه؟ في هذا السياق، تقدّم المفكّرة الفرنسيّة جاكلين روس تشخيصا دقيقا لهذا الوضع حين تقول: « الكلّ_ صورة يهدّدنا: وهذه الحقيقة، مهما تكن مُبتذلة، لا يمكن التّغاضي عنها. إنّ السّرعة التي تنتشر بها صوّر خامّة انتشارا جماهيريّا تُشجّع النّزعة الشّهويّة، الهيجانيّة وغيّاب البُعد، فالحوادث وفي آخر المطاف، لا تبلغ الوجود إلّا بقوّة الصّورة، وهذه التّطوّرات تُسهِم في إفراغ المعلومات المُعمّقة». (روس، الفكر الأخلاقي المُعاصر، 2001،ص129)

هذا التّحليل يُفكّك بدقّة كيف أصبح منطق الصورة هو الحاكم الأوحد على الوعي الجمعي: صورة بعيدة عن التّفسير والتّحليل، بل تُثير. وهكذا تُختصر التجربة الإنسانية كلّها في استجابة انفعالية، سطحية، عاجلة، تُلغى فيها المسافة النقدية والفكرية، ويُستبدَل فيها التفكير بالتّمرير.

إنّ ما أشارت إليه روس في تحليلها لأحوال العصر الرّاهن المُرتكزة على عالم الصّورة في المواقع الافتراضيّة قد عزّز نشاط «الهو» و»اللّهو» ممّا ساهم في تكوين عقول سطحيّة لا تهوى إلّا التّفاهة والانقيّاد وراء الملهيات والمغريات الماديّة وهذا ما أدّى إلى ظهور ما يسمّى ب»المؤثّرين المُزيّفين».

**4_المؤثّرون المُزيّفون: «أنا تافه، إذن أنا موجود"**

بعد أن تحوّلت التّفاهة إلى ما يُشبه العقيدة الثقافيّة المعاصرة، اعتنقتها الجماهير

بشغفٍ عابر للعقل، مدفوعةً بإدمانها على العوالم الافتراضيّة. وهكذا، انتشرت ثقافة "التمثيل الدائم للذات"، عبر الترويج ليوميّات فارغة، تُعرض أمام المتابعين بلا مضمون، بلا رؤية، بلا عمق.

وتكمن خطورة هذا النمط في أنه لا يُراكم معرفة، ولا يُنتج وعيا، وإنّما يُكرّس نمطا استهلاكيا سطحيا، يجعل من التفاخر بالماديّات، والمبالغة في عرض المغريات، والاستعراض المرضي للخصوصيات، أشكالًا من «القيمة» المزعومة، بينما هي في جوهرها تخديرٌ جماعيّ، وتهشيمٌ بطيء للوعي. حيث أنّ المؤثّر المُزيّف لا يُنتج محتوى، بل يُعيد تدوير «اللامحتوى»، ليحصل على التفاعل، على الانتشار، على الوجود الرمزي... ليصرخ في صمتٍ رقمي: **"أنا تافه، إذن أنا موجود."**

لقد ألقت هذه «الشخصيّات المؤثرة» التي تتصدّر مشهد وسائل التواصل الاجتماعي بعبء التفاهة في رحم الفضاء الافتراضي، حتى احتضنها الواقع وشرّع لها أبوابه، فصار ما كان يُنظر إليه يوما كمحتوى هزلي عابر، صار نموذجا يُحتذى، وسلوكا يستهوي التّقليد، ومقياسا يُعتمد في تقييم النّجاح والتّأثير.

وما نعاينه اليوم من اختلالات سلوكيّة، ومن مظاهر غياب المسؤولية والوعي، ما هو إلا انعكاس مباشر لهذا الانتقال السلس والخطير من الافتراضي إلى الواقعي، حيث لم تعد المنصّات الرقمية عوالم موازيّة، بقدر ما أصبحت مصانع لقيم مشوّهة وسلوكات هجينة.

لقد حُسِمت المعركة مُبكرا لصالح أصحاب المصالح الرّبحية، أولئك الذين أدركوا باكرًا قدرة الصورة على تشكيل الوعي الجمعي، واستثمروا في هشاشة العقول السطحية التي لم تُدرِك حجم اللعبة ولا طبيعة الهيمنة الناعمة التي تلتفّ حولها بخيوط لامعة، لكنها خانقة.

غير أنّ هذه التبعات، التي قد تبدو للبعض محض ترفيه عابر أو سلوك اجتماعي عادي، لم تمرّ دون أثر عميق في بنية الوعي الجمعي. فقد ساهمت، على نحو متسارع ومضمر، في تفريغ المتخيّل من مضمونه التأمّلي والاستشرافي، الذي كان يُتيح للذات أن تحلم، أن تسائل، أن تتجاوز واقعها.

وبدلا من هذا البُعد التأمّلي، حلّ محلّه إدراك سطحيّ مباشر لحقائق افتراضية

لا تستقيم إلا عبر صور تُنتج واقعا مُشوَّها، واقعًا ينمو على هامش الذّات في شكل استيهامات عرضيّة، بعيدة كلّ البُعد عن الإخبار عن حقيقة الذّات. (غودار، 2019،ص 12)

ومن هذا المنطلق، بدأ التأثير المُزيّف في الانتشار كعدوى ناعمة، تُغذّيها ذوات هشّة، تائهة، تبحث عن إثبات وجودها في مرايا الآخرين. وما لبثت هذه العدوى أن وجدت تربة خصبة على منصّات التواصل الاجتماعي، حيث يُبثّ الوهم بتقنيّة عالية، وتُزاحم التّفاهات عناوين القيّم، وتُستبدل الماهيّة بالمظهر. وداخل هذه المتاهات، وُلد جيل من «العملاء التّافهون"، يدّعون الهيبة في العلن، ويعانون الخواء في الخفاء، يركضون بنهمٍ مَرَضيّ خلف النّجوميّة، بأيّ ثمن، ولو على أنقاض الكرامة وخراب الذّات الإنسانيّة.

ولعلّ ما أعطى لهذه الظاهرة جذرها العميق هو الادّعاء المفرط بالحرّية الفرديّة، والتطبيع مع نرجسية فرديّة وجماعيّة، تمكّنت من نخر البنية القيميّة للمجتمعات المعاصرة، حتى صارت الذّات الإنسانيّة مُجرّد واجهة، بينما جوهرها يزداد غربةً وتشوّهًا.

في بداياتها، بدت هذه الظاهرة وكأنّها مجرّد موجة عابرة، تخصّ فئة هامشية من الفقراء فكريا، الذين وجدوا في العالم الرقمي منصّة بديلة لإثبات الذات دون عناء يُذكر. غير أنّ الأمور ما لبثت أن خرجت عن هذا الإطار، لتُصبح تيارًا كاسحا، يجتاح الفضاء العالميّ بسرعة مذهلة، حتّى صار المرء يشهد، في كلّ مكان، صعودًا متسارعًا لقواعد جديدة تقوم على الرداءة والانحطاط المعياري. (دونو، نظام التفاهة، 2020، ص14)

ومع هذا الصعود، تدهورت متطلبات الجودة العالية، وغيّب الأداء الرفيع، وهُمّشت منظومات القيّم وبرزت الأذواق المنحطّة وأبعِد الأكفّاء، وخلت السّاحة من التّحدّيات، فتسيّدت إثر ذلك شريحة كاملة من التّافهين والجاهلين وذوي البساطة الفكرية، وكلّ ذلك لخدمة أغراض السوق بالنهاية. (دونو، نظام التّفاهة، 2020،ص 14)

إنّنا اليوم نعيش وسط فوضى منظّمة، تقودها الرّداءة والتّفاهة، وتُباركها الجماهير بعفوية قاتلة. لقد صار الإعلام، بأذرعه المتعددة، خادما مطيعا لسوق التفاهة، يروّج

للسّلع المُتردّية والأفكار المنحلّة، ويسوّق نماذج سطحيّة كأنّها قمم تُحتذى. في ظلّ هذا المشهد، خُنق الإبداع، وتلاشت روح النقد، وذبلت الأذواق، حتّى أصيب الفنّ ذاته بحمّى الميوعة والانحطاط. وبدلا من أن يكون الفنّ مجالًا للسمو والدهشة، بات مسرحا للفراغ المزخرف.

وقد توقّف عند هذا التحوّل الخطير عدد من المفكّرين المعاصرين، منهم جون بودريار الذي حلّل سطوة الصورة، وباومان الذي فكّك هشاشة العلاقات في الحداثة السائلة، وجيل ليبوفتسكي الذي خصّص كتابه "العصر الجديد للفنّ الرديءLe nouvel âge du kitsch" لفهم هذه الميوعة الجماليّة. في هذا المقام، يُعيد ليبوفتسكي توظيف مفهوم الكيتش كما صاغه الكاتب التشيكي/الفرنسي ميلان كونديرا، بوصفه: «موقف ذاك الذي يودّ أن يجلب الأنظار وينال إعجاب أكبر عدد من الناس بأي ثمن، إنه ترجمة بلاهة الأفكار الجاهزة إلى لغة الجمال والوجدان». (دونو، نظام التفاهة، 2020، ص62)

إنّ تغليف بلاهة الأفكار ورداءة الأفعال بلبوس الفنّ قد أوقعنا في أزمة الفنّ المعاصر، الذي حاصرته الزّيوف من كلّ جانب. فما عاد الفنّ أداةً للتسامي أو نافذة على الإنسان، بل أصبح سلاحا ناعما بيد التفاهة، تُجمّل به القُبح وتُشوّه به الحقيقة، وكلّ ذلك تحت ذريعة الإبداع أو الجمال.

وقد قدّم «المؤثّرون المزيفون» أوضح مثال على ذلك، إذ لا يدّخرون جهدا في تسويق القبح على أنه نمط حياة، وتزييف الواقع ليبدو مثاليا، مستغلّين وسائل الإعلام الجديدة كمنصّات لعرض زائف لحياتهم اليومية، لا يخلو من الكذب والمبالغة والتّصنّع. لهذا، يصِف جيل ليبوفتسكي هؤلاء المؤثّرين بكونهم: «سفراء التجارة في العصر الرقمي"، إذ تتمّ الاستعانة بهم عبر مواقع التواصل لأداء وظائف دعائية مُموّهة، تتمثّل في الترويج لسلع ومنتجات، من خلال عرض صور مثاليّة عن حياتهم: منازل فاخرة، إجازات حالمة، وجبات مُتقنة، وجوه باسمة في الطبيعة أو على شاطئ البحر، وكلّ شيء مُعدّل رقميًا بدقّة... في مشهد استهلاكي متقن الصّنع، لكنه خاوٍ من أيّ قيمة إنسانيّة حقيقيّة. إنّ ما يقوم به هؤلاء، كما يشير ليبوفتسكي، يدخل في عالم الدعاية، والخداع البصريّ المُركّب، يُفرغ الفنّ من بُعده التأمليّ، ويحوّله إلى أداة ترويجية سطحية.(Gilles Lipovetsky, 2021 , p249)

إنّ هذه العروض الإغرائيّة والمظاهر المصطنعة التي يروّج لها المؤثّرون عبر وسائل التواصل، والتي تتجلّى في صور ومقاطع مفعمة بالتعديلات التقنيّة والتحسينات البصريّة، قد صنعت وهما جماهيريًا ضخما، يلهث وراءه المتابعون بشغف مرضيّ. الكلّ يطمع في تلك «الحياة المثاليّة» التي تبدو مُشعّة بالسعادة والمتعيّة، رغم أنّها لا تعدو أن تكون مشهدا تمثيليًا عالي الإنتاج.

هذا الانبهار الجماهيري أدّى إلى غليان استهلاكي غير مسبوق: تبذير مفرط، توق مهووس للاقتناء، وهروب جماعيّ نحو إشباع الحواس، مقابل تجويع منهجي للعقل والرّوح. وبهذا، تحوّلت الجماهير المعاصرة إلى كائنات استهلاكيّة صِرفة، لا تختلف كثيرا عن المُنتجات التي تستهلكها، إذ تنتهي صلاحيتها الفكرية والوجدانية بانتهاء صلاحية المواد المعروضة أمامها. لقد انزلقت من مقام الذات الفاعلة إلى حالة الشيء المُستهلَك والمُستهلِك في آن.

وإن استمرّ هذا المسار العبثي دون مقاومة، فالمآل ليس سوى استبدال الإنسان بالآلة، بل أسوأ من ذلك: سيفتِك الإنسان بنفسه دون وعي، عبر ما يُشبه الانتحار الرمزي بجرعات التفاهة المتواصلة، آنذاك، تكون قد اكتملت حلقة تخدير العقل، وانطفأت شرارة الوعي، وتحوّلت البشرية إلى كائنات مُبرمجة لا تعي ذاتها، ولا ترى العالم إلّا من ثقب صورة براقة، تُخفي وراءها خواء وجوديا مرعبا.

وعليه، فإن كل عاقل يدرك يقينا أن نفوذ الآلة وسطوتها لم يؤدي إلى تحرير الذهن من مخلّفات ماضيه «الخرافي»، بل على العكس، أفرز عددا هائلا من الأيقونات الجديدة التي تُرمى إلى القمامة مع انتهاء صلاحيتها، مثل: عارضات الأزياء، ونجمات التلفزيون، والعديد من المهرجين والمهرّجات، وقائمة لا تنتهي من الباحثين عن شهرة عارضة في عالم افتراضي. (غودار، 2019، ص21_22)

على هذا الأساس، يظهر أنّ الشبكات الاجتماعية ومواقع التواصل مثل تويتر، فيسبوك، وانستغرام قد نجحت في ترميز التافهين، أي تحويلهم إلى رموز وشخصيات يظهرون من خلالها بمظهر النجاح. هذا الانحطاط الذي يلاحظه ألان دونو يُرجع السبب فيه إلى المجتمع نفسه، فهو المسؤول عن مشكلة التقليص التدريجي لمعايير النجاح الحقيقية التي عرفتها البشرية على مر الزمن، مثل: العمل الجاد، الخير للأهل، المواطنة الصالحة، حسن الخلق، الأكاديميا، الأدب، الفنون، الرياضة، وغيرها.

فالمجتمع في الوقت الراهن ألغى كل هذه القيم من قائمة معايير النجاح. (دونو، نظام التفاهة، 2020، ص52)

ما نستخلصه إذن، هو أن الوضع الذي آلت إليه الثقافة في منطلقاتها الجديدة، والتي راهنت على ترميز التفاهة وتعظيم شأن التافهين، هو إشكال عميق يحتاج إلى تفسير ودراسات معمقة. وذلك من أجل تأسيس إصلاحات جذرية ترد للإنسانية هيبتها، ولا يمكن تحقيق هذه الإصلاحات إلا بتفعيل خصائص علاجية تعتمد على العلوم الإنسانية والاجتماعية، وبالخصوص مهارات التفكير الفلسفي.

**5_ الفلسفة بوصفها علاجًا للفقر الأخلاقي والتوعّك الفكري:**

لقد شاهدنا سابقا كيف تحوّلت الثقافة في العصر الراهن، وكيف تردّت الأذواق والفنون لتتماشى مع متطلبات الجماهير المعاصرة. ويرجع السبب في ذلك بشكل كبير إلى التكنولوجيا ومواقع التواصل الاجتماعي التي تعتمد بشكل أساسي على التّفاهة، والتسليّة، واستهلاك كل ما هو سطحي ومؤقّت. ومع الأسف، صار الوضع مُقرفا ومُخجلا في آن واحد.

لذلك، بات من الضروري تدخل أصحاب العقول النّبيهة والمُفكّرة للتعاون في تجاوز أزمات هذا العصر، خصوصا أزمة التفاهة. إذ إذا استمرّت حالة تشجيع الرداءة والانحطاط على هذا المنوال، بخاصّة مع «سعي البعض لتخليد اسمه بأي شكل من الأشكال، مهما بلغت فجاجة هذا الشكل أو سطحيته بل وقبحه أحيانًا» (دونو، نظام التفاهة، 2020، ص60)، فسوف يخسر الإنسان نجوميته الدائمة، ووسامه الثمين، ألا وهو العقل، خسارة لا يمكن تعويضها، حتى ولو حضرَت كل الآلات الذكيّة والذكاءات الاصطناعية مجتمعة.

إنّ وظيفة التّفاهة تكمن في إفراغ العقل من نشاطاته ومضامينه الاجتهاديّة، وعلى رأسها التّفكير، والتحليل، والاستنباط، والاستدلال، والنّقد. وهذا المشروع، الذي يمثل كما أشرنا سابقا «الانتصار الاقتصادي»، ساعد على تأطيره وتمكينه «التّطوّر التّكنولوجي والعلمي المُجسّد، خاصّة في مجال الاتّصال عن بُعد، وفي الربط بوسائل الاتّصال والكمبيوتر، والذي ساهم في توحيد نمط العيش وإقحام الدول إقحاما في هذا النظام الاقتصادي العالمي، الذي سيرافقه بطبيعة الحال نظام سياسي جديد على الصعيدين الأيديولوجي والقمعي.» (التريكي، المسيري، 2003، ص232)

إذن، وبعد إيضاح الرؤية وتبيان الغاية من هذه الثّقافة الهشّة، يأتي دور العمل على التّرويج للفكر المنبّه، الذي يوقظ العقول من غفلتها. وفي هذا السياق، نستدعي الفلسفة بوصفها «مرشدنا إلى إعمال الفكر للفهم العميق للنّفس الإنسانيّة» (ناشيد، 2018،ص9)، وهي السبيل للترفع عن توافه الأمور وعن الانقياد خلف القطيع.

لذلك، نجد أن الفلاسفة ومن يشاطرونهم مهمة الاجتهاد والسعي لتحقيق صحة العالم، يشعرون بمزيج من التذمّر والخجل والحيرة والقلق، مصحوبا بإحساس بالعار، يدفعهم في الوقت ذاته إلى التمسك بالفلسفة كضرورة ملحة، في ظل العبث الذي يطال الإنسانية اليوم، واللامبالاة المتفشية، والتفنن الممنهج في نشر الرداءة وملاحقتها وتبنيها.

وفي هذا السياق، يلخص الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز Gilles Deleuze هذه الحالة بقوله: «إن عار الإنسان بإنسانيته لا يقتصر على الحالات القصوى التي وصفها بريمو ليفي، بل يمتد ليشمل ظروفًا تافهة، تجسد انحطاطا وابتذالا للحياة التي باتت ملازمة للديمقراطيات الحديثة، وانتشار أنماط التفكير والحياة هذه باسم السوق، وتبني قيم ومثل وآراء عصرنا. هذا الخزي ينبثق من داخلنا، من عمق وجودنا، فنحن لا نشعر بأننا خارج عصرنا، بل على العكس، لا نكف عن إبرام تواطؤات مخزية معه. ويُعد هذا الشعور بالعار من أقوى الدوافع التي تحرك الفلسفة». (دولوز، 1997،ص120)

في الأخير، ما يمكننا تأكيده بناءً على ما سبق تحليله، هو أنّ الفلسفة تمثل طبّ العقول، ودورها أساسي وحيوي في إنقاذ الإنسانيّة من اضمحلالها وانحلالها. لو مُنحت الفلسفة قيمتها الحقيقيّة في المجتمعات، وخصوصا في المجتمعات المتخلّفة، فإنّ تأثيرها سيحقق مكاسب عظيمة لم تشهدها الأمم من قبل. فلا يخفى على ذوي البصيرة أن المؤثّرين الحقيقيّين هم المفكّرون الذين يجتهدون ويبدعون في تحصيل المعارف والعلوم وتمحيصها، والفلاسفة الذين يطرحون الإشكالات ويوقظون العقول من غيبوبتها. لذا، علينا أن نمارس فعل التّفلسف، لأن «التفلسف هو أسلوب في العيش يدلّ على طريقة جديدة في قيادة الحياة أو إدارتها». (غرايش، 2019،ص11)

**6_الخاتمة:**

إنّ ما آل إليه واقعنا المعاصر من هيمنة التّفاهة وصناعة الصورة الزائفة عبر فضاءات التواصل الاجتماعي، يعكس عمق أزمة ثقافية واجتماعية، تمثّل تحديا كبيرا

يصوّر لنا مأزقا أنطولوجيا يستدعي تأمّلا فلسفيّا جادا وجديّا ومتجدّدا. كون الثّقافة المعاصرة باتت، مجرد ثقافة سطحية مستهلكة تنسف جذور الوعي والذات، وتحول الإنسان إلى تابع للآلة، ضائع في متاهات اللاوعي والتسطيح.

النتيجة اللافتة هي تفكك الروابط بين الإنسان وذاته، وبين الإنسان والمجتمع، عبر تغليب المظاهر على الجوهر، والسطحية على العمق، مما يهدّد أسس الإنسانية وقيّمها السامية. إنّ هذا الواقع يفرض على الفلسفة مهمّة استثنائية تتمثّل في: استنهاض العقل، وتنقية الذات، وإعادة بناء الوعي النّقدي.

**لذلك، نوصي بما يلي:**

- إعادة الاعتبار للفلسفة والتفكير النقدي، كأسلوب حياة ومرشد في مواجهة الأزمات القيميّة الرّاهنة.
- تنمية ثقافة القراءة والتأمل العميق في المجتمع، للانعتاق من الاستهلاك العشوائي للمعلومات والصور السطحية، والارتقاء بالذّوق العام نحو الأصالة والجديّة.
- تطوير المناهج التعليمية لتعزيز مهارات التفكير النقدي والفلسفي، وتحفيز الطلبة على البحث عن المعنى الحقيقي للوجود والذات، بعيدا عن ثقافة الشهرة الزائفة والتظاهر.
- مواجهة الهيمنة الرقمية من خلال وعي جماعي يشجع على استخدام التكنولوجيا كأداة للتنوير وليس للتشويش، وعلى خلق فضاءات حوارية حقيقية تُعيد الإنسان إلى مركز التجربة الإنسانية.
- تعزيز دور المثقفين والفلاسفة كقادة فكر وروح في مجتمعاتهم، ليكونوا نواة لصحوة ثقافية تهدف إلى استعادة الكرامة الإنسانية والوعي الذاتي.

**قائمة المراجع:**

**أ_ بالعربية:**


1. أحمد بن يوسف السيد. (2023). مقاومة التّفاهة، مشكلة التّفاهة، أسبابها، مآلاتها، كيفيّة معالجتها (الإصدار ط1). اسطنبول، تركيا: منار الفكر.
2. ألان دونو. (2020). نظام التفاهة (الإصدار ط1). (الهاجري، مشاعل عبد العزيز، المترجمون) بيروت، لبنان: دار سؤال للنشر.

3. إلزا غودار. (2019). أنا أوسيلفي إذن أنا موجود( تحولات الأنا في العصر الافتراضي) (الإصدار ط1). (سعيد بنكراد، المترجمون) الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي للكتاب.
4. جاكلين روس. (2001). الفكر الأخلاقي المُعاصر (الإصدار ط1). (ترجمة وتقديم: عادل العوا، المترجمون) بيروت، لبنان: عويدات للنشر والطباعة.
5. جان غرايش. (2019). العيش بالتّفلسف: التجربة الفلسفية، الرّياضات الرّوحيّة وعلاجيّات النّفس (الإصدار ط1). (محمد شوقي الزين، المترجمون) الرباط، المغرب: مؤمنون بلا حدود.
6. جمال الدين ابن منظور. ((د،س)). لسان العرب. القاهرة، مصر: دار المعارف.
7. جيل دولوز. (1997). ما هي الفلسفة؟ (الإصدار ط1). (الصفدي، المترجمون) بيروت، لبنان: مركز الإنماء القومي.
8. سعيد ناشيد. (2018). التداوي بالفلسفة (الإصدار ط1). تونس: دار التّنوير للطّباعة والنّشر.
9. فتحي التريكي، عبد الوهاب المسيري. (2003). الحداثة وما بعد الحداثة (الإصدار ط1). دمشق، سوريا: دار الفكر.
10. محمد جمال الفار. (2014). معجم المصطلحات الإعلاميّة. عمان، الأردن: دار أسامة للنشر والتوزيع.
11. مصطفى النشار. (2013). التّفكير الفلسفي، المبادئ، المهارات وتطبيقاتها. القاهرة، مصر: الدار المصرية اللبنانية.
12. _Ravi Gupta Hugh Brook (2017). وسائل التّواصل الاجتماعي وتأثيرها على المجتمع (الإصدار ط1). (عاصم سيد عبد الفتاح، المترجمون) القاهرة، مصر: المجموعة العربية للتدريب والنشر.

**ب_ بالفرنسية:**

Jean Serroy Gilles Lipovetsky1 .(2021) .. Le nouvel age du kitsch; Essai sur la civilisation du trop .Paris ،France: Gallimard.

# تحديات جيل زد: بين النرجسية الرقمية ونشر ثقافة اللامعنى

# Generation Z's Challenges: between Digital Narcissism and the Spread of a Culture of Meaninglessness

**ط.د عطية أميرة**

**جامعة محمد خيضر بسكرة-الجزائر**

**إشكالية الدراسة:**

أدى الانفتاح الرقمي والحريات التي يوفرها من حيث النشر والتدوين بدون قيود زمانية أو مكانية تحت مبدأ " القرية الكونية " التي أسس لها المفكر الكندي مارشال ماكلوهان، وعبر المجتمعات الشبكية أضحينا نلتمس هذا التداخل المعرفي والقيمي والثقافي تحت ما يعرف بالعولمة الثقافية وزادت سطوتها في ظل "ديمقراطية الشهرة " وتحقيق القاعدة الجماهيرية وفق مختلف القوالب التواصلية: " الفيديوهات الوجيزة، التصوير الذاتي، الترند...'

إلا أن هذا التدوين الحر في بيئة منفتحة يطرح العديد من التداعيات السياسية والاجتماعية والنفسية وعند تسليط الضوء حول التحديات السيكولوجية التي تنتج عن الاتاحة الرقمية والتدوين الحر مما يؤثر على ذوات الأفراد وتقديرهم لها بناء على الإعجابات والتعليقات التي يحصلون عليها من خلال تمظهرهم واستعراضهم لتفاصيل حياتهم وجسدهم وذواتهم وفقا لمعطى رقمي تافه وخطابات هابطة يتم تداولها بين جيل زد ( 1997-2012) الذين يعتبرون من الأجيال الأكثر انفتاحا على التقنية الرقمية ورواد رقميين إضافة إلى رغبتهم في الشهرة والتمظهر الذي تزيد تحدياته إذا كان بناء لمعطى تافه أو ما يعرف بنظام التفاهة الذي يؤدي إلى تغير في طبيعة الخطابات نشر لغة رقمية مستجدة " لغة خشبية " والتركيز على التفاصيل التافهة والبهرجة " التي تجعل من جيل زد أكثر نرجسية ورغبة في إبراز الذات وتحقيق الاعتراف من الأخر .

وعليه فإن هذه التحديات الرقمية التي تربط بين الشهرة التافهة وجيل نرجسي رقميا لابد من تمكين جيل زد من القراءة النقدية للمحتويات والخطابات الرقمية وفهم عصر الشهرة الحالي سواء من أبعاده الأخلاقية أو النفسية أو النفسية، إضافة إلى تكاثف الجهود بين المؤسسات الحكومية والأسرة والمجتمع لإسراء مهارات التربية

الرقمية من حيث: " التحليل والاستنتاج والنقد "، وانطلاقا من هذا الطرح الذي يبرز لنا تحديات جيل زد في عصر الشهرة التافهة يمكننا طرح التساؤل التالي:

**فيما تتمثل التحديات التي تواجه جيل زد في ظل النرجسية الرقمية ونشر ثقافة اللامعنى؟**

ولمفصلة هذه الإشكالية أكثر يمكننا طرح التساؤلات الفرعية التالية:

- فيما يتمثل جيل زد الرقمي؟
- كيف أثرت ثقافة التدوين الرقمي الحر على جيل زد؟
- ماذا نقصد بالتربية الإعلامية الرقمية؟ وكيف يمكن تمكين جيل زد في عصر التفاهة الرقمية؟

**أولا: ضبط مفاهيم الدراسة:**

**1.جيل زد:**

يعرف الجيل على أنه جميع الأشخاص الذين ولدوا وعاشوا في نفس الوقت، والذي يمكن تحديده من خلال معايير وهي : العضوية المتصورة، المعتقدات المشتركة، السلوكيات المشتركة، التاريخ المشترك وقد قسم الباحثين الأجيال وفقا لكل حقبة زمانية ومميزاتها ومن بينها جيل الألفية " زد " هو الاسم الذي يطلقه العديد من الباحثين الديمغرافيين على الجيل الحالي من الشباب، ووفقا لمركز بيو للأبحاث يتكون هذا الأخير من الأشخاص الذين ولدوا بين عامي 1997، 2012 وبناء للإحصائيات والتحليلات التي قامت بها شركة Mckinsey et company لعام 2020، يشكل حاليا غالبية سكان افريقيا، ويشكل ربع سكان منطقة آسيا والمحيط الهادئ بحلول عام 2025 . (عمر عبد الجبار، 2023، صفحة 87)

إذ يعرفه عمر عبد الجبار محمد احمد، أستاذ علم الاجتماع، على أنه " جيل الألفية وهو جيل الألفية الذي يعتبر أفراده " روادا رقميين " الذين شهدوا انفجار التكنولوجي حيث يمكن الوصول إلى المعلومات على الفور ويتميز هذا الجيل بأنهم رواد رقميين، عملي ويتميز بعقلية مالية، مستهلكين أذكياء، الرغبة في العمل ". (عمر عبد الجبار، صفحة 88)

وعليه يمثل جيل زد (1997-2012) الأشخاص الذين توفرت لهم الحرية الرقمية والتقنيات المختلفة في التعبير عن ذواتهم وتشكيل قاعدة جماهيرية بدون قيود زمانية أو مكانية، كما تمثل هذه التقنيات والحريات ألية لنمذجة وتشكيل سلوكياتهم واهتماماتهم.

**2.النرجسية الرقمية:**

تعد النرجسية من المفاهيم السيكولوجية، والتي عرفها دليل التشخيص الرابع لجمعية الطب النفسي الأمريكي (DSM-IV) هي نمط شامل من السلوك الذي يتسم بالإحساس بالعظمة، الرغبة في اكتساب إعجاب الأخرين والافتقار إلى التمثيل الوجداني، وتبدأ في مرحلة الرشد المبكرة وتتمثل في عدد من السياقات.

كما تعرف في جانب آخر على أنها: " سمة من سمات الشخصية ترتبط بمفهوم ذات متضخم ونقص في المودة والألفة في العلاقات الشخصية المتبادلة مع الآخرين." (نزار، 2023، صفحة 08)

وفي ظل التحول الرقمي والقرية الكونية الذي طرحها المفكر الكندي مارشال ماكلوهان في نظرية الحتمية التكنولوجيا، أصبحت العديد من الاضطرابات النفسية تتمظهر عبر السياقات الرقمية وتنتجها كذلك ومن بينها النرجسية الرقمية، والتي تعرف على أنها:

وهي ممارسات اتصالية، نموذجية لعالم 0.2 والتي تقوم على الأنانية الشديدة التي تقترب من المرض، تتجلى هذه النرجسية من خلال سلسلة من الأفعال المتطرفة، مثل التقاط عدد كبير من الصور " السيلفي " أو مشاركة لحظات يمكننا تصنيفها على أنها حميمية للغاية من حياتهم، وهذه الممارسة وعرض تفاصيل الحياة أساسها البحث عن الموافقة والإعجاب من الأخر، والذي يتم التعبير عنه من خلال كمية من الإعجابات والصور المصطنعة. (Jennifer،s.d .)

وعليه فالنرجسية الرقمية هي نوع من السلوكيات الرقمية التي يمارسها الرواد الرقميين "جيل زد" من خلال التصوير الذاتي المستمر، عرض تفاصيل حياتهم، الفضائح بهدف البوز، الخطابات التافهة. وذلك بهدف تحقيق أكبر قدر ممكن من الإعجابات والتعليقات مما يجعل المستخدم يشعر بتقدير الذات والاعتراف من طرف الأخر.

**3.ثقافة اللامعنى:**

تعرف الثقافة على أنها: " الثقافة هي الصور الانعكاسية لتنشئة الفرد ومعتقداته من خلال سلوكياته وتصرفاته في حياته اليومية أمام مواقف متوقعة أو غير متوقعة، وفي ظل الانفتاح الرقمي والتدوين الرقمي ظهرت العديد من الثقافات الفرعية " الرقمية " ومن بينها " ثقافة اللامعنى " والتي عرفها الباحث Massimo lenoe وهي تحول العلاقة بين الموضوعات والأشياء وكذلك العلاقة بين الأفراد إلى قوالب نمطية فارغة، فمن خلال هذا الطرح يتضح أن " ثقافة اللامعنى " أو ثقافة التفاهة كما يسميها بعض الباحثين.

وفي نفس السياق يمكننا التطرق إلى طرح الفيلسوف الكندي ألان دونو الذي يرى أن التفاهة أصبحت تمثل نظام والذي نقصد به " إسباغ التفاهة على كل شيء، وتكمن الخطورة الحقيقة للأمر في كون هذه المهمة سهلة وممكنة التحقق بسلاسة. " (دونو، 2022، صفحة 59)

ثقافة اللامعنى أو التفاهة وفقا لطرح الفيلسوف الكندي ألان دونو التي أصبحت تعرفها المجتمعات الشبكية وروادها من خلال ترميز التافهين وصناع المحتوى التي تتمثل خطاباتهم في طرح قضايا لا تحمل في جوهرها المعنى مثل فيديو وجيز حول " يوم كامل داخل غرفة واحدة " أو" عيد ميلاد قطتي "مما تجعل من القضايا الجوهرية مثل: الفقر، البطالة، الحكم الراشد، تحقيق الاستدامة أقل أهمية.

**ثانيا: قراءة مفاهيمية لجيل زد:**

لقد اجتاح الجيل الثاني للويب بشكل صاخب المخيال المعاصر، قبل أن تغدو أداة ذات انتشار واسع ،لقد جعلتها إمكاناتها الهائلة مادة طوباوية يتقاسمها كل الحالمين بإقامة فضاء افتراضي بواسطة التكنولوجيا الجديدة وقرية كونية تقوم على الحرية والتفاهم والآنية والتبادل الأخوي بلا حدود ،" هذه الحرية الرقمية من أحد الحريات الأساسية المنصوص عليها في المادة 19 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، فقد أسس هذا الإعلان للحق في الإعلام، بما في ذلك نشر المعلومات وتلقيها بكافة الأشكال وبمختلف الوسائل الممكنة، كما أتاحت البيئة الرقمية نطاقا أوسع للممارسة هذه الحريات وتجسيد الحق في الإعلام والاتصال. (لحمر، 2022، صفحة 89)

وفي نفس السياق فإن الممارسات الرقمية وطبيعة التدوين الرقمي التي تزامنت مع بروز جيل جديد وفقا لتقسيم المنظرين وهو " جيل زد " (1997-2012) وبحسب دراسة أجرتها " الشركة المتخصصة في أبحاث المسح عبر الأنترنت عام 2021، فإن 57 % من جيل زد يطمحون للعمل كمؤثرين رقميين وصناع محتوى، وإن 53 % منهم مستعدون لترك وظائفهم والعمل في صناعة المحتوى الإلكتروني.

فقد شمل الاستطلاع أكثر من – 2200-مستخدم للشبكات الاجتماعية تتراوح أعمارهم بين 13 و26 عاما، وبسؤالهم عن طبيعة المحتوى الذي يرغبون في تقديمه أجابوا على النحو التالي: (عبيد، 2023)

- 22: % يقدمون تعليقا على الألعاب.
- 13% يقدمون محتوى غذائيا.
- 101% يقدمون محتوى عن الموضة والجمال والعناية بالبشرة.
- 8 % يقدمون محتواهم عن الموسيقى.
- 20 % لم يحددوا طبيعة المحتوى الذي يرغبون في تقديمه.

ويتميز جيل زد عن غيره من الأجيال بمجموعة من المميزات، يمكن تحديدها في النقاط التالية: (عمر عبد الجبار، 2023)

- جيل زد " رواد رقميين ": إن من أهم سماته الاستخدام الفوري لتكنولوجيا، وهم الذين شهدوا انفجار التكنولوجيا ووسائل التواصل الاجتماعي.
- الجيل زد عملي ويتميز بعقلية مالية: وهذا ما يفسر رغبتهم في الشهرة والعمل كمؤثرين رقميين.
- افراد جيل زد " مستهلكين أذكياء "«.
- جيل استهلاكي ويسعى إلى التمظهر: وذلك من خلال الاستعراض ونشر ثقافة الاستعراض تلك الثقافة التي تساهم في إنتاج جيل رخو يهتم بالمظاهر على حساب المضمون، همه الأساسي الصور والخبر ولفت النظر.

**ثالثا: ثقافة التدوين الحر والتعبير عن الذات، تحدي لجيل زد؟**

إن ثقافة التدوين الحر صناعة المحتوى الذي يعرفها السياق الرقمي أسس لنا للعديد من المصطلحات والمفاهيم " التعبير عن الذات "، " الإفصاح عن الذات "، " عرض الذات " وهي المفاهيم التي تشير إلى نشر جميع أنواع المحتوى عبر الأنترنت

من خلال " عرض الجسد أو تمظهر الجسد، وكان للباحثcardon من الباحثين الأوائل الذين أشاروا إلى إشكالية الفصح عن الذات عبر السياقات الرقمية، اذ سمح الجيل الثاني للويب للمستخدمين من عرض هوياتهم وتفاصيل حياتهم الخاصة عبر الأنترنت، وذلك بمقابل الشهرة وتحقيق " قاعدة جماهيرية " والاعتراف من الأخر بناءً على طرح الفيلسوف " إكسل هونيث " وذلك من خلال عدد الإعجابات والمشاهدات وزيادة عدد المتابعين، وحتى انتهاك القيم المجتمعية وكسر الطابوهات بهدف تحقيق البوز والأمثلة في هذا السياق متعددة من بينها : صراع المؤثرين التشهير بالغير المحتوى التافه . (شريط، 2022، صفحة 146)

هذه من التحديات التي تواجه مستخدمين الشبكات التواصلية ومن بينهم " جيل زد ( 1997-2012) في ظل التأثير " قادة الرأي " التي يتميز بها المؤثرين الرقميين مما يسمح لهم هذا بالتأثير والإقناع على مجموعة من الأشخاص، من خلال توليد تصرفات يحكمها التقليد الأعمى أو ما يعرف " بغريزة القطيع " les effets gregaire، (شريط، 2022، صفحة 146) إضافة إلى الانحياز العاطفي والتأثر بهم من هم من نفس الجيل والذين يسعون لتحقيق " الشهرة " وفي هذا الصدد تؤكد الباحثة تيتانيا جوردان في كتاب " الأبوة والأمومة في عصر التكنولوجيا "" لموقع بيرنس – إن الكثيرين من جيل زد يرغبون في تقليد ومحاكاة المؤثرين الذين توصي بهم خوارزميات مواقع التواصل وتفرضها عليهم أحيانا . (عبيد، 2023)

تتعدد أشكال التعبير عن الذات في السياق الرقمي بهدف تحقيق قاعدة جماهيرية والتي يمكن تحديدها في النقاط التالية:

**1.التصوير الذاتي " السيلفي ":**

يذكر الفيلسوف إيف ميشو yves michaux، لقد التقطت سنة 2001، 86 مليار صورة كان أغلبها ورقيا وفي سنة 2012 التقطت 850 مليار صورة أغلبها ظل رقميا، ولم يتحول أبدا إلى ورق، بل وضع في الشبكة وأرسل إلى الأصدقاء ولم يكن الأُثر هو ذاته " فنحن في الحالة الثانية أمام تحول كلي للعالم، لقد انتقلنا من عالم كانت الصورة فيه تسجل ما هو موجود، إلى عالم تتكاثر فيه الصور بلا جدوى يتعلق الأمر بصور هشة وعائمة (لن يتم تثبيتها) صورة ملتقطة بسرعة، فلم يكن أصحابها مكرهين على تقديم الصورة بهدف الاستعراض. (غودار، 2019، صفحة 63)

**2.مدونات الفيديو vidéo blog-vlog:**

مجموعة مقاطع يتم نشرها عبر العديد من شبكات التواصل الاجتماعي، facebook، tiktok، instagram، youtube ، فيديوهات تتراوح مدتها بين دقيقة وثلاث دقائق، قد تكون مدعومة بنصوص وصور وبيانات في مختلف المواضيع: الموضة، السياحة، الطبخ، ألعاب، الفيديو.

**3.البث المباشر "live ":**

تقنية تسمح للأشخاص بنقل الفيديو والصوت بشكل فوري ومباشر عبر الأنترنت، يمكن للمستخدمين تشغيل الكاميرا على هواتفهم الذكية أو الأجهزة الأخرى، وبث محتواهم مباشرة إلى جمهورهم عبر منصات التواصل الاجتماعي. (لعموري، 2023، صفحة 465)

**رابعا: تحديات جيل زد عبر الفضاء الرقمي:**

**1.نشر ثقافة اللامعنى آلية للشهرة في عصر التدوين الحر:**

بعد الانتقال إلى عصر الموجة الثالثة، بظهور وسائل التواصل الاجتماعي وصناعة المحتوى الثقافي الذي أصبح يسير وفقا للمبدأ الميكافيلي، متغاضيا عن مبدأ القيم والأهداف التربوية والتثقفية ،متوجها إلى مبدأ الربح المادي من خلال الربح المادي من خلال الرفع من عدد النقرات عبر مضامين يتم صناعتها وبثها خاصة عبر منصات التواصل، وانتشار العديد من الثقافات من بينها " ثقافة البوز والتفاهة، التي تمارس عبر العديد من الأشكال الرقمية وتنتج لنا نظام رقمي يتم ترميز التافهين عبره ونشرهم لخطابات تافهة والتي يمكن التماسها عبر العديد من الخطابات التي يمكن تحديدها في النقاط التالية وفق طرح الفيلسوف الكندي " آلان دونو – في مؤلفه : نظام التفاهة : (دونو، 2022، الصفحات 28-61)

**1.1اللغة الخشبية :**

التفاهة أداة لغوية هامة وهي " اللغة الخشبية langue de bois، وهو يشير إلى اللغة الجوفاء المحملة بالحقائق والتأكيدات التوتولوجية tautology، أي النطق بتحصيل الحاصل الذي يقوم على الحشو أو مجرد التكرار بألفاظ مختلفة، وكأن في الأمر قضية جديدة تدفع بمعرفتنا إلى الأمام، رغم أنه لا يضيف عما هو معروف عن الشيء أساسا، بما يعني أنها محض ألفاظ زائدة على أصل المعنى من دون فائدة،

ويمكن التماس هذه اللغة عبر الفضاءات الرقمية من خلال نشر العديد من العبارات التافهة وتداولها بين فئة الشباب ومن بينها " القيد رقد "، كبس كبس ".

**2.1.البهرجة والابتذال:**

يسعى البعض لتخليد اسمه بأي شكل من الأشكال والذي تطرح عنه " أشكال الشهرة الأنانية " وأبرز مثال التحديات التي تمارس عبر تطبيق تيك توك وتمارس فيها العديد من الممارسات اللاأخلاقية من " شتم، سب، إيحاءات جنسية ".

**3.1.المبالغة في التفاصيل:**

إن كل ما تقدم لا يعني أن التافهين لا يعملون، في الحقيقة هم يعملون بجد بمبالغات بروزوبوغرافية أحيانا والذي نقصد به علم الوصف الدقيق، وأبرز مثال وهو مصاريف أعراس واحتفالات صناع المحتوى وهذا ما عرفه السياق الرقمي وما تداوله جيل زد " حفل زفاف القرن، الذي أقيم في باريس madelaine lagrone – والذي تمثل ب 59 مليون دولار والذي تمثل في أداء لفرقة maroon 5 إضافة إلى تأمين إقامة في قصر فرساي، إضافة إلى نقل الضيوف الى باريس على متن طائرات خاصة. (بالعربي، 2023)

**2. التمظهر الرقمي ما بين تقدير الذات وتشكيل جيل نرجسي رقميا:**

تعد النرجسية من الموضوعات المركزية التي اهتم بها الباحثين الأمريكيين، تزامنا مع كتاب ثقافة النرجسية الذي أصبح أكثر مبيعا في كامل أرجاء الولايات المتحدة وبروز ما يعرف بالنرجسية الجديدة والتي تعبر عن بروز ملامح جديدة للفرد في علاقاته مع ذاته ومع جسده ومع الآخر والتي أدت إلى الفردانية والتحرر من القيم والأخلاق وفي ظل التحولات الرقمية أصبحت تمارس هذه الثقافة الرقمية وتتداول بين المستخدمين وشكلت جيل رقمي يسعى إلى التمظهر والشهرة من خلال عرض ذواتهم رقميا والارتباط بلغة الأرقام والقاعدة الجماهيرية . (ليبوفتسكي، 2022، صفحة 54)

ويرى ايرك فروم النرجسية على أنها كل أشكال الزهو، الإعجاب بالذات والاعتداد بالنفس، والتمجيد الذاتي ". (غودار، 2019، صفحة 90) وبناءً لهذا الطرح الذي يركز على تفسير النرجسية من حيث التركيز على الذات التي أصبحت تتماثل عبر السياقات الرقمية واستغلالها للحريات عبر هذه الأخيرة وخصوصياتها " الفيديوهات الوجيزة، البث المباشر، الفلاتر، التصوير الذاتي " وتشكيل " ذات رقمية نرجسية " اذ يقوم

مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي بتصوير الصور والحالات عبر الانترنت التي يشعرون أنها ستتلقى ردود فعل إيجابية تساعد في النهاية على حصد أكبر عدد علامات " الإعجاب " على الصور، الأمر الذي قد يغذي الفرد شعور مفرط بتقدير الذات كما أنه غالبا ما يكشف بعض مكامن النرجسية لدى الأشخاص، فنحن نهتم بما يفعله ويقوله وشعور أصدقاؤنا وعائلتنا، وبتلك الطريقة نبني لأنفسنا داخل السياق الاجتماعي، (رقاد، 2021، صفحة 444).

وعليه فإنه يمكن تحديد السبب الأساسي لنرجسية الرقمية والتي تحاول اشباع حب الذات من خلال الاستفادة من ديمقراطية الشهرة التي وفرتها التقنية الحديثة وشبكات التواصل الاجتماعي. (الرأي، 2014)

في نفس الطرح عند تسليط الضوء حول الذات الرقمية " الأنا الافتراضية " التي تغيرت ممارستها بحكم الانفتاح الرقمي والحرية في التعبير عن الذات بل الاعتماد على المساحات الرقمية كبيئة لتقدير الذات والاعتراف من طرف الأخر من خلال " التسويق الذاتي " ان العديد من جيل زد " الرواد الرقميين " يتفننون في إخراج انفسهم في صورة مثالية تخفي في جوهرها وجها آخر مخالف للواقع بل صور مصطنعة ومزيفة يتم ترويجها بهدف تحقيق المثالية، وهذا يكون على مستوى ملامح الوجه " خاصية الفلتر، الفوتوشوب " إضافة إلى مستوى السلوكيات من خلال الترويج لشخصيات رقمية من بينها شخصية الشاب الوسيم ' النجم ' والمغامر الذي لا يخاف وجسد المرأة المثالي إضافة إلى الزوج المثالي والحياة العائلية المثالية إضافة إلى نموذج المرأة القوية والمستقلة وترويج شعار : strong independent woman . (رقاد، 2021، صفحة 449)

وعليه في نفس السياق يمكن أن ينطبق هذا الطرح الرقمي مع نظرية التمثيل الذاتي في العصر الرقمي من خلال الإشارة إلى تحليل ازوما هيروكي عالم اجتماع ياباني في محاولة لفهم أفضل للنظام المعاصر حول التعبير عن الهوية من خلال الوسائل الرقمية (رقاد، 2021، صفحة 499)، وهذا التعبير قد يكون مزيف ويدفع للنرجسي من خلال العديد من الممارسات التي يمكن التماسها بالمجتمعات الشبكية " البحث عن البوز لتحقيق أكبر قد من الإعجابات "، فضائح المؤثرين ".

وأبرز مثال التحديات التي تمارس عبر تطبيق تيك توك التي تطرح العديد من الثقافات من بينها " ثقافة التفاهة، ثقافة الاستعراض ...".

**خامسا: التربية الرقمية آلية لحماية جيل زد في عصر الشهرة النرجسية:**

**1.ماذا نقصد بالتربية الرقمية:**

مع تزايد الاستعمال المفرط لشبكات التواصل الاجتماعي، تزايد أطماع زيادة رؤوس الأموال من خلال نقرات شبكة الأنترنت، ازداد معها معدل ثقافة اللامعنى وتسطيح الفكر، وانتشار الفكر السلبي والتفكير المستقل فقط أو كما يسميه الباحث **alain deneaulat** التفكير المخمل غير القادر على المناقشة وتوليد الأفكار وازدادت معها الضرورة الملحة لأليات وميكانيزمات التربية الرقمية والتي تمكن جيل زد من القراءة لطبيعة المحتويات التي تتداول عبر السياقات الرقمية وذلك من خلال التحلي بمهارات التربية النقدية المتمثلة في : التحليل، الاستنتاج، النقد وعليه فإن التربية الرقمية هي عبارة عن تحويل الاستهلاك للرسائل الإعلامية إلى عملية نقدية نشطة وتكوين حكم ذاتي مستقل لمساعدة الأفراد على تكوين الوعي حول طبيعة تلك الرسائل وفهم دورها في بناء وجهات النظر حول الواقع الذي يعيشون فيه. (تومي، 2022، صفحة 291).

وعند تسليط الضوء حول التربية الرقمية لابد من التركيز على تشكيل مهارة العقل الناقد كألية أساسية في استهلاك الخطابات الرقمية خاصة في ظل الغياب التام للوعي الجمعي وضمور ملكية التفكير النقدي لدى جزء كبير من هذه الجماهير فتسلبهم حواسهم وتقنعهم بأن ما يقرؤونه وما يشاهدونه هو الحقيقة الخالصة والواقع المثالي حيث تسعى لتشكيل هذا الواقع وفقا لتصوراتها وأيديولوجياتها .وعليه فإن التفكير النقدي من المفاهيم الأساسية التي تقوم من اجله التربية الرقمية وهذا الدور المهم يتطلب تكاثف الجهود بين الاسر والمجتمع ومختلف الهيئات التربوية ووسائل الإعلام المختلفة لتوجيه سلوك المتلقي نحو الانتقاء وانماء قدراته النقدية، وإن التفكير النقدي يعتبر عملية فكرية مركبة وعقلانية ومنطقية يتم فيها اخضاع الفكرة أو أكثر للتحقيق والتقصي وجمع وإقامة الشواهد بموضوعية ومن ثم اصدار حكم بقبوله أو رفضه ." (بوجفجوف، 2023، صفحة 188)

**2.دور التفكير النقدي في حماية جيل زد من تحديات العصر الرقمي:**

يشير أدم سميث في كتابه the wealth of nations " كلما زاد عدد الناس الذين تلقوا تعليمات أصبحوا أقل عرضة لأوهام الحماس والخرافات يشير هذا الرأي أن التربية الإعلامية يمكن أن تزيد النقد من خلال زيادة المعرفة حول الإعلام وتأثيره وكذلك القدرة على التمييز بين واقعية التمثيل الإعلامي والواقع الحقيقي ويكمن دور

التفكير النقدي في ظل تحديات جيل زد والثقافات الفرعية التي تنتجها ممارسات المستخدمين في أنها: (صبيرة، 2022، الصفحات 16-17)

- استخدام مهارة التفكير الناقد تساهم في بناء الوعي الإعلامي لدى الإنسان وتساعده على تجنب فخ النرجسية وتسطيح الوعي الجمعي من خلال المضامين التافهة.
- ان استخدام مهارة التفكير الناقد تساعد المتلقي على فرز المواد الإعلامية بين ما هو سلبي ورديء وما هو إيجابي نافع.
- ان مهارة التفكير الناقد تساعد المتلقي أن يكون متلقيا إيجابيا قادرا على انتقاء المضمون الإعلامي وتحليله وتقويمه.
- تمكن مهارة التفكير النقدي جيل زد من صناعة المحتوى وفق معايير تساعد على حماية الهوية الوطنية وحماية الأمن المجتمعي.

ويمكننا تطبيق التفكير النقدي من خلال نموذج " لاسويل الشهير " والذي يقترح خمسة أسئلة: من؟ يقول ماذا؟ بأي وسيلة؟ لمن؟ وبأي تأثير؟: (عبد الرحمن، 2010، صفحة 157،158،159،160)

**من: وهي الأسئلة المرتبطة بمعرفة (المرسل-صانع المحتوى)**

1.من هو المرسل وصانع المحتوى الذي قام بتصنيع هذه الرسالة وقام ببثها ونشرها وتوزيعها وإذاعتها؟

2.هل هو جهة رسمية حكومية؟ أم جهة تجارية؟ أم تجمع مهني؟ أم جمعية نفع عام؟ أم غير ذلك؟

3.أين يتم صنع هذا المحتوى؟ ومن أين يتم بثه؟

4.ما هي أهداف المرسل وصانع المحتوى، ولماذا يصرف على الرسالة ويمولها ويتحمل تكاليفها؟

5.هل يتمتع بالأمانة والعدالة والمصداقية؟

6.ماهي درجة الثقة بالمرسل وصانع المحتوى؟

**يقول ماذا: (الرسالة المحتوى) الأسئلة المرتبطة بمعرفة:**

1.هل هذه الرسالة والمحتوى والخبر، أم رأي، أم حقيقة، أم انطباع أم خيال؟

2.ماهي المعلومات والأفكار والقيم والتوجهات التي تحتمها الرسالة والمحتوى؟

3.ماهي وجهة النظر التي عرضت من خلالها الرسالة والمحتوى؟
4.هل الرسالة جزء من حملة دعائية؟

**بأي وسيلة:**

ترتبط في هذا العصر بطبيعة استخدام سياسات الشبكات التواصلية ومن بينها " الهيكلة الخوارزمية، الترند، الوسم، طبيعة حماية هذه التقنيات لخصوصية المستخدمين وكيفية تقديمها للواقع خاصة في ظل أليات الذكاء الاصطناعي وتوليدها لتفاهة والاصطناع.

**لمن؟**

1.من هو جمهور مستهدف من رسالة؟
2.هل أنا من الجمهور المستهدف؟
3.وهل هذه الرسالة تعنيني؟ ولماذا؟
4.لماذا توجه هذه الرسالة والمحتوى إلى المجتمع؟

**بأي تأثير؟**

1.ماذا فهمت من هذه الرسالة والمحتوى؟
2.هل استفادت من هذه الرسالة في زيادة معرفتي أو تدعيم آرائي؟
3.هل دفعتني هذه الرسالة الى اتخاذ موقف أو الحكم على شخص أو قضية؟
4.هل سأكرر التعرض لهذه الرسالة أو المحتوى مرة أخرى؟

**التوصيات:**

وبناء على النتائج المتوصل لها التي حاولنا من خلالها تحليل إشكالية الدراسة والبحث تحديات جيل زد في ظل انتشار النرجسية الرقمية وثقافة اللامعنى، يمكننا طرح مجموعات الاقتراحات وهي كالآتي:

- الاهتمام الأكاديمي بالدراسات التي تتعلق بتحديات التي تواجه جيل زد وتمثلاتهم عبر الفضاءات الرقمية سواء من الجوانب السيكولوجية أو السوسيولوجية أو الثقافية.
- الاهتمام أكثر بطبيعة الضبط التشريعي لطبيعة النشر الالكتروني والتدوين الحر عبر الشبكات التواصلية.
- محاولة فهم لطبيعة ممارسات صناع المحتوى وتشكيل جيل رقمي مقولب من

خلال محتوى هابط وتافه وينتج محتويات تتنافى مع القيم المجتمعية بهدف التمظهر وتحقيق القاعدة الجماهيرية.

- تكاثف الجهود بين المؤسسات الحكومية والأسرية والإعلامية في تشكيل جيل رقمي قادر على استهلاك المضامين الرقمية منظور نقدي وتحليلي.
- صناعة المحتوى تعتبر حتمية فرضتها الاتاحة والحرية الرقمية إذ لابد على المؤسسات الحكومية والتعليمية تمكين جيل زد وفق بعد أخلاقي.

**قائمة المراجع:**


**1.**Jennifer، d. (s.d). The era of digital narcissism. Consult le 11 24, 2024, surf psychology spot: https://psychology-spot.com/digital-narcissism/

2.الرأي. (2014، جوان 05). -Sulfideالنرجسية-الرقمية-وديموقراطية-الشهرة. Récupéré sur الرأي: https://alrai.com/article/648307/

3.بالعربي، E. (2023، نوفمبر 27). 59 مليون دولار. تفاصيل تكلفة زفاف القرن في باريس. Récupéré sur ET بالعربي: https://etbilarabi.com

4.بوجفجوف، ا. (2023). التربية الإعلامية في البيئة الرقمية: قراءة في المفهوم والتحديات. مجلة الدراسات الإعلامية, 141.

5.تومي، ع. ا. (2022). التربية الرقمية لمواجهة سطوة ثقافة التفاهة في المجتمع الشبكي: دراسة وصفية نقدية. المجلة الدولية للاتصال الاجتماعي جامعة عبد الحميد بن باديس -مستغانم , 290.

6.دونو، آ. (2022). نظام التفاهة. (م. ع. الهاجري، Trade.) الجزائر: بيت الياسمين للنشر والتوزيع.

7.رقاد، ح. (2021). السيلفي والإنسانية الرقمية: دراسة نقدية لتحولات الذات في العصر الافتراضي. مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية (العدد: 02)، 444.

8.شريط، ح. (2022). المؤثرين أو قادة الرأي الجدد على الويب 0.2: قراءة في مفاهيم السلطة والتأثير وعرض الذات والسمعة الرقمية. مجلة رقمنة للدراسات الإعلامية والاتصالية (العدد: 01).

9.صبيرة، د. ا. (2022، مارس 22-21). دور التربية الإعلامية في تنمية الوعي نحو المضامين الكاذبة والمضللة في مواقع التواصل الاجتماعي. جامعة قاصدي مرباح

ورقلة، كلية العلوم الإنسانية الاجتماعية -قسم علوم الإعلام والاتصال: المؤتمر الدولي الافتراضي الأول: الدراية المعلوماتية في العصر الرقمي.
10.عبد الرحمن، ف. (2010). التربية الإعلامية كيف نتعامل مع الإعلام؟ مكتبة الملك فهد الوطنية اثناء النشر, 160،159،158،157.
11.عبيد، ر. (2023، نوفمبر 19). لماذا يحلم نصف الجيل "زد" بالعمل كـ "مؤثرين" على الشبكات الاجتماعية؟ Récupéré sur الجزيرة: https://www.aljazeera.net/lifestyle
12.عمر عبد الجبار، م. (2023). الجيل z: شريحة اجتماعية جديدة بخصائص جديدة وتحديات نظرية ومنهجية جديدة. مجلة مستقبل العلوم الاجتماعية (العدد: 01) , 87.
13.غودار، إ. (2019). أنا أوسلفي أنا موجود تحولات أنا في العصر الافتراضي. (س. ب. كراد، Trad.) الدار البيضاء المغرب: المركز الثقافي للكتاب.
14.لحمر، م. ع. (2022). الضوابط القانونية والأخلاقية للنشر الإلكتروني في البيئة الرقمية دراسة في التشريعات العربية. مجلة الإعلام والمجتمع (العدد: 01)، الصفحة 89.
15.لعموري، س. ن. (2023). دور البث المباشر عبر مواقع التواصل الاجتماعي في تعزيز العلاقات. المجلة الدولية للاتصال الاجتماعي (العدد: 04)، ال صحفة465.
16.ليبوفتسكي، ج. (2022). عصر الفراغ الفردانية المعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة. (ح. إدوخراز، Trad.) القاهرة: نماء للبحوث والدراسات.
17.نزار، ن. (2023). إدمان الصور الذاتية (السيلفي) وعلاقته باضطراب الشخصية النرجسية لدى طلاب الجامعة. الجامعة المستنصرية كلية التربية قسم العلوم التربوية والنفسية، الصفحة **08.**

# سُلطة التَّفاهَةِ في منظُومة الذَّوْقِ النَّبَوِيَّةِ إشكالاتُ وحُلولُ. قِراءةُ في حديث الرُّوَيْبِضَة

# The Authority of Triviality within the Prophetic Aesthetic Paradigm: Challenges and Solutions - An Analysis of the Hadith of al-Ruwaybiḍah

**د. زيان سعيدي**
**مخبر الدراسات الفقهية والقضائية. جامعة الوادي**

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

من كان يعتقد أو يظن أن الثورة التقنية التي دفعت البشرية عقودا من الزمن نحو الأمام، قد تفتق عنها نظاما صار يتعاظم ويكبر يوما بعد يوم، ويمتدُّ سلطان تأثيره حتى شمل سائر المجالات اجتماعية وسياسية واقتصادية وترفيهية...الخ.

ولقد كان للفيلسوف الكندي الذي اختار عنوان كتابه نظام التفاهة باكورة السبق في الكشف عن هذا النظام الاجتماعي الذي تسيطر فيه طبقة من ذوي الاحتياجات العقلية والخلقية. فأهمّ ميزة لهذه الطبقة الاجتماعية المسيطرة، محدودية العقل والتفكير والثقافة، مما يجعلها في حاجة كبيرة إلى لثم ثغرة النقص العقلي والفكري والثقافي، إضافة إلى الرداءة والوضاعة والتردي الأخلاقي والقيمي في المجتمع مما يجعلها أيضا في حاجة إلى لثم ثغرة التردي القيمي والأخلاقي.

ولم يعد تأثير هذا النظام قاصرا على نشر التفاهة والترويج للرداءة بسبب امتلاكه عوامل النجاح والتأثير في أداء هذه المهمات القذرة، أعني الشهرة والمال والاكتساح الجماهيري لشرائح مختلفة في المجتمع. بل تعدى تأثيره إلى عالم المفاهيم والأفكار. فأصبح مفهوم النجاح مرتبطا بسلطة هذا النظام الاجتماعي الذي لا يعني شيئا إلا المال والمال فقط، لا العلم ولا العمل ولا الكدح ولا التميز. فأصبحت للعمل قيمة غير القيمة المقررة والمعروفة، بذل الجهد وتحقيق النفع وخدمة من حولك.

لقد أصبح من المؤكد أن هذه السلطة الغالبة والمؤثرة في المجتمع ليس لها هدف أصلي ولا مقصد أولي إلا نقض بنيان القيم والأخلاق واكتساح الثقافات والأعراف والقضاء على كل خصوصية من تعاليم دينية أو عرقية أو قيم مجتمعية وخلقية.

وهنا يأتي دور ثقافة الذوق بجميع أسسها ومقوماتها في التصدي لهذه الظاهرة، ولعل أحد أهم هذه المقومات لهذه الثقافة، المقوّم الديني.

ولا شك أن ثمة مظاهر تأسيسية كثيرة لهذه الثقافة من خلال المصادر الدينية والتشريعية، ومنها السنة النبوية المطهّرة أقوالا وأفعالا وتقريرات وحتى كليات تشريعية ومبادئ عامة يمكن من خلالها أن نؤسس لمعالم ثقافة ذوقية نبوية في مواجهة سلطة التفاهة. لهذا تمّ انتخاب عنوان هذه الورقة: "سلطة التفاهة في منظومة الذوق النبوية إشكالات وحلول. قراءة في حديث الرويبضة."

**إشكالية البحث:** يحاول هذا البحث الإجابة عن الإشكالية التالية: ما هي معالم الثقافة الذوقية في السنة النبوية وكيف يمكن أن نواجه بها سلطة التفاهة.

ويتفرع عن هذا التساؤل الرئيسي جملة من التساؤلات الفرعية:

- ما هو مفهوم التفاهة وما علاقته بمصطلح الرويبضة في الحديث؟ وما طبيعة الصلة بهذا المفهوم في ضوء مصطلحات شرعية وألفاظ نبوية مُكرِّسة لهذا المفهوم؟
- ما هي أهم أسباب انتشار التفاهة وعوامل اتساعها وما هي أهم الحلول الممكنة لمواجهتها والتصدي لها من منظور ديني؟
- **أهمية البحث:** تتلخص أهمية هذا البحث في جوانب متعددة منها:
- الانتشار الواسع لنظام التفاهة وتزايد تأثيره يوما بعد يوم مما أفرز شرخا كبيرا في بنيان القيم والأخلاق والآداب.
- أهمية المرجعية الدينية في التأسيس والتأصيل لمنظومة ذوقية وقيمية لها جدواها في مواجهة آثار هذه الظاهرة المرضية.

**حدود البحث:**

**1-الحدود الموضوعية:**

- تحديد مفهوم «الثقافة الذوقية» من خلال وروده في السنة النبوية.

- تحليل مضمون «التفاهة» في سياق الحديث النبوي، ومقارنته بمصطلح «الرويبضة».
- تجلية العوامل المسببة لانتشار التفاهة وطرق مواجهتها بناءً على القيم النبوية.

2-الحدود المنهجية: وقد حاولت هذه الورقة من خلال المنهج الوصفي التحليلي التأصيلي الإجابة عن هذه الإشكالية من خلال محاور ثلاث ارتكزت عليها:

المحور الأول: التفاهة عوامل الظهور وأسباب الانتشار.

المحور الثاني: السنة النبوية والتأسيس لمنظومة الذوق والآداب. تأصيل وتقعيد.

المحور الثالث: معالم بناء الشخصية من خلال منظومة الذوق النبوية.

وكل هذه المحاور في قراءة لحديث الرويبضة: «يَكُونُ قَبْلَ خُرُوجِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ سَنَوَاتُ خُدْعَةٍ، يُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَتَكَلَّمُ الرُّوَيْبِضَةُ الْوَضِيعُ مِنَ النَّاسِ».

**فرضيات البحث:**

- تشكل الثقافة الذوقية في السنة النبوية قاعدة أساسية فاعلة لمعالجة التفاهة ومظاهرها السلبية.
- يعتبر مصطلح «الرويبضة» أقر بالمصطلحات التي تعكس مفهوم التفاهة من وجهة النظر الدينية بل يتفوق عليه في عمق الدلالة وقوة المضمون.
- انتشار التفاهة يرجع إلى غياب تطبيق القيم الذوقية النبوية وسيطرة أنماط اجتماعية أو ثقافية دخيلة.
- مواجهة التفاهة تعتمد على تعزيز القيم الإسلامية الأصيلة من خلال التعليم، الإعلام، والتربية السلوكية.

ويستهدف البحث التأكيد على أهمية المرجعية والتربية الدينية في ضبط المسار الأخلاقي للأفراد والحفاظ على البنية القيمية المجتمعية من خلال منظومة الذوق والآداب التي أصّل لها النبي الكريمﷺ من خلال إرشاداته وتوجيهاته ومختلف مواقفه.

**المحور الأول: التفاهة. عوامل الظهور وأسباب الانتشار.**

يحاول هذا المحور تسليط الضوء على تحديد مفهوم التفاهة وتجلية أسباب الظهور وعوامل الانتشار والكشف عن طبيعة علاقة هذا النظام بالسلطة والأنظمة

السياسية القائمة.

**أولا: مفهوم التفاهة وتأصيل معناها في الأصول الدينية.**

إن تحديد المفهوم الحقيقي للتفاهة أو بالأحرى لنظام التفاهة ينطلق بالأساس من ضبط معانيه اللغوية وموقعه ضمن النصوص الشرعية التي يمكن الاستناد إليها في تأصيل مفهوم التفاهة من منظور إسلامي.

**1-التفاهة لغة:** التفاهة مصدر تفِه يتفه تفهًا وتَفاهةً وتُفوها. بمعنى قلّ وخسّ وحقر. والتافه الحقير من الأشياء. وأتفهت أي أقللت. والتافه الخسيس الخامل من الناس والتافه الأحمق، وتفه الثوب إذا بلي. (الجوهري، 1987، صفحة 2229/6) وفي وصف ابن مسعود للقرآن:" لا يتفه ولا يتشانّ» أي لا يبلى من الشنّ وهو السقاء الخَلِق. (سلام، 1964، صفحة 154/3) والأطعمة التافهة أي التي لا طعم لها حلاوة أو مرارة أو حموضا. (ابن منظور، 1414هـ، صفحة 48/13)

والذي يظهر من خلال هذه النقول المعجمية أن التفاهة تدور حول المعاني التالية: الحقارة، الخسة، الدناءة، الفراغ...وكلها معاني كما ظاهر سلبية لا يجد العاقل بدا من أن يوطن نفسه الابتعاد عنها.

**2-التفاهة في المنظور الإسلامي:** إن التفاهة كمصطلح وردت نصا وتصريحا في الحديث النبوي الصحيح الذي وصف فيه النبي ﷺ آخر الزمان من تصدّر التافهين وأخذهم زمام قيادة السفينة المجتمعية، وهو ما يعرف بحديث الرويبضة والذي سيكون محور قراءتنا لمشكلة التفاهة وكيفية التعامل معها من خلال منظومة الذوق النبوية. روى ابن ماجة في سننه من حديث أبي هريرة أن النبيﷺ قال: «سيأتي على الناس سنوات خداعات، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة»، قيل: وما الرويبضة؟ قال: «الرجل التافه في أمر العامة». (القزويني، 2009، صفحة 162/5)

وما قد سبق مما أوردناه من المعاني اللغوية لكلمة التافه أو لمصطلح التفاهة لا يخرج عنها معنى التافه الذي ورد في كلام النبي الكريم ﷺ.

فالتافه في الحديث معناه الرجل الأحمق أو السفيه المُزجي الذي بضاعته مزجاة. والمزجي في اللغة، الشيء التافه يتبلغ به للعيش. (الهروي، 1999، صفحة 815/3)

والمراد هنا محدود الفكر قليل الإمكانات ضعيف المؤهلات الذي لا يستطيع أن ينهض في معالي الأمور أو يسعى إلى قممها.

**3-مصطلح الرويبضة:** جدير هنا أن ننبه إلى أن الجملة النبوية:" هو الرجل التافه يتكلم في أمور العامة». جملة تفسيرية فسر بها النبيﷺ مصطلح الرويبضة كما جاء في الحديث السابق.

ومن المؤكد جزما أن مصطلح الرويبضة الذي خرج من فم النبي ﷺ، أقوى بيانا وأعمق دلالة على المعنى الذي يدل عليه مصطلح التفاهة. فالرويبضة تصغير للرابضة، وهو كناية عن العاجز الذي ربض عن معالي الأمور وقعد عن طلبها. وزيدت التاء للمبالغة. (الأثير، 1399هـ/1979، صفحة 185/2)

وعدول النبي ﷺ إلى التصغير -الرويبضة-بدل الرابضة وزيادته التاء بدل الاكتفاء بالأصل أي الرابض، تحقير منه بعد تحقير، أي تحقير بالتصغير وتحقير بالمبالغة.

فالقعود عن المساعي الكريمة من سمات الربض والتفاهة. ولهذا سميت السلسلة الضخمة التي يقيد بها المسجون رَبُوض لأنها تمنع حركته وتنقّله.

ويسمّى ما يرميه الجزار مما حوت مصارين الشاة والأنعام رَبْضٌ، لحقارتها ودناءتها وعدم ما يرجى من نفعها وفائدتها.

إن كل هذه المعاني مجتمعة لمصطلح الرويبضة، تجعله أصلا في التعبير عن المعنى الذي يدل عليه مصطلح التفاهة. ولهذا فسّر النبيﷺ مصطلح الرويبضة بالتفاهة.

وحتى بالنسبة للألفاظ التي اختلفت الروايات في ورودها لتفسير مصطلح الرويبضة لا تخرج في الجملة عن هذا المعنى الذي سبق تقريره.

فقد روى نعيم بن حماد في الفتن هذا الحديث بلفظ:" ويتكلم الرويبضة الوضيع من الناس». (حماد، 1412هـ، صفحة 533/2)

وروى الحاكم في المستدرك بلفظ:" السفيه يتكلم في أمر العامة.» (الحاكم، 1417هـ-1997 م، صفحة 557/4)

وروى عبد الرزاق في المصنف بلفظ:" الرويبضة سفلة الناس.» (الصنعاني، 1403هـ، صفحة 202/9)

وروى الطبراني في المعجم الكبير بلفظ:" من لا يؤبه له.» (الطبراني، 1983 م، صفحة 67/18)

وفي مسند أحمد بلفظ:" الفاسق يتكلم في أمر العامة.» (حنبل، 1416 هـ -1995 م، صفحة 20/3)

فهذه الألفاظ مع اختلافها إلا أنها تجتمع كلها حول تقرير المعنى السابق للتفاهة. فالفاسق ومثله الفويسق -تصغير له-لقب لمن تنكّب الحق وعاند أمر الله تعالى فخرج عن الجادة التي يتحقق بها صلاحه وفلاحه. فالفاسق آتٍ ما لا نفع فيه ولا مصلحة، وهو معنى التفاهة التي يراد بها تفريغ الشخص من المحتوى النافع وانسلاخه عما يضمن له منفعته ومصلحته، ولهذا سميت الفأرة فويسقة لعبثها في البيوت وإفسادها.

ومثل هذا يقال في لفظ الوضيع الذي فُسّر به الرويبضة، لأن الوضيع من الضَعَة وتعني الانحطاط واللؤم والخسة والدناءة. (الزبيدي، 1414هـ/1994م، صفحة 206/22) فالوضيع ضد الشريف وهو المحطوط القدر الدنيء.

وأما لفظ السفيه، فهو مأخوذ من السفه. ومعناه خفّة في العقل تعتري الشخص فتحمله على التصرف على خلاف ما تقتضيه أوجه المصلحة. ولهذا عُدّ السّفَه أحد العوارض التي تؤثّر في أهلية الشخص بسبب عدم اتّزانه من الناحية العقلية والتي تؤثر في صحة تصرفاته ووقوعها على نحو يحقق المصلحة والمنفعة للشخص.

والسِّفلة بكسر السين من الناس، من قَصُرت مراكبهم ومؤهلاتهم عن الوصول إلى الرفعة ومعالي الأمور. وهذا الوزن الصرفي الذي جاء في الحديث بالكسر على وزن فِعلة والمراد بها أسفل السُّفَّل. وأهل اللغة يطلقون على قليل الحظ سفلي. (الزبيدي، 1414هـ/1994م، صفحة 206/29)

فأنت تلاحظ أن المصطلح الذي اختاره أفصح من نطق بالضاد ﷺ للتعبير به عن مضمون التفاهة وهو مصطلح الرويبضة، أوسع معنى وأعمق دلالة في بيان خطورة التفاهة والرداءة خاصة إذا آل الأمر إلى أن تكون التفاهة نظاما مسيطرا، حيث اعتبره النبيﷺ أحد أشراط الساعة وعلاماتها.

**4-التأصيل الشرعي لمفهوم التفاهة:**

تتفق عبارات معظم الباحثين الذين تناولوا بالنقد والدراسة ظاهرة التفاهة على أنها ظاهرة إملاق وافتقار لأدنى المؤهلات والمقوّمات العلمية والثقافية والاجتماعية وحتى الدينية والخُلُقية التي توجب التصدر. فالتفاهة بهذا المنظور تعكس ضُروبا من الاحتيال وتخطي المقومات الأساسية للنجاح عن طريق تحقير الوضع الطبيعي لتحسين الأهداف والوصول إلى قمة النجاح. والوضع الطبيعي لتحقيق النجاح لا يكون إلا عن طريق بذل المجهود الطبيعي لارتقاء سُلَّم النجاح، وهو ما لا يجد له موضعا في فكر التفاهة وثقافة السفاهة.

وهذا المفهوم العام للتفاهة مما نجد له حضورا لافتا في الدلائل الشرعية والنصوص الدينية، ومن ذلك على سبيل المثال: مصطلح الغثائية الذي ورد في الحديث الصحيح: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى القوم إلى قصعتهم» قال: قيل: من قلة؟ قال: «لا ولكنه غثاء كغثاء السيل يجعل الوهن في قلوبكم، وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت.» (حنبل، 1416 هـ-1995 م، صفحة 332/14)

والغُثاء بالضم والتشديد أيضا كما قال التوربشتي:" ما يحتمله السيل من القماش. شبههم بذلك لقلة غَنائهم أي نفعهم ودناءة قدرهم خفة عقولهم.» (حسين التوربشتي، 1429هـ/2008، صفحة 125/3)

وما يعزز هذا التأصيل لمفهوم التفاهة بمصطلح الغثائية، شهادة الواقع الذي يؤكد كثرة المتابعين والمتأثرين بالمشهورين والمؤثِّرين وصانعي المحتوى من التافهين (الفاشيتيستا).

فأن تصل نسبة مشاهدة مقطع لتحديد جنس الجنين في بعض حسابات هؤلاء المؤثرين إلى أكثر من 44مليون مشاهدة ثم تتلوها ملايين الرسائل للتهنئة والتبريك فقط من أجل هذا الحدث-إن جاز لنا تسميته حدثا-أحد المؤشرات القوية على غثائية الواقع الذي تعيشه هذه الأمة. (أحمد، 2023م، صفحة 23)

وهنا يأتي الوصف النبوي الرشيق لهذا الواقع الغثائي الذي أصبح المظهر المعبِّر عن النجاح في عالم التفاهة كما في الحديث: «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة.» (الحجاج، 1334هـ، صفحة 1973/4)

والراحلة بمعنى المرحولة وهي النجيبة المختارة، وهي المركوبة المدربة تدريبا حسنا تقوى على الحمل والسفر. وهذا مثل ضربه النبي ﷺ لأهل الكمال الذين يحملون عن غيرهم المشاق ويذللون لهم الصعاب في جميع الآفاق ومع ذلك فهم قليل في كثير لا نفع فيه ولا خير. (الحدادي، 1988، صفحة 172/4)

ومن المصطلحات الشرعية التي تؤصل لمفهوم التفاهة في النصوص الدينية:" اللّكع».

في حديث حذيفة: «لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع.» (حماد، 1412هـ، صفحة 203/1)

وأصل هذه اللفظة كما قال شراح الحديث، الخِسَّة والدناءة والضعف. والمقصود ضعيف الرأي أو من لا يُعرف له أصل ولا يُحمد له خلق من الأسافل والرِّعاع. (البر، 1182هـ، صفحة 135/11)

ولأن المتصدرين من ذوي المستوى المحدود والذين يمثلون نظام التفاهة فقد جاءت الإشارة إليهم في الأحاديث النبوية بوصف عدم الأهلية كما جاء في الحديث الصحيح: «إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة.» (البخاري، 1987، صفحة 33/1)

**ثانيا: عوامل ظهور التفاهة وأسباب انتشارها رؤية دينية.**

ابتداءً لا بد من أن نفرّق في دراسة أية مشكلة أو ظاهرة بين تعميم الأسباب في الحالات الفردية وبين دراسة جميع الأسباب التي أدَّت إلى انتشار الظاهرة ووقوع المشكلة. وأعني بهذا أن ظاهرة التفاهة أو أية ظاهرة سلبية أخرى لا يُقتصر في بحث أسباب وقوعها وعوامل انتشارها على بعض الأسباب، بل لا بد من النظر إلى كل هذه الأسباب مركبة وتحرِّي القاسم المشترك بين جميع هذه الأسباب.

وفي اعتقادي أنه ينبغي توزيع أسباب هذه الظاهرة وغيرها من الظواهر الأخرى إلى أصول ثلاثة:

- المنبت والمصدر المولِّد للتفاهة.
- المستقبِل والمتلقي المتأثِّر بهذه التفاهة.
- خطُّ الدفاع وجبهة المقاومة المضادة للتفاهة.

وقبل التعرض لتفصيل هذه النقاط الأساسية الثلاثة، لا بد من تقرير مسألة مهمة

في علاقة التفاهة -صناعة وترويجا ونشرا-بالباطل الذي يمثِّل جبهة الصراع وطبيعة المعركة بينه وبين الحق الذي جاء به الإسلام. فلا نحتاج إلى كثير كلام للتأكيد على أن من جملة الباطل الذي جاءت الشريعة الإسلامية بمقاومته ومدافعته، نشر المحتوى الفارغ الذي لا يبني فكرا ولا ينشر وعيا ولا يهذِّب نفسا ولا يُقوِّم خُلقا.

والإسلام في معركته مع الباطل يركِّز على هذه الجوانب الثلاثة: التحذير من أصل وجود الباطل وتجفيف منابعه واجتثاثه من جذوره، ثم تحصين النفوس والقلوب من بهارجه وزخارفه التي يؤثر بها عليها، وأخيرا إيجاد الحصانة وبناء خط الدفاع في مواجهة الباطل ودحره.

**1-المَنبت والمصدر المُولّد للتفاهة:**

لا شك أن الوسائل التي تصنع التفاهة (الباطل) مع قوتها وتأثيرها البالغ غير منحصرة في جهود شخصية تُبذل هنا وهناك من قبل المؤثرين وصُنَّاع المحتوى. فالكثرة والتنوُّع، السمة البارزة في وسائل ومصادر صناعة التفاهة. فبدءا من المشهورين والشخصيات البارزة أو الرموز الإعلامية ذات الشهرة الواسعة، مرورا بالوسائل الإلكترونية كالمنصات والتطبيقات وانتهاءً بشركات ومؤسسات مالية وإعلامية كبيرة، تلتقي جميعها لتكوّن المصدر والمولِّد للتفاهة والمُصنِّع لها. وهذه المصادر والوسائل المتعددة هدفها الأسمى وغايتها القصوى توسيع مساحة الانتشار وتحقيق أكبر جاذبية ممكنة للتأثير على مختلف الشرائح الاجتماعية. وهنا تتدخل الرغبات والأغراض والأفكار والإيديولوجيات المختلفة في إطار ما يسمى بالعولمة، وكلها تلتقي بقصد أو بدون قصد تحت هدف واحد وهو زخرفة الباطل وقلب صورته ليصير حقا، وتزييف الحق وقلب صورته ليصبح باطلا.

فلا مكان للمبادئ إذا كانت تتعارض مع رغبة الجمهور، ولا مكان للأحكام الشرعية ولا للأخلاق السوية إذا كانت تتعارض مع الإقبال الجماهيري. في حين أن التمسك بالحق وتقديم المبادئ على كل رغبة سواها، هو خلاصة منهج الأنبياء والدعاة المصلحين في الدعوة إلى الله تعالى والتأثير على القلوب والنفوس.

وإذا كانت وسائل الباطل التي استخدمها المبطلون قديما للسيطرة على المجتمعات تتمثل في القوة والبطش والحصار، والسحر والشعوذة، والإغراءات المادية المتنوعة، فهي الوسائل نفسها متجددة في أشكال وقوالب عصرية. فالقوة والبطش والحصار

اتُّخذ له الأدوات التشريعية والقانونية التي تكفل الحرية وتدافع عنها. وهي من أقوى الضمانات المحصِّنة التي تفتح الطريق واسعا أمام المؤثرين وصناع المحتوى لنشر ما يشاءون وقت ما يشاءون بالشكل الذي يشاءون. والسحر والشعوذة والتلبيس متجدد في صورة وسائل إعلامية أو آلة إعلامية ضخمة ومهيمنة ذات تأثير أقوى من تأثير السلاح نفسه.

والإغراءات المادية مالاً وجاهًا ومنصباً وشهرةً حاضرةٌ هي الأخرى، بل هي المحرِّك الأساسي لكل منخرط ومساهم في صناعة نظام التفاهة.

**2-المُستقبل والمُتلقي المتأثِّر بهذه التفاهة:**

إنه مع التسليم بقوة المصادر المولِّدة للتفاهة من حيث كثرتُها وتنوُّعُها في أساليبها ووسائلها، ما كان يمكن أن يكون لها أي تأثير أو على الأقل تأثير بالقوة والحجم الذي نراه في عالم التفاهة اليوم، لولا الضعف الذي قابل هذه القوة المُصنِّعة للتفاهة فيمن يتلقى المحتوى الذي يُقدِّمه التافهون. فالقابلية للتأثُّر على الأقل شطرُ وقوعها، ضعف المناعة والحصانة الفكرية والدينية والتربوية بشكل عام كسمة بارزة للجيل الحاضر.

ولأجل هذا نجد اهتمام الإسلام وعنايته واضحة بتنشئة الجيل والنشء في مرحلة مبكرة وتقوية مناعته ضد هذه المؤثرات الخارجية. ففي الحديث الصحيح: «مُرُوا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين وفَرِّقوا بينهم في المضاجع.» (الأشعث، 1430هـ/2009م، صفحة 185/1) وقوله ﷺ أيضا: «يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك.» (البخاري، 1987، صفحة 2065/5) وجُماع ذلك قوله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته الإمام راع ومسؤول عن رعيته والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته.» (البخاري، 1987، صفحة 304/1)

فالتنشئة على المبادئ والعقائد المحصِّنة، والأخلاق الحافظة والوعي والفكر السديد الذي يركز على الأهداف الكبرى التي تمتد إلى تحقيق السعادة في الدنيا والنجاة في الأخرى، أحد أهم الدعائم التي تتكون منها منظومة الحصانة القِيمِية والدينية التي تتكسر معها أمواج الباطل وتتبدد معها سحبه وظلماته.

إن انفتاح هذا الجيل على مواقع التواصل الاجتماعي وَوُلوجه إلى عالمه دون أن يكون متمتعا بهذه الحصانة أشبه بانتحار حقيقي، إنه أشبه بذهاب الجندي إلى المعركة بلا سلاح أو مع سلاح دون معرفة منه باستخدامه، هو أشبه برمي الإنسان نفسه في لُجَّة البحر وهو لا يحسن السباحة، لهذا كان حديث النبي ﷺ متضمنا ذلك التهديد الشديد: «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يَقُوت.» (الأشعث، 1430هـ/2009م، صفحة 132/2) وهو بعمومه شامل للتضييع المادي والمعنوي.

**3-خط الدفاع وجهة المقاومة الضمادة للتفاهة:**

إن قوة الداعين إلى التسفُّل يجب أن يقابلها قوة الداعين إلى الترفُّع. بل لا يمكن لدعاة الترفُّع أن ينتصروا أمام قوة الداعين إلى التسفل إلا بجهود إضافية زائدة على القدر الطبيعي من القوة التي يملكها دعاة التسفل (التفاهة).

والسبب في هذا أن التسفل أيسر من الترفع. فالتسفل من الناحية الطبيعية والفيزيائية أقوى ذاتيا من الترفع. فالسافل لا يحتاج إلى قوة في تسفُّله بخلاف الرفيع فيحتاج إلى قوة وبذل جهد في الترفُّع.

فالمتسفِّلة تعينهم جاذبية الأرض إذا أرادوا الإخلاد إليها، بينما أصحاب المعالي تعيقهم الجاذبية الأرضية إذا أرادوا التعلِّي والترفُّع.

فأصحاب المبادئ ودعاة الإصلاح ونشر الفضيلة إذا قاموا بالأدوار والمسؤوليات الملقاة على عاتقهم واستطاعوا مقاومة قوة تأثير مصادر توليد التفاهة وتمكَّنوا من تحصين الجيل وترسيخ بنيان القيم والمبادئ في نفوس أبنائه، فإن المعركة ستُحسم لصالحه بالتأكيد. فالأسرة هي المحضن الأساسي والأول الذي يمثل خط الدفاع الأول في مقاومة مد تأثير مصانع توليد التفاهة، إذا كانت هي الأخرى تافهة فإنها لا تنشئ إلا إفرادا تافهين، والنظام التربوي والتعليمي إذا لم يكن قائما بأعباء التربية ونشر الوعي والفكر السليم كان هو الآخر مساهما في نشر التفاهة. والدعاة والمصلحون والمثقفون إذا لم يكونوا في مستوى الدور والمكانة التي بُوِّءوا فيها أو كانوا في قطيعة فكرية وعلمية مع أبناء الجيل الذي يعيش معهم، اهتماماتهم غير وفضاءاتهم غير، وواقعهم غير... فستكون النتيجة فجوة عميقة وهُوَّة ساحقة، نفخٌ في رماد وصياحٌ في واد، وهكذا قس عليه كل من هو في مرابط في ثغر من ثغور الأمة.

ومن أروع الوصايا التي ذكرها السلف في هذا المضمار قول على رضي الله عنه:" حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله.» (البخاري، 1987، صفحة 59/1) وقول ابن مسعود رضي الله عنه:" مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً.» (الحجاج، 1334هـ، صفحة 11/1)

وهو تنبيه على شفافية لغة الخطاب ووضوحها، كما أن فيه تنبيها على شفافية مراعاة أحوال المخاطبين واهتماماتهم.

ثم إنه بالنظر إلى آثار مشكلة التفاهة ومآلاتها، نلحظ الدور المهم للأصول الدينية ومدى أهمية الرجوع إليها في تَقصِّي الحلول الممكنة لمواجهة التفاهة وتغوُّلها. فتفريغ الأمة من كلِّ معاني الخيرية والشهود الحضاري والوسطية التي أخبر عنها القرآن الكريم والسنة النبوية أحد مآلات انتشار التفاهة وتسلُّط التافهين فيها، الضعف في تحمُّل التكاليف الشرعية والقيام بالمسؤوليات الدينية الفردية والجماعية، وأخذ الكتاب بقوة كما أرشد القرآن، أحد أهم مخرجا التفاهة ومآلاتها. والخيرية التي وصفت بها هذه الأمة مرتبطة بمدى تمسكها بالكتاب وأداء أمانة التكاليف الشرعية:﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾[سورة آل عمران:110]

ولعلَّ من أخطر آثار مشكلة التفاهة ومآلاتها انتشار الشبهات ونشرها، والتأثير بها والتأثُّر بها. ومن حيث يدري أو لا يدري كثير من صُنَّاع المحتوى الفارغ والتافه لا يحسنون يفرقون بين ما هو من أصول الإيمان وما هو من فروعه فضلا عن قدرتهم على تمييز الشبهات التي يُطعن بها في المُحكمات والثوابت. وكثير من هؤلاء المغبونين مطيَّةٌ لنشر الإلحاد والوثنية والمجوسية والترويج لها. هذا بالإضافة إلى نشر الرذيلة ومظاهر الانحلال الأخلاقي في صور متعددة ومظاهر متنوعة، وهنا يأتي الدور المهم للأصول الدينية في مواجهة التفاهة وتحديدا السنة النبوية المطهرة من خلال تأسيسها لمنظومة الذوق باعتبارها أحد أهمِّ الحُلول لمعالجة مشكلة التفاهة ومواجهتها.

**المحور الثاني: السنة النبوية والتأسيس لمنظومة الذوق والآداب. تأصيل وتقعيد.**

لسنا في حاجة إلى تأكيد الصلة القوية بين انتشار الثقافة وانحسار ثقافة الذوق. إذ إن واحدا من أهم أسباب انتشار التفاهة، غياب ثقافة ذوقية. وأحد أهم الحلول في مواجهة هذا الامتداد الواسع والسريع للتفاهة، هو تعزيز منظومة الذوق وتوسيع

نطاق ثقافته. وهذا ما سنحرره في هذا المحور انطلاقا من مصادر السنة النبوية المطهرة.

**أولا: تحرير مفهوم الذوق في السنة النبوية:**

**1-الذوق، لغة:** مصدر ذاق الشيء، يذوقه ذوقاً ومَذاقاً. والذَّواق: المأكول والمشروب. ويدور معنى الذوق على الاختبار. تقول: ذُقت الطعام أي خَبَرت طَعمه. وذُقت فلانا أي خبرته وبُرته. ومنه الحديث:" ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا». كما يطلق الذوق على ما يصيبه الإنسان من الخير ويدل عليه حديث: "كانوا إذا خرجوا من عنده ﷺ لا يتفرقون إلا عن ذواق." ومعناه: ما ينالون عنده من الخير. أي لا يتفرقون إلا عن علم وأدب يتعلمونه. (منظور، 1414هـ، صفحة 112/10)

**2-الذوق، اصطلاحا:** لم يتناول الفقهاء ولا شراح الحديث تعريف الذوق بالمعنى الذي استقر عليه اصطلاح الناس اليوم، والذي يراد به جملة من الآداب المسلوكة التي تكون مناسبة للموقف الاجتماعي المعين بحيث إذا عرض على أصحاب الطبع السليم والعقل السوي استحسنوه وقبلوه. (مختار، 1429هـ/2008م، صفحة 830/1)

غير أني وجدت كلاما لابن تيمية يقترب كثيرا من هذا المعنى الاصطلاحي، حيث قرر أن الذوق ليس مختصا بذوق اللسان، بل إن استعماله في الكتاب والسنة يدل على أنه أعمُّ من ذلك. فهو مستعمل أيضا في الإحساس بالمُلائم والمنافر. (تيمية، 1987، صفحة 285/5)

فالذوق كما تدل عليه عبارته، يعني التمييز بين ما يكون ملائما من المناهج والأحوال فيُلتزم، وبين ما يكون منها مُنفّرا وغير ملائم فيُترك.

**ثانيا: تحديد معالم الذوق في السنة النبوية.**

إن الذوق الذي أسّس له الإسلام من خلال النصوص النبوية الكثيرة، قولا وفعلا وتقريرا، لا يمكن أن تحويه عبارة أو تحيط به مجموعة من النُّظم واللوائح. فهو يساير المسلم في كل شؤونه وجميع أحواله. فحركاته وسكناته، صمته وكلامه، فعله وتركه فكره وثقافته، عبادته وشعائره، معاملاته مع الكون والخلق، ظاهره وباطنه...

فالذوق على هذا، كالنور يشِعُّ ليشمل العقل والقلب والروح والبدن. ونظرة شاملة

لأحكام الإسلام ونصوصه تؤكد الحضور القوي للذوق بالمعنى الذي ذكرناه سابقا أي الطريقة المحمودة في جميع تفاصيل الشريعة وجزئياتها.

فالتهيؤ للصلاة بالطهارة والوضوء، ومس الطيب، ولبس أحسن الثياب، وأخذ الزينة ودخول المسجد، وعدم رفع الأصوات داخل المساجد ولو بقراءة القرآن، وعدم تخطي الرقاب والجلوس حيث انتهى به المجلس، واجتناب أكل الثوم والبصل والكراث ومثله كل ما يؤذي عرقاً أو تبغاً أو بَخَرُ الفم وتغير رائحته... كلها معان ذوقية راقية.

المعاملة التي يجب ألا تكون إلا حسنة في سائر المواقف الاجتماعية كأصل عام وقاعدة أساسية في التعامل، شاهد من شواهد مراعاة الذوق.

ومن أمثلة ذلك من السنة النبوية:

-حديث: «لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبه في جداره.» (البخاري، 1987، صفحة 869/2) وهذا الحكم وإن كان على سبيل الاستحباب، إلا أن هذا الإرشاد النبوي هو غاية ما يمكن أن يصل إليه تشريع أو توجيه يؤكد على مراعاة الذوق في التعامل.

-حديث سهل بن سعد الساعدى: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-أتى بشراب فشرب منه وعن يمينه غلام وعن يساره أشياخ. فقال للغلام: «أتأذن لى أن أعطى هؤلاء». فقال الغلام: لا والله لا أوثر بنصيبى منك أحدا. قال: فتَلَّه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-في يده. (البخاري، 1987، صفحة 865/2) (الحجاج، 1334هـ، صفحة 113/5)

ويظهر مراعاة هذا الذوق في استئذان النبي ﷺ من صبي، لكنه كان صاحب حق لصالح من شاب في الإسلام، وأين منزلة هذا الغلام الصغير من منزلة أولئك الذين قدموا الخدمات الجليلة والتضحيات العظيمة لنصرة الإسلام والدفاع عنه، بل لعل هذا الصبي حسنة من حسناتهم، لكنه الذوق في المعاملة الذي لم يشفع لتركه، مكانة القوم وسابقة أثرهم في الإسلام. وفعله هذا ﷺ يمكن أن يكون شاهدا على أهمية التزام الإنسان بمكانه في الدور أو في الطابور على نحو تعززه ثقافة العصر الذوقية.

إن مراعاة الذوق في تصرفات النبي ﷺ وحرصه عليه تجاوزت أتباعه من المسلمين إلى غيرهم من الكفار والمشركين، بل المعاندين والمحاربين منهم.

لما جاء عتبة بين ربيعة مبعوثا من طرف قريش يحاور النبي ﷺ ويساومه في التخلي عن دعوته، قال له: أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل بعضا منها. فقال له النبي ﷺ قل يا أبا الوليد أسمع...الحديث. وهذا هو موطن الشاهد في تكنية النبيﷺ لعتبه، وعادة المناداة بالكنية عند العرب الإكرام والتبجيل كما قال قائلهم: أكنيه لأكرمه ولا أُلقِبه والسَّوءة اللقب.

وصريح القرآن يرسِّخ هذا الذوق الذي التزمه النبيﷺ في هذا المضمار. يقول تعالى:﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[العنكبوت:46]

فالذوق في الإسلام شعار لا يمكن استقصاء جميع أمثلته ولا الإحاطة بجميع موارده، فهو شعار الدين وخلاصة التمسك بالإسلام، وكلُّ تفاصيل الإسلام أصولا وفروعا داعيةٌ للتمسك بالذوق.

وفي اعتقادي أن أهم ما يمكن اعتباره مؤسسا لثقافة الذوق في مضامين السنة النبوية ما تعلق منها بالجانب العقلي والفكري والروحي، لأنه وبالنظر إلى أسباب التفاهة وعوامل انتشارها أسباب يمكن إرجاعها إلى ضعف من ناحيتين: ضعف عقلي وضعف إيماني وروحي.

فمحدودية المستوى الفكري والعقلي والعلمي، والتردي الأخلاقي والانحطاط الإيماني، أظهر ما يميز التافهين.

والبحث عن علاج هذين الضعفين في نصوص السنة من خلال تلمس معالم الذوق منها استهدافا لبناء الشخصية الإسلامية الفاعلة والمؤثرة بشكل إيجابي أحد أهم المقاصد الشرعية والغايات الدينية التي راعتها السنة المطهرة.

**المحور الثالث: بناء الشخصية المسلمة من خلال منظومة الذوق النبوية**

إن إحكام البناء العقلي والفكري والروحي أجد أهم مقومات الشخصية الإسلامية التي استهدفتها السنة النبوية من خلال تكريس ثقافة الذوق والتأسيس لها، إبعادا للمسلم عن السَّفاسف وربطه بمعالي الأمور.

**أولا: البناء العقلي والفكري من خلال منظومة الذوق النبوية.**

إن المنطلق الذي ينطلق منه الإسلام في بناء العقل وتشييد البناء الفكري الذي يصون الفرد من الأزمات الداخلية (الذاتية) ويمنعه من إحداث الأزمات في الواقع من

حوله، دعوته إلى العلم وحثه على طلب النافع منه. لأن واحدا من مظاهر الانحراف التي تميز أصحاب التفاهة، انحرافهم عن أداء الرسالة الوجودية التي كُلِّفوا بها وهي حمل الأمانة وتحقيق معنى الاستخلاف في الأرض بتعمير هذه الأرض ونشر دين الله تعالى وتحكيم شريعته.

ويستهدف الإسلام من خلال دعوته إلى العلم، حماية العقل من المؤثرات أو المبددات التي تجرد العقل من أهميته وأولوياته، وأعظم أولوياته أداء الرسالة التي كُلِّف بها، وهي حمل الأمانة. يقول تعالى:﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:72].

وأعظم مظاهر حمل هذه الأمانة، عمارة الأرض وتحقيق معنى الاستخلاف الذي جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود:61] وقوله تعالى:﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:14]، وصولا إلى أعظم النتائج والغايات من أداء الأمانة وهي التهذيب والتزكية والهداية والتعليم في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[الجمعة:2].

ولا أجد في هذا الموضع ما يدعو إلى إيراد النصوص الشرعية -خاصة من السنة النبوية-التي تدعو إلى العلم وتُمجِّده وتحث على طلبه إلا ما يُعزِّز الذوق الذي أسست له السنة النبوية إجمالا في تحقيق مقصد البناء العقلي والفكري.

فقد دعت السنة النبوية إلى تحصيل العلم النافع، وكان من دعوات النبي ﷺ الثابتة:" اللهم إني أسألك علما نافعا..." (القزويني، 2009، صفحة 85/2)

كما صحَّ عنه تعوذه من العلم الذي لا ينفع. لأن من علامات العلم النافع التزهيد في الدنيا والتعلق بأحبالها والركون إليها. وأحد عوامل انتشار التفاهة زيادة على الجهل وعدم الاهتمام برفعه عن طريق تعلم العلم النافع، اللَّهث وراء الدنيا وحطامها مالا، وشهرة، وسمعة، وصيتا ذائعا...الخ. ولن يكون العلم نافعا إلا إذا ترجمه صاحبه واقعا عمليا، فالعلم الذي لا يهذِّب خلقا، ولا يربي نفسا، ولا يُقوِّم سلوكا من قول أو فعل، ولا يجنب من الردى ولا يرفع من خِسَّة لا خير فيه أبدا. ومن الحكم العطائية:" العلم

النافع هو الذي ينبسط في الصدر شعاعا ويكشف به عن القلب قناعه، خير العلم ما كانت الخشية معه والعلم إن قارنته الخشية فلك وإلا فعليك."

وخير منه قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:28]

إن الحصن المنيع والسَّدَّ الحصين الذي يقف في مواجهة موجات الظلم والإلحادية والزندقة والفساد بكل صوره وأولانه هم العلماء. العلماء الذين يحفظون على الأمة عقلها، الذين يجنبونها الزيغ والتردي في مهاوي الانحطاط وأودية الضلال. العلماء هم الذين يحفظون على الأمة أمنها الفكري والديني والاجتماعي حتى لا تضيع هويتها وتنسلخ من شخصيتها. ولأجل هذا عظّم الإسلام مكانة العلماء وبيّن رفعتهم وعلو منزلتهم في كثير من النصوص. يقول النبي ﷺ:" العلماء ورثة الأنبياء.» (الترمذي م.، 1395هـ/1975م، صفحة 48/5)

وبذوق في منتهى الروعة والكمال يضرب النبي ﷺ مثل المُقبلين على العلم والمُدبرين عنه كما في حديث أبي موسى: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به.» (البخاري، 1987، صفحة 42/1)

إن الإخصاب الذي يعود بالخير على الإنسان والنفع على الحيوان كما يحصل بالإنبات في الأرض الطيبة التي استقبلت المطر الكثير وانتفعت به، يكون كذلك في النفوس الطيبة التي استقبلت الهدى والعلم النافع الذي جاء به الأنبياء والمرسلون، فلا يصدر منها إلا خيرا ولا يخرج منها إلا نفعا، وأبعد ما تكون هذه النفوس عن مواطن السفاهة ومواضع التفاهة والحقارة كحال الأرض المجدبة التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فلا هي انتفعت ولا هي نفعت.

إن أعظم جناية قد يجنيها الإنسان على نفسه قُعُوده عن طلب العلم والترقي في مدارجه، فلا آفة مُفسِدة تعدل إفساد الجهل، ولا مفسدة مهلكة أعظم من مفسدة الجهل على صاحبه. وقد جاء في السنة النبوية ما يؤكد هذا المعنى كما في قصة قاتل

تسعة وتسعين نفسا، لما سأل عن أعلم أهل الأرض فدلّوه خطأ على عابد فلم ير له توبة لجهله فقتله كمّل به تمام المائة، ثم دلّوه على عالم فقال له: ومن يحجب عنك باب التوبة...الحديث. (الحجاج، 1334هـ، صفحة 103/8) فأفتاه العالم بما نفع السائل الجاني وبما كان فيه نجاه لنفسه من شره وأذاه.

ويظهر الأثر الطيب للعلم النافع في مواجهة التفاهة في جملة من الآداب والذوقيات في هدي النبي ﷺ:

-الاشتغال بالنفس وترك ما لا يعني صاحبه. وقد كان رسول الله ﷺ كما رُوي في شمائله: يَخْزُنُ لسانه إلا فيما يعنيه.» (الآجُرِّي، (1420هـ/1999م، صفحة 1508/3) وهذه الحال التي كان عليها النبي ﷺ يفسِّرها كثرة صمته وترغيبه فيها. فعن سماك قال: قلت لجابر بن سمرة: أكنت تجالس النبيﷺ قال نعم وكان كثير الصمت.» (الترمذي م.، بدون، صفحة 373/1)

ولو أن هذا الخلق كان شائعا ومنتشرا لما اصطدمنا بهذا الركام والكمّ الهائل من التفاهات والسفاهات، في الحديث: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفع الله بها درجات وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم.» (البخاري، 1987، صفحة 2377/5)

-كان مجلس رسول الله لا تُؤبَن فيه الحُرُم. والمعنى لا يذكرون بقبيح. فمجالسه مجالس علم وحلم، لا مكان فيها للهفوات ولا لفلتات اللسان وسقطات سائر الجوارح.

-كان رسول الله صيّن اللسان عن الزجر وذم الغير وعيبهم أو السخرية منهم والاستهزاء بهم. يقول أنس: « خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أف ولا لم صنعت؟ ولا ألا صنعت." (البخاري، 1987، صفحة 2245/5)

إن التزام هذه الآداب الراقية التي تدل على ذوق رفيع، خطوة مهمة وأساسية في إصلاح ما أفسدته التفاهة ورَأْب الصَّدع الذي أحدثته في الأخلاق والسلوك والأفكار.

**ثانيا: البناء الروحي من خلال منظومة الذوق النبوية.**

إن أهم ما يميز الشريعة عن غيرها من الشرائع والنظم الأخرى، توازنها في العناية بالجانب المادي والروحي في بناء النفس السوية. وحالة الشطط التي أوقعت في الإفراط والتفريط في تغليب أحد المطالب على الآخر، كان بسبب غياب هذه النظرة التوازنية

التي ميزت الشريعة الإسلامية عن غيرها.

والذي نعنيه بالبناء الروحي في هذا المقام، الاهتمام بكل ما يزكي الروح ويهذِّب النفس. فغرس معاني الخير والرشاد، تقوية العزائم والإرادات في المساعي الكريمة والغايات النبيلة، تهذيب الغرائز، والتحرير من تسلط الشهوات وعبادة اللذات، الترفُّع عن المحرمات والمنكرات، التطهر من القبائح والفواحش...الخ، كلها معالم أسَّس الإسلام من خلالها للبناء الروحي.

إن الروح النقية المُهذَّبة لا تقبل أن تأتي ما ينال من طُهرها ونقائها. فمظاهر الإسفاف وصفات الرداءة والانحلال والعبثية أبعد ما تكون منها.

وهؤلاء التافهون إنما أُتُوا من قبل هشاشة بنائهم العقلي والفكري والروحي. ولو رجعنا إلى سنة النبي ﷺ لوجدنا كثيرا من النصوص المُؤصّلة للذوق والتي تنعكس آثارها على الروح صفاءً وارتقاءً وعلى الأفعال والمواقف رفعةً وسناءً.

ويمكن الإشارة إلى طائفة من هذه الذوقيات النبوية في تصفية الروح وبنائها:

**1-تعميق الإيمان وترسيخه في النفوس:** فالإيمان كما هو معلوم أساس البناء الروحي أو التربية الروحية. ولا يمكن بحال أن تتهذب نفس أو تصفو روح في غيبة الإيمان. وشوارد النفوس التي هانت وضيعت خطامها وأفلتت زمامها فوقعت في كل كريهة وواقعت كل جريرة، أصبحت هي النفوس العظيمة مضربا للمثل في الأخلاق والسلوك والحكمة والعقل لما امتزجت عروقها ودماؤها بمعاني الإيمان السامية. وهذا الذي أكدته الأحاديث النبوية الكثيرة:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت.» (البخاري، 1987، صفحة 2240/5)

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.» (البخاري، 1987، صفحة 14/1)

«الإيمان سبعون أو اثنان وسبعون بابا أرفعه لا إله إلا الله، وأدناه إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان.» (الحجاج، 1334هـ، صفحة 63/1)

وهكذا لا نجد وصفا يُثنى به على صاحبه ولا خُلَّة يمدح بها صاحبها إلا وخُتمت

بالإيمان. والحلقة المفقودة اليوم في شيوع مظاهر التفاهة والانحراف، ضعف الإيمان وهشاشته في القلوب.

**2-إيثار الباقي على الفاني:** تنبني نظرة الإسلام في تربية الروح بعد الإيمان على توجيه الإنسان إلى سلوك مسالك الحكمة ووضع الأمور في مواضعها المناسبة.

فالشهرة والغنى وكثرة المال من مكتسبات الحياة الدنيا، ليست هي المعيار الحقيقي للنجاح، ما لم يتوّج صاحبه بالمنزلة الرفيعة في الآخرة، وقد قال الله تعالى مخاطبا نبيه:﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾[الضحى:4]

وقال في عموم خطابه:﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى:16-17]

والأمر المجمع عليه على الأقل عند أهل الإسلام، أن من اعتلى قمم النجاح الدنيوي والأخروي هو نبينا الكريم صاحب الذوق الرفيع، مع الأخذ في الحسبان أن حياة النبيﷺ كلها لأواء وشِدَّةٌ وكَبَدٌ. ولم تكن حياته المادية بتلك الحياة اللافتة مقارنة بمن هم دونه من الملوك وأصحاب العروش. ولهذا لما مرّ عليه عمر بن الخطاب وكان قد أثّر الحصير على جنبه قال قولته المشهورة الخالدة: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟» قال عمر: بلى. (البخاري، 1987، صفحة 1866/4)

ولو شاء عليه الصلاة والسلام أن تسير معه جبال مكة ذهبا لسارت، «إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، فاختار ما عنده.» (البخاري، 1987، صفحة 1417/3)

وهذا الإيثار منه ﷺ ربط للروح بالحقائق العالية والمعاني السامية، هذا مع أن امتلاكه للدنيا بالطريق المباح والمشروع، ومع ذلك آثر ما عند الله تعالى، فكيف إذا كان الفاني حراماً وسُبُل الوُصول إليه محرمةُ وسيلةً ومقصداً.

**3-الإشادة بالعمل والحث عليه:** فقد سبق وأن أشرنا إلى أن أعظم آثار انتشار التفاهة واتساعها، إهدارها لقيمة العمل باعتباره الوضع الطبيعي أو المشروع للتكسُّب وتحقيق النجاح خاصة المادي. وعلى النقيض من هذه النظرة المزهّدة في العمل والمهدرة لقيمته، نظرة الإسلام المرغّبة في العمل لمكانته والمقدّسة له. ولهذا ارتبط مفهوم العمل ومكانته في النصوص الدينية خاصة النبوية بالجهاد والقرب من

الله تعالى. «إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله، وإن خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج رياء وتفاخرا فهو في سبيل الشيطان.» (الطبراني س.، بدون، صفحة 56/7)

وأخبر النبي ﷺ أن أطيب الطعام ما اكتسبه الإنسان بيده: «ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يديه.» (البخاري، 1987، صفحة 730/2) وقال: «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم.» (الترمذي م.، بدون، صفحة 631/3)

ثم يربط بين العمل وبذل الجهد فيه وبين العزة والكرامة النفسية، فيقول: «والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلا فيسأله أعطاه أو منعه.» (البخاري، 1987، صفحة 533/2) وأخبر تأكيدا على هذا المعنى أن اليد العليا خير من اليد السفلى. وفي حياته ﷺ ما يؤكِّد هذه الإرشادات والتنظيرات القولية، حيث اشتغل بالتجارة، وأجّر نفسه لأهل مكة يرعى أغنامهم على قراريط...

ونختم بالقول أن واحدا من أعظم أسباب قمع التفاهة وقايةً وعلاجاٍ، إعلاءُ قيمة العمل وإعطاؤه القيمة التي يستحقها.

**4-تنمية المسؤولية والشعور بالواجب:** إن إذكاء شعلة الشعور بالمسؤولية واستشعار المهمات والأدوار الواجبة بمقتضى العقد الاجتماعي الذي يربط الشخص بغيره من أبناء مجتمعه الصغير والكبير (أعني المجتمع الإنساني)، من أقصر الطرق لمواجهة ظاهرة التفاهة.

التافه خِلوٌ من كل مسؤولية، فارغٌ من كل واجب يدفعه إلى تقديم النافع ومشاركة الخير مع الآخرين. شعاره الذي يسعى دائما وأبدا لإعلائه، المصلحة الخاصة (المادية وفقط)، أما المصلحة العامة، المصلحة الدينية والمعنوية (التمسك بأصول الدين ومبادئ الصلاح والرشاد ومعاني الخير،) فليست من اهتماماته ولا تندرج ضمن قائمة مسؤولياته وواجباته.

**وهذا المعنى تُصوّره لنا ذوقياتٌ كثيرةٌ في سنته:**

-ضرب النبي ﷺ مثالا لما ينبغي أن يكون عليه الفرد المسلم في المجتمع: «مثل القائم

على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا.» (البخاري، 1987، صفحة 882/2)

5-تعظيمه لشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وأولى من الأمر الالتزام: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده، ثم لتدعونه ولا يستجيب لكم.» (الترمذي م.، 1395هـ/1975م، صفحة 38/4)

6-إرشاده إلى أن المجتمع وأفراده لحمة واحدة: وهذا ما ترجمته أحاديث كثيرة عنهﷺ «مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.» (الحجاج، 1334هـ، صفحة 20/8)

ولهذا نقول: إن واحدا من أهم أسباب هذا الانحدار والانحطاط والسفول نحو الهاوية والتردي في دركاتها، ضُعفُ هذا الشعور بالواجب والمسؤولية تجاه المجتمع الذي ينتمي إليه هذا الإنسان، وهذا الذي عمل على تحقيقه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

**الخاتمة:** في خاتمة هذه الورقة البحثية نشير إلى أهم نتائج البحث وتوصياته.

**أولا: النتائج.**

1-أهمية الأصول الدينية في ضبط المسار الأخلاقي للأفراد والحفاظ على البناء القيمي للمجتمع.

2-التفاهة مصطلحا ومضمونا حاضرة بشكل لافت في كلام النبي في مصطلح الرويبضة والسفيه والسِّفلة والغثائية واللُّكع...

3-مصطلح الرويبضة الوارد في كلام النبي والذي يتجلى فيه معنى التفاهة أدق وأعمق دلالة وتوصيفا، فهو كناية عن العاجز الذي ربض عن معالي الأمور وقعد عن تحصيلها.

4-تتوزع أسباب انتشار ظاهرة التفاهة وعوامل ظهورها على مستويات ثلاثة: على

مستوى المنبع المولّد للتفاهة، وعلى مستوى التلقي والاستقبال لها، وثالثا على مستوى جبهة المقاومة وخط الدفاع.

5-ارتباط التفاهة شكلا ومضمونا وأسبابا ووسائل بالباطل الذي جاءت الشريعة الإسلامية بمواجهته ومقاومته.

6-حَوَت السنة النبوية المطهرة في جميع أبوابها ومجالاتها قولا وفعلا ومواقف متعددة، منظومة متكاملة للتأسيس لثقافة ذوقية فاعلة ومؤثرة.

7-كثير من الأحكام الشرعية في السنة النبوية تؤكد الحضور القوي للذوق الذي يعني سلوك الطريقة المحمودة في جميع تفاصيل الحياة وشُعَبِها.

8-الذوق في الإسلام شعار ونُور إشعاعٍ لا يمكن الإحاطة بجميع مصادره ومواضع تجلياته، فهو شعار الدين وخلاصة التمسك بالإسلام.

9-استهدفت منظومة الذوق النبوية بناء الشخصية المسلمة وإعدادها روحيا وعقليا وفكريا وتربويا مما يُحصِّنها من جميع مظاهر التفاهة وثقافة السفاهة.

**ثانيا: التوصيات.**

- العمل على ترسيخ المقومات الدينية للفرد وتعزيز بنائه الأخلاقي والروحي والعقلي والفكري. وهذا يتطلب جهودا متظافرة بالتنسيق مع جميع أطياف الفاعلين في المجتمع على المستوى المؤسسي والفردي.

- تعزيز دور المؤسسات التربوية والتعليمية بدءا من الأسرة ثم المسجد والمدرسة مع إعطاء أولوية فائقة للجانب الإعلامي الذي يجب العمل على جعله وسيلة من وسائل نشر ثقافة الذوق في المجتمع.

-كما أن للاهتمام بالجانب التشريعي والقانوني لمقاومة سيول التفاهة وتجفيف منابعها الدور الموازي الذي يجب العمل على تعزيزه وترسيخه.

**قائمة المراجع:**


1-أحمد بن حنبل. مسند الإمام أحمد بن حنبل. (بلا تاريخ). دار الحديث -القاهرة: دار الحديث -القاهرة.

2-أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّي. ((1420هـ/1999م). الشريعة. الرياض: دار الوطن.

3-أبو داود، سليمان بن الأشعث. (1430هـ/2009م). سنن أبي داود. بيروت: دار الرسالة العالمية.

4-أحمد بن حنبل. (1416 هـ -1995 م). مسند أحمد بن حنبل. القاهرة: دار الحديث.

5-أحمد بن محمد الهروي. (1999). الغريبين في القرآن والحديث. تحقيق: أحمد فريد المزيدي. (الطبعة الأولى). المملكة العربية السعودية: مكتبة نزار مصطفى الباز.

6-إسماعيل بن حماد الجوهري. (1987). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. بيروت: دار العلم للملايين الطبعة الرابعة.

7-القاسم بن سلام. (1964). غريب الحديث. (الطبعة الأولى). حيدر آباد-الدكن: مطبعة دائرة المعارف العثمانية. ( 154/3).

8-تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية. (1987). الفتاوى الكبرى. بيروت: دار الكتب العلمية.

9-زين الدين محمد بن علي بن زين العابدين الحدادي. (1988). التيسير بشرح الجامع الصغير. الرياض: مكتبة الإمام الشافعي.

10-سليمان بن أحمد الطبراني. (1983 م). المعجم الكبير. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

11-سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير الطبراني. (بدون). المعجم الأوسط. القاهرة: دار الحرمين.

12-شهاب الدين فضل الله بن حسن بن حسين التوربشتي. (1429هـ/2008). الميسر في شرح مصابيح السنة. بيرو1: مكتبة نزار مصطفى البا.

13-عبد الحميد، أحمد مختار. (1429هـ/2008م). معجم اللغة العربية المعاصرة. بيروت: عالم الكتب.

14-عبد الرزاق بن همام الصنعاني. (1403هـ). المصنف. بيروت: المكتب الإسلامي.

15-مجد الدين المبارك بن محمد ابن الأثير. (1399هـ/1979). النهاية في غريب الحديث

والأثر. تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي. بيروت: المكتبة العلمية.
16-محمد بن إسماعيل البخاري. (1987). الجامع الصحيح المختصر. بيروت: دار ابن كثير.
17-محمد بن عبد الله الحاكم. (1417هـ -1997 م). المستدرك على الصحيحين. القاهرة: دار الحرمين.
18-محمد بن علي بن الحسن بن بشر الحكيم الترمذي. (بدون). نوادر الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. بيروت: دار الجيل.
19-محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي. (1395هـ/1975م). سنن الترمذي. مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.
20-محمد بن محمد بن عبد الرزاق الزبيدي. (1414هـ/1994م). تاج العروس من جواهر القاموس. بيروت: دار الفكر.
21-محمد بن منظور. (1414هـ). لسان العرب. بيروت الطبعة الثالثة: دار صادر.
22جمحمد بن يزيد ابن ماجه، القزويني. (2009). سنن ابن ماجه. بيروت الطبعة الأولى: دار الرسالة العالمية.
23-مسلم، بن الحجاج. (1334هـ). المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. بيروت: دار الجيل.
24-نعيم بن حماد. (1412هـ). الفتن. القاهرة: مكتبة التوحيد.
25-يوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد البر. (1182هـ). التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد. المغرب: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية.
26-يوسف، أحمد. (2023م). مقاومة التفاهة. بيروت: دار منار الفكر.

# القيم الإسلامية في مواجهة تفاهة وسائل التواصل الاجتماعي
# قراءة نقدية في الواقع المأزوم

# Islamic Values in the Face of the Triviality of Social Media a Critical Reading of the Crisis-Stricken Reality

**د. قادري آسيا**
**المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة**

**1/ فاتحة القراءة: وسائل التواصل الاجتماعي، وجود لا يمكن إنكاره.**

بداية لا بد للبحث أن يحدَد مسلمة من مسلمات ظاهرة هذه الدراسة احتواء بإنجازاتها، وتحديدا لمسار وموقع وجودها في حياتنا، واعترافا بعجز الإنسان أمام هذا الانفتاح السائل، والفضفاض الذي لا حدود له؛ وهي سيطرة وسائل التواصل الاجتماعي بتكنولوجيتها وسرعتها في التطور على جميع ميادين حياتنا، وإن البحث في تأكيده لهذه المسلمة لا ينفي أن التكنولوجيا هي منعطفا حاسما وحيويا في تاريخ البشرية؛ وهي قد انتقلت بالبشرية من مرحلة البطء إلى مرحلة السرعة والدقة والوفرة والتحكم والسيطرة...؛ سرعة التواصل، ودقة ووفرة المعلومة، والسيطرة على مجال العمل بكل أبعاده، وذلك كله بفضل تكنولوجيا المعلومات وما توفره من إمكانات اقتصادية سياسية ثقافية تاريخية اجتماعية ....تمكن أرباب الأعمال من المشاركة ذات فاعلية على أعلى مستوى من التوسع والسرعة في الانتشار، والتحكم في الإنتاج والمستهلك والتخطيط للربح، إضافة إلى ذلك عُبدت وسائل التواصل الاجتماعي طرق الحياة بتقليص المسافات، بعد ما كان الإنسان لا يبلغها إلا بشق الأنفس، فأصبح ميدان تكنولوجيا المعلومات، وميدان استعمال وسائل التواصل الاجتماعي، هما أكثر الميادين المتاحة للتواصل الأفضل، والأسرع.

ولعل النظر إلى هذه الإيجابيات سواء بالنسبة للإنسان الباحث فيما تمنحه تكنولوجيا المعلومات من مواقع البحث، وتيسير الوصول إلى المعلومة، وعقد تواصله بينه وبين محيطه، أو الإنسان العادي وما تتيح له وسائل التواصل الاجتماعي من التعرف على العالم، وهو في مكانه الطبيعي، وأن يساير الأحداث السياسية أو الاجتماعية والثقافية، أو التاريخية ...أو كل ما يحيط به من أحداث يومية حول العالم،

هي بمثابة تأكيد على قوة إيجابيات هذه المنحة البشرية، وهي جائزة تشهد بالفعل على قوة العقل البشري، وبأن الفضل في تسهيل التواصل في عصرنا الحالي يعود إلى هذه النافذة، نافذة استعمال وسائل التواصل الاجتماعي، والتطور التكنولوجيا الدقيق والمتسارع.

من أجل ذلك، لا يمكن أمام هذه المسلمة أن نكابر، وننكر فضل هذا المنجز البشري، وبأن وسائل التواصل الاجتماعي/ والتكنولوجيا المعلومات سيطرت على حياتنا، وفرضت وجودها والانسحاب منها لم يعد سهلا؛ فهذه الظاهرة، ظاهرة مواقع التواصل الاجتماعي واستعمالها اليومي، كلما بعدت عنا وارتحلنا عنها، كلما بدت أكثر ظهورا والتصاقا بواقعنا، لتصبح إشكالية معقدة حين تتصادم مع القيم الإسلامية، وندخل في مأزق الاستعمال الغير الواعي لهذه الوسائل، الذي «التصادم» أدى بالإنسان أن يفقد قيمته الإنسانية ويصبح خاضعا لها، وخاضعا لأهواء تفكك العلاقة بينه وبين دينه، فالجانب المظلم في استعمال وسائل التواصل الاجتماعي أنها أخذت تتجه نحو تصغير قيم الدين الإسلامي بتبنيها وعرضها لمظاهر وبرامج وشخصيات... غايتها أن تحدث سلطة ببهرجتها وألوانها تمزق بها كل ما هو ذا قيمة إنسانية، وتعطل كل ما هو ديني؛ والقيم هنا ليست مجرد كينونات مجردة، بل هي الفعل الذي يجعل الإنسان إنسانا، وهي ((القيم التي يتشرف الإنسان إلى تحققها في سلوكيات عينية تحس وتجس، القيم التي يدعو إليها الرسل والأنبياء)) (إزيا برلن، 2013)وهي قيم تحدَ من حدود حريته لتحفظ كرامته الإنسانية من كل فعل ذميم، أو ابتذال يشوه إنسانيته وينحرف به عن جادة الصواب.

لتصل وسائل التواصل الاجتماعي بالإنسان العربي والمسلم بالخصوص إلى مأزق اختل فيه توازنه بين استعمال يومي لوسائل فرضتها حداثة غربية معاصرة مضطربة، لا قانون أخلاقي يحكمها، ولا قوانين إنسانية تلتف حولها، وبين دينه ذا مرجعية تاريخية وقيم إنسانية سامية، وبين ابتذال وسائل التواصل الاجتماعي، وسمو القيم الإسلامية يدخل العربي المسلم في حالة صدام وصراع يومي، أي في حالة فقدان التوجه إلى الطريق السليم، الطريق الذي يسلم فيه الإنسان من تفاهة الاستعمال غير الواعي لهذه الوسائل التكنولوجية، ولعل السؤال الذي يحمل عبئ هذه الإشكالية والذي يفرض نفسه في واقع مضطرب هو: كيف تواجه القيم الإسلامية هذه المحنة التاريخية في مقابل وسائل معاصرة لا قانون أخلاقي يحكمها سوى قوة انتشارها،

وتأثيرها القوي؟، ومتى يمكننا الاطمئنان لهذا الانفتاح؟، وكيف يمكن أن نحصن أنفسنا ضد تفاهتها؟

**2/ تفاهة وسائل التواصل الاجتماعي، والقدوة المبتذلة.**

إن محاولة التحري عن إجابة لهذا السؤال، تنبهنا إلى أنها تتفرع على العديد من التخصصات الإنسانية؛ لأنه سؤال ينفتح على التاريخ، والاقتصاد والتربية والأمور النفسية والأمور الدينية والثقافية التي تدخل في تركيبة شخصية الفرد والمجتمع العربي المسلم، الذي له من الخصوص ما يجعله يعاني من تفاهة هذه الوسائل أكثر من المجتمعات الأخرى، وهو قد تضرر ويتضرر منها، و((التفاهة مرحلة من مراحل التدهور التي لا مناص من المرور بها قبل الوصول إلى قاع الهاوية الحضارية، مرحلة تغييب للإنسان عن حقيقة وجوده، مرحلة فيها مسخ هويته وتزييف معتقداته وانحلال دافعيته وهبوط عزيمته نحو رسالته السامية التي أقره الله عليها في الأرض)) (عطية، 2023، صفحة 5)، وما التفاهة التي انطبعت بها وسائل التواصل الاجتماعي إلا منهجا يسلخ الإنسان من إنسانيته، ويبعده عن قيمه الإسلامية، بذلك يفقد التوجه نحو الطريق السليم.

ولعل في اتساع أسباب إحداث هذه الإشكالية الإنسانية وتعددها، يفرض على البحث أن يشير إلى أهمها، ويكتف بأخطر سبب، وهو: غياب القدوة الحسنة، وإبدالها بقدوة مبتذلة متصنعة، صنعتها شخصيات افتراضية وهمية ((في زمن تنحت فيه الواجبات الحقيقية وتنحى فيه رجالها ليقوم مكانهم دور الأعمال الوهمية والأحلام الطفولية)) (عطية، 2023، صفحة 5)، هذه القدوة تعتمد على الإغراء المادي؛ إبعاد تام للجانب الروحي، عارية من الصفات الأخلاقية، ومتخفية في ثوب التطور، وخدمة الإنسانية، ومبهرجة تستقطب كل الفئات العمرية، تشل الحركة الذهنية العقلية بسرعة إثارتها للشهوات والغرائز وكل ما هو وهمي، وهي قدوة مثلما نرى غير ثابتة إلا من حيث هدفها في إفساد كل ما إنساني أخلاقي، وخلخلة القدوة الأخلاقية الإسلامية،((كل هذا ينبئ عن أياد تزحف لتفرض واقعا للتفاهة، أياد تعمل في ميادين شتى لتصل بالإنسان إلى هذا الشكل الممزق لتصفه في مصاف غير الآدميين)) (عطية، 2023، صفحة 18)، وبهذا تحقق نوع من السيطرة والتحكم في كل ما هو مرئي وتكنولوجي متاح للجميع دون قيد أو شرط، وهذا حال من يفقد قدوته في الحياة، ويستبدل الخير بالأدنى.

إن المكانة التي أعطيت لوسائل التواصل الاجتماعي والتعامل معها في حياتنا دون وعي منا، هي أشبه بالسكين اخترع ليساعد الإنسان في أعمال معينة، لكنه أعطي لمجنون لا عقل له، فلنا أن نتصور كيف يكون حاله وحال من حوله؟؟؟ !!! وهو لا يحس ولا يدرك بأنه يجانب الصواب في استعماله، كذلك وسائل التواصل الاجتماعي بسلبياتها دخلت العقول قبل البيوت وتملكت النفوس، واستولت على أوقات انشغالنا وفراغنا، وأضحت هي شغلنا الشاغل، وسلبت خصوصية التواصل الإنساني الطبيعي بين الناس، وأفقدت خصوصية التواصل بين الناس وبين الأشياء أيضا، وأفسدته بالاكتفاء بعملية التواصل عبر الوسائل الاجتماعية، مما أدى في الكثير من الأحيان إلى سلب الحياة ذاتها.

فالاستعمال المفرط للعالم الافتراضي أدى إلى جفاف وفتور في العلاقات الأسرية، وبتر في العلاقات الاجتماعية أيضا، فمن وسائل التواصل الاجتماعي إلى قطع الصلة بكل ما هو اجتماعي أسري، أصبحت وسائل التواصل ما هي إلا وسائل لقطع العلاقات الاجتماعية، ما يجب إدراكه إنه عالم افتراضي، يختلف عن الحياة الطبيعية ولا يوازيها في جانبها الإنساني، التي منبعه وأساسه العلاقات الإنسانية بروحها ووجودها المادي والمعنوي.

زد على ذلك، فبنظر إلى محتواها نجده متضاربا متناقضا، وأخطر من ذلك متسارعا مما يؤثر سلبا على الصحة العقلية والنفسية للإنسان؛ مثلا في مقاطع الفيديوهات التي تبث عبر وسيلة Instagram، أو وسيط التيكتوك... ففي أقل من خمس دقائق، يمكن الانتقال من موضوع الى آخر، فمثلا ينتقل من محتوى يعلن عن خبر سياسي مهم، ثم ينتقل عبره إلى خبر وفاة مؤلم، ينتقل إلى أغنية فيها منظر حميمي، لينتقل بعد ذلك إلى محتوى يتحدث عن مأساة إنسانية، إلى محتوى ضاحك، إلى محتوى يعلم صنع الطبخ.... وأمام هذه التضارب والتناقض لا يمكن لأي عقل في مستواه الطبيعي أن يستوعب هذه المواضيع المختلفة بهذه السرعة، ولا يمكن إدراك هذه المحتويات إلا وأصيب الإنسان ببلادة في الإحساس، وجمود في التفكير، من التشويش الذي تحدثه تناقض الموضوعات وسرعتها، هذا ما قد فيؤدي الى اضطراب في العقل، وقلق نفسي حاد.

من أجل فهم هذه الإشكالية ضمن مسار واقعي، وعلى نحو واعي يوصل العربي المسلم إلى بر الأمان يمكنه من تجاوز سلبياتها، والاستفادة من إيجابيتها، فإن

التحديات الأخلاقية التي يواجهها المسلم يوميا حيال تفاهة وسائل التواصل الاجتماعي، وابتذالها، تفرض عليه مراجعة الذات العربية المسلمة أمام استعمال غير الواعي لهذه الوسائل التي كان القصد منها خدمة الإنسان إلا أنها انحرفت عن الطريق السوي، بسلبيات حطمت القيم والمبادئ لتأخذ منه بدل أن تعطيه، ((كما أنه من واجبات الوقت إنعاش الوعي المخدر بعفن التفاهة المخيم على الواقع، ووضع منارات على الطريق للخروج من هذا التيه المطبق)) (عطية، 2023، صفحة 7)، وحتى يتسنى له مواجهتها بحكمة، والتعايش معها وفق مبادئ أخلاقية إسلامية تحفظ له كرامته الإنسانية، عليه الاستفهام عن حلول تمتثل إلى واقع معاش ملموس، فماهي تلك الحلول التي يستنبطها من إشكالية التأثير السلبي لمواقع التواصل الاجتماعي، على قيمنا الإسلامية؟

**3/ قراءة نقدية وعبء الحلول المنقذة:**

إن التحري عن حلول عملية لهذه الإشكالية، استناد إلى قراءة نقدية نرفع بها مأزق الخضوع لسيطرة هذه الوسائل، والوقاية من سلبياتها نضع سؤال المواجهة بين القيم الإسلامية وتفاهة وسائل التواصل الاجتماعي في مصاف التفكير النقدي البناء والواعي، الذي يستنبط الحل من عمق الإشكالية ذاتها، والقبض على طرح ينجز من خلاله وعيا إنسانيا يقول: أن حياة الإنسان دون مبادئ في خطر.

من أجل ذلك وجب تفحص ظاهرة الدراسة من ناحية توجيهها، ووضعها في إطار أخلاقي مراقب، في محاولة إدراكها على النحو الذي يوجد حلول عملية واقعية لها؛ لأن ((...النقد بمعناه المنتج هو قراءة تمكن من يمارسها من أن يكون له حضورا فاعلا في النتاج الثقافي في المجتمع)) (العيد، 1986، صفحة 13)، وبالتالي فالقراءة النقدية هنا هي القراءة التي تتيح للباحث النظر في الظاهرة من جانبها الإنساني المفقود، وتسعى بذلك إلى ترميم ما تم تعطيله من القيم السامية في الإنسان السوي.

وبناء على هذا المسعى من البحث عن قوانين أخلاقية إنسانية تنتظم بها علاقتنا بوسائل التواصل الاجتماعي، يقترح حلولا نقي بها أنفسنا من هذا العبث، بناء على المهمة التي تتكفل بها القيم الإسلامية، في تصحيح هذا المنجز البشري، وتأطيره بقيم تحد من عبثيته وسلبياته، وعليه فإن بداية الحلول تكون أولا في الاعتراف بأنه مشروع انتشار وسائل التواصل الاجتماعي دون وعي أخلاقي يحمل في طياته بذور فنائه حين

يساء استعماله، ((فعملية التتفيه يظهر أثرها على آدميته السليمة وعلى مجتمعه فتنفك عوامل الوثاقة بينه وبين دينه وأوطانه وقيمه العليا؛ ولذا تراه عرضة لضياع كل مقدس من بين يديه، ومع توالي الضائعات يسلِّم نفسه لمرحلة ذوبان الذات التي تسلمه إلى الفناء في غيره وسقوط معالمه وضياع هويته وكينونته)) (عطية، 2023، صفحة 5)، ومعرفة مسار فقدان الأخلاق أمام تفاهة وسائل التواصل الاجتماعي ضرورية لمجابهتها بالتعقل والتفكير الجاد، التفكير في إيجاد حل عملي يصحبه العمل الواعي بخطورة هذه الوسائل، لكي يشدَد على ضبطها وفق قواعد أخلاقية تحدَ من سيطرتها والانجراف معها، حتى يصل معها إلى بر الأمان.

ولعل بعد الاعتراف والإقرار بخطورتها يأتي المستخدم إلى وسائل التواصل الاجتماعي وهو على دراية تامة وواعية بأنها سلاح ذو حدين، فإذا استفاد منها من جهة، فعليه الحذر في آن واحد منها، وهذه يقظة يجب أن تصاحب فعل استخدام وسائل التواصل الاجتماعي، وبناء على ذلك يبقى التخطيط أفضل سبيل يمكنه من التحكم فيها والسيطرة أثناء استعمالها، حتى لا ينجرف وراء مغريات تفاهة محتوياتها، فالتخطيط مكسبة للوقت وحفظا للنفس من أن تقع فريسة محتويات تفاهة وسائل التواصل الاجتماعي أيضا، والنفس والوقت هما أغلى شيء يمكن أن يضيع مقابل هذه التفاهة.

والاعتراف بإشكالية تفاهة وسائل التواصل الاجتماعي، وخطورتها الأخلاقية من قبل المؤسسات الفردية كالأسرة، والاجتماعية كالمدارس والهيئات العلمية والحكومية، والمراكز الثقافية والدينية، وصدق التوجه للحلول يتحملها التخطيط الجاد والصارم والمتكاتف من قبل هذه المؤسسات، كل هذا من شأنه أن يخفف من عبئ هذه الأزمة الأخلاقية، فبتضافر الجهود توضع الحلول الفعلية والعملية لمواجهة هذه المأزق والخروج منه.

إن الاعتراف بوجود مأزق أخلاقي، والتخطيط للخروج منه يجب أن يبني على أساس تعزيز مراقبة الله في أنفسنا، حتى نكون قدوة لأولادنا وأحفادنا، بذلك يتحسس النَشء بمراقبة الله ويعمل على تجنب المعصية، والمعصية هنا لا تقتصر على مشاهد إثارة الغرائز والشهوات فقط، وإنما تشمل كذلك التوجيه غير الإنساني من كذب، وتلفيق وتشويه للدين، وتزييف للحقيقة في كل ميادين الحياة، ليصل إنه يمس أمن الإنسان

وهذا حل أكثر ما تتحمل مسؤوليته الأسرة لما لها من دور عميق في تكوين شخصية الفرد دون منازع، ودون أن نغفل أو نسقط الشركاء في تحمل المسؤولية هنا، ولها دورها الفعال في تكوين الفرد أيضا منها «المدرسة، وأي مؤسسة هدفها تطوير الإنسان».

تحمل المسؤولية من قبل الحكومة وفرض مادة أخلاقية علمية تطبيقية تعمل على توعية النشء الصاعد بخطورة الاستعمال المفرط وغير الواعي لوسائل التواصل الاجتماعي، وحثهم أكثر على التحكم الأخلاقي، والعلمي لهذه الوسائل حتى تتحقق لهم الاستفادة المنطقية والآمنة من هذه الوسائل، وتجنب مخاطرها، وهذه عملية يجب أن تسير وفق تخطيط حكيم ومسؤول، من قبل متخصصين لهم من الكفاءة المهنية ما يحقق بهم الأهداف من زرع الأخلاق ضمن مؤسساتنا التربوية.

كل هذه الخطوات من اعتراف وتخطيط يبنى على الإحساس بالمسؤولية الأخلاقية أمام الله سبحانه وتعالى، والتشديد على مسؤولية الأسرة في المراقبة والتوجيه والإرشاد، والمؤسسات الحكومية والثقافية والدينية ودورهم الفعال في التوعية، من شأن كل هذا أن يحد من خطورة هذه الوسائل، ويقلص من حجم الخسائر الأخلاقية للفرد والأسرة والمجتمع، والسير بهم نحو الطريق الآمن من تفاهة وسائل التواصل الاجتماعي.

**4/ خاتمة:**

أما بعد: لعل أهم نتيجة يمكن أن يصل إليها البحث عبر قراءة نقدية في مسار الصدام بين القيم الإسلامية وتفاهة وسائل التواصل الاجتماعي، أن القضية ترتبط أشدَ الارتباط بالهوية الدينية والإنسانية، وأن الارتباك والخلل الذي أحدثته تفاهة وسائل التواصل بقيمنا في عصرنا الحالي هو الأخطر على قيمنا الإسلامية عبر التاريخ، وعلى قيمتنا الإنسانية بالأساس، لذا لابد من تفعيل حلولا استعجالية تأخذ بيدنا نحو مرحلة الانفراج، أما مسؤولية البحث عن حلول تقع على عاتق الجميع، لذا لابد من تضافر جهود الأسرة، والمؤسسات بمختلف توجهاتها، للحفاظ على قيمنا الإسلامية من هذا المأزق، ونخرج بذلك بجيل يحفظ كرامته الإنسانية أمام هذا الانجراف.

**5/ قائمة المراجع:**


1. إزيا برلن. (1013). ضلع الإنسان الأعوج فصول في تاريخ الأفكار (الإصدار ط1). (محمد زاهي المغيربي، نجيب الحصادي، المترجمون) مصر: المركز القومي للترجمة.
2. حجاج محمد عطية. (2023). زحف التفاهة قراءة في عبثية الواقع المعاصر وسبل الخروج منها (الإصدار ط1). المنصورة مصر: دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع.
3. يمنى العيد. (1986). الراوي الموقع والشكل بحث في السرد الروائي (الإصدار ط1). بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.

# التفاهة والتافهون
## أسئلة وتحديات




لم يسبق للبشرية أن مرت بمرحلة كالتي تعيشها والتي يسيطر فيها التافهون في مختلف مجالات الحياة والمجتمعات والدول، حيث يلاحظ تصاعد معايير الرداءة والانحطاط واستبعاد أصحاب التحديات الحقيقية للرقي بالحياة في مختلف المستويات، وقتل الإبداع والتخلص من أهل المهام والرسائل النبيلة، فصار العالم مجرّد سوق للبيع والشراء الشّعبَوِيَّيْن باسم الحرية.

إن ما يحدث في تبجيل التافه هو الانشغال عن الجوهر بالعرض وتسهيلٌ لانتشار أسباب المرض والانفصام بها في عالم الفَرَض وعزلٌ لإعمال العقل في الواقع بتوسيع تأثير السفاهة في المواقع. التافهون لديهم القدرة على المناورة للوصول إلى مناصب مهمة: وهذا من أسباب عزوف العقلاء وذوي القدرات في تسيير دواليب السياسة مثلا، ومن منطلق أن الطبيعة لا تحتمل الفراغ فسيقوم تافه ما بِشَغْرِ أي منصب يتنازل النزهاء عنه.

دار كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع
العنوان: اقامة بن مسايب
الكيفان - تلمسان الجزائر
الهاتف/فاكس: 18 - 43 - 56 - (043) 213+
المحمول: 96 - 29 - 04 - 551 - (0) 213+
www.kkonouz.com kkounouz@yahoo.fr

Bibliothèque Nationale d'Algérie, 2025
Dépôt légal: 2ème Semestre, 2025
9 789969 031058